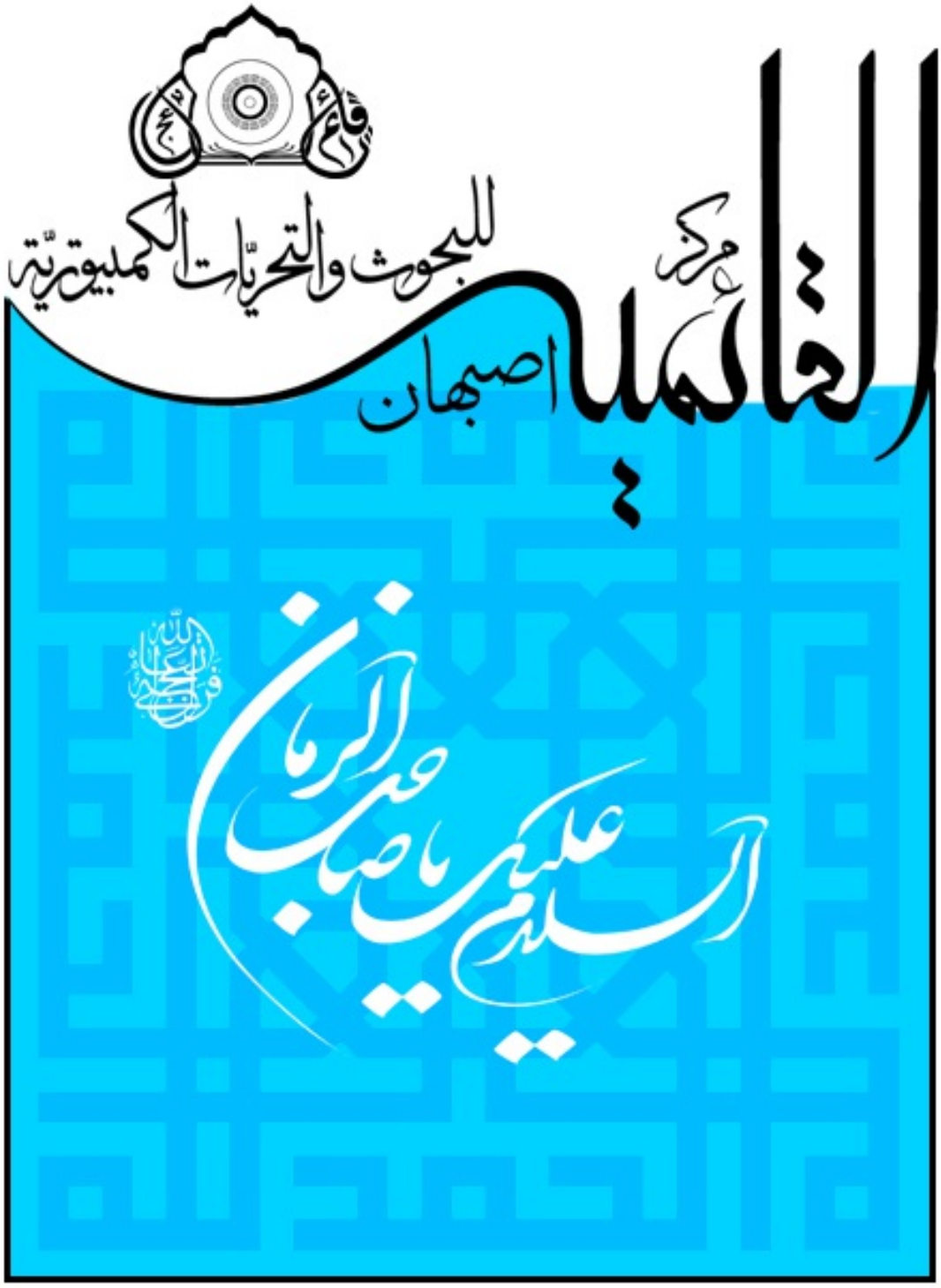

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

خطط الشام

تأليف

محمد كرد علي

١

الناشر

مكتبة النوري

دمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

خطط الشام

كاتب:

محمد كرد على

نشرت فى الطباعة:

مكتبه النورى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
خطط الشام المجلد ۱ ----- ۱۲
اشارة ----- ۱۲
الإهداء ----- ۱۲
صدر الخطط ----- ۱۳
تقویم الشام ----- ۱۵
تعریف الشام للأقدمین: ----- ۱۵
اشارة ----- ۱۵
معنی الشام و جمعه: ----- ۱۶
حدّ الشام قدیما: ----- ۱۶
حقیقة حد الشام: ----- ۱۶
حدوده مع مصر: ----- ۱۷
مساحة الشام و صورته: ----- ۱۸
مدخل الفاتحین الی الشام: ----- ۱۸
مدن الشام و قراه: ----- ۱۸
طبیعة الشام: ----- ۱۹
خیرات الشام: ----- ۱۹
هواء الشام و ماؤه: ----- ۲۰
خصائص الشام: ----- ۲۰
سکان الشام ----- ۲۱
الامو و اللودانو: ----- ۲۱
الآرامیون و العناصر الأخری: ----- ۲۲
العناصر القدیمة و العرب: ----- ۲۲

دول العرب الأقدمین: ۲۳
سلیح و غسان و الضجاعم: ۲۳
التنوخیون: ۲۳
المهاجرات و الایطوریون: ۲۴
سلیح و عاملة و قضاعة: ۲۴
لخم، جذام، عاملة، ذبیان، کلب: ۲۵
جهینة، القین، بهراء، تنوخ: ۲۵
إیاد و طیيء و کندة و حمیر و عذرة و زبید و همدان و یحصب و قیس: ۲۶
الفرس و الزط: ۲۶
الأخلاط و السامرة و جذام و عذرة و نهد و جرم و الأزد: ۲۷
قیس و یمن و إحصاء السکان: ۲۷
المردة و الجراجمة و الأرمن و الروم و الموارنة: ۲۸
الترکمان و الأتراک و الأکراد و الشرکس و غیرهم: ۲۸
المهاجرون و المحدثون الیهود و الأرمن: ۲۹
عوامل النمو: ۲۹
العرب فی الشام و الاختلاط: ۳۰
لغات الشام ۳۱
اللغة الآرامیة و السریانیة و العبرانیة و الفینیقیة و العربیة: ۳۱
البابلیة و الکنعانیة و الکلدانیة: ۳۱
الحثیة و الآریة و الیونانیة و اللاتینیة: ۳۱
تنازع السریانیة مع العربیة: ۳۲
رأی رنان: ۳۲
آراء أخری: ۳۳
انتشار العربیة: ۳۴

العربیة لغة کاملة و فصاحة الشام: ۳۴
کیف انتشرت العربیة: ۳۴
اللغة الصفویة: ۳۵
الصلیبیون و لغاتهم و العربیة و لبنان: ۳۵
اللغة الترکیة: ۳۶
السواد الأعظم و العربیة: ۳۶
رسوخ اللغة: ۳۷
الشامیون أمة واحدة لسانهم العربیة فقط: ۳۷
تاریخ الشام قبل الإسلام ۳۸
أول شعب غزا الشام و الحثیون و الکنعانیون: ۳۸
تعدد الحکام و الحکومات: ۳۹
الفراعنة و الأشوریون: ۴۰
الفینیقیون و استقلالهم التجاری: ۴۱
حروب الفرس و الإسکندر: ۴۱
دولة السلاقسة و ملک الأرمن: ۴۲
دولة الرومان: ۴۲
مملکة یهودا و انقراض الیهود: ۴۳
الإیطوریون و النبطیون: ۴۴
دولة تدمر: ۴۵
زینب أو زنوبیا أو الزباء: ۴۵
آخر عهد الرومانیین و سیاستهم: ۴۶
بنو غسان و العرب فی الشام: ۴۷
الشام فی الإسلام «من سنة ۵ الی سنة ۱۸ للهجرة» ۴۹
حالة الشام قبیل الفتح: ۴۹

صلح دومة الجندل و غزوة ذات السلاسل و مؤتة و الجرباء و أذرح و مقنا و جيش أسامة: ۵۰
جيوش العرب و جيوش الروم نصيحة أبى بكر الصديق لقواده: ۵۳
مبدأ الحرب بين العرب و الروم: ۵۴
وقعة اليرموک: ۵۴
فتح فحل و أجنادين و بيسان: ۵۵
الأردن و فلسطين و جبل اللكام: ۵۶
فتح دمشق و الأحكام العسكرية: ۵۷
فتح حمص و شيزر و المعرة و بعلبک و صيدا و بيروت و جبيل و عرقة: ۵۸
قنسرين و حلب و أنطاكية و كور الشمال: ۵۸
وقعة مرج الروم و قيسارية: ۵۹
سر نجاح المسلمين و قتال نسائهم يوم اليرموک: ۶۰
وداع صاحب الروم و آخر سهم فى كنانتهم: ۶۲
منزلة أبى عبيدة و بعد نظر عمر: ۶۳
الدولة الأموية «من سنة ۱۸ الى ۱۳۲» ۶۴
إمارة معاوية بن أبى سفيان: ۶۴
مقتل عثمان بن عفان: ۶۶
آمال على بن أبى طالب فى الخلافة: ۶۷
اتفاق معاوية و عمرو بن العاص على المطالبة بدم عثمان: ۶۷
حرب صفّين: ۶۸
صلح الحسن مع معاوية: ۶۹
خلافة يزيد و رأى ابن خلدون: ۶۹
غزوات معاوية و أعماله و وصيته: ۷۰
خلافة يزيد و مقتل الحسين و وقعة الحرة: ۷۱
عهد معاوية الصغير: ۷۲

قیام ابن الزبیر و خلافة مروان بن الحکم و وقعة مرج راهط: ۷۲
خلافة عبد الملک بن مروان: ۷۴
الجراجمة و المردة فی جبل لبنان: ۷۴
عهد الولید: ۷۶
سلیمان بن عبد الملک: ۷۷
عهد عمر بن عبد العزیز و سیرته: ۷۷
یزید بن عبد الملک و هشام و الولید بن یزید: ۷۸
یزید بن الولید: ۷۹
مروان بن محمد: ۸۰
إدبار الأمویین: ۸۰
دولة بنی مروان و حسناتها: ۸۱
قواد الأمویین و أسباب انقراضهم: ۸۲
دور الدولة العباسیة الی ظهور الدولة الطولونیة من سنة ۱۳۲- ۲۵۴ ه ۸۵
مبدأ الدعوة العباسیة: ۸۶
فتح العباسیین عاصمة الأمویین: ۸۷
فتح فلسطین و إهلاک رجال الأمویین: ۸۹
انتقاض الجنوب و الشمال و الاعتقاد بالسفیانی: ۸۹
انتقاض العباسیین علی أنفسهم: ۹۰
نزع اللبنانیین و الفلسطینیین طاعة العباسیین: ۹۱
قیس و یمن و الفتن الداخلیة و الخارجیة: ۹۲
الحمصیون و فتنة السفیانی: ۹۳
فتنة نصر بن شبث: ۹۵
المأمون و حکمه علی قیس و یمن: ۹۶
سبب تباغض النزاریة و الیمانیة و حکمة حکیم: ۹۷

قیس و یمن و فتنة المبرقع: ۹۸
فتن أهلیة و عصبیات حمصیة و لبنانیة و دمشقیة و فلسطینیة و معریة: ۹۹
الحکم علی الدور الأول للعباسیین: ۱۰۰
ظهور الدولة الطولونیة و انقراضها من سنة ۲۵۴ الی ۲۹۲ ۱۰۱
[بدایة الطولونیین:] ۱۰۱
احمد بن طولون و سیما الطویل و أحداث أخری: ۱۰۲
عهد أبی الجیش خمارویه و جیشه: ۱۰۴
عهد جیش بن خمارویه و ظهور القرامطة و انقراض الطولونیة: ۱۰۵
دور الدولة العباسیة الأوسط «الإخشیدیة و الحمدانیة و الفاطمیة» ۲۹۲- ۳۶۴ ۱۰۶
القرامطة و البوادی و الخوارج : ۱۰۶
الدولة الإخشیدیة: ۱۰۸
الدولة الحمدانیة: ۱۰۹
مغازی سیف الدولة: ۱۱۱
محاسن سیف الدولة و مقابحه: ۱۱۳
ابتداء الدولة الفاطمیة: ۱۱۴
دور الفاطمیین «من سنة ۳۶۴- ۳۹۴» ۱۱۶
الدول الثلاث و غزوات الروم: ۱۱۶
تجاذب السلطة بین العباسیین و الفاطمیین: ۱۱۸
سوء حالة دمشق و اضطراب الأحکام المصریة: ۱۱۹
خوارج علی دولة الجنوب و دولة الشمال: ۱۲۰
حملة الفاطمیین علی الحمدانیین و استنجاد هؤلاء بالروم: ۱۲۱
الخوارج علی الفاطمیین و استنجاد أمراء المسلمین بالروم: ۱۲۲
تتمة دور الفاطمیین «من سنة ۳۹۴- ۴۶۳» ۱۲۵
خوارج و مذاهب جدیدة و فتن: ۱۲۵

تقسیم الأقالیم بین القبائل و دولة بنی مرداس: ۱۲۶
آخرة الفاطمیین: ۱۳۰
دور السلجوقیین «من سنة ۴۶۳- ۴۹۰» ۱۳۳
أصل السلجوقیین و الترکمان و الفتح السلجوقی: ۱۳۳
فتح دمشق: ۱۳۴
أول جمهوریة عربیة و مقتل آخر أمیر عربی: ۱۳۵
تنازع السلجوقیین و الفاطمیین و انقسام السلجوقیین: ۱۳۷
الدولة الأتابکیة و طغتکین و بنو أرتق: ۱۳۸
الحروب الصلیبیة «من سنة ۴۹۰- ۵۰۰» ۱۳۹
الحملة الصلیبیة الأولی: ۱۴۰
الصلیبیون فی شمالی الشام: ۱۴۲
فتح الصلیبیین القدس و الساحل: ۱۴۳
تخاذل أمراء المسلمین و بلاء طغتکین و ابن عمار: ۱۴۵
حرب طغتکین للصلیبیین: ۱۴۷
حروب الصلیبیین و دولة طغتکین و بقایا السلجوقیین «من سنة ۵۰۰ الی ۵۲۲» ۱۴۷
هدنة طغتکین للصلیبیین و شدته علیهم: ۱۴۷
اجتماع کلمة أمراء المسلمین و إنجاد بغداد للشام: ۱۴۹
غارات المسلمین و غارات الصلیبیین: ۱۵۱
بقیة الغارات: ۱۵۲
مزایا حکم طغتکین: ۱۵۵
مؤاخذة الفاطمیین و توقیف سیر الفرنج: ۱۵۶
فهرست الجزء الأول من خطط الشام ۱۵۸
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ۱۶۳

خطط الشام المجلد ۱

اشارة

نام کتاب: خطط الشام

نویسنده: کرد علی، محمد

تاریخ وفات مؤلف: ۱۳۷۲ ه. ق

موضوع: جغرافیای شهرها

زبان: عربی

تعداد جلد: ۶

ناشر: مکتبه النوری

مکان چاپ: بیروت

سال چاپ: ۱۴۰۳ ه. ق

نوبت چاپ: سوم

khtt alsham

تألیف: محمد سردعلی تاریخ النشر: ۰۱/۰۱/۲۰۱۲ الناشر: مؤسسة النوری للطباعة والنشر والتوزیع

النوع: ورقی غلاف فنی، حجم: ۲۴×۱۷، عدد الصفحات: ۶۳۴ صفحة الطبعة: ۳ مجلدات: ۲

مدة التأمین: یتوفر عادة فی غضون أسبوعین

اللغة: عربی

الإهداء

صدیقی الأبرّ العلامة العامل أحمد تیمور باشا حفظه اللّه:

رأیتک بعد عالمی مصر و الشام، و مفخر العرب و حجة الإسلام، أستاذینا المعظمین الشیخ محمد عبده و الشیخ طاهر الجزائری رحمهما اللّه، فردا فی المعاصرین من بنی قومی، بأخلاقک الطهر، و علومک الغر، و حرصک علی نشر آثار السلف، و تفانیک فی تثقیف عقول الخلف.

و لقد أولیت کتاب «خطط الشام» من معارفک و عوارفک قسطا عظیما و هو لم یبرح، علم اللّه، غرسا ضئیلا، فلما أن أورق عوده، و أطعمت شجرته، کانت خزانة علم الأعلام فی عاصمة النیل، أحق أن تهدی إلیها ثمرة طال التوفر علی تعهدها فی جنات دمشق.

لم تفتأ تبعث همتی علی العمل، و تأخذ بید عجزی لأقوی علی إخراج هذا السفر للناس، فالآن و قد تحققت الأمانی تفضل و زد فی الإحسان، و اقتطع من وقتک الثمین ساعات ترشدنی بها الی مواطن الضعف منه، فتقلدنی من مننک اللاحقة، قلادة فوق قلائدک السابقة.

و إنی لمعترف بقصوری عن وفاء حق مروءتک و وفائک، فی زمن قلّ فیه أهل المروءات الأوفیاء، ممن لا تبطرهم المظاهر الغرارة، و لا تسکرهم النعم الدارّة، و لا تغیرهم البیئات و الأجواء.

أعزّ اللّه بحیاتک دولة العلم و الأدب، و علّم العاملین من إخلاصک ما یستعیدون به عزّة العرب، و أقال هذه الأمة المحبوبة عثرات اللیالی و نزوات الأیام، و قیض لها من ینعشها بالعلم من تشتت الکلمة و التواء الأعلام، لیعلو فی المجتمع الإنسانی سعدها، و یرتفع فی

أمم الحضارة الحديثة مجدها، بحوله و طوله.

محمد كرد على

صدر الخطط

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم

عونك اللهم يا لطيف

نشرت عام ۱۳۱۷ ه (۱۸۹۹ م) فى مجلة المقتطف تسعة فصول فى «عمران دمشق» صادفت استحسان بعض من قرأوها من خاصة الباحثين، و جمهور المطالعين، فوقع فى النفس يومئذ أن أتوسع فى هذا البحث، و أدرس عمران الشام كله، لأن صورة العاصمة وحدها لا تكفى للدلالة على حالة القطر، و من الإشراف على الأطراف، قد تعرف صحة الجسم عامة و القلب خاصة، و من اهتم بالجزء كان حريا أن يضاعف العناية بالكل.

فشرعت من ثم أتصفح كل ما ظفرت به من المخطوطات و المطبوعات باللغات العربية و التركية و الفرنسية، و قصدت دور الكتب الخاصة و العامة فى الشام و مصر و المدينة المنورة و الاستانة و رومية و باريز و لندرا و إكسفورد و كمبريدج و ليدن و برلين و مونيخ و مجريط و الاسكوريال. و كنت كلما استكثرت من المطالعة. تتجلى أمامى صعوبة العمل، هذا مع ما قام فى سبيل نشر هذا المجموع من العقبات، منذ وطدت العزم على وضعه، و ما نالنى من الكوارث فى العهد الماضى. و لكن الشقاء قد يأتى بسعادة، و رب ضرّ أعقب خيرا. فإن التضييق علىّ نشأ منه اضطرارى الى الارتحال غير مرة، فأخذت أستقرى المعالم و المجاهل فى هذا القطر، و نزلت على

خطط الشام، ج۱، ص: ۲

أمم كثيرة فى بلاد الغرب، فاستفدت من تنقلى بعض ما عندهم من أسفارنا و آثارنا، و قابلت عن أمم بين عمراننا و عمرانهم، و جمودنا اليوم و حركتهم.

رحلت الى اوروبا ثلاث رحلات، أبحث فى دور كتبها عن المخطوطات التى يرجى أن يكون أصحابها قد تعرضوا لحوادث هذا القطر، وزرت أصقاع الشام لأقابل بين حاضره و غابره، و لما نسجت بأخرة ما جمعت، قدمت له مقدمة فى بيان ما تشترك فيه بلاد الشام عامة من المظاهر و الأوضاع، و سميته «خطط الشام» و أعنى بالشام الأصقاع التى تتناول ما اصطلح العرب على تسميته بهذا الاسم، و هو القطر الممتد من سقى النيل الى سقى الفرات، و من سفوح طوروس الى أقصى البادية، أى سورية و فلسطين فى عرف المتأخرين. و يراد بالخطط كل ما يتناول العمران، و البحث فى تخطيط بلد بحث فى تاريخه و حضارته.

أول من صنف فى الخطط و استقصى فيها على ما علمنا الحسن بن زولاق المصرى (المتوفى سنة ۳۸۷) و قال المقريزى (المتوفى فى سنة ۸۴۳) إن أول من صنف فيها أبو عمر بن يوسف الكندى، ثم القاضى أبو عبد اللّه محمد بن سلامة القضاعى (۴۵۴) و الذى انتهى الينا كتاب خطط مصر للمقريزى المنوه به، و هو أجمل مثال فى باب الإجادة فى التأليف. و لم نعلم أن أحدا من المتقدمين كتب على الشام و خططه، و كتب بعض المتأخرين فى موضوع خاص و بلد معين. و ما خطط الشام فى الحقيقة إلا زبدة الوقائع و الكوائن، و أخبار الصعود و التدلى، و المظاهر الغريبة التى ظهرت بها هذه الديار، فى غابر الأعصار، مقتبسا ذلك مما أبقته

خطط الشام، ج۱، ص: ۳

الأيام مكتوبا أو مطبوعا على ورق، أو مزبورا على حجر و آجر و برديّ ورقّ.

لا جرم أن موضوع الخطط موضوع جليل، تتعين الإحاطة به على كل من يحب أن يعرف أرضه ليخدمها، و يستفيد منها، و أحق الناس بمعرفة بلد أهله و جيرانه. و من لم يرزق حظا من الاطلاع على ما حوى موطنه من الخيرات، و ما أتاه أجداده من الأعمال، لا ينهض

بما يجب عليه ليؤثر الأثر النافع فى الحال و المآل، و من أجدر من الأبناء و الأحفاد، بالرجوع الى سجلات الآباء و الأجداد، و كيف يحب المرء بلدا لا- يعرفه، و يحرص على سعادته ليسعد هو فيه، و هو لا- علم عنده بما تعاقب عليه حتى صار الى ما صار اليه، و هل يفهم الحاضر بغير الغابر، و هل تنشأ فى الأمة روح وطنية إذا لم تدرس تاريخها حق الدراسة.

*** كتب الغربيون فى آثار هذا القطر و عمرانه و تاريخه و اقتصادياته و عادياته أحمالا من الكتب بلغاتهم، و قلما نشرت كتب جامعة لأحد أبنائنا بلغتنا و على نهجنا. و استنفض الغربيون كل بقعة من بقاعنا، و مدينة من مدننا، و بادية من بواديا، و منهم من أجاد و أفاد، مما يسجل و يا للأسف علمهم بنا، و جهلنا حتى بأرضنا، و يكفى أن يقال إن علماء الغرب و سياحهم صنفوا بين سنتى ۱۸۰۵- ۱۹۰۳ م خمسة و تسعين كتابا فقط فى آثار سلع أو البتراء (وادى موسى) على حين قلّ جدا فى الشاميين أنفسهم من زاروا هذه الخرائب المهمة، و منهم من لم يسمع باسمها.

أخذت مما ظفرت به من الكتب الافرنجية، و عنيت أشد العناية بالرجوع إلى ما كتبه الأسلاف فى هذا الشأن، على تفرقه، و اعتمدت على مؤلفى العرب خاصة لأن كل أمة أعرف على الغالب بحالتها من غيرها، فإن بحث علماء الافرنج فى تاريخ هذا القطر قبل الإسلام، و نبشوا عادياته و مصانعه، و حلوا لغاته و لهجاته، فتاريخه بعد هذا العهد أقرب الى أن يكون علماؤنا مرجعا فيه، فقد قيل «قتل أرضا عالمها».

جاء الكلام ناقصا فى بعض الأدوار المتأخرة، و عمى علىّ بعض

خطط الشام، ج۱، ص: ۴

مواضع مهمة ذات صلة بمدنية الشام، و السبب فيه أن المتأخرين زهدوا فى التاريخ حتى كادوا لا يفرقون بينه و بين أقاصيص العجائز، و موضوعات المخرفين و الوضاعين، و عنيت بتجريد هذا الكتاب ما أمكن من المبالغات، و نخل لباب الوقائع المهمة الثابتة و حذف ما فيه شبهة شبهة، أو شائبة غلو، و إن كان منها ما يروق بعضهم و يتفكهون بسماعه، و يطربون لترداده. فخاطبت ما استطعت العقل أكثر من العاطفة، و عنيت فى قسم التاريخ السياسى أن أبين علل الحوادث، و تسلسل الكوائن، و دواعى الأحوال القريبة أو البعيدة، و استخراج النتائج و استنباط القواعد. و التاريخ ربيب الحرية لا يتصرف على هوى من يكتبه و يقرأوه و لا على أذواق أهل العصر و أهوائهم. و ما دام موضوعه الاعتبار بالخالى لمعرفة الحالى و الآتى فهو جدير بأن يتحرى فيه الحق و لا يدون سواه. قال أحد العلماء: عند ما نريد أن نصل الى الحقائق التاريخية، يجب أن تصح همتنا على إزالة الأوهام، و نزع الزوان من الأساطير التى تعلق بالوقائع الثابتة القليلة التى وصلت إلينا.

*** كان المؤرخون بعد القرون الوسطى بين عاملين قويين، إما أن يكذبوا فيغضبوا الحق، أو يصدقوا فيغضبوا الخلق، و العمال و الأعيان منهم خاصة. فقد ألف مثلا ابن زوجة أبى عذيبة المقدسى المتوفى سنة ۸۵۶ تاريخين مطولا- و مختصرا، و لما توفى اطلع بعضهم على الكبير منه، فوجد فيه أشياء توهمها فى ثلب أعراض الناس فأتلفه، و صنف عبد اللّه البصروى من أهل القرن الثانى عشر تاريخا لهذه الديار، فبلغ أعيان دمشق خبره، و لما هلك دخلوا داره و آلوا أن لا يأذنوا بدفنه أو يأخذوا التاريخ الذى وضعه، فضبطوه و أحرقوه على أعين القوم، مخافة أن تنكشف سيئات بعضهم. و الذى ضاع من مدوّنات المتقدمين و المتأخرين يعد بالعشرات، لكثرة الجوائح الأرضية و السماوية التى أصابتها. و إذا كتب البقاء لشىء مما كتبه المتأخرون فيكون فى الغالب الى الركاكة لا تسقط فيه على حقيقة. و كثيرا ما كان العقلاء يعلقون على حواشى

خطط الشام، ج۱، ص: ۵

بعض الكتب تعاليق لحوادث جرت، و أمور اهتم لها الناس و شغلت مجتمعهم، و من مثل تلك الأوراق و من العهود و الصكوك ضم هذا السفر جانبا.

بحثت جد البحث عما دوّن فى التاريخ العام أو الخاص بتاريخ بلد من أرض الشام، فرأيت يد الضياع قد غالتها إلا قليلا، و قد أهمنى

منها الاطلاع على تاريخ صفد للعثمانى و تاريخ البرزالى و تاريخ حلب الكبير لابن العديم و تاريخها لابن أبى طى و تاريخ حمص لابن عيسى و لعبد الصمد بن سعيد و أخبار قضاة دمشق للذهبى و تاريخ ابن أبى الدم الحموى و تاريخ قنسرين و تاريخ أنطاكية و تاريخ المعرة لابن المهذب و تواريخ كثيرة فى سير مشاهير الفاتحين كتبها أمثال ياقوت الحموى و ابن شداد و ابن واصل و ابن حبيب و ابن الدايۀ و ابن عبد الظاهر و ابن تيمية و الجبرينى و العسقلانى، فلم أظفر بسوى ورقات من بعضها، أو مختصرات و منقولات لا تبل غلۀ، حرّفت بالنقل فتشوهت محاسنها.

*** و لقد وددت لما تيسر وضع خطط الشام على هذه الصورۀ لو ساغ لى أن أصبر عليه زمنا آخر حتى يتم التحقيق فيه على ما يجب عملا بالحكمۀ التى تمثل بها الثعالبى فى اليتيمۀ قال: «و كلما أعرته على الأيام بصرى، و أعدت فيه نظرى، تبينت مصداق ما قرأته فى بعض الكتب، أن أول ما يبدو من ضعف ابن آدم، أنه لا يكتب كتابا فيبيت عنده ليلۀ، إلا أحب فى غدها أن يزيد فيه أو ينقص منه، هذا فى ليلۀ فكيف فى سنين عديدۀ». و لكن رأيت بعد طول التأمل أن من الحزم الاكتفاء بما تهيأ فى هذه السنين، و التمحيص بحر لا ساحل له، و لطالما ذكرت و أنا أغوص فى الكتب المختلفۀ التى طالعتها قول المؤرخ فوستيل دى كولانج ليس التاريخ من العلوم السهلۀ فلأجل يوم واحد يصرف فى التركيب ينبغى قضاء أعوام طويلۀ فى التحليل. على أنى لما راجعت مسودات ما صنفت و رأيتنى قد تذوقتها فهضمتها، أيقنت أنه لا يثقل على القراء فى الجملۀ، فأبرزته خائفا حوادث الأيام، و نزول داعى الحمام، و أنا موقن بأن فوق

خطط الشام، ج۱، ص: ۶

ما طالعت و بحثت غايات، لم يمكنى الزمان و المكان من بلوغها، و عسى أن يقوم غيرى بعدى فيتم هذه الخطوط التى رسمتها من بنيان كتاب الخطط، و يصلح بما يتوفر له من المواد ما ربما وقعت فيه من الغلط و الشطط، و اذا حصلت الفائدۀ من عمل استغرق جلب مادته خمسا و عشرين سنۀ، و كلّف تعبا و نشبا، فهو غايۀ ما أتطالّ اليه، و إلا فهو جهد المقلّ، و الكمال للّه وحده.

و كتب فى دمشق فى اليوم الرابع من شعبان من شهور سنۀ ثلاث و أربعين و ثلاثمائۀ و ألف بعد الهجرۀ بموافقۀ شباط من شهور سنۀ خمس و عشرين و تسعمائۀ و ألف للميلاد.

خطط الشام، ج۱، ص: ۷

تقويم الشام

تعريف الشام للأقدمين:

اشارۀ

الشأم و الشام و الشآم هو اسم هذا القطر العزيز على ما عرفته العرب، و هو يتناول عامۀ الأقاليم الداخلۀ اليوم فى فلسطين و سوريۀ بحسب الاصطلاح الحديث. و سوريۀ اسم غلب إطلاقه على القطر الشامى على عهد الإسكندر مقتضبا مع تخفيفه من اسم أشورى لغلبۀ الأشوريين عليه و السين و الشين تتعاوران فى اللغات الساميۀ. قال البكرى: سوريۀ «بضم أوله و كسر الراء المهملۀ و تخفيف الياء أخت الواو و فتحها» اسم للشام.

و قيل: إن سبب تسميته بسوريۀ نسبۀ لصور ثغر الشام القديم و مخرج الصاد و السين واحد. و قال آخرون: إن اليونان لما فتحوا الشام رأوا الأشوريين يتولون أمره فسموه أشوريۀ. قال المسعودى: سوريۀ هى الشام و الجزيرۀ و كان الروم يسمون الصقع الذى سكانه المسلمون فى عهده (۳۴۵ ه) من الشام و العراق سوريا، و الفرس كانوا يسمون العراق و الجزيرۀ و الشام سورستان إضافۀ إلى السريانيين الذين هم الكلدانيون و تسميهم العرب النّبط.

و يقال إن فلسطين سميت بفلسطين بن سام او بفلسطين بن كلثوم، او بفليستين بن كسلوخيم من بنى يافث بن نوح ثم عربت فليشين.

و جوزوا فى اسم الشام التذكير و التأنيث و المشهور التذكير. و للغويين

خطط الشام، ج۱، ص: ۸

و الجغرافيين فى سبب تسميته شاما آراء مختلفة فقيل: سمى لتشاؤم بنى كنعان اليه و قيل: بل سمى بسام بن نوح لأنه نزل به و اسمه بالسريانية شام بشين معجمة. و قال بعضهم: إن سام بن نوح لم يدخل الشام قط و قيل: لأن أرضه أى أرض الشام مختلفة الألوان بالحمرة و السواد و البياض فسمى شاما لذلك، كما يسمى الخال فى بدن الإنسان شامة، و قيل: سمى شاما لأنه عن شمال الكعبة. و الشام لغة فى الشمال، و قيل: سميت الشام شاما لكثرة قراها و تدانى بعضها من بعض فشبهت بالشامات و جوزوا فيه وجهين أحدهما أن يكون من اليد الشؤمى و هى اليسرى و الثانى أن يكون فعلا من الشؤم.

معنى الشام و جمعه:

و اختصرت العرب من شامين الشام و غلب على الصقع كله (ياقوت) و هذا مثل فلسطين و قنسرين و نصيبين و حوّارين و هو كثير فى نواحى الشام. و ذكروا أن معنى الشام الطيب، و يقال للشام اللمّاعة و اللماعة بالركبان تلمع بهم اى تدعوهم اليها و تطيبهم، و قد تجمع الشام على شامات و تسمى الشام بذلك، و من الناس من لا يجعله الا شاما واحدا، و منهم من يجعله شامات فيجعل بلاد فلسطين و الأرض المقدسة الى حد الأردن شاما، و يقولون الشام الأعلى و يجعل دمشق و أرجاءها من الأردن الى الجبال المعروفة بالطوال شاما و يجعل سورية و هى حمص و ما ضمت الى رحبة مالك شاما، و يجعلون حماة و شيزر من مضافاتها و يجعل قنسرين من إقليمها و حلب مما يدخل فى هذا الحد الى جبال الروم و العواصم و الثغور. فأما عكا و طرابلس و كل ما هو على ساحل البحر و كل ما قابل شىء منه شيئا من الشامات فيحسب منه.

و إطلاق الشام على دمشق من باب إطلاق العام على الخاص و العرب (نالينو) كثيرا ما يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها فكانوا يقولون بلا فرق دمشق او الشام- الفسطاط او القاهرة او مصر- شبام او

خطط الشام، ج۱، ص: ۹

حضرموت- صحار أو عمان- الأندلس بدلا من قرطبة- صقليّة عبارة عن بلرم.

حدّ الشام قديما:

و حدّ الشام من الغرب البحر المتوسط أو بحر الروم أو بحر الملح أو بحر الشام، و من الشرق البادية من أيلة الى الفرات. و أيلة مدينة قديمة على البحر الأحمر أو القلزم و هى على مقربة من العقبة اليوم. ثم يذهب الحد من الفرات الى حد الروم أو آسيا الصغرى و شمالا الى الروم و جنوبا حد مصر وتيه بنى إسرائيل. و أوصلوا الحد من الغرب الى طرسوس قرب أذنة الى رفح فى أول الجفار بين مصر و الشام. و أوسع من هذا التعريف أنه يحيط بالشام من جهة الجنوب حد يمتد من رفح الى تيه بنى إسرائيل الى ما بين الشوبك و أيلة الى البلقاء، و يحيط به من جهة الشرق حد يمتد من البلقاء الى مشاريق صرخد آخذا على أطراف الغوطة الى سلمية الى مشاريق حلب الى بالس. و يحيط به من جهة الشمال حد يمتد من بالسن مع الفرات الى قلعة نجم الى البيرة الى قلعة الروم الى سميساط الى حصن منصور الى بهسنى الى مرعش الى سيس الى طرسوس. و هذا الحد للعرب قال به كاتب جلبى فى القرن الحادى عشر.

حقيقة حد الشام:

و بموجب الاتفاق الفرنسى التركى الأخير جعلت الحدود فى قرية قطمة على طريق السكة البغدادية على أربعين كيلومترا من حلب. و دخلت كليس فى حدود الروم و ليس هذا هو الحد الجغرافى الطبيعى للشام من الشمال. بل حد الشام ينتهى بسفوح جبال طوروس

المعروفة بالدروب عند العرب آخذا الى ما وراء خليج الإسكندرونة لجهة أرض الروم و كان جبل السيّاح (بفتح السين و تشديد الياء) حدا بين الشام و الروم و لا نعرف هذا الجبل بهذا الاسم اليوم. و يقول الإدريسى: و من السويدية الى جبل رأس الخنزير عشرون ميلا و على هذا الجبل دير كبير و هو أول بلاد

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰

الأرمن و آخر بلاد الشام. فما كان من جهة الشام على ضفة الفرات فهو شام، و ما كان على الضفة الأخرى من الشرق فهو عراق. فصفيّن مثلا فى الشام و قلعة جعبر فى الجزيرة الفراتية و بينهما مقدار فرسخ او أقل و تدخل بالس أى مسكنة بالشام لانها من غرب الفرات و تدخل البيرة (بيره جك) فى الجزيرة لأنها على الشق الآخر من الفرات. و ما كان من دير الزور على الفرات الى جهة الشام فهو من الشام، و ما كان على الشاطىء الآخر الى الشرق فهو من العراق. و كذلك يقال فى الرّقة. و تدخل دومة الجندل المعروفة اليوم بالجوف فى الجنوب فى جملة هذا القطر. كما أن أيلة هى آخر الحجاز و أول الشام. فالعريش او رفح او الزعقة هى حد الشام الجنوبى الغربى. و معان نصفها للشام و نصفها للحجاز، فيقال معان الشامية و معان الحجازية.

حدوده مع مصر:

و قد اتفقت الحكومتان العثمانية و المصرية سنة (۱۳۲۴ ه ۱۹۰۶ م) على تعيين الحد بين مصر و الشام من رأس طابا على الساحل الغربى لخليج العقبة ممتدا الى قمة جبل فورت مارا على رؤوس جبال طابا الشرقية المطلة على وادى طابا، ثم من قمة جبل فورت يتجه الى الخط الفاصل الى نقطة المفرق على قمة جبل فتحى حيث ملتقى طريق غزة الى العقبة بطريق نخل الى العقبة. و من هذه النقطة الى التل الذى الى الشرق من مكان ماء يعرف بثميلة الردادى و المطلة على الثميلة، بحيث تبقى الثميلة غربى الخط.

و من هناك الى قمة رأس الردادى ثم الى رأس جبل الصفرة، و منه الى رأس القمة الشرقية بجبل قم قف ثم الى سويلة شمالى الثميلة، و منها الى غرب الشمال الغربى من سماوة و منها الى قمة التل الواقع الى غرب الشمال الغربى من بئر المغارة فى الفرع الشمالى من وددى مايين، و منها الى غربى جبل المقراة فالى رأس العين الى نقطة على جبل أم حواويط الى منتصف المسافة بين عمودين قائمين فى الجنوب الغربى من بئر رفح، و منها الى نقطة على التلال الرملية فى اتجاه ۲۸ درجة اى ۸۰ درجة الى الغرب و على

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱

مسافة ۴۲۰ مترا فى خط مستقيم من العمودين المذكورين ثم يمتد الخط مستقيما من هذه النقطة باتجاه ۴، ۳۳ درجة. الشمال المغنطيسى أعنى ۲۶ درجة الى الغرب الى شاطئ البحر المتوسط مارا بتل خرائب على ساحل البحر الأحمر. و تقرر فى ايلول ۱۹۲۰ أن كون حدود حلب شمالا التخوم الشمالية للواء الإسكندرونة و التخوم الشمالية المنطقة الغربية القديمة آخر نقطة منها تلتقى بالخط الحديدى شرقى محطة هن؟؟؟، ثم خط الحديد و هو داخل التخوم حتى تل أبيض، ثم خط يجمع بين تل أبيض و الخابور شرقا و نهر الخابور حتى مصبه فى الفرات، ثم نهر الفرات حتى البوكمال جنوبا و هو الخط المعروف بخط البوكمال الى تدمر ثم الى الحدود الغربية الشمالية. و هذا الحد موضوع غير طبيعى. و لعل هذا القطر لن يعدم حده الطبيعى من الشمال فإن الصخور التى تفصل الشام من الشمال عن آسيا الصغرى ليس لها مثيل فى التخوم الطبيعية كما قال نابوليون. و جعل الجغرافى اليزه ركلو حد الشام من جبال أمانوس (اللكام) الى طور سينا و قال: إن طور سينا و إن ضم سياسيا الى مصر فهو جزء من أجزاء الشام. و قال بوليه: إن حد سورية شمالا آسيا الصغرى. و قال بورتر: إن سورية أى سورية الرومانيين يحدها شمالا آسيا الصغرى. و قال بيدكر: إن حد الشام من طوروس الى مصر. و بذلك رأينا أن الشام يحيط به من الجنوب رمال من الجفار وتيه بنى إسرائيل و جزء من البحر الأحمر فالبادية. و من الشمال جبال شامخة صعبة المسالك و هى جبل أمانوس أحد سلاسل جبال طوروس.

و من الشرق الفرات و من الغرب البحر. اى رمال و جبال و نهر و بحر.

مساحة الشام و صورته:

قدر القدماء طول الشام من العريش الى الفرات بمسيرة نحو شهر و عرضه من جبلى طى أجإ و سلمى من القبلة الى بحر الروم نحو عشرين يوما، و جبلا اجإ و سلمى جنوب الشراة وراء البتراء المعروفة عند الرومان باسم (بروفنسيا أرابيا أو أرابيا بترا-Provincia Arabia Arabia Petraea).

و قال شيخ الربوة: حد الشام طولا من ملطية الى العريش و مسافته سبعة

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲

و عشرون يوما، و عرضه الأعرض من منبج الى طرسوس. و عدّ ياقوت من الشام الثغور و هى المصيصة و طرسوس و أذنة و جميع العواصم من مرعش.

و الحدث و غير ذلك.

و قال علماء الافرنج: إن معدل طول الشام نحو ألف كيلومتر و عرضه نحو مائة و خمسين كيلومترا و مساحته ۱۸۳ ألف كيلومتر مربع و قال بعضهم:

إن مساحته السطحية نحو ۲۸۰ الف كيلومتر، و أبلغه غيرهم الى ثلثمائة ألف و أنزله آخر الى مائة و تسعة و خمسين الف كيلومتر، و بالغ فى تصغيره بعضهم فقال: إن مساحته مائة ألف كيلومتر مربع فقط، و منهم من قال مئة و خمسة عشر. و قال آخر: إن طوله ينيف على أربعمائة ميل و عرضه يختلف كثيرا و معدله نحو مئة و عشرين ميلا. و مساحة الشام خمسون ألف ميل مربع. و ذكر آخر أن طول الشام المتوسط من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر و عرضه من الغرب الى الشرق نحو أربعمائة و خمسين كيلومترا.

و أكد بعضهم أن طوله من طوروس الى طور سينا لا يقل عن الف و مئة كيلومتر، و قال غير واحد: إنه لا يقل عن ۸۰۰ الى ۹۰۰ هذا إذا تركت منه البادية و لم يحسب غير الأراضى القابلة للزرع. و قدرت الأرض القابلة للزراعة فى الشام بمئة و خمسين ألف كيلومتر مربع. و الاختلاف فى حد الشام و مساحته بين علماء الجغرافية المحدثين أكثر مما بين علماء تقويم البلدان من العرب الأقدمين. و قد شبّه بعضهم الشام فى هيئته الطبيعة بشكل مستطيل طوله ثمانية أضعاف عرضه. و شبهه آخر بأنه شكل مربع الأضلاع مستطيل كثيرا.

مدخل الفاتحين الى الشام:

جاء الفاتحون الشام بحرا و برا بل جاءوها من جهاتها الأربع فجاءها الفراعنة من البحر و البر، و البابليون و الفرس من الشرق و الشمال، و الاسكندر و الصليبيون و العثمانيون من الشمال، و غازان و هولاكو و تيمور لنك من الشرق، و العرب الفاتحون من الشرق و الجنوب، و نابوليون من الجنوب و من الغرب بحرا، و إبراهيم باشا المصرى برا و بحرا اى من الغرب و الجنوب

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳

الغربى، و جيوش الحلفاء من الانكليز و الفرنسيين و العرب من الجنوب و الغرب. و كانت على اعتزالها وراء حدودها الطبيعية مطمح الطامحين، و طعمة الطامعين، لم تدفع عنها حصونها التى فصلتها عن الحجاز بصحار مقفرة، و حرار معطشة، و عن العراق بنهر عظيم و بادية قاحلة، و عن آسيا الصغرى بجبال عالية، و عن مصر و عن برّ إفريقية برمال محرقة.

و داست تربتها الجميلة سنابك خيل الفاتحين، و عبثت بجميل محياها سهام النوائب، و أوردتها موارد العذاب الهون، و لم تأمن عادية العادين، على ما فيها من الجبال الشم، و مضايق تضل فيها العصم.

مدن الشام و قراه:

فی الشام مدن کثیرة منها ما دثر و انحط بعد أن کان له شأن مهم فی الأزمان الغابرة، مثل قیساریة و المعرة و أنطاکیة و قنسرین و أفامیة و جرش و البتراء و بصری و صیدا و صور و تدمر و بعلبک و جبیل و سبسطیة و أم قیس و صرخد و السویداء و شهبة و عرقا و عمّان و بانیاس فی الحولة و عسقلان، و منها ما ثبت علی صدمات الأیام و اللیالی و کان له من موقعه و ملاءمة الطبیعة له ما أبقی علیه، کأن یکون وسط ریف خصیب، و ماء دافق، کدمشق و حمص و حماة و طرابلس. و دمشق أهم مدن الشام و عاصمته فی الإسلام و علی عهد السریان، و کانت أنطاکیة عاصمته علی عهد الروم و الرومان. و تجیء بالعظم بعد دمشق مدینة حلب ثم بیروت ثم القدس و سکان دمشق نحو أربعمائة الف، و مثلهم سکان حلب، و بیروت نحو ثلاثمائة الف، و القدس أقل من ذلک. و فی الشام عدة مدن تزید علی خمسین الف نسمة، مثل یافا و حیفا و حماة و حمص و دیر الزور، و فیها عدة مدن تختلف بین العشرین و الأربعین الف نسمة، مثل اللاذقیة. غزة. صفد. زحلة. صیدا.

إدلب. أنطاکیة. و عشرات من القری هی أشبه بمدن او مدن أشبه بقری تکون نفوسها بین العشرة آلاف و العشرین الفا مثل صیدا و الخلیل و الرملة و اللدّ و الناصرة و طبریة و الدامور و بعلبک و حاصبیا و راشیا و الصلت و دومة و داریا و جوبر و یبرود و دیر عطیة و حارم و إدلب و سلمیة و الشویفات

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴

و بشرّی و إهدن و البترون و غیرها. و لا تقل قری الشام عن ثمانیة آلاف قریة و مزرعة و بلیدة و مدینة و سکانها نحو سبعة ملایین یدخل فیهم العرب الرحالة و یقدرون بخمسمائة إلی ستمائة ألف.

طبیعة الشام:

قطر تأخذ فیه الفصول الأربعة حکمها، و تتم فی قیعانه و جباله أسباب النعیم، معتدل الأهویة، متهاطل الأمطار و الثلوج، ممرع التربة، فیه الغابات و المعادن، و الحمامات المعدنیة و الأنهار الجاریة، و البحیرات النافعة، و الأجواء البهجة، و الرباع المنبسطة، و المناظر المدهشة، فیه من الجبال الشراة و الخلیل و عامل و سنیر و حرمون و لبنان و کسروان و حوران و جرش و عجلون و عکار و اللکام و الأقرع و الکلبیة و الأکراد و القدموس و بایر و المنیطرة و صنین و الکنیسة و الباروک و نیحا و الریحان و طابور و الجرمق و الکرمل و بلودان و النبک و الصلت و مؤاب و أنطاکیة و القصیر و ریحا. و من البحیرات العمق و الغاب و أفامیة و المطخ و الیمونة و العتیبة و الهیجانة و طبریة و الحولة و لوط. و من السهول سهل حوران و الجولان و الجیدور و الغوطة و المرج و البقاع و البقیعة و حمص و أنطاکیة و اللاذقیة و طرابلس و الشویفات و صیدا و صور و الطنطورة و بیسان و أریحا. و من المروج مرج ابن عامر و شارون (سارون) و البلقاء. و من الأنهار النهر الکبیر و الأردن و الیرموک و العاصی و الفرات و قویق و الساجور و عفرین و الأسود و بردی و البارد و ابراهیم و قادیشا و اللیطانی و الحاصبانی و الزرقا و العوجا و الأعوج و الأولی و الزهرانی و الکلب و الموجب و الدامور و الذهب و قندیل و صنوبر و قرشیش و برغل و المضیق و السن أو الأبتر و حریصون او مرقبة و الجوز و الکابری و نعمین و المقطع و الأزرق و الأخضر و أبی زابورة. و من المناظر البدیعة صنین و ظهر القضیب و إهدن و البیاضة و إصطبل عنتر و الصبر و النبی یوشع و قاسیون و حرمون و الطور و الهرمل و الکرمل.

خیرات الشام:

و فیه تنبت الحبوب و البقول و الأشجار علی اختلاف أنواعها. ففی

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵

جنوبیه و شرقیه النخیل. و فی سواحله الموز و البرتقال. و فی أواسطه السرو و الأرز. و یجود فیه القطن و القنب و الکتان و الحریر و

النيل و الدخان و قصب السكر و العسل و شجر الأرز و الفوّة و السماق و السوس. و تصلح مراعيه لتربية ضروب الماشية. و فى أرضه و مياهه أنواع الطيور و الأسماك و تعيش فيه الجمال كما تعيش البغال و تسمن فيه الجواميس كما ينمو الغنم و المعزى فيه زهاء مئة و ثلاثين منجما لم يستثمر منها إلا القير و الفوسفات و الحمر، على أن فيه الذهب و الفضة و النكل و الحديد و الفحم الحجرى و الرصاص و المغرة و النحاس و الكروم و الزئبق و الكبريت و السنباذج و الجبس و النفط و الإثمد و الزاج و المرمر. و من الحمامات المعدنية حمام طبرية و حمّة سمخ و حمة أبى رباح و حمة ضمير و حمة معلولا و حمة أنطاكية و المرقب و زرقاء معين و عجلون و لها كلها من الخواص الصحية ما اشتهر أمره.

هواء الشام و ماؤه:

صقع حوى غرائب الطبيعة تشهد فيه بردا قارسا بل شتاء مستوفى فى قنن جباله و سفوحه فى حين تشهد فى أغواره كغور بيسان و غور الصافى و طبرية و أريحا ربيعا تاما بل صيفا معتدلا، و بينا تذيب شمس الصفاة و اللجاة رأس قاصدهما، إذا به فى ريح بليل عليل اذا قصد الجبال و ما اليها. فهو مصطاف و مرتبع و مشتى فى آن واحد. و فيه ما لا يكاد يوجد له مثيل فى الأرض: بحيرة طبرية تحت سطح البحر على ۱۳۱۶ قدما و فيها أسماك كثيرة، و بحيرة لوط لا يعيش فيها حيوان فكأن نهر الأردن الذى يجرى من بحيرة طبرية و ينتهى ببحيرة لوط هو فى أوله حياة و فى آخره موت، و هذا لا نظير له فى العالم.

و من عجائب طبيعة الشام إن تنبجس فى بعض أصقاعه عيون طيبة ثرّة فى بقعة ضيقة. ففى الجديدة على مقربة من الحولة عشرات من العيون على هضبة سميت بها البلدة «مرج عيون» و فى جبل ريحا من عمل حلب عيون لطيفة دارّة فى الأعالى تكاد تخلو منها السهول المنخفضة المجاورة. و مياه الشام على الجملة طيبة لذيذة.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶

خصائص الشام:

قطر هذه مواهبه قامت فيه فى الأزمان الغابرة النصرانية و اليهودية.

و انبعث من أرجائه مجد الإسلام، فكان مباءة أول دولة عربية إسلامية، ثم آوى اليه الشيع الغريبة من النحل و المذاهب التى لا مثيل لها فى غيره، كالدرزية و الإسماعيلية و النصيرية و السامرة بل معظم المذاهب الإسلامية و النصرانية و الإسرائيلية و تبلغ سبعة عشر مذهبا و جملة من العناصر القوية ذات المدنية التى استحالت عربا.

رأى الشام طلعة موسى و عيسى من النبيين، و الإسكندر و ابن الخطاب و خالد بن الوليد و موسى بن نصير و نور الدين و صلاح الدين و سليم و ابراهيم من الفاتحين. و عمر بن عبد العزيز و المأمون و ابن تيمية من المجددين. و بختنصر و هولاكو و جنكيز و غازان و تيمور من المخربين، و قلّ فى الممالك كما قال كورتيوس ما اندمج فيه كثير من التواريخ فى بقعة ضيقة كهذه.

الشام مهوى أفئدة الشعوب النصرانية و اليهودية، و مجاز حجاج المسلمين الى الأماكن الطاهرة القدسية و الحجازية، بل نقطة الاتصال القريبة بين آسيا و افريقيا و آسيا و أوربا، بل بين القارات الثلاث القديمة آسيا و أوربا و إفريقية، و أجمل مصيف و مشتى للأقطار الحارة المجاورة كالحجاز و العراق و مصر. و الشام فى أواسط الأقطار التى يتكلم أهلها بالعربية هو بلد الخيال و الشعر، و الهمم العلياء و استقلال الفكر، و أرضه أبدا باسمة طربة كسمائه:

مصحة أبدان و نزهة أعينو لهو نفوس دائم و سرورها

مقدسة جاد الربيع بلادهاففى كل أرض روضة و غديرها

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷

سكان الشام

الامو و اللودانو:

من الصعب الحكم على أصول السكان فى الشام قبل أن يعرف التاريخ، و تعيين أول من نزلها من القبائل قبل أن تبنى المدن و الحواضر و تعرف المزارع و الدساكر. و أقدم ما عرف منها قبائل كانت تعرف بالامو ورد ذكرها فى الآثار المصرية و معناها الشعب باللغة السامية اختلطت على ما يظهر بذرية لاوذ، او بغيرها من القبائل التى كانت تسكن شمالى الشام، و سمى هذا القبيل بالروتانو او اللودانو، و يقسمون الى روتان المغرب و يراد بهم سكان دمشق و أرض كنعان، و الى روتان المشرق او الأعلى و هؤلاء كانوا ينزلون فى شمالى الشام و جزء من غربى ما بين النهرين و لعل ذلك كان قبل الطوفان، طوفان نوح او بعده بقليل. و قد حدث الطوفان قبل المسيح بنحو الفين و خمسمائة سنة، و لم يعم الكرة الأرضية و لا برا من برورها المعروفة، بل انحصر فى بقعة صغيرة من آسيا على الأرجح أى إنه كان فى الجزيرة على ما ذكره أهل الإدراك من المفسرين.

و ظهرت بعد الطوفان أمم كثيرة سكنت الشام، بعضها من أصل سامى و بعضها لم يعرف عنه شىء، و منها ما عرف أنه أتى من الأصقاع المجاورة و منها من لم يثبت أصله. فقد ظهر بعد الطوفان الآراميون فى دمشق و الجيدور و الجولان و البقاع و حمص و لبنان، و آرام هو الاسم الذى أطلقته

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸

التوراة على الشام و بين النهرين، و كان يسكنها أبناء آرام الابن الخامس لسام. و أقام الأموريون فى الأرض الواقعة بين البحر و الأردن، و العمونيون فى أرض جلعاد اى فى شرقى الأردن، و الموآبيون فى الجنوب الشرقى من بحيرة لوط، و الإسماعيليون من نسل إسماعيل جد العرب فى سلع و البتراء و ما جاورها. و انتشر الأدوميون من وادى العربة الى حدود العقبة عقبة أيلة و الفينيقيون فى صور و صيدا و جبيل، و تفرعت من هذه القبائل فروع كثيرة فى قرون مختلفة. و لا تعرف أصول أكثر هذه القبائل. و قد قال رولنسون: إن أصل الفينيقيين من سكان البحرين فى الخليج الفارسى ظعنوا من هناك الى ساحل الشام منذ نحو خمسة آلاف سنة و أنهم عرب بأصولهم و أن هناك مدنا فينيقية أسماؤها أسماء فينيقية مثل صور و جبيل. و ذكر مكالستر أنه سكنت فلسطين شعوب من غير الساميين و ربما عنى بهم الحثيين و الأموريين.

و الحثيون جنوبيون و شماليون و كان الجنوبيون فى جهات فلسطين و نزل الشماليون أولا- جبل اللكام (امانوس) ثم انتشروا بكرور الأيام من الفرات الى حماة و حمص و من دمشق و تدمر الى كبدوكيا، و لم يكن لهم ملك واحد بل كان لكل فصيلة منهم ملك. و لم يعرف شىء عن الحثيين الشماليين قبل أن يمرّ الرحالة بروكهارت بحماة سنة ۱۸۱۲ و يرى على جدار أزقتها خطوطا قديمة بالخط المسند المصرى أى الهيروغليفى تختلف عن الآثار المصرية و عثر على كثير من مثل هذه الآثار فى حماة و حمص و حلب و مرعش و كركميش و غيرها، و قد علم من سحنات الحثيين الشماليين على ما رسموا فى الآثار المصرية أنهم أقرب الى الرومان منهم الى سكان فلسطين و لون وجوههم أبيض ضارب الى الحمرة.

و من أقدم شعوب الشام شعب كان ينزل منذ الزمن الأطول فى السقى الأسفل من نهرى الفرات و قزل ايرمق و يعتصم فى مضايق جبال طوروس، عرف عند اليونان باسم خيطايوس و عند العبران بخطى خطيم و عند الأشوريين بخاطى و عند المصريين بخايطى خاطى و عرفه المتأخرون بالحثيين، و هو شعب غير سامى مجهول اللسان. و أصل العبرانيين او اليهود سبط من الساميين الذين نزلوا من جبال إرمينية الى سهول الفرات على عهد مملكة الكلدان

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹

الأولى و ضربوا نحو الغرب فجازوا الفرات فالبادية فالشام حتى انتهوا الى عبر الأردن وراء فينيقية. و تعرف هذه الأسباط بالعبرانيين

يعنى أهل ما وراء النهر. قال هشام الكلبى: ما أخذ على غربى الفرات الى برية العرب يسمى العبر و اليه ينسب العبريون من اليهود لأنهم لم يكونوا عبروا الفرات حينئذ. و العبرانيون كمعظم الساميين شعب من الرعاة الرحالة لم يحرثوا الأرض، و لا سكنوا الدور و المنازل، و قد دعيت ديارهم أرض الميعاد او أرض كنعان او فلسطين. و دعاها اليهود أرض إسرائيل ثم دعيت بعد اليهودية و دعاها أهل النصرانية الأرض المقدسة، و كان عدد الإسرائيليين أيام عزهم ۷۰۰، ۶۰۱ رجل يحمل السلاح منقسمين الى اثنى عشر سبطا.

الآراميون و العناصر الأخرى:

و بعد انقراض دولة الحثيين فى القرن الثامن قبل الميلاد عمّ اسم آرام هذه الديار فأصبح القسم الأكبر من سورية يسمى آراما و سكانها الآراميين و قد ورد اسم آرام فى التوراة مضافا عدة مرات مثل آرام رحوب و آرام معكة و آرام صوبا. و قيل إن إرم الواردة فى القرآن مضافة أيضا «إرم ذات العماد» هى دمشق بعينها. و للمفسرين فى ذلك أقوال كثيرة ليس هذا محل إيرادها. و فى الشام عناصر منوعة من نسل حام بن نوح و سام بن نوح و يافث بن نوح. أى إن فيها الدم الآرى و القافى (القافقاسى) و العربى و التركى و بعبارة أصرح فيها بقايا من الشعب الأشورى و البابلى و الكلدانى و الكنعانى و الفينيقى و العبرانى و الحثى و الفارسى و الرومانى و اليونانى و التترى و العربى. و كانت منذ عهد بنى إسرائيل موطن العصبيات و فيها على رأى ابن خلدون قبائل فلسطين و كنعان و بنى عيصو و بنى مدين و بنى لوط و الروم و اليونان و العمالقة و اكريكش و النبط من جانب الجزيرة و الموصل ما لا يحصى كثرة و تنوعا فى العصبية، و لذلك يتعذر ردّ كل جنس الى جنسه اليوم بعد هذا التمازج الذى دام أكثر من

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰

ستين قرنا فى هذه البوتقة الجميلة مضافة الى الأصول التى كانت فيها من قبل و نعنى بهذه البوتقة الديار الشامية.

العناصر القديمة و العرب:

كل أمة عظيمة عرفت فى الشام طال عمرها بضعة قرون ثم فنيت فى غيرها و أدغم الضعيف فى القوى و تمثل المغلوب فى الغالب مع توالى الأيام و الليالى. و هكذا يقال فى السريان و العبران و اليونان و الرومان. و يمكن أن يقال فى الجملة إنه كان فى الشام منذ القرن السادس عشر قبل الميلاد شعوب كثيرة أهمهم الكنعانيون النازلون فى الجنوب و الوسط و الشمال و الآراميون، و ما وراء ذلك من الشمال يسكنه الحثيون. و لم تطل حياة عنصر فى صحة بالشام كما طالت حياة العرب فإنهم فيها على أصح الأقوال منذ زهاء الفين و خمسمائة سنة و أوصله بعضهم الى نحو أربعة آلاف سنة، و هم الذين اندمج فيهم عامة الشعوب القديمة و استعربت فلم تعد تعرف غير العربية لسانا و منزعا. و لذلك كان من المعقول أن يدلّ الشامى بعربيته أكثر من إدلاله بفينيقيته و روميته و سريانيته و عبرانيته. و فى تاريخ فلسطين أن العرب دخلوا فلسطين قبل الإسلام بقرون. و الدليل أن نرحم سين ابن سرجون غزا فلسطين سنة ۳۸۰۰ ق. م. و صادف فى سينا حكومة عربية ثم حارب قبيلة معان العربية و أسر أميرها، و قد ظهر من آثار بابل ما يثبت ذلك. و منها أن سرجون الثانى غزا عرب البادية الذين اعتدوا على السامرة و أخضع قبائلهم و منها ثمود و مدين و مساكنهم شرقى الأردن و حارب عباديد و أخذ منهم طائفة و أسكنها فى السامرة. و لما جاء الإسكندر الى غزة و حاصرها كانت حاميتها عربا فقاومته أشد مقاومة، و منها أن أحد تلامذة المسيح بشر بلغات عديدة منها اللغة العربية كما ورد فى أعمال الرسل، و منها أن الحارث حاكم دمشق كان عربيا لما دخلها بولس الرسول كما ورد فى رسالته الى اهل مدينة كورنثوس، و منها أن تيطس لما جاء لفتح القدس كان معه الحارث ملك العرب يقود فرقة عربية، و منها أن هركانوس المكابى التجأ الى الحارث ملك العرب فأنجده و ساعده على أخيه

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱

ارستوبولس، و منها أن فيلبس الرومانى الذى صار امبراطورا فى رومية سنة ۲۴۴ ب. م كان عربيا من بصرى فى حوران.

و الغالب أن فى العرب خاصية التمثيل إذا جاوروا شعبا قربوه من مناحيهم و أدخلوا عليه لغتهم، و هم المادة العظمى التى ما زالت تفيض على الشام. و أهل الوبر و المدر أو البادية و الحضر منهم، من أصبر الأمم على الحروب و الأسفار الطويلة و الاكتفاء بميسور العيش، لكنهم لا يصبرون على الضيم و الأذى. و لطالما غزوا من جزيرتهم العراق و فارس و الجزيرة و الشام، و لم يسمع أن حكمتهم أمة و قد تمكنوا كما قال جويدى من غزو الأعداء، و لهم المفازة التى بينهم و بين العراق و الشام اى بادية الشام و النفود، و من هجم عليهم فى ديارهم لم تدم سلطنته عليهم كملوك الأثوريين او رجع بالخيبة و الافتضاح كغالوس.

دول العرب الأقدمين:

كانت العرب تختلف الى الشام قبل الإسلام بقرون طويلة، قامت لهم فيها و فى جوارها دول عظيمة خلفت من آثارها ما دلّ على عظمتها، فمنها دولة النبط و يغلب فى أسماء ملوك النبطيين اسم الحارث و عبادة و مالك و هم عرب من بقايا العمالقة، و العمالقة قوم من عاد و هم القوم الجبارون فى الشام. و لم تخلف البتراء غير تدمر و أصل ملوكها من سلالة عربية أيضا.

و قد أبقت هاتان الدولتان من أصولهما و حاميتهما جندا كثيرا أصبحوا بعد من جملة سكان الشام و المادة الأولى للعربية فيه. قال نالينو: النبط أو النبيط فى اصطلاح العرب فى القرون الأولى للهجرة اسم أهل الحضر المتكلمين باللغات الآرامية الساكنين فى الشام و خصوصا فى الصقع الواقع ما بين النهرين، و ليسوا النبط أو الأنباط الذين اتسعت مملكتهم فى أرض الحجاز الشمالية الى حدود فلسطين و نواحى دمشق.

سليح و غسان و الضجاعم:

و قد ذكر المؤرخون أن نزول العرب فى ديار الشام أقدم من ذلك

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲

بقرون فإن تكلت فلاسر أحد ملوك أشور غزا الشام مرارا من سنة ۷۴۳ الى ۷۳۲ ق. م. و أخضع فى خلال ذلك السامرة و دمشق و صور و حماة و عرب البادية بين فلسطين و مصر و كانت عليهم يومئذ ملكة اسمها حبيبة.

و قيل: إن أول من دخل الشام من العرب سليح و هو من غسان- و غسان ماء نزل عليه قوم من الأزد بين رمع و زبيد فى اليمن فنسبوا اليه- و يقال من قضاعة فدانت بالنصرانية و ملّك عليها ملك الروم رجلا منهم يقال له النعمان بن عمرو بن مالك فلما خرج عمرو بن عامر مزيقيا من اليمن فى ولده و قرابته و من تبعه من الأزد أتوا أرض عك فى اليمن ثم أرض الحجاز و صار منهم قوم الى الشام، منهم آل جفنة ملوك الشام فكتب سليح الى قيصر يستأذنه فى إنزالهم فأذن لهم على شروط شرطها عليهم.

و بنو غسان فى الحقيقة حى من الأزد على رواية المسعودى من القحطانية قال أبو عبيد: و هم بنو جفنة و الحارث و هو ثعلبة و العنقاء و حارثة و مالك و كعب و خارجة و عون بن عمرو بن مزيقيا. و ذكر الحمدانى أن فى البلقاء طائفة منهم و باليرموك الجم الغفير و بحمص منهم جماعة. و حكم ملوك غسان حوران و البلقاء و الغوطة و حمص و دمشق. قال المسعودى: و كانت ديار ملوك غسان باليرموك و الجولان و غيرهما بين غوطة دمشق و أعمالها، و منهم من نزل الأردن و قد أخرجت غسان من الشام سليحا و صاروا ملوكها، و أول من ملك جفنة بن عمرو فقتل ملوك قضاعة من سليح الذين كانوا يدعون الضجاعمة أو الضجاعم و دانت له قضاعة و من بالشام من الروم و جميع ملوك جفنة من آل غسان اثنان و ثلثون ملكا لبثوا فى ملكهم ستمائة و ست عشرة سنة و قيل أربعمائة سنة.

التنوخيون:

هـذا فى الجنوب أما فى الشـمال فقـد نزل التنوخيون قبل الإسـلام بقرون، و سـموا تنوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام، و التتنـخ و التنوخ المقـام، كـانوا قبائـل تتاخم منازلها مملكـة الروم، فلما غزا ملك الفرس الروم، و أذرع فيهم القتل و السبى و خرب العمائر، أنفذ ملك الروم الى تنوخ يستنجدهم

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳

على ملـك الفرس فأنجـدوه، و قـاتلوا معه قتالاـ شديـدا، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جنـد الروم لتظهر له طـاعتهم و غنـاؤهم فأجـابهم الى ذلـك فقـاتلوا الفرس و ظفروا بهم، فـأعجب بهم ملك الروم و فرق فيهم الـدنانير و الثياب و قرّبهم و أدناهم و أقطعهم سوريـة و ما جاورها من الأصـقاع الى الجزيرة. و سوريـة مدينة بقرب الأحصّ على جانب البرية. قال ابن العديم: هذا منتهى أمرهم فى الجاهلية.

و لم يعرف الزمن الذى كان فيه التنوخيون، و بعضـهم يقول: إنهم كانوا فى أواخر القرن الثالث للمسيح و يقول المسعودى: إن قضاعة بن مالك بن حمير أول من نزل الشام و انضافوا الى ملوك الروم فملّكوهم، بعد أن دخلوا فى دين النصـرانية، على من حوى الشام من العرب، فكـان أول ملوك تنوخ النعمـان بن عمرو بن مالـك، ثم ملـك بعـده عمرو بن النعمان ابن عمرو، ثم ملك بعـده الحوارى بن النعمان و لم يملك من تنوخ غيرهم.

ثم وردت سـليح الشـام فتغلبت على تنوخ و تنصـرت فملّكتهـا الروم على العرب الـذين بالشـام. قال: و غلبت غسان على من بالشام من العرب فملكها الروم على العرب و إن من ملكته الروم من اليمن بالشام تنوخ و الضـجاعم من سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة و غسان استكفاء بهم من يليهم من بادية العرب.

المهاجرات و الايطوريون:

و الغـالب أن معظم مهـاجرات العرب الى الشـام كـانت تقع عقيب حوادث طبيعيـة فى أرضـهم من جفاف و طوفان و جـدب و موتان، فيسـتهويهم بخصـبه، و ينتجعون هناءة العيش فى أرجائه. و فى الأغانى لما أرسل اللّه سـيل العرم على أهل مأرب قام رائدهم فقال: من كـان منكم يريـد الخمر و الخمير، و الأـمر و التأمير، و الـديباج و الحرير، فليلحق ببصـرى و الحفير، و هى من أرض الشام فكان الـذين سكنوه غسان.

و من الـدول العربيـة التى اشـتهرت زمن دخول الرومان الى سورية دولة الإيطوريين و معنى الإيطوريين بالعبرية الجبليون، و هم شـعب عربى جاءوا

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴

من ايتـورة اى الجيـدور شـمالى حوران و اشـتهروا برمى النشـاب فاسـتولوا بمضـائهم الحربى على جبـل الشـيخ (حرمون) و البقـاع الى فينيقيـة، و بعض أسـماء الجنود الجيدوريين التى جاءت فى الكتابات اللاتينية باللغة الآرامية و بعضـها باللغة العربية. قال دوسو: لم تكن هجرة العرب الى سوريـة مما ينسب لإدارة الرومان كما يظن بعضـهم بل إن الأحوال قد سـهلت طرقها فى ذاك العصـر و ضـمنت لهم رسوخ قـدمها فى ظل السـلام. فقـد كانت مدينة حمص فى يد حكومة عربية قبل وصول القائد بونيبوس الى سورية و أن الأقيال الذين تولوا أمر تلك الـديار لتطلق عليهم ألقاب عربية صـرفة، كما يفهم من آثار الصـفا. و لما جاء الإسـكندر الى الشام كان العرب يحتلون لبنان.

سليح و عاملة و قضاعة:

و ممن يجب عدهم فى المهاجرة الأول من العرب الى الشام سـليح الذين أشـرنا اليهم آنفا فقد قال البكرى: سارت سـليح بن عمرو بن

الحاف ابن قضاعة يقودها الحدرجان بن سلمة حتى نزلوا ناحية فلسطين على بنى أذينة بن السّميدع من عاملة و انتشر سائر قبائل قضاعة فى القطر، يطلبون المتسع فى المعاش و يؤمون الأرياف و العمران، فوجدوا بلادا واسعة خالية فى أطراف الشام قد خرب أكثرها، و اندفنت آبارها، و غارت مياهها، لإخراب بخت نصّر لها، فافترقت قضاعة فرقا أربعا ينضم الى الفرقة طوائف من غيرها يتبع الرجل أصهاره و أخواله فسار ضجعم ابن حماطة و لبيد بن الحدرجان السليحى فى جماعة من سليح و قبائل من قضاعة الى أطراف الشام و مشارفها و ملك العرب يومئذ ظرب بن حسان بن أذينة ابن السّميدع بن هزبر العمليقى فانضموا اليه و صاروا معه فأنزلهم مناظر الشام بين البلقاء الى حوارين الى الزيتون (جبال فلسطين) فلم يزل ملوك العماليق يغزون معهم المغازى و يصيبون المغانم حتى صاروا مع الزباء بنت عمرو بن الظرب اللخمى و استولوا على الملك بعدها و ظلوا ملوكا حتى غلبتهم غسان على الملك، قال بعض آل سعد بن ملكيكرب يذكر منازل

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵

من خرج من اليمن و قد ذكر غسان و قضاعة و كلبا:

و غسان حيّ عزهم فى سيوفهم كرام المساعى قد حووا أرض قيصر

و قد نزلت منا قضاعة منزلا بعيدا فأمست فى بلاد الصنوبر

و كلب لها ما بين رملة عالج الى الحرّة الرجلاء من أرض تدمر

و عالج رمال معروفة فى البادية، و الحرة الرّجلاء فى ديار بنى القين فى أطراف الشام بين حوران و تيماء، و الشاعر يقول إنها من أرض تدمر.

و فى تاريخ الأمم الاسلامية: «إن الضجاعمة ملوك اصطنعهم الرومان ليمنعوا عرب البرية من العبث و ليكونوا عدة على الفرس و ولوا منهم ملكا و من أشهر ملوكهم زياد بن الهبولة».

لخم، جذام، عاملة، ذبيان، كلب:

ذكر الهمدانى مساكن من تشاءم من العرب أى دخل الشام فقال أما مساكن لخم فهى متفرقة و أكثرها بين الرملة و مصر فى الجفار و منها فى الجولان و منها فى حوران و البثنيّة، و مدينة نوى، و بها خلف بن جبلة القصيرى و ابن عزير اللخمى مسكنه طرف جبال الشّراة، و أما جذام فهى بين مدين الى تبوك فالى أذرح و منها فخذ مما يلى طبرية من أرض الأردن الى اللجون و الياموں الى ناحية عكا، و أما عاملة فهى فى جبلها مشرفة على طبرية الى نحو البحر، و أما ذبيان فهى من حد البياض بياض قرقرة- و القرقرة الأرض الملساء- و هو غائط- و الغائط كالغوطة المطمئن من الأرض- بين تيماء و حوران لا يخالطهم إلا طيّ و حاضرهم السواد و مرو و الحيانيات- و الحيانية كورة بالسواد من أرض دمشق و هى كورة جبل جرش قرب الغور- و أما كلب فمساكنها السماوة- و السماوة الأرض المستوية لا حجر بها و هى البادية بين الكوفة و الشام- و لا يخالط بطونها فى السماوة أحد. و من كلب بأرض الغوطة عامر بن الحصين بن عليم و ابن رباب المعقلى و من بنى الحارث بن كعب بيت يسكنون بالفلجة من أرض دمشق- و الفلجات فى شعر حسان بالشام كالمشارف و المزالف بالعراق و المشارف جمع مشرف قرى قرب حوران منها بصرى.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶

جهينة، القين، بهراء، تنوخ:

ثم للخم و من يخالطها من كنانة ما حول الرملة الى نابلس و لهم ايضا ما جاز تبوك الى زغر- قرية بمشارف الشام- ثم البحيرة الميتة. و للخم أيضا الجولان و ما يليها من الأرجاء نوى و البثنيّة و شقص من أرض حوران، و يخالطهم فى هذه المواضع جهينة و ذبيان و من

القين و عن أيسر جبال الشراة مدائن قوم لوط قال: و فى الحيانيات و ما يليها ديار القين حيث كانت بقية من جديس إخوة طسم، فإذا جزت جبل عاملة تريد قصد دمشق و حمص و ما يليها فهى ديار غسان من آل جفنة و غيرهم، فإن تياسرت من حمص عن البحر الكبير و هو بحر الروم وقعت فى أرض بهراء، ثم من أيسرهم مما يصل البحر تنوخ و هى ديار الفضيض سادة تنوخ و معكودهم (المقيم الملازم)، و منها اللاذقية على شاطىء البحر ثم تقع فى نصارى و غير ذلك الى حد الفرات، و ما وقع فى ديار كلب من القرى تدمر و سلمية و العاصمية و حمص و هى حميرية، و خلفها مما يلى العراق حماة و شيزر و كفر طاب لكنانة من كلب.

إياد و طيىء و كندة و حمير و عذرة و زبيد و همدان و يحصب و قيس:

يؤخذ مما قاله اليعقوبى أن أهل حماة قوم من يمن و الأغلب عليهم بهراء و تنوخ و صوّران- كورة بحمص- و بها قوم من إياد، و أهل حمص جميعا يمن من طيىء و كندة و حمير و كلب و همدان و غيرهم من البطون، و أهل التمة من أقاليم حمص كلب، و أهل سلمية من ولد عبد اللّه بن صالح الهاشمى و مواليهم و أهل تدمر كلب، و تلمنس مساكن إياد (و تل منّس حصن قرب المعرة)، و معرة النعمان أهلها تنوخ و أهل البارة بهراء و فامية عذرة و بهراء، و أهل مدينة شيزر قوم من كندة و مدينة كفر طاب و الأطميم، و هى مدينة قديمة و أهلها قوم من يمن، من سائر البطون و أكثرهم كندة و أهل اللاذقية قوم من يمن من سليح و زبيد و همدان و يحصب و غيرهم، و أهل مدينة جبلة همدان، و بها قوم

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷

من قيس و من إياد، و مدينة بانياس و أهلها أخلاط، و أهل مدينة انطرطوس قوم من كندة.

قال: و كانت دمشق منازل ملوك غسان و الأغلب على أهلها أهل اليمن و بها قوم من قيس، و أهل الغوطة غسان و بطون من قيس و بها جماعة من قريش، و جبال و مدينتها عرندل- قرية من أرض الشّراة- و أهلها قوم من غسان و من بلقين و غيرهم و مآب و زغر و أهلها أخلاط من الناس، و الشّراة و مدينتها أذرح و أهلها موالى بنى هاشم، و بها الحميمة منازل على بن عبد اللّه بن العباس بن عبد المطلب و ولده.

و الجولان و مدينتها بانياس و أهلها قوم من قيس أكثرهم بنو مرة، و بها نفر من أهل اليمن، و جبل سنير- اى لبنان الشرقى و يدخل فيه جبل قلمون و وادى التيم- و أهلها بنو ضبّة و بها قوم من كلب.

و اختلف الباحثون فى الغسانيين إذا كانوا حكموا دمشق أم لم يحكموها و كون منازلهم كانت بجلق صحيح نقله ثقات العرب و ورد فى شعر حسان و قال نولدكه: إن بنى غسان لم يتولوا الحكم إلا على قبائل حوران و شرقى الأردن. و قد قال الأخنس بن شهاب من شعراء الجاهلية:

و غسّان حىّ عزهم فى سواهميجالد منهم مقنب و كتائب

و بهراء حىّ قد علمنا مكانهملهم شرك حول الرّصافة لاحب

معناه هم ملوك و لم يكونوا كثيرا، و كانت الروم توليهم و تقاتل عنهم فعزّهم فى غيرهم، و كانوا نزولا على قوم من العرب. (و المقنب الجماعة و الشرك اللاحب الطرق المدمثة).

الفرس و الزط:

و بعلبك و أهلها قوم من الفرس، و فى أطرافها قوم من اليمن، و جبل الجليل و أهلها قوم من عاملة و لبنان و صيدا و بها قوم من قريش و من اليمن، و كورة عرقة- شرقى طرابلس- و لها مدينة قديمة فيها قوم من الفرس ناقلة و بها قوم من ربيعة من بنى حنيفة، و مدينة طرابلس و أهلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبى سفيان، كما نقل منهم الى جبيل

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸

و صيدا و بيروت. و قد نقل معاوية قوما من فرس بعلبك و حمص و أنطاكية الى سواحل الأردن و صور و عكا سنة ۴۲ و نقل من أساورة البصرة و الكوفة و فرس بعلبك و حمص الى أنطاكية جماعة. و الغالب أن الفرس عند دخول العرب المسلمين الى الشام كانوا أصحاب مكانة حتى جرى ذكرهم بالتنصيص فى العهد الذى أعطاه أبو عبيدة الى أهل بعلبك «رومها و فرسها و عربها».

و قال البلاذرى: نقل معاوية فى سنة ۴۹ أو سنة خمسين الى السواحل قوما من زطّ البصرة و السبايجة و أنزل بعضهم أنطاكية، و كان الوليد بن عبد الملك نقل الى أنطاكية قوما من الزط السند. و كثرت هجرة الناس على اختلاف عناصرهم الى هذا القطر لأن قصبته أصبحت عاصمة الدولة الإسلامية الكبرى.

الأخلاط و السامرة و جذام و عذرة و نهد و جرم و الأزد:

و أهل مدينة طبرية قوم من الأشعريين هم الغالبون عليها، و أهل صور و عكا و قدس و بيسان و فحل و جرش و السواد أخلاط من العرب و العجم. و أهل الرملة أخلاط من العرب و العجم، و ذمتها سامرة، و أهل مدينة نابلس أخلاط من العرب و العجم و السامرة، و أهل كورة جبرين قوم من جذام، و أهل جند فلسطين أخلاط من العرب من لخم و جذام و عاملة و كندة و قيس و كنانة. و ذكر القلقشندى أن بنى كلب كانوا ينزلون فى الجاهلية دومة الجندل (الجوف) كما نزلوا تبوك و شيزر و حلب و بلادها، و فى تدمر و المناظر أقوام منهم، و من بنى عذرة أقوام بالشام، و كذلك من بنى نهد و فى غزة. جرم طيىء و للأزد بقايا فى زرع و بصرى، و لغسان بقايا بالبلقاء و اليرموك و حمص و هذا فى القرن الثامن للهجرة، و كان غسان و جذام و كلب و لخم و غيرهم من القبائل يعدون من المستعربة، كما قال ابن البطريق، استجلبهم هرقل لما سمع أن المسلمين فتحوا فلسطين و الأردن و صاروا الى البثنية. و لما وصل أبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام الى حاضر حلب و هو قريب منها جمع أصنافا من العرب من تنوخ و غيرهم، و كانوا أرسلوا الى خالد بن الوليد أنهم عرب و أنهم إنما حشروا مع الروم و لم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم و تركهم.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۹

قيس و يمن و إحصاء السكان:

رأينا فى ما تقدم من النقول أن كل إقليم بل كل بلد ناله حظ من نزول العرب فى أرجائه و ذلك قبل الإسلام و بعده:

بها غرر القبائل من معدّو قحطان و من سروات فهر

و مجموع أصولهم يرجع الى قيس و يمن، و هم الذين كان يطلق عليهم اسم العشران. و كثيرا ما كانت تقع بينهم حروب أهلية تسيل فيها الدماء و ينادى فيها يا للثارات. انتشروا من الجنوب الى الشمال و دام ذلك الى العهد الأخير، و كانت بقايا هذه النغمة فى لبنان الى القرن الماضى فدثرت. و آخر حرب نشبت بين قيس و يمن الحرب التى وقعت فى قرية خربثة بفلسطين و الحرب التى نشبت فى قرية عين دارة فى جبل لبنان سنة ۱۷۱۰ م.

و يتعذر الآن الحكم على أجيال العرب التى نزلت الشام لما طرأ على القطر من ضروب البلاء كالوباء و الجدب و الزلزال و الظلم و الجلاء. و قد ذكر لامنس أن العرب المسلمين لما انتهوا من أمر الجابية و عمواس و دابق اى لما فتحوا الشام برمته أنشأوا ينزلون المدن و القرى و قد دخل منهم قبائل برمتها قدرها من مئة الى مائتى ألف و نظن هذا التقدير أقل من الحقيقة لأن المسجلين بديوان العطاء فى دمشق فقط كانوا فى الصدر الأول خمسة و أربعين ألفا فما بالك بسائر من كان يجرى عليه العطاء فى البلدان الأخرى و غيرهم من التجار و أصحاب الزرع و الضرع؟ قال: فلو فرضنا أن نصفهم قتلوا فى الحروب فيبقى النصف الآخر أمام السكان الأصليين و كانوا من أربعة الى خمسة ملايين، و كان فى الشام على عهد الرومان نحو سبعة ملايين. و قال بعض الباحثين من الافرنج: إن الشام على عهد

الإسكندر أى قبل المسيح بثلاثة قرون كان يسكنها عشرون مليونا من البشر، و لما جاءت العرب فى القرن السابع كان سكانها قد نقصوا حتى بلغوا عشرة ملايين و فى عهدنا بلغ عددهم نحو سبعة ملايين.

المردة و الجراجمة و الأرمن و الروم و الموارنة:

لقب أهل لبنان بالمردة أى العصاة لعصيانهم أمر ملك الروم فى عدم

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۰

التعرض للعرب. و المردة هم المعروفون فى كتب العرب بالجراجمة نسبة لمدينة جرجومة كانت على جبل اللكام بالثغر الشامى عند معدن الزاج فيما بين بيّاس و بوقة قرب أنطاكية و قد صالح الجراجمة المسلمين على أن يكونوا أعوانا لهم و عيونا و مسالح فى جبل اللكام، و دخل معهم من كان فى مدينتهم من تاجر و أجير و تابع من الأنباط من أهل القرى و من معهم فى هذا الصلح فسموا الروادیف لأنهم تلوهم و ليسوا منهم. و كانوا يستقيمون للولاة مرة و يعوجون أخرى فيكاتبون الروم يمالئونهم على المسلمين.

أخذ يوستنيانوس ملك الروم اثنى عشر الف مقاتل من المردة أو الجراجمة على رواية الدويهى إرضاء للخليفة عبد الملك الأموى. و أسكن أبو جعفر المنصور بعض العشائر فى الأرض الخالية المجاورة منازل المردة فى لبنان.

و كان المردة يعتدون على أبناء السبيل بين دمشق و بيروت. و لما جاء المنصور الى دمشق قدم عليه الأمير أرسلان بن مالك من المعرة و معه جماعة فشكوا اليه توالى القحط عليهم فأقطعهم جبال بيروت الخالية و عهد اليهم بحفظ الطريق فنزلوا فى عشائرهم بحصن أبى الحبيش ثم نزلوا جبل المغيشة (ظهر البيدر) و منها امتدوا الى سن الفيل، و صارت بينهم و بين المردة وقائع. و فى أوائل حكم العباسيين أخرج صالح بن على قوما من الأرمن و اللان ممن كانت الروم تسيرهم من إرمينية مع جاثليقهم و أسكنهم الشام، و من هذا اليوم امتنع ملوك الروم أن يسكنوا فى سلطانهم أحدا من الأرمن و لا سيما فى المواضع القريبة من الثغور أى ثغور الشام أو بلاد قيليقية.

و فى سنة ۱۸۹ أرسل هرون الرشيد منشورا الى ثابت بن نصر الخزاعى أمير الثغور الشامية و مناشير أخرى الى باقى عمال الشام أن يطلقوا التنبيه فى البلاد بالرحيل الى لبنان لتشتد قوة أمرائه. و مثل ذلك وقع منذ خمسة قرون، فهاجرت مئات من الأسر المسيحية فى القرن الرابع عشر و بعده من حوران و ما إليها الى لبنان، و اعتصمت فى معاقله و لا سيما بعد الفتح العثمانى، و ذلك تفاديا من قوة الشيعة فى تلك الديار، كما أن الموارنة انتقلوا من أرجاء حمص و جبل سنير و ظلوا ينتشرون فى شمالى لبنان حتى وصلوا الى كسروان و المتن و الشوف و أقصى لبنان فى جزين، كما انتقل الدروز فى

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۱

الأعصر الثلاثة الأخيرة من الشوف و وادى التيم و غيرهما الى جبل حوران الذى كان يسمى جبل الريان و جبل بنى هلال أو امالدانوس و أصبحوا فيه الأكثرية المطلقة. و كما هاجر النصارى الشرقيون الى القدس من أرض البلقاء و عمان و عرفوا بالمشرقيين و محلتهم بالمشارقة. و بهذا رأينا أن الهجرة من صقع الى صقع من أصقاع هذا القطر و الهجرة من القاصية و الهجرة الى القاصية لم تنقطع فى الإسلام كما أنها كانت كذلك منذ جلاء بنى إسرائيل الى بابل بل قبلها مما لم تبلغنا بالتفصيل أخباره.

التركمان و الأتراك و الأكراد و الشركس و غيرهم:

نزل التركمان على عهد دولة بنى مرداس العربية فى شمالى حلب، و سير الأتابك زنكى طائفة من التركمان الإيوانية مع الأمير اليارق الى الشام و أسكنهم فى ولاية حلب و أمرهم بجهاد الافرنج و ملكهم كل ما استنقذوه منهم جعله ملكا لهم. و لم يزل جميع ما فتحوه فى أيديهم الى نحو سنة ستمائة. و أسكن صلاح الدين كثيرا من التركمان و الأكراد فى لبنان و ساحله. و التركمان و الأكراد كثروا

جدا فی الشام علی عهد الدولتین النوریة و الصلاحیة، و کان قسم عظیم من جند المسلمین إذ ذاک منهم، فتدیروا الأقالیم و استعربوا. و لم تجیء دولة المماليک حتی کثر الشراکسة فی هذه الدیار و استعربوا هم و حکومتهم مع الزمن. و فی عهد العثمانیین نزل قبائل من الترکمان فی بغراس (بیلان) و ما الیها و عادت هذه فتعربت بمن کان نزلها من الإسماعیلیة العرب الذین أخضعوا لسلطانهم تلک الجبال، جبال اللکام و ما الیها.

جاء القرن الحادی عشر و فی الشام کما قال کاتب جلبی أنواع الألسنة کالعربیة و الترکیة و الکردیة و الفارسیة و الهندیة و الأفغانیة و السلیمانیة و هذا کله فی دمشق قال: و هناک مغاربة و سریان و عرب، و فی الإسکندرونة و طرابلس و صیدا و القدس الیونان و اللاتین و الطلیان و الفرنسیون و الاسبان و الإنکلیز و النمساویون و البولونیون و الروس و الموسکوف و القبط و الحبش و الأرمن و جمیع طوائف النصاری اه.

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۲

و من أعظم شعوب أوروبا عراقة فی هذه الدیار البنادقة و البیزان و الجنویون و الطوسقانیون من أهل ایطالیا و کانت أهم تجارة البحر المتوسط فی أیدیهم من القرن الخامس الی القرن التاسع للهجرة و منهم من توالد فی دیارنا و ملک الدور و التجارات الواسعة.

المهاجرون و المحدثون الیهود و الأرمن:

و فی أواخر القرن الماضی جاء الشام قبائل کثیرة و جالیات مهمة من الطاغستان و البشناق و الششن و الشرکس و المغاربة فنزلوا بعض القری فی فلسطین مثل قیساریة، و بعض بلاد الجنوب مثل عمان و عین صویلح و ناعور و وادی السیر، و بعض القری فی إقلیم الجولان و منها القنیطرة و ما الیها من القری، و بعض قری حمص و حلب، فلم یأت علیهم بطن حتی استعربوا محتفظین بلغاتهم الأصلیة، کما استعرب من قبل التراکمة و الأکراد. و هناک بقایا من موظفی الترک سکنوا بعض مدن الشام علی عهد العثمانیین و امتزجوا بأهلها و تعربوا.

و من أهم المهاجرین المتأخرین مهاجرو الصهیونیین من الإسرائیلیین الی فلسطین، و أکثرهم ممن اضطهدوا فی روسیا و بولونیا و رومانیا، و منهم من کانوا من العنصر الجرمانی و هؤلاء یتعاصون علی التعرب و قد جعلوا من لغاتهم الأصلیة و اللغة العبریة ألسنهم المدنیة و الدینیة، و یقدرون الإسرائیلیین عامة فی فلسطین بنحو ملیون و نصف ملیون کان الألمان کثرتهم الغامرة، و قلّ عدد العرب فیها بعد أن طردهم الیهود من أرضهم و قدر عدد النازحین من المسلمین و النصاری بتسعمائة ألف تشردوا فی الأقطار المجاورة، و ما ندری هل یعلّم أبناء إسرائیل العرب لسانهم أم یخضع العبرانیون بحکم الطبیعة الی التعرب بعد جیلین أو ثلاثة کما جری فی کل مکان وطئتها أقدام العرب. و کذلک یقال فی مهاجرة الأرمن و الروم فی الشام، فقد قذفت الحوادث الأخیرة فی قیلیقیة و أزمیر نیفا و مائة و ثمانین الف نسمة أکثرهم من الأرمن، نزلوا حلب و دمشق و بیروت و غیرها من البلدان الصغری.

و قد عاد قسم عظیم منهم فجلا عن الدیار الشامیة، قصد بعضهم الی أمریکا

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۳

و الآخر الی مملکتهم الجدیدة. و ما یدرینا أیضا إذا کان من نزلوا الشام یستعربون کما تترّک أجدادهم فی آسیا الصغری. و أصبح الأرمنی و الرومی لا یعرف غیر الترکیة یتکلم بها فی داره و یفهم بها صلواته، أم یؤلفون کتلة جدیدة فی وسط هذا المجموع العربی الکبیر.

عوامل النمو:

و لو لا أن مضی علی الشام الی قبیل الحرب العامة الأولی خمسون سنة و هو یرسل من أبنائه کل سنة الی الیمن زهاء عشرة آلاف

مجنـد يهلـك أكثرهم كما أكـد لى الثقـة لقلنا ما زالت جزيرة العرب الى اليوم ترسل الى الشام من أبنائها أناسا يسـكنونها و يمتزجون بأهلها كأن هـذه الجزيرة العظيمة بعض ولايات الشام تعطيها أكثر مما تأخذ منها كما تعطى المدن الصـغيرة للعواصم و قلما تعطى هذه لغيرها من أعمالها. و لو لا اعتدال المناخ و الرضا بالدون من العيش و تعدد الزوجات فى الطبقة النازلة من الشـعب و الاعتقاد بالقدر و ترك الأبوين المجـال للتوالـد لظهر عجز كبير فى عـدد السـكان خصوصـا بعـد أن منيت الشـام بالهجرة على مقياس واسع و غفل عن العنايـة بالأسـباب الصـحية. و الأمم يكثر سوادها على قول سـكريتان بأربعـة عوامل و هى الهجرة و الاستيطان و الولادات و الوفيات و بنقيضـها تقفر الأرض و يقل ساكنوها. و قـد كان أبناء الشام منـذ عهـد الدولـة الرومانية فى كل مكان كما تراهم الآن و كان منهم فى جيش جرمـانيكوس القائـد الرومـانى عـدة كتـائب عنـد مـا حمـل حملته على الرين. و البشـر فى فطرتهم التنقل و للسـلطان الأرضـى و السلطان الطبيعى آثار فى ذلك مسطورة مشهورة.

العرب فى الشام و الاختلاط:

و ما زالت الى اليوم سـحنات بعض سـكان الأصـقاع الشامية كحوران و البلقاء تنم عن أصول عربية صـرفة على ما نرى ذلك ماثلا فى الطوائف التى

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۴

احتفظت بأسابها العربية و لم يدخلها دم جديد كسكان الشوف و وادى التيم و جبل حوران و جبال الكلبية. و ما طول القامات و اتساع الصـدور و متانـة العضـلات و الجملـة العصبيـة و الأدمغة فى الأفراد إلا أدلة ناصـعة على ما ورثه الشاميون من الدم العربى. و فى الشام جميع الأمزجـة يكثر الدمويون مثلا فى داخل القطر كالقدس و نابلس و صـفد و دمشق و حمص و حماة و حلب و أنطاكية، كما يكثر الصـفراويون العصبيون فى يافـا و حيفـا و صـيدا و بيروت و طرابلس و اللاذقيـة و الإسـكندرونة من مـدن الساحل. و إن ما فى تركيب أدمغة السوريين من أشكال الرؤوس كالشكل البيضوى المستطيل المعروف عند الافرنج ب (دوليكوسفال-Dolichoce ?phale) الشكل المدور المنبسط المعروف ب (براكيسفالBrachyce ?phale) ليـدل كل الدلالة على مبلغ الشاميين من الذكاء و المضاء فقد قال فوليه: إن اتساع الجبهة يشعر باستعداد الحواس العقلية، و امتداد القذال ينم عن استعداد للشهوات الجسمية.

و فى وجوه السوريين تقرأ بعض أصولهم القديمـة و ما امتزجت به من الـدم الحـديث فسود الشـعور و العيون و البشـرة إجمالا هم من أصل عربى، و شـقر الشـعور و زرق العيون و بيض البشـرة فيهم الدم القافقاسـى. و فى تراكيبهم دم العبيد و الزنوج كما فيهم دم العرق الأبيض. قال جلابرت:

إذا فحصت الصور المكتشـفة فى صـيدا تحققت أنه كـان يـدخل فى خدمـة السـلوقيين رجال من كل فـج و صوب، منهم يونان كأهل لقديمونـة و اقريطش، و منهم أسـياويون كأهل قاريـة و بيسـيدية و ليقيـة و ليديـة، و إن العقل ليحار باختلاط كل هـذه الجنسـيات فى جيوش السلوقيين.

و سـكان الحولة و أريحا و الغور و يقال لهم الموارنة لا يشـبهون بالطبع سكان اللبنانين الغربى و الشرقى و جبال اللكام لمكان الهواء و اختلاـف البعـد و القرب عن سـطح البحر. و ابن ضـفاف العاصـى و بردى ليس فى طـبيعته كالنـازل على ضـفاف الأـردن و الفرات. و الاختلاـف مـا بين من نزل البطون و بين من نزل الحزون و بين من نزل النجود و بين من نزل الأـغوار مشـهود فى كـل أمـة، و مع هـذا تساوى سكان هذا القطر من حيث الجملة كما قال الجاحظ فى العرب: «فى التربة و فى اللغة و الشمائل، و فى الأنفة و الحمية،

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۵

و فى الأخلاق و السـجية، فسـبكوا سبكا واحدا، و أفرغوا إفراغا واحدا، و كان القالب واحدا، تشابهت الأجزاء و تناسبت الأخلاط حتى صـار ذلـك أشـد تشابها فى باب الأعم و الأخص و فى باب الوفاق و المباينـة من بعض الأرحام.» و بعـد فإن من نراهم من أبناء الشام

على اختلاف أرجائه و هوائه هم سلالة أولئك الجدود ظهروا على الزمن بمظهر آخر فكانوا كأبدع الفسيفساء فى الرقعة الجميلة.

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۶

لغات الشام

اللغة الآرامية و السريانية و العبرانية و الفينيقية و العربية:

اللغات التى انتشرت فى الشام قبل الإسلام كثيرة أهمها اللغات السامية أخوات اللغة العربية و هى السريانية و العبرانية و الفينيقية. و قد قسم جويدى أهل اللغات السامية الى قسمين أكبرين شرقى و هم أهل أثور أى أهل بابل و أشور، و غربى و هو إما شمالى و إما جنوبى، فأما الشمالى منهما فينقسم قسمين كبيرين أحدهما الكنعانى و يشمل العبرانى و الفينيقى و غيرهما و الآخر آرامى. و أما الجنوبى فهو نوعان النوع الأول العربية المعهودة أى لغة القبائل التى سكنت النواحى الشمالية من جزيرة العرب، و النوع الثانى عربية القبائل الجنوبية كسبإ و حمير و يشبه هذا النوع لغة الحبش القديمة. و قد يسمى النوع الأول لسان العرب المستعربة و يسمى النوع الثانى لسان العرب العاربة. فالعبرانية من لغات كنعان و من اللغات الكنعانية لغة موآب و من لغات الكنعانيين لغة الفينيقيين و قال: إن اللسان الآرامى هو النوع الثانى من القسم الشمالى فى اللغات السامية، و فى هذا اللسان قسمان أحدهما غربى و هو لسان اليهود المتخلفين فى فلسطين و فى مصر و هو لسان عدة أمم كالسامرة

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۷

و النبط و أهل تدمر، و القسم الثانى شرقى و هو لسان اليهود فى بابل و لسان السريان و غيرهم.

قال: و من اللغات الآرامية الغربية لغة الكتابات النبطية و كان الأنباط أمة عربية الأصل و لغتهم المأنوسة العربية فى التكلم و المحاورة بين الناس.

و الأحرف الهجائية لم تكن معروفة عند العرب.

البابلية و الكنعانية و الكلدانية:

كان أهل الشام منذ الزمن الأطول قبائل سامية من البابليين و لم يزل يهاجر إليها أجيال من الناس سموا الكنعانيين فغلب الكنعانيون البابليين، و باللغة البابلية كتبت رسائل تل العمارنة التى وجدت فى مصر سنة ۱۸۸۸ م و هى رسائل صدرت عن عمال الشام الى ملوك مصر قبل موسى و هارون فاستدل علماء الإفرنج أن اللغة البابلية كانت فى ذلك العهد لغة الحكومة بين الدول الراقية، و ارتأى بعضهم أن الشام كانت تتكلم إذ ذاك بالبابلية، و كان اللسان الكنعانى أخذ يمتزج بلغة بابل، فتغلب بفرعيه العبرانى و الفينيقى على لغة أشور و بابل. و كان الكلدانيون يتكلمون بالآرامية على رأى بوست وفقا لعادة ديوان الحكومة و لكنها لم تكن لغتهم الخاصة و لا العلمية، أما لغة الكلدانيين الأصلية فالكلدانية القديمة و هى لغة أكّد، و قد استعملها سكان بابل الأصليون إلا أنها كانت على و شك الاضمحلال فى زمن بخت نصر و قد هجرتها الألسنة لذلك الحين، و كان ظهور اللغة المسماة الآن بالسريانية فى القرن الثانى بعد المسيح و هجر أهلها استعمالها نحو القرن الثانى عشر.

الحثية و الآرية و اليونانية و اللاتينية:

أما اللغة الحثية فكانت على قول كروفرد فى القرن الرابع عشر و الثالث عشر قبل التاريخ المسيحى لغة مستعملة من اللغات الهندية الأوروبية أى اللغات الأوروبية المشابهة للاتينية و الآرية الايرانية و الارمنية، و أن الحثيين أنفسهم من سلالة آرية أوروبية، و لكن

امتزج بهم مع الزمن دم من

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۸

غير الـدم الآرى الأوروبى أى إن الحثيين من أصل غير سامى و لم تنتشـر لغتهم كما قال حتى بين العامـة و لم يتوفق البحاثون الى حل رموزها حتى الآن. فاللغة البابلية كانت منتشـرة فى الشام منذ زهاء ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح، ثم تغلبت الكنعانية التى تشمل العبرانية و الفينيقيـة، ثم تغلبت الآراميـة على الكنعانيـة و همـا متشابهتان. و لما صار الأمر الى الفرس بعـد البابليين فى الشام بقيت اللغـة الآرامية اللغة الرسمية.

و فى دولة الروم السلوقية بث خلفاء الإسكندر المدنية اليونانية فى سكان سواحل البحر المتوسط، و كانت مع هذا الى ضعف و لا سيما فى لبنان إذ دام أهله على استعمال الآراميـة ممزوجـة باللغـة الفينيقيـة، و كانت اليونانيـة اللغـة الرسـمية و لغة العلماء على عهد الروم و الرومان أيضا منتشـرة فى كثير من الأرجاء. و كانت مدرسـة الفقه فى بيروت تـدرس باللاتينيـة مـدة أربعـة قرون. و لكن اليونانيـة على تأصلها بالنسبة للاتينية لم تشع فى العامة.

و لمـا استولى الإيطوريون على لبنان لم يغيروا شـيئا من لغته و لا شك فى أن لغتهم كانت العربيـة الآراميـة. أما النبط و هم من أقارب الإيطوريين و جيرتهم فإن لغتهم لم تكن سوى لجة آرامية.

و ذكر أحد الباحثين أن الرومان لما جاءوا الشام و استعمروه انتشرت اللغة اليونانية فى المراكز الكبرى حتى نسى كثيرون اللغة الفينيقية و اللغة الآرامية و لا سـيما فى طبقة الأشـراف و أصحاب الثروة، و بقيت اللغة اللاتينية لغة الحكومة، و حافظ العامة على اللغة الفينيقية و السـريانية، و كان الفقهاء يكتبون باللاتينيـة لغـة الفقه و القضاء، و الأدباء و الفلاسـفة باليونانيـة، و هى اللهجة العامة فى الشـرق، و اللغة الآراميـة هى اللغـة الرسـمية فى دولـة تـدمر. و ظل الشاميون يتكلمون اليونانيـة على عهـد انتشار النصـرانية و كذلك عمال الحكومة و رجال القضاء، و كان الآراميون او الأنباط، كما كان يسميهم العرب، فى كل محل ما عدا المدن التى كانت مزيجا من عناصر مختلفة.

تنازع السريانية مع العربية:

كانت السريانية لغة عامة فى الشام لم تدثر إلا بتملك الرومان على

خطط الشام، ج۱، ص: ۳۹

الشـرق و نشـرهم لغتهم فيه، فـدثر مجـد السـريانية و لم يبق إلا القليل حتى جاء الإسـلام و أدخل العربيـة. و كانت السـريانية على عهد المسـيح اللغـة العامـة فى سوريـة و فلسـطين ممزوجـة بقليـل من العبريـة. و رأى دى فوكويه أن جميع الكتابـات الـتى وفق العلمـاء الى اكتشافها لا تتجاوز القرن الأول قبل الميلاد و اللغة التى كان شـعوب سورية يتكلمون بها إلا ما ندر هى اللغة الآرامية و جميع الكتابات التى عثروا عليها فى تـدمر و حوران و أرض النبطيين كتبت بهذا الفرع من اللغة السـريانية. و اللغة التدمرية و اللغة اليونانية هما الغالبتان على الكتابات المكتشـفة فى تدمر. و كانت اللغة اليونانية بمنزلة اللغة الرسـمية فى جميع الأقاليم الشـرقية الخاضعة لدولة الرومان. و أما لسان أهل تـدمر فهو لهجـة آراميـة على غاية الشـبه بالسـريانية. و قال بعضـهم: إن التدمرية من اللغات الآرية الغربية تشـبه النبطية و فى بعض هذه الكتابات اسم ملكهم أذينة.

و من اللغات الكنعانية لغة موآب فى شـرقى فلسـطين. و فى متحف باريز كتابة قديمة فى هذه اللغة وضعها ملك اسمه ميشع يذكر فيها حروبه مع عمرى ملك الأسباط (أسباط بنى إسرائيل) و يقال لهم فى كتب العرب ملوك الأسباط.

رأى رنان:

و ذكر رنـان أن الفينيقيين كانوا الواسـطة الوحيـدة بين العنصـر السامى و سائر العالم، و كثيرا ما عرفوا بأنهم اخترعوا أمورا ما كانوا فيها

إلاـ نقلـة. و مـا الفينيقيون سوى سماسـرة مدنيـة كـانت بابل مقرها، و ظاهر الحال يـدعو الى الاعتقاد بأن بابل التى علّمت العالم أصول المقاييس و الموازين قد اخترعت حروف ألف باء مركبة من اثنين و عشرين حرفا. قال:

و كانت اللغة العبرية لغة الشعوب فى فلسطين عند ما دخل بنو إسرائيل الى الشام و قد ذكرت أسماء الشعوب المذكورة فى الإصحاح العاشر من سفر التكوين بجلاء و وضوح الأمم المجاورة لفلسطين، و جعلت اسم كنعان رابطة من روابط القربى بين جميع شعوب الساحل و لبنان، من مدينة حماة و أرواد فى الشمال الى جرار (فى فلسطين) و البحيرة المنتنة فى الجنوب،

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۰

و هم مجموعة الشعوب التى كان اليونان يطلقون عليهم اسم الفينيقيين.

آراء أخرى:

و ذكر يوسف داود أن لسان أهل فلسطين و لا سيما أورشليم فى عصر المسيح الآرامى أى السريانية، فكانت اليونانية لغة أجنبية يتكلم بها كثير من الغرباء النازلين فى الشام و هى لغة الحكام و الحكومة فى عهد تلك الدولة.

و كثيرا مـا كـانوا يكتبون بعض المقـدسات على ذاك الـدور بـالعبرانى او السـريانى و اللاتينى و اليونانى، و كان يحرم على اليهود فى فلسطين و لا سيما الرجال أن يتعلموا اللغـة اليونانية و يباح للنساء تعلمها من باب التزين الجائز لهن. قلت: و هذا من التحكمات الباردة مثل الأمر الصادر عن أحـد خلفاء بنى العباس من أخـذ أهل الذمـة بتعلم اللغـة السـريانية و العبرانية و ترك العربية و لكن أمره لم ينفذ لأنه غير معقول.

و قيل: إن الآراميـة كانت لغـة العامـة فى عهـد المملكـة الأشوريـة و أن الأشوريـة اللغـة الرسـمية، و كان الموظفون فى العهد البيزنطى القادمون الى الشام يعتمـدون على التراجمـة مع الأهلين المتكلمين بالآراميـة. و لما انقضـى العصـر البابلى الأشورى حلت اللغة الآرامية محل البابلية فى السياسة و التجارة، و أصبحت اللغة الرسمية لملوك فارس و آرام و تدمر و البتراء. و كانت اللغة الفينيقية تختلف عن السـريانية فى القرن الأول قبل الميلاد ثم تمازجتا حتى أصبحتا شيئا واحدا، و كانت اللهجة العامة عند يهود فلسطين و هى أقرب الى الآراميـة منهـا الى العبريـة، يطلـق عليهـا بين اليهود أنفسـهم اسم اللغـة العبريـة و هى تختلف عن لغتهم المقدسـة. و ذكر رنـان أن اللغة السـريانية الكلدانيـة كـانت أكثر اللغات انتشارا فى أرض الجليل و أن المسـيح كان يتحـدث بها الى الناس، و أن الأناجيل كتبت لأول أمرها باليونانيـة و أصبحت هـذه فى الشام لغة عامة و لغة علم، و كان من نتائج ذلك دخول الألفاظ اليونانية فى اللغة السـريانية بكثرة زائدة حتى إن اللغة اللاتينية لم يكن لها تأثير البتة بين الشعوب لسامية، فمن القواعد العامة أن الفتح الرومانى لم يستطع أن يقضى على استعمال اللغة اليونانية فى القطر و قد رآها متأصلة فيه،

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۱

على حين كانت اللغة اللاتينية تنتشر فى أرجاء الغرب انتشارا هائلا.

و بعـد انقراض دولـة الحثيين فى القرن الثـامن قبل الميلاد عم اسم آرام بلاد الشام، فأصـبح القسم الأكبر منها يسـمى آرام، و سـكانها يدعون بالآراميين و هم الذين اختطوا حلب أو حلبون و عادت اللغة الآرامية الى شيوعها فى جهات حلب تمازجها اللهجة البابلية بدليل ما يشاهد فى أرجائها من أعلام الأمكنة التى ما زالت تلفظ على أصـلها بالفتح الى اليوم، و سادت اللغة اليونانية بظهور الدولة السـلوقية و كانت لغة الخاصة و العلماء و رجال الدولة.

و لما تقلص ظلها عادت السـريانية الى ازدهارها يخالطها فرعها التدمرى الذى انتشـر إذ ذاك فى سورية الشمالية على عهد سيادة تدمر فى صدر النصرانية.

و من الأقلام التى بقيت فى لبنان الكتابة الكرشونية و هى عربية بأحرف سريانية و قد كتب كثير من كتب الموارنة بالكرشونى.

انتشار العربية:

هذا ما كان من أمر اللغات السامية و اللاتينية و اليونانية فى الشام. أما اللغة العربية فكان يتكلم بها قبل الفتح الإسلامى بزمان طويل لما ثبت من انتشار الغسانيين و التنوخيين و النبطيين و السبأيين و غيرهم فى الشمال و الجنوب و كانت حوران و البلقاء و الشراة من الأصقاع التى سبقت غيرها فى هذه السبيل. بدليل ما يشاهد من أسماء بعض قراها العربية مثل جرش، جاسم، تبنة، أذرعات، أذرع، محجة، السويداء، البتراء، نجران، القسطل، القناطر، الحفير، الخ و ذلك لأن هذه الأقاليم الثلاثة كانت أقرب الى الاتصال بالعرب من الجنوب. و كان السابقين الى نشر العربية فى ديارنا الوثنيون من العرب أولا ثم نصارى العرب و يرجع اليهم الفضل فى نشرها بادىء الأمر، فلم تلبث اللغة ستين أو سبعين سنة للفتح الإسلامى أن عم انتشارها فى الشام و نقلت الدواوين زمن عبد الملك من اليونانية الى العربية و نازعت اللغة العربية السريانية فبذتها على صورة مدهشة، و إن كان الضعف قد دب فى هذه قبل الإسلام. و تغلبت العربية لغناها و سلاستها و ضبط قواعدها و شدة احتياج الناس إليها فى مصالحهم. قال ابن خلدون: و لما

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۲

هجر الدين اللغات الأعجمية و كان لسان القائمين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها فى جميع ممالكها، لأن الناس تبع للسلطان و على دينه فصار استعمال اللسان العربى من شعائر الإسلام و طاعة العرب. و هجر الأمم لغاتهم و ألسنتهم فى جميع الأمصار و الممالك و صار اللسان العربى لسانهم حتى رسخ ذلك لغة فى جميع أمصارهم و صارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها و غريبة اه.

العربية لغة كاملة و فصاحة الشام:

يقول رنان: من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر، و صعب حلّ سره، انتشار اللغة العربية. فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء بدء فبدت فجأة على غاية الكمال، سلسلة غنية و أى غنى، متقنة بحيث أنها من ذلك العهد الى يومنا هذا لم يدخل عليها أدنى تعديل مهم، فليس لها طفولة و لا شيخوخة، ظهرت لأول أمرها تامة، و لا أدرى إذا كان وقع مثل ذلك للغة من لغات الأرض دون أن تدخل فى أطوار و أدوار مختلفة. قال:

و ما عهدت فتوح قط أعظم من انبساط ظلّ العربية و لا أشد سرعة منها، فإن العربية و لا جدال قد عمت أجزاء كبرى من العالم، لم ينازعها الشرف فى كونها لغة عامة أو لسان فكر دينى أو سياسى أسمى من اختلافات العناصر إلا لغتان اللاتينية و اليونانية، و لكن أين مجال هاتين اللغتين فى السعة من الأقطار التى عم انتشار اللغة العربية فيها.

قلنا: و ربما ذهب الشام بفضل هذا الشرف الأعظم، و لعله سبق العراق و مصر فى الأخذ بمذاهب العرب. لقرب أهلها من خطط العرب و لا سيما أهل الحجاز و بعدهم عن بلاد العجم، حتى إن كتّاب الدولة الأموية استعملوا من الألفاظ العربية الفحلة و المتينة الجزلة ما لم تستعمل مثله الدولة العباسية، لأن كتّاب الدولة الأموية قصدوا ما شاكل زمانهم الذى استفاضت فيه علوم العرب و لغاتها حتى عدت فى جملة الفضائل التى يثابر على اقتنائها.

و ليست استفاضة لغة العرب فى العراق كاستفاضتها فى أرض الحجاز و الشام. و قال اليزه ركلو: إن أهل دمشق أكثر السوريين عراقة فى

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۳

العربية و ذلك لعلاقتهم المتصلة بالتجارة مع مكة و اللهجة العربية فيها أجمل من سائر لهجات الشام. و كان محمد عبده يقول: إن الفصح فى لغة الشام أوفر مما هى فى لهجة مصر.

كيف انتشرت العربية:

و إذا أردنا استقراء الطرق فى نشر العربية فى الشام لم نرها حاربت لغة القطر الأصلية على رسوخها فيها، بل سارت فى نشرها سير تعقل، و راعى دعاتها سنن الطبيعة و النشوء، و عملت قاعدة الانتخاب الطبيعى عملها فى اللغة كما عملت فى العناصر، فبقى ما هو مفيد للناس فى مصالحهم على اختلاف نحلهم و مللهم. و منذ عدل فى القرن الأول عن اللغة الرومية فى الدواوين لم تبرح جميع الحكومات التى تعاقبت على هذه الديار تستعمل اللغة العربية فى مفاوضاتها و سجلاتها، على أن منها الكردى و التركى و الشركسى إلا الدولة العثمانية فى آخر عهدها فإنها ألغت الديوان العربى من مراكز الحكومات السورية و الفلسطينية و اكتفت بالدواوين التركية، و على كثرة عنايتها بلغتها فى الثمانين سنة الأخيرة لم توفق الى نشرها إلا بين الموظفين فقط، فكان شأنها هنا شأنها فى رومانيا و صربيا و بلغاريا و يونان و البانيا، أمتد سلطانها عليها قرونا و مع هذا لم تستطع نشر لغتها بين سكانها اللهم إلا بعض ألفاظ شاعت فى المصطلحات اليومية. و العرب أجدر من غيرهم بأن يحرصوا على لسانهم و هو لسان مدنية و دين معا، و أن لا يتخذوا عنه بديلا و هو متأصل فى هذه الديار قبل الإسلام.

اللغة الصفوية:

الى الجنوب الشرقى من دمشق فى مدخل بادية الشام حول الصقع البركانى المسمى بالصفا، يعثر الباحث على كتابات كثيرة زبرت على الصخر البركانى و الشعب الذى خط هذه الكتابات فى القرون الأولى للميلاد هو من أصل عربى، و لغته من اللهجات العربية، و خطه من فصيلة خطوط ديار العرب الجنوبية. و بفضل هذه الكتابات تعرف إحدى اللغات التى كان

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۴

يتكلم بها فى بادية الشام قبل الإسلام، و نقف على مقام رحالة من العرب كانوا على و شك أن ينتقلوا الى اتخاذ البيوت و عيش الحضارة فى الشام.

أما الصفويون فلم يكونوا أول من قصد الى أرض الميعاد و لا آخرهم، بل هم وحدهم الذين عرفناهم قبل أن يتحولوا تحولا كليا أى عند ما كان لهم لسانهم و خطهم و أربابهم و عاداتهم. فمن الخطإ الاعتقاد بأن دخول العناصر العربية الى الشام يرجع فقط الى الفتح الإسلامى و اختراق المسلمين صفوف الروم فى وقعة اليرموك و مهاجمتهم الشام، ثم انتشارهم فى الشرق حتى أواسط آسيا، و فى الغرب حتى أقاصى شمالى إفريقية ثم الى اسبانيا. هذا الهجوم قد دل على بلوغ دولة العرب غاية مجدها، فإذا ظهر أن الفتح الإسلامى قد كان من الحوادث الشاذة فهو فى الحقيقة نتيجة حركة عادية طبيعية نشأت من اختلاط العرب على الدوام بسكان الحضر و دخولهم أصقاعهم، هذا رأى دوسو و قال: لا ينبغى أن يفهم من لفظة العرب سكان جزيرة العرب فقط بل إنه يتناول أهل الظعن الذين يطوفون أواسط جزيرة العرب و شمالها و جميع بادية الشام.

الصليبيون و لغاتهم و العربية و لبنان:

و ما برحت العربية تتأصل القرن بعد القرن فى هذا القطر، حتى كانت الحروب الصليبية فخشى عليها أن تنازعها الأولية لغات الصليبيين، خصوصا بعد أن طال مقامهم فى أنطاكية و الساحل نحو قرنين يتكلمون بلهجات مختلفة أهمها الطليانية و الافرنسية. بيد أن اللغة الفرنسية كانت لغة جميع الغربيين النازلين فى الشرق، و كان معظم فرسان الصليبيين من الفرنسيين و منهم جميع الأسر الحاكمة فى الشام، على أن بعض أمراء الإفرنج من الصليبيين كانوا تعلموا اللغة العربية و منهم صاحب قلعة الشقيف، و جاء منهم من ضرب النقود بالعربية مثل أصحاب عكا و صور و بيروت و طرابلس و رسموا عليها حروفا كوفية على شبه النقود الإسلامية، مع رموز نصرانية كالصليب و آيات من الكتاب المقدس. و أصبح نساؤهم ينتقبن كالمسلمات و يلبسن ثياب المسلمات مثلما كان رجالهن يلبسون

ثياب الوطنيين.

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۵

ثم إن بعض أنحاء لبنان قد تأخرت فى التعرب بجملتها حتى القرن الرابع عشر للميلاد فيما قيل، و قلّ انتشار العربية فى أعالى لبنان و ظلّ السكان فى عدة قرى يتكلمون بالسريانية و ذلك لقلة المخطوطات العربية و لا سيما بين الموارنة. و كان أهل بشرّى و حصرون و القرى المجاورة لهما الى قبيل مئة سنة يتكلمون بالسريانية، كما بقيت الى اليوم ثلاث قرى فى جبل قلمون أى سنير و هى جبعدين و معلولا و بخعة يتكلم المسلمون من أهلها و المسيحيون مع العربية باللغة السريانية، و سريانيتهم أفصح من السريانية العامة اليوم فى آثور و الجزيرة و العراق على ما قاله العارفون.

اللغة التركية:

و بينا كان جبل لبنان الشرقى و الغربى يحفظان فى مغاورهما بقايا اللغة السريانية التى انحصرت فى الأديار و البيع، بعد أن انهزمت أمام العربية، كانت بعض أرجاء جبال اللكام و ما اليها تؤوى من اللغات اللغة التركية او التركمانية. و عند ما رحل الأشرف قايتباى سنة ۸۸۲ ه من مصر الى أقصى الشام كان الأهلون من اللاذقية الى البيرة (بيره‌جك) يتكلمون بالتركية.

قال مؤلف رحلته: و أهل البيرة يتحدثون بالعربى اللطيف أكثر من التركى بخلاف ما تقدم من البلاد، فإنه من حين توجهنا من اللاذقية و الى البيرة لم يكن كلامهم إلا التركى.

و لم نعرف العهد الذى انتشرت فيه التركية فى الحدود الشمالية من الشام معرفة أكيدة، و المتكلمون بالعربية فى بعض الجهات أكثر من المتكلمين بالتركية. و من شأن أقاليم التخوم على الأغلب أن تتكلم بلغتين و منهم من يتكلم بثلاث. و نزول الأتراك فى جزء صغير من شمالى الشام أقدم من زمن العثمانيين و ربما كانوا من زمن السلجوقيين و الأتابكيين. و مدينة حلب برزخ بين الديار العربية و الديار التركية. و على نحو أربعين كيلومترا من شمالى حلب يقلّ المتكلمون بالعربية و تصبح الأقاليم الى التركية أقرب و تتكلم بعض قرى كليس بالعربية و التركية و الكردية، و جميع السكان عرب من شرق حلب و غربها، ما عدا بعض قرى من عمل حارم فسكانها من

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۶

الشركس. و سكان العمق أكراد. و فى قضاء الباب قليل من التركمان و الأتراك و الأكراد و الشركس. و أهل قضاء منبج شركس و فيهم عرب، و تغلب التركية على أهل عمل الإسكندرونة. و من أهل أنطاكية من يتكلم بالتركية و منهم من يتكلم بالعربية. فيصح أن يقال فيهم: إن تركيهم تعرب و عربيهم تترك. و بعض أهالى قضاء بيلان (بغراس) يتكلمون بالتركية و كذلك ناحية أردو، و العربية غالبة عليهم، يتكلم نحو نصف سكان مدينة أنطاكية بالتركية و لكن أصولهم عربية على الأكثر و ثمانون فى المئة من أهل عملها هم عرب لسانا و جنسا، و هكذا يقال فى بيلان و كليس و أردو، و لا يمكن أن نثبت بإحصاء صحيح أن الأتراك يؤلفون فى الشام كتلة واحدة و وسطا واحدا كما أن التركمان و الشراكسة و الطاغستان و الششن و البشناق و الأكراد و المغاربة لم يؤلفوا شيئا من ذلك، و تراهم يتمازجون كلهم بالبوتقة العربية و يندمجون فى العرب. شأن سكان فرنسا و المانيا و ايطاليا و غيرها من الممالك التى كانت جامعتها لسانها، و لا يزالون فى الحدود و أواسط القطر يتكلمون بغير لغة الدولة التى يظلهم علمها.

السواد الأعظم و العربية:

ليست العبرة ببقعة مخصوصة و إنما هى بمجموع القطر الذى يراد أن تعزى اليه جنسية أو قومية معروفة و إلا فقد لزم من ذلك أن تعد ولاية أذنة اليوم أو جزء عظيم منها عربية لأن نحو مئة الف من سكانها عرب بأصولهم، و لسانهم عربى على تأصل الدول التركية و

التركمانية فى صقعهم، و هم فى بعض الأنحاء المتاخمة للشام من جبال اللكام يؤلفون أكثرية السكان.

و إذا كان يغلب على بعض سكان الجهة الشمالية من الشام التكلم بلغات متعددة فإن ذلك نتيجة طوارىء تاريخية و دولية، بل نتيجة حكم الغالب على المغلوب و ميل هذا الى التشبه بغالبه. و من الثابت أن سكان الحدود آخذون أنفسهم بحكم الضرورة بتعلم لغات السكان المجاورين ليتمكنوا من التفاهم و إياهم فى المصالح المشتركة المتبادلة و لا سيما الاقتصادى منها كما هو المشاهد فى كل مملكة من الممالك. و ما الترك فى أنطاكية و إسكندرونة إلا مهاجرون

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۷

مثل مهاجرة السوريين فى نيويورك و سان باولو و من يحاول أن يلبس أنطاكية و الإسكندرونة ثوبا تركيا هو كالواقف أمام البداهة، و الأولى أن ينظر إذ ذاك الى عرب مرسين و طرسوس و يردوهما الى الشام. و ما هما من حيث الجغرافية و اللسان إلا شاميتان. و بعد فإذا أردنا أن نحصى المتكلمين فقط بغير اللغة العربية فى الشام بحدوده الطبيعية لا نراهم يزيدون على ستمائة الف من عناصر مختلفة وسط سكان يربى عددهم على سبعة ملايين.

و العربية مع هذا تأخذهم فتعربهم و أكثريتهم يهود ثم أرمن و سريان و الباقون مسلمون يرون تعلم العربية فرض عين عليهم أو نصارى من أصول عربية يحرصون على لغتهم كما يحرص المسلمون عليها.

رسوخ اللغة:

إذا عرفت هذا فقد ساغ لك أن تقول: إن اللغة العربية دخلت واسعة النطاق الى الشام من الجنوب منذ خمسة و عشرين الى ثلاثين قرنا و زادت بالإسلام رسوخا و انتشارا. و لم يمض القرن الأول حتى استعربت و امتزج العرب الفاتحون و المهاجرون بالسكان من السريان فأصبحوا أكثرية مع الزمن و غلبت على الكافة الصبغة العربية غلبة الانكليزية على أهل كندا و الولايات المتحدة الأميركية فى القرون الأخيرة. و ما أهل كندا و أميركا الشمالية إلا مهاجرة من انكلترا و فرنسا و المانيا و ايطاليا و هولاندة و اسبانيا و المجر و روسيا و غيرهم من الأمم غدوا أمير كانا بقوميتهم انكليزا بلغتهم و مناحيهم.

و ليس فى الأرض فيما نعلم صقع تكوّن أهله من عنصر واحد و خلا من عناصر دخيلة امتزجت فيه، بل إن الأمم الكبرى فى الغرب و هى خمس أمم أو ست مؤلفة من بضعة أجناس من الناس جمعتها لغة واحدة، و ليس عمر أقدم لسان من ألسنة العالم المتمدن اليوم أكثر من عشرة الى اثنى عشر قرنا، على حين أن عمر العربية فى الشام أكثر من ذلك بضعفين على أقل تقدير. و كلما دخل هذا الجسم جسم جديد تلقح به و أدغم فى مجموعه فزاده قوة و مضاء.

لم ترسخ اللغتان اليونانية و اللاتينية فى هذه الديار رسوخ السريانية أولا

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۸

و العربية ثانيا، و ذلك لأن اليونان و الرومان كانوا فيها مستعمرين و لم يكونوا من أهلها كما كان السريان. و من أجل هذا لم يؤثر حكم الروم و الرومان هنا على طول عهدهما فى قلب لغة السكان، بل تعلمها بعض أفراد كما يتعلم بعضنا التركية و الفرنسية و الانكليزية و غيرها من اللغات التى حكم أهلها الشام أو كانت لنا بأربابها علاقة تجارية أو سياسية أو علمية، بل كما كان بعضهم يتعلم فى القرن الماضى اللغة الطليانية لقلة مدارسنا و مدارس الأمم الأخرى يومئذ.

الشاميون أمة واحدة لسانهم العربية فقط:

قلنا من محاضرة فى سكان الشام و لغاته: مهما قيل فى كثرة عدد المتكلمين بالفرنسية فى بيروت و بالعبرية فى القدس و بالتركية فى حلب، و مهما اختلفت درجة العواطف من حيث حب العربية، فالبلاد عربية صرفة و السكان عرب مهما ضعفوا و ضعفت مشخصاتهم.

و لا ينسبون الى غير أمهم و لا يدعون إلا لآبائهم. يقولون: إن من تعلم لغة قوم أحبهم فما أحرى أن يحب المرء أولا أرضا أنبتته، و أهلا تجمعه و إياهم جامعة الوطن و الجنس و اللسان. نحن فى الشام أمة واحدة مهما حاول المحاولون أن يجعلوا بيننا فروقا. و المذاهب ما كانت و لن تكون معيارا فى هذا الباب. المارونى و الكاثوليكى و الأرثوذكسى و الإنجيلى و العلوى و الإسماعيلى و العبرى و غيرهم تربطنا بهم رابطة أجمع من كل الروابط، رابطة المصلحة الواحدة و الوطن المشترك، و قرابة الجنس و أواصر اللغة.

إن كنت أحب بيتى فما أولانى أن أحب سكانه. إن كنت لا أرى عدتى فى شدتى، غير أمتى، فما أحرانى أن أرعى ذمامها، و أحمى مشخصاتها، و أول المشخصات فى شعب هو لغته. و معظم الأمم الحديثة تكونت تحت رايتها، و سادت و شادت بتأثيرها. من اللغات يا قوم ما لا ينطق به أكثر من بضعة ملايين كالدانيمركية و السويدية و الفنلندية، مع هذا تجد بين أبنائها- من الصلات على اختلاف فى المذهب- و من التناغى بحب قوميتهم ما لا يقلّ عن تغالى الانكليزى و الالمانى و الفرنسى و الطليانى

خطط الشام، ج۱، ص: ۴۹

و السلافى بحب لغته و قوميته و هو ابن أمة عظيمة.

ليست العربية من اللغات الميتة حتى يزهد بعض أبنائها فيها. بل هى لغة سبعين مليونا من البشر نازلين فى أجمل أقطار الأرض فى إفريقية و آسيا، و لسان دينى لثلثمائة و خمسين مليونا من المسلمين. و لسنا معاشر أهلها دون ارقى أمم الحضارة الحديثة بعقولنا و ذكائنا فتاريخنا موضع الدهشة على توالى الأحقاب، و إنا إذا عرانا بعض الضعف فقصرنا عن اللحاق بالسابقين، لا نلبث بتماسكنا و تفانينا بحب قوميتنا و لغتنا أن نساوى غيرنا قريبا. و كم من أمم عراها أكثر مما عرانا من ضعف الملكات، و ضياع المقدسات و المشخصات، فنفضت عنها غبار الخمول يوم صحت إرادتها على أن لا تموت بصنعها، و قامت تجادل و تجالد فى معترك المدنية فأتت بالعجب العجاب.

نحن أهل الشام أمة واحدة، و لا خير لأبناء الوطن الواحد إلا من أنفسهم. فقد نزح عنا منذ سبعين سنة الى أميركا و غيرها نحو مليون من أبنائنا و ما زلنا معاشر السواد الأعظم هنا نهتم لهم أكثر من اهتمامنا لأمة لا تربطنا بها جامعة اللسان و الجنس. و هم على شاكلتنا يهتمون ببلادهم و لغتهم و ما يقوّمها. و ما ننس لا ننس يوم كانت اللغة العربية يحفظ تراثها فى الأعصر الأخيرة فى بيع لبنان و أدياره، أكثر من حفظه فى جوامع دمشق و حلب و مدارسهما، و يوم كان فى اللبنانيين الغيورون على مجدها العالمون بما يصلحها الساعون الى نشرها.

لا يفلح قوم لا يتساندون. و كل شعب وضع قوميته فى الذروة العليا من الكرامة يوقّر و يبجّل. و من لى يوم الكريهة غير حمى أخى و جارى ألجأ اليه. المرء كثير بأخيه، و لن تضام أمة عرفت نفسها. نحن عرب قبل أن نكون مسيحيين و مسلمين، نحن شاميون قبل أن نكون أمويين و عباسيين و سلجوقيين و عثمانيين.

سعادتنا مناط الاحتفاظ بأصولنا، و لا تمثلنا إلا قوميتنا، و أعظم قوة لها لغتنا، و السلام.

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۰

تاريخ الشام قبل الإسلام

أول شعب غزا الشام و الحثيون و الكنعانيون:

ذكر أهل الأخبار و السير أن الشام كانت يوم عرف تاريخها مغشاة بالأشجار، و لا سيما فى اللبنانين الغربى و الشرقى، فجاءها من بلاد أشور رعاة نزلوا القسم الشمالى منها و ما زالوا يتقدمون فى فتوحهم حتى بلغوا معظم سواحل الشام و استولوا على عكا. و انقسم هؤلاء الرعاة و اسمهم عمو أى الشعب الى قسمين: قسم أقام على تربية الماشية فى السهول، و احترف القسم الآخر بالاحتطاب فى الجبال، أو

بالصيد على شواطىء البحر و ضفاف الأنهار، و قيل: إن ذلك كان فى القرن السادس عشر قبل الميلاد و لعله يرد الى أكثر من خمسة آلاف سنة، و لم يعرف من كان سكان القطر يومئذ.

و الغالب أن من أقدم الشعوب التى استولت على الشام الحثيين فى الشمال و الكنعانيين فى الجنوب. و الحثيون لم يعرف عنهم إلا أنهم كانوا وراء جبال طوروس بادىء بدء يسكنون الحوض الأعلى من نهرى الفرات و قزل ايرمق خضعوا أولا للكلدانيين، ثم توسعوا فى ملكهم، و استولوا بقيادة ملكهم سابا لولو على الشمال، و امتدوا الى وادى العاصى فاستصفوه برمته، و بنوا مدنا مثل كركميش (جرابلس) على الفرات و قادس على العاصى، و ربما كانت مدينة حلب أيضا من بنائهم. و فى رسائل تل العمارنة التى وجدت فى صعيد مصر بيان واف فى الجملة لحالة هذه الدولة الحثية

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۱

التى حاربت فراعنة مصر أربع عشرة سنة فلم يظفر بهم الفراعنة حتى جاء ستى الثانى فحاربهم و قهرهم.

كان الكنعانيون ينزلون فى جنوب الشام و فى وسطه. و نسبتهم لكنعان جد القبائل التى سكنت غربى الأردن، قتل الإسرائيليون أكثرهم و استعبدوا معظم من لم يقتل منهم. و كانت حدود أرض كنعان الأصلية من مدخل حماة شمالى لبنان الى البادية، و لم تمتد الى ساحل البحر لأن الفلسطينيين ما زالوا الى أن انقرضوا يسكنون ذلك الساحل، و قد سكن أرض كنعان عدة أسباط ورد ذكرهم فى التوراة كالحثيين و اليبوسيين و الأموريين و الجرجاشيين و الحويين و الفرزيين و العرقيين و السينيين و الاروادين و الصماريين و الحماثيين. و كان فى أرض كنعان ۱۱۸ أو ۱۱۹ مدينة ورد ذكرها فى جدول عثر عليه فى هيكل الكرنك من صعيد مصر يظن أنها المدن التى افتتحها تحوتمس الثالث من ملوك الفراعنة قبل أيام يشوع.

و فى معجم لاروس أن أرض كنعان أو بلاد كنعان يحدها من الغرب البحر المتوسط، و من الشرق نهر الأردن، و من الشمال خط آخذ من الأردن الى البحر، و من الجنوب خط يسير من البحر الميت الى البحر المتوسط.

و فى التوراة أن المولى تعالى وعد بنى إسرائيل بهذه الأرض و من ذلك جاء اسمها أرض الموعد. و فى أسفار موسى و سفر يشوع أن بنى إسرائيل استولوا دفعة واحدة على هذه الأرض بقيادة يشوع، و لكن تبين من الوثائق التى عثر عليها أن الأمر لم يكن كذلك و أن فتح أرض كنعان لم يكن بهذه السرعة تاما كاملا- على ما جاء فى التوراة، فقد تمكن بنو إسرائيل من الاستقرار بصورة دائمة بالحرب و الحيلة على هذه الأرض التى كان يسكنها قبائل مستضعفة من اليبوسيين و الجرجاشيين و الفرزيين و غيرهم من أصل كنعانى أو أمورى حتى خراب مملكة يهوذا على أيدى الكنعانيين فى سنة ۵۸۸ ق. م.

تعدد الحكام و الحكومات:

و على كثرة عناية علماء النصرانية بتاريخ الأرض المقدسة أو فلسطين أو

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۲

أرض إسرائيل أو أرض الموعد لم يبرح تاريخها غامضا بعض الشىء لقلة المصادر التى يركن إليها و أكثرها أشبه بتقاليد و أساطير منها بتاريخ.

و هكذا يقال فيما عرف من تاريخ وسط هذا القطر و شماله فى العهد القديم.

و كان أكثر إماراته مستقلا متعاديا شأن الشطر الجنوبى منها. و إذا لم تكن البلاد كما قال بوست تحت حكم القضاة و الملوك حكومة واحدة كثرت فيها التغيرات و تعددت القضاة كشمشون و جدعون و يفتاح الى أن اجتمعت كلمة شعب إسرائيل على إقامة ملك، و لما انقضى ملك سليمان و قام ابنه رحبعام انقسمت المملكة الى مملكتين مملكة إسرائيل و مملكة يهوذا، و بعد أن تقلبت الأحوال على هاتين المملكتين أخذتا بالانحطاط الى أن سبى الأشوريون الإسرائيليين و البابليون يهوذا. و جملة الزمن الذى مضى من

ملک داود الی سبی بابل نحو خمسمائة سنة.

الفراعنة و الأشوريون:

كانت الشام بين عاملين بل بين سلطانين قويين العامل، الأول دولة الأشوريين و البابليين إذا قويت إحداهما يمتد سلطانها على الشام أو تكتفى من أهله بالجزية و تجنيد بعضهم. و إذا كانت القوة لفراعنة مصر حكموا الشام أو اقتنعوا من سكانها بالجزية و بعض الجند. و قد ظلت الشام تابعة لمصر و أحيانا كانت تبعيتها اسمية نحو أربعة قرون. فقد فتحها تحوتمس الأول و تحوتمس الثالث، و فى أيام تحوتمس الأول تجلت حدود الشام على الفرات.

و ظل الشام فى حكم الفراعنة الى عهد رعمسيس الخامس. و لما خلص من المصريين داهمه الأشوريون فاستولوا عليه و اعترف الشام كله بسلطة أشور و تجلت سلطة الشام على عهد تغلت فلاسر، و كان المصريون يحتلون بعض القلاع مثل غزة و مجدو (تل المتسلم) فى الداخل و جبيل و صيدا فى الساحل على ما ثبت ذلک بالآثار.

كان الفراعنة على الأرجح يداهمون الشام من طريق صحراء التيه و الجفار لقلة سفنهم بسبب قلة الأشجار عندهم كما هى قليلة فى وادى دجلة و الفرات، و ربما كان وجود الأشجار فى الشام من جملة الأسباب التى حملت

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۳

أهل بابل و أشور و مصر على مد سلطانهم على الشام. قال أحد الباحثين:

كانت الشام فى الألف الثالثة قبل المسيح يقطنها خليط من سكان ساميين و هم العموريون و الحثيون و هم غير ساميين فهجموا على بابل. و فى أوائل الألف الثانية هجم الساميون من سكان الشام و ربما كان بإيعاز الحثيين على مصر و حكموها، و هذا العهد هو عهد الرعاة (الهيكسوس). و ما برح ملوک الأشوريين و الكلدانيين فى القرون الأخيرة يحسنون صلاتهم مع الفراعنة و يرضون بسلطانهم الضئيل على الشام، حتى ثارت الفتن فى مصر فاغتنم ولاة الشام من عمال الفراعنة هذه الفرصة و خرجوا عن الطاعة، و جمع أحد رؤساء الحثيين قبائله و أسس دولة قوية الشكيمة و قاتل المصريين، فلم يكتب لرعمسيس الأول و ستى الأول من الأسرة التاسعة عشرة تقويض دعائم تلک الدولة، بل إن رعمسيس الثانى المعروف عند اليونان باسم سيزوستريس اضطر بعد حرب عشرين سنة الى الرضا بما وقع و عامل ختسارو أمير الحثيين معاملة الأكفاء و الأقران. و من ذلک الحين زال حكم مصر عن فينيقية و الشام الجنوبى و قامت فى الشمال دولة مستقلة فاصلة بين مصر و أشور، و كان ذلک فى حدود سنة ۱۳۵۰ ق. م ..

ضعفت دولة الحثيين و عادت أشور تقوى بملوكها على الأطراف أمثال سالامنزار و تغلت فلاسر و سنحاريب يغيرون على الشام فيلقى منهم المصائب و كانوا يريدون إخضاعه ليكون لهم مجازا الى الاستيلاء على تجارة مصر و الحبشة و ليبيا (طرابلس و برقة) و البحر الأحمر و المتوسط. و لما سقطت نينوى سنة ۶۰۵ ق. م. و فى رواية سنة ۶۱۲ باستيلاء ملوک المملكة الكنعانية الثانية خضع الشام زمنا قليلا للفراعنة ثم عاد بعد انهزام نيخو و خلفائه الى سلطة ملوک بابل، و كان العهد الكنعانى عهد الخراب و الدمار لأن بخت نصر ملک الكلدان فعل فى بيت المقدس (۵۸۶ ق. م.) أفعالا مدهشة من الهمجية و أجلى بنى إسرائيل الى بابل. و لما غلب بخت نصر فرعون مصر على كركميش استولى على كل ما كان لهذا الملک بين النهرين و الشام و أخذ أورشليم و سبى بعض أهلها و ساق الأسرى الى بابل من اليهودية و فينيقية و سورية و مصر. و اليهودية اسم جزء من فلسطين سكنه الراجعون من

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۴

سبى بابل و سميت فى العهد القديم يهوذا، و فى العهد الجديد قد تطلق اليهودية على جميع فلسطين و على بعض أرجاء شرقى الأردن، و يرى المحققون أن اليهودية كانت تشتمل غربى الأردن و جنوبى السامرة.

الفينيقيون و استقلالهم التجارى:

و لم تكن مملكة إسرائيل بعمرانها و قوتها مثل مملكه فينيقية الصغيرة التى قامت فى أرض الشام و اشتهرت أكثر من غيرها من الدول الشامية، لأنها كانت دولة بحرية على جانب من الحضارة المقتبسة عن المصريين و الأشوريين و البابليين، و معرفة زائد، بطرق البحار و التجارة فى القاصية، فكان الفينيقيون فى عهد عظمتهم كالبنادقة فى القرون الوسطى ببحريتهم و اتساع تجارتهم، أو البريطانيين فى القرنين الأخيرين بأساطيلهم و تجاراتهم، مع مراعاة النسبة بين الأقطار و العصور.

و الفينيقيون من القبائل السامية التى نزلت أرض آرام أى الشام، و إقليمهم ضيق النطاق طوله خمسون فرسخا و عرضه من ثمانية الى عشرة فراسخ بين بحر الشام و أعلى سلسلة فى جبل لبنان، و تدخل فيه صور و صيدا و أرواد و جبيل و بيروت، و منهم من أدخل فيه البترون و طرابلس. و لم تكن فينيقية مملكة قائمة برأسها بل كان لكل ناحية مدينة صغيرة تستقل بها، و لها مجالس و ملك تحكم نفسها بنفسها، و تبعث بنوابها الى أعظم مدينة فينيقية لفض المصالح المشتركة. و كانت صور محط رحال النواب منذ القرن الثالث عشر، و لما لم يكن الفينيقيون أمة حربية خضعوا لسطوة الفاتحين من المصريين و الأشوريين و البابليين و الفرس و أدوا اليهم الجزية عن يد و هم صاغرون.

هذا رأى سنوبوس و قال مسبيرو: إن تحوتمس الثالث تعب فى إخضاع بعض الفينيقيين و قد استكانت مدائن الوسط و الجنوب و هى جبيل و بيروت و صيدون و صور من غير قتال، و أخلص أهلها الطاعة لمواليهم الأجانب الى ما بعد رعمسيس الثانى و كان هذا عين الحكمة و الصواب. فقد ترتب على رضاهم بالعبودية أن توصلوا الى احتكار جميع تجارة مصر مع أمم آسيا و البحر المتوسط ثم نالوا استقلالهم فى أواسط القرن الثانى عشر قبل

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۵

الميلاد لما كفّ فراعنة مصر عنهم. و لكن حدث فى حدود سنة ۱۲۱۰ ق. م أن أقلع من عسقلان أسطول فلسطينى و لقى أسطول صيدا فدمره فانتقلت العظمة الى صور. و لما ملكها حيرام الأول (من سنة ۹۸۰- ۹۴۶ ق. م) عقد مع داود و سليمان علاقات عادت على مملكته بالثروة و الرخاء.

قال: ثم ظهر الأشوريون على الفينيقيين و رضيت صور بدفع الجزية لهم، ثم قام ملكها إيلولى (من سنة ۷۲۸ الى سنة ۶۹۲) فحارب شلمناصر الثانى و سرجون و سنحاريب حروبا انتهت بهلاكه و انقراض دولته، فتبعت فينيقية الأشوريين، و لما سقطت نينوى عاد اليها استقلالها ففازت من دفاع بخت نصر بمعاونة الفراعنة الصاويين، و احتملت الحصار ثلاث عشرة سنة و حدثت فى فينيقية ثورات فى أوقات مختلفة فقمعت و فى سنة ۵۵۷ أعيدت للكلدانيين، و لما خربت بابل سنة ۵۳۸ دخلت صور فى قبضة الفرس من غير حرب و لا قتال. و من أهم الأسباب التى حالت دون الفينيقيين و تأسيس مملكة ضخمة مؤلفة أولا- من جميع أصقاع الشام ثم من الأقطار المجاورة صعوبة التوغل فى الديار الشامية لما فيها من العقاب و الشعاب، و هم فى قلة و غيرهم فى كثرة، فصرفوا نظرهم الى البحار و كانوا أعظم تجار و سفّار.

حروب الفرس و الإسكندر:

تخلصت الشام من عوامل كثيرة كانت تتنازعها، منها ما هو داخلى كالفتن الأهلية و الحروب الداخلية. و منها ما هو خارجى كأن يحكمها المصريون تارة و الأشوريون او البابليون أخرى، و لما تراجعت هذه الأمم قامت دولة الفرس فاستولت على الشام و كانت دمشق و حماة و ارفاد أهم مدنها. و لما فتحها تغلت فلاسر سنة ۷۳۳ ق. م عاد الفرس ففتحوها على عهد كسرى.

و على عهد دارا من ملوك الفرس جعلت صيدا عاصمة القطر و ما برح فى قبضة الفرس الى سنة ۳۳۳ و قد اجتاز به الإسكندر

المكدونى بعد أن قرض مملكة فارس و أباد بين الإسكندرونة و جبال اللكام (امانوس) جيش دارا ملك الفرس و أخرب مدينة صور بعد أن حاصرها سبعة أشهر (۳۳۲).

و كان بخت نصر حاصرها ثلاث عشرة سنة (۵۸۶- ۵۷۳) و لم يستطع

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۶

فتحها. و استبسل الصيداويون و عرضوا أنفسهم للهلاك مرات فى حصار الإسكندر صور، و عمل الإسكندر سدا و بدونه كان يتعذر الدنو من البلد لبعدها عن اليابسة، و بعث السامريون له بثمانية آلاف رجل نجدة، و أبى اليهود الخضوع له بادىء بدء. و فى سنة ۳۵۱ ق. م خربت صيدا عقيب انتقاضها على ملك فارس و قتل و حرق فيها أربعون ألف نسمة.

و لما انخذل دارا فى وقعة ايسوس على خليج الإسكندرونة الى الشمال منها، وقع الرعب فى قلوب الفينيقيين و السوريين فدان أكثرهم للإسكندر طائعين، و لما وصل الى جبيل تلقاه أهلها بالبشر و الحفاوة. و كان الإسكندر قد أرسل برمنيون الى دمشق ليستحوذ على خزائن دارا التى أرسلها اليها لما سار الى قيليقية لحرب الإسكندر فاستولى عليها و كان فيها من الذهب و الفضة و الآنية و الحلى و الحلل الثمينة ما لا يعد و لا يوصف، فضلا عما كان لبعض أعيان الفرس فى دمشق من المتاع و الأموال. و خربت الديار التى استولى عليها الإسكندر بأيدى الفرس، و كان من عادتهم أن يحرقوا المدن و القرى قبل أن تسقط فى أيدى عدوهم.

دولة السلاقسة و ملك الأرمن:

و لما هلك الإسكندر اقتسم المملكة قواده الأربعة المعروفون بالسلاقسة فكانت الشام من حصة سلوقس. و كان من أشهر مدن مملكته أنطاكية التى جعلها عاصمته و سلوقية (السويدية) و أفامية (قلعة المضيق) و اللاذقية.

و استولى بطلميوس والى مصر من دولة البطالسة على أرض اليهودية و فينيقية و جزيرة قبرس و المدن الساجلية من الشام. و فتح انتيغونس من خلفاء الإسكندر صور و يافا و غزة، و لم يفتح صور إلا بعد حصارها خمسة عشر شهرا. تعاصت عليه مع أنه لم يكن مضى على فتحها سوى تسع عشرة سنة، فأعادها أهلها الى حصانتها الأولى و عادت قطب التجارة فى الشرق و الغرب. و جدّ بطلميوس فى صنع أسطول له فى جبيل و طرابلس. و جرت وقعة مهمة بين بطلميوس و سلوقس و بين ديمتريوس انجلت عن خمسة آلاف قتيل و ثمانية آلاف أسير من جيش ديمتريوس، و لما رأى بطلميوس أن ليس

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۷

فى قدرته محاربة انتيغونس عاد الى مصر و هدم قلاع عكا و يافا و السامرة.

كانت الدولة السلوقية اليونانية دولة حرب و نزاع، فغدت الشام فى حالة بؤس و نحس، رومية تطالبها ببسط سلطانها عليها، و مصر تحاربها لتضمها اليها، و أهل فارس يجتاحونها، حتى قررت لهم السيادة الإسمية عليها، فمنيت الشام بضعف الحال و قلة الرجال، و ضاق ذرع الشاميين بالحروب المتصلة بين ملوكهم من اليونان و عسفهم و إعناتهم و انقساماتهم و قتلهم أولادهم و أبناءهم و إخوتهم، فعزموا أن يختاروا ملكا عليهم من الأجانب فكتبوا الى تغران ملك ارمينية و أرسلوا اليه وفدا يفضون اليه بما عزموا عليه و يكاشفونه فى قبوله، فأجابهم الى طلبتهم و أتى الشام سنة ۸۳ ق. م و لبس تاج ملكها و استمر ملكه فيها ثمانى عشرة سنة الى أن جاءها الرومان سنة ۶۵ ق. م و استخلصوها منه.

دولة الرومان:

كان بومبيوس أول قائد رومانى استولى على الشام و جعله ولاية رومانية و جعل أنطاكية عاصمتها. و لم تنجح الشام لقربها من البارثيين على نحو ما كان من سائر أقطار المملكة الرومانية. ثم انفصلت مدة عن رومية أعطاها أنطونيوس الى أحد أولاد الملكة

کلوبطرا، و عادت فضمت الی مملکة الرومان علی عهد الامبراطور أغسطس، و تنقلت بها الأحوال الإداریة علی عهد الامبراطورین فیسباسین و أدریانوس. و لم تکد تطمئن من ناحیة البارثیین بفضل الوقائع التی کتب فیها النصر للقائدین تراجان و سبتیم سیفیر و انتظمت حالها و انبسط ظل عمرانها و قام منها امبراطرة شامیون قبضوا علی قیاد المملکة الرومانیة من عهد الأمبراطور سبتیم سیفیر الی إسکندر سیفیر حتی کان من عهد تأسیس مملکة الفرس الثانیة علی انقاض مملکة البارثیین ما جلب المصائب و النوائب لو لم یقم امثال القواد أدریانوس و دیوکلسیانوس و یوستنیانوس و یردوا تلک الغارات.

ذکر مومسن أن البدو و الیهود و النبطیین کانوا علی عهد بومبیوس الرومانی أصحاب السلطان فی الشام، فإن الصحاری الرملیة الجافة التی

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۸

لا تسکن من حدود شبه جزیرة العرب آخذة فی الغرب الی جبال الشام و الشواطیء الواقعة من الجهة الشرقیة الی البادیة من الفرات الأسفل المخصبة.

هذه الصحراء لم تبرح موطن أبناء إسماعیل العرب، ینصبون فیها خیامهم و یرعون أنعامهم و یطاردون علی خیولهم المطهمة القبائل المعادیة لهم أو یغزون التجار الآتین مع القوافل. و لما کان الملک تیغران قد أخذ بأیدی أبناء البادیة لحاجته الیهم فی التجارة اهتبلوا الغرة فی هذا الاضطراب الذی جعل أمور الشام فوضی لیتوسعوا فی الشمال، و کان للقبائل القریبة من الشام ممن کانوا علی شیء من الحضارة القدح المعلّی فی هذا الشأن.

و کان زعماء قبائل البادیة أشبه بعصابات منفردة یساوون أبناء البادیة و یفوقونهم فی قطع الطرق و الإضرار بالسابلة. و هکذا شأن بطلمیوس بن مینوس، و ربما کان أقوی هؤلاء اللصوص و أغنی أهل عصره. و کان یحکم إقلیم الإیطوریین، أی الجبلیین، و هی کور الدروز الیوم فی أودیة جبل لبنان، و حکمه نافذ من الشطوط الی بعلبک، و هکذا حال دیونیزوس و کنیراس صاحبی مدینتی طرابلس و جبیل. و مثل ذلک کان شأن الیهودی سیلاس فی قلعته علی مقربة من أفامیة علی العاصی.

مملکة یهودا و انقراض الیهود:

حاول الیهود فی جنوبی الشام توطید سلطانهم السیاسی، فأنشأ المکابیون و هم یهود یحترمون عبادتهم و یقدسونها، حتی توصلوا بذلک الی إنشاء مملکة وراثیة، جمعت الی الرئاسة الدینیة الرئاسة الدنیویة، ثم فتحوا کورا فی الشمال و الشرق و الجنوب. و لما مات الشجاع جانی الکسندر سنة ۶۷۵ کانت مملکة یهودا ممتدة نحو الجنوب الی جمیع أرض الفلسطینیین حتی التخوم المصریة، و نحو الجنوب الشرقی الی مملکة النبطیین فی البتراء، و الی الجنوب الی ما وراء السامرة و المدن العشر الی بحیرة طبریة. فکانت الشواطیء بأیدی الیهود من جبل الکرمل الی العریش و فی جملتها مملکة غزة. و کانت عسقلان مدینة حرة. و أصبحت مملکة الیهود مرافیء حرة للصوص البحار بعد أن کانت مفصولة عنها فیما غبر من الأیام.

خطط الشام، ج۱، ص: ۵۹

و لذلک اضطهد الرومان الیهود کثیرا فنالهم فی أیام هیرودس من الاضطهاد و إهراق الدماء ما نالهم، و فی أیام فلورس الوالی الرومانی لحقهم فی کثیر من مدن فلسطین ضروب الأذی و القتل. و نکل السوریون بالیهود عملا بإشارة الوالی الرومانی. و أحرق الرومان أورشلیم و دمروا المدن و سبوا الیهود و ثار هؤلاء علی الرومان سنة ۱۳۲ فقتل الرومان منهم ۵۸۰ ألفا و أحرقوا و دمروا تسعمائة قریة عدا الحصون، و أسروا کثیرا منهم بعثوا بهم الی رومیة حتی انقطعت شأفتهم من فلسطین مدة خمسة عشر قرنا.

قالوا: لما دخل المسلمون أرض الیهودیة لم یجدوا یهودا لأن حروب فسباسین و تیطس و تراجان و أدریانوس و اضطهادات ملوک النصرانیة لم تترک حجرا علی حجر من الیهودیة السیاسیة و الوثنیة، أمعنوا فی القضاء علیها و ذروا رمادها فی الریاح الأربعة، ففقدت

فی فلسطین جمیع التقالید الیهودیة و جماع الیهود الذین تراهم هم من الطراء علی فلسطین مؤخرا نزلوها بعد أن بادوا منها مدة خمسة عشر قرنا.

الإیطوریون و النبطیون:

ذکر مومسن فی کلامه علی الاضطرابات و المنافسات بین الرؤساء فی الشام أن المدن الکبری مثل أنطاکیة و السویدیة و دمشق هی التی کان ینالها الأذی من جراء ذلک، فیصاب الزراع بزراعتهم، و التجار بتجارتهم البریة و البحریة. و لا یستطیع سکان جبیل و بیروت حمایة حقولهم و سفنهم من هجمات الإیطوریین و کانوا استولوا علی اللبنانین الشرقی و الغربی و نزلوا فینیقیة و جعلوا عین جر (عنجر) عاصمتهم الأولی، ثم اتخذوا طرابلس عاصمتهم الأخری، و غدوا یطیلون أیدی التعدی علی البر و البحر من حصونهم العالیة. و یحاول سکان دمشق أن یدفعوا عن أنفسهم عادیة الإیطوریین و البطالسة، و ذلک بخضوعهم لملوک القاصیة مثل النبطیین و الیهود. و تدخل سامسیکراموس و ازیوس فی أنطاکیة فی الخلافات المدنیة بین الوطنیین فأصبحت هذه المدینة الیونانیة عاصمة أمیر عربی.

خضع سکان دمشق للنبطیین أصحاب البتراء أو سلع لأنهم أصبحوا

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۰

أصحاب الحول و الطول فی الشام و مصر لما دب فیهما من الضعف نحو سنة ۱۱۰ الی ۱۲۰ ق. م. بالحروب المتأصلة. و قد کان النبط یغیرون علی أرض مصر و الشام بعصاباتهم فحاربوا الأدومیین و أسسوا ملکا بالبتراء. و لم تبرح دمشق ملکا للنبطیین و الأولی أن یقال: إن هذه المدینة أعطاها کالیجولا الرومانی الی الحارث صاحب البتراء (۸۵ ق. م) و تراجع أمر النبطیین بسرعة علی عهد مالتوس الثانی نحو سنة ۴۸ الی ۷۰ ق. م فأضاعوا دمشق.

ثم فقد النبطیون استقلالهم فی سنة ۱۰۵ م عقیب حملة کرنیلیوس بالما حاکم الشام الذی استولی علی البتراء، و أصبحت جرش الی سنة ۱۶۲ خاضعة لولایة الشام ثم للبتراء، ثم ضمت فینیقیة الی الشام. و کانت لمملکة النبط القدیمة بلدتان مهمتان بصری و البتراء.

و روی بعضهم أن بومبیوس لما فتح الشام و استولی علی دمشق و ما جاورها أبقی لهذه العاصمة بعض استقلالها و کذلک لبصری و جرش و عمّان، و بعد فتح البتراء و جعلها ولایة رومانیة غدت بصری عاصمة حوران مقر الفیلق فعمرت الأقالیم و کانت میدان السلب و النهب من قبل، و ازدانت المدن بآثار تدهش خرائبها و أطلالها. و غزا أنطوخیوس النبطیین سنة ۱۳۲ ق. م فلم ینل منهم ثم حاصرهم دیمتریوس.

کانت مملکة النبط علی عهد المکابیین ممتدة بین فلسطین و خلیج العقبة و وادی الحجر و البحر الرومی، و هی عبارة عن مملکة أدوم قدیما و یسمیها الیونان مملکة العرب الحجریة و عاصمتها مدینة سلع أو البتراء فی وادی موسی، و سماها بعضهم مدینة الرقیم ظنا منه بأنها مدینة أصحاب الکهف. و اسم البتراء أقرب الی الاسم الذی عرفها به الیونان و إن کانت البتراء علی ما ورد من وصفها فی کتب العرب هی فی أرض الحجاز. قامت هذه الدولة العربیة علی حین غفلة من دولة البطالسة و السلاقسة فی مصر و الشام و قوی سلطانها فی القرن الثانی قبل المیلاد. و لقب الحارث الثالث نحو سنة ۸۵ بمحب الیونان و هو الذی فتح البقاع سنة ۸۵ و استولی الحارث الرابع علی دمشق و فی أیامه حدث المصافّ الأول بینه و بین الرومان فاضطر الحارث أن یؤدی الیهم الجزیة. و اضطر النبطیون علی عهد الامبراطور بومبیوس

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۱

و أخلافة أن یقدموا جندا من أبنائهم الحین بعد الآخر لمعاونة الرومان و ظلت مملکتهم حرة قویة. و أصبحت مملکة النبط ولایة مستقلة برأسها نحو سنة ۳۵۸ تحت اسم مملکة فلسطین أو فلسطین المسالمة. و حمل الإمبراطور تراجان علی النبطیین فبدد شملهم و قضی علی مدنیتهم سنة ۱۰۶ م فاندمجوا فی غیرهم و عدد ملوکهم أربعة عشر ملکا منهم من اسمه الحارث و منهم عبادة و منهم

مالك و بينهم بعض الملكات من النساء.

دولة تدمر:

و لما تراجع أمر مملكة النبط فى نحو منتصف القرن الثالث للمسيح، لارتقاء مملكة تدمر و مملكة فارس اللتين نازعتاها التجارة، أخذت تدمر ترتقى بتجارتها و أصبحت زمنا هى و مملكة النبط مركزى التجارة فى الشام و نقطة اتصال الشرق بالغرب. و انضمت مملكة تدمر الى ممالك الرومان نحو السنة السادسة و الثلاثين قبل الميلاد. و كان القائد مرقس أنطونيوس عائدا من حرب الملوك الأرشكيين، فحاول الاستيلاء على تدمر فقاومه أهلها على الفرات و تغلبوا عليه. و بعد ذلك توطدت العلائق الحسنة بين تدمر و مملكة الرومان و نالت حقوق مستعمرة رومانية بفضل بعض امبراطرة الرومان.

و يرى رنزفال أن العهد الذى فيه ارتقت حاضرة رينب أى تدمر الى أوج التمدن هو نفس الزمن الذى به تواتر على عرش رومية بعض الملوك الشرقيين كسبتيميوس ساويرس و إسكندر ساويرس و فيلبوس العربى، فلا عجب إن جرأ أذينة الأول على خلع السلطة الرومانية و إقامة دولة مستقلة تضم البادية و ديار العرب الشمالية. و كان هذا الرجل ابن خيران ابن و هبلات بن نصور من بنى السميدع انتهز الفرصة و ادعى الملك سنة ۲۵۰ م فقتله القيصر الرومانى. و حارب أذينة و أخلافه الفرس غير مرة كانوا فيها يستظهرون عليهم و يحرزون رضا الامبراطورية الرومانية.

و لقد خرج على أذينة قائد رومانى اسمه كياتوس فحاصره أذينة فى حمص، فلما ضاقت به الحال خانه قائده كاليستوس و قتله، ففتحت أبواب حمص ثم قتل كاليستوس، فأقر إمبراطور الرومان لأذينة بحق الرئاسة و دعاه

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۲

امبراطورا على جميع أنحاء المشرق أى على الشام و الجزيرة و آسيا الصغرى خلا بعض نواح فى الشام، و دعى ملك الروم. و أول ما سعى له القضاء على الاضطهاد الذى أصاب النصارى فى بعض مدن الشام كأنطاكية و حمص و دمشق و قيسارية، فأطلق الحرية الدينية لكل الطوائف، و أوعز الى الوثنيين ألا يتعرضوا للنصارى فى قضاء فروض عبادتهم، و رخص لهم فى إقامة البيع و الكنائس، و أدب العصاة من بقايا جيوش كاليستوس و كانوا انتشروا فى الأرجاء و عكروا صفوها باعتداءاتهم. و قاتل ملك الفرس مرة ثالثة و ظفر به ثم قتل بيد ابن اخيه معنّى مع ابنه هيروديس و بويع لمعنى. إلا أن أهالى حمص ثاروا به بعد أيام و قتلوه.

زينب أو زنوبيا أو الزباء:

و كانت زينب او الزباء او زنوبيا زوجة أذينة الثانى، فولدت له ثلاثة أولاد أكبرهم و هبلات ثم خيران ثم تيم اللّه، فلما قتل أذينة أخذت زوجته بأزمة الملك بالنيابة عن و هبلات بكرها، و كان لها مجلس شيوخ ترجع الى رأيه و لها من الحلم و حسن الإدارة و السياسة و الكرم ما عدت به من أعظم الملوك و الملكات. و كانت نفسها تحدثها على ما يقال بالاستيلاء على المملكة الرومانية. و عقدت مع سابور ملك الفرس معاهدة و كان يخشى بأسها.

و غصت عاصمتها بأجناس الشعوب و العناصر و كان سوادهم الأعظم من العرب و النبط.

و كان بنو السميدع يسكنون بادية الشام فى أوائل النصرانية و لهم دولة فى تدمر و نواحيها، كما كانت دولة النبطيين فى شرقى جنوب الشام. فظهر بنو غسان بعد خراب سد مأرب و سيل العرم، و استولوا على أرجاء فلسطين و دمشق، و كانت سبقتهم قبيلة بنى سليح من قضاعة و سكنت البلقاء فانتشروا فى القطر أواخر القرن الثانى للمسيح. و فى خلال تلك المدة قدمت فرقة من بنى لخم الى جنوبى فلسطين و امتدوا فى غربى بحيرة لوط، و برز قوم من مضر يعرفون ببنى كلب امتدوا من أنحاء الحجاز الى جنوبى الشام

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۳

و نزلوا فی جوار دومة الجندل (الجوف) فأذعنت بقایا هذه القبائل لزینب فاستأجرتهم و أدخلتهم فی جملة جیشها. و خاف غالیانس قیصر عادیة زینب و قد أصبحت محبوبة من الشعوب فوجه جیشا لقتالها فغلبه جیشها و انهزم فلّ الجیش الرومانی. ثم حدثتها نفسها أن تستولی علی مملکة بیثینیة فقهرتها و بلغت خلقیدونة فدعا سکانها القیصر اوریلیانس الی نصرتهم ففاجأ التدمریین فی بیثینیة نحو ۲۷۱- ۲۷۲ فطردهم عنها، ثم واصل فتوحاته فتغلب علی غلاطیة و قبادوقیة حتی بلغ مدینة أنقرة ففتحت له أبوابها.

و کانت زینب فی سنة ۲۷۱ أمدت عاملها فیروس علی مصر بالقائد زبدا لصد هجمات الرومان الذین قدموا مصر بقیادة بروبس، فنشب بین الفریقین قتال انهزم فیه التدمریون تارکین مصر الی الأبد، و عاد زبدا مع بقایا عسکره. و کانت زینب أعدت جیوشها لمقاتلة الرومان و قسمتها ثلاثة أقسام بقیادة زبدا و زبای. وجهت القسم الاول الی طریق حلب، و الثانی الی طریق حمص، و الثالث الی القریتین و هی تتقدمهم بنفسها. و جاءها جیش الرومان من الشمال ففتحوا مدینة طیانة و مدائن جبال طوروس حتی قربوا من أنطاکیة، فأمرت زینب قوادها أن یناوشوا الرومان القتال فشتت عساکرها عسکر الرومان فی الوقعة الأولی، ثم ارتد عسکر الرومان علی التدمریین فکسروهم، فملک اوریلیانوس أنطاکیة و ذهبت زینب الی حمص فتأثرها الجیش الرومانی ففتح فی طریقه عدة مدن علی ضفة العاصی مثل أفامیا و شیزر (لاریسا) و الرستن و بلغ ربض حمص.

و استعدت زینب لقتال القائد الرومانی فی سبعین ألفا، و کان عدد جیشه أقلّ من جیشها إلا أنه أکثر مرانا علی الحرب و أسرع فی الکر و الفر.

فانکسر جیش زینب کسرة عظیمة و استولی علی حمص. فلم یسع زینب إلا أن تسرع الی تدمر للدفاع عنها، و خف اوریلیانس الی حصار تدمر.

و تخلی عن نصرتها حلفاؤها من الفرس و الأرمن و العرب ثم وقعت زینب فی قبضة القیصر الرومانی، و فتح التدمریون أبواب مدینتهم للرومان فی فی أول سنة ۲۷۳، فوضع اوریلیانس حامیة قلیلة و أخذ معه زینب و أسری التدمریین الی آسیا الصغری، فبلغه فی طریقه الی رومیة أن التدمریین ثاروا

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۴

بالحامیة التی خلفها عندهم فکرّ راجعا علیهم و أعمل السیف فیهم أیاما و قوض الأبنیة و الهیاکل و دک الأسوار و القلاع، فخربت تدمر خرابا لم تنتعش منه.

آخر عهد الرومانیین و سیاستهم:

کثرت الفتن علی عهد دولة السلاقسة خلفاء الإسکندر و استقلت فلسطین فی عهد المکابیین (۱۴۳ ق. م) لاشتغال السلاقسة بحروبهم. و امتد سلطانها من البحر المتوسط الی الفرات. و احتفظت بحریتها حتی تدخّل بالأمر القائد بومبیوس الرومانی و بسط سلطان دولته سنة ۶۳ ق. م و لما أراد الرومان إضافة فلسطین الی ولایة الشام الرومانیة ثار الیهود فأدی ذلک الی حصار بیت المقدس و خراب معبد سلیمان علی ید تیتوس سنة ۶۶ ب. م و ثار الیهود فی فلسطین بقیادة بارکوخبا (۱۳۲ - ۱۳۵ م) فحاربهم ادریانوس الرومانی و أخضعهم بعد حرب هائلة قتل فیها قائدهم، و أصبحت سوریة ولایة رومانیة سنة ۶۴ و لما وقعت الفتن بین الیهود و الرومانیین فی فلسطین سنة ۶۶ لم یبق من مملکة اغریبا و هی الجولان أحد من أهلها.

لکن اغریبا مضی لزیارة غلوس والی سوریة فی قیساریة و أناب عنه رجلا اسمه فاروس، فأتی الیه و جهاء بعض المدن من الیهود یسألونه أن یرسل الیهم جنودا یسهرون علی راحتهم، فبدلا من أن یحسن ملتقاهم بعث قوما قتلوهم لیلا عن آخرهم. ثم لم یدع جورا و لا اعتسافا إلا و أقدم علیه.

و لما بلغت اغریبا أخبار ظلمه عزله و لم یقتله لاتصال نسبه بأحد ملوک العرب.

و زحف غلوس الى زابلون ففر أهلها الى الجبال فانتهبها و أحرق بيوتها التى لم تكن أبنيـة صور و صـيدا و بيروت أحسن منها، و نهب و أحرق القرى المجاورة لهـا و عـاد الى عكـا، فنشـط اليهود لعودته و طاردوا السوريين فقتلوا منهم ألفى رجل أكثرهم من بيروت، ثم سـار غلوس الى قيساريـة و أرسل كتائب من جيشه الى يافا فباغتوا أهلها و قتلوهم عن آخرهم و نهبوا المدينـة و أحرقوها و كان عـدد القتلى ثمانية آلاف و أربعمائة.

و أرسل غلوس أيضا حملة الى السامرة قتلت كثيرين من أهلها ثم

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۵

أرسـل فريقـا آخر الى الجليـل ففتحت مدينـة صـفورية (صـافوريس) أبوابهـا لجنود الرومانيين و اقتـدى بها غيرها من المـدن، و اعتزل المشاغبون فى جبل عرقون المقابل لصـفورية، فسار إليهم الجند فظهروا عليهم و قتلوا منهم أكثر من مائتى رجل، و أحدقوا بالجبل من كل جهة فقتلوا منهم نحو ألف إنسان ثم أحرق أفيق (فقوعة) و الفولة و القرى المجاورة لها.

و تسلسـلت هذه الوقائع الرومانية فى هذا القطر، فسار فسبسـيان الرومانى الى الكرك (تاريكا) فقتل منهم و انهزم كثيرون فى سـفنهم و أبعدوا فى بحيرة لوط فكان عدد القتلى من اليهود فى البحر و المدينة ستة آلاف و خمسـمائة رجل. و بعد أن قهر الرومانيون كرك و جفت- و جفت غربى قانـا الجليل على مقربـة من جبل كوكب كاران- استسـلمت باقى المـدن و هلك من أهل كامالا شـرقى البحيرة خمسة آلاف، ثم خضـعت بعض مدن فلسـطين و قتل فى القدس ثمانية آلاف و خمسـمائة سـنة ۶۸ و جعلت القدس مسـتعمرة رومانية (۱۳۶) باسم ايليا كابيتولينا، ثم انقضت قرون فى سلام على الجملة، و لم يدخل الشام فى حرب خارجية.

كانت معاملـة الرومان للشاميين بادىء بدء عادلة حسـنة مع ما كانت عليه مملكتهم فى داخليتها من المشاغب و المتاعب. و لما شاخت دولتهم انقلبت الى أتعس مما كانت عليه من الرق و العبودية. و لم تضف رومية بلاد الشام إليها مباشـرة، و لم يصـبح سـكانها و طنيين رومـانيين، و لا- أرضـهم أرضـا رومانيـة، و ظلوا غرباء و رعايا و كثيرا ما كانوا يبيعون أبناءهم ليوفوا ما عليهم من الأموال. و قـد كثرت المظالم و السخرات و الرقيق و بهذه الأيدى عمر الرومان ما عمروا من المعاهد و المصانع فى الشام.

و فى سنة ۵۴۰ جاء ملك الفرس خسـرو الأول و اسـمه عند العرب أنو شروان فى جيوشه الضخمة و دخل الشام و ظلّ فيه ثلاث سنين، و طرد بليزير الرومانى الفرس سنة ۵۴۲ و عادوا إليها بعد وفاة يوسـتنيانوس بزعامة خسرو الثانى، و التحم القتال مع ملوك الساسانيين و طردهم الامبراطور هرقل

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۶

الى ما وراء عبر الفرات. و فى هـذه الحقبة خربت أنطاكية بفتح الفرس لها و قتلهم أهلها. و كانت مدة ثمانية قرون من قبل مهد المدنية الشرقية.

حكم الرومان الشام سـبعمائة سـنة كانت فيه ميدانا للنزاع و الشـقاق و الاستبداد و الأنانية و قتل الأنفس. و حكم اليونان الشام ۲۶۹ سنة سـادت فى عهـدهم الحروب الطاحنـة و المظـالم و ظهرت المطـامع اليونانيـة بأعظم مظاهرها و كان حكمهم من أشـد الويلات و أشأم النكبات على الشاميين فى التاريـخ العام: نرى العوامل الرومانيـة و البيزنطيـة قـد أثرت فى عرب الشام أخلاف العمالقة القدماء، و كانوا يتقوون كـل مـدة بمن يهـاجر إليهم من اليمن و الحجـاز، فكـانت المملكـة الرومانيـة محتاجـة لمعـاونتهم سواء كان ذلك لحرب أبناء جنسـهم النـازلين على ضـفاف الفرات، أو لإملاء فراغ الشام و كان يتهـدده البارثيون ثم الفرس. و معلوم كيف قاومت أرملـة أذينـة و اسـمها زينب أو زنوبيا القوى الرومانية فى الشـرق. و لما انحلت مملكة تدمر عهدت الامبراطورية الرومانية الى أسـر أخرى بالحكم فى تلك الأرجاء و ثبتت الإمارة فى الغساسـنة. و دامت فيهم ثلاثـة قرون. و دان رؤساء الغسانيين بالنصـرانية فاشتركوا فى حرب فارس من القرن الرابع الى القرن السادس، و كان أحدهم الحارث الخامس من قوام مقام القائد بليزير فى حملة آسيا.

بنو غسان و العرب فى الشام:

اختلفت روايات مؤرخى العرب فى بنى غسان و كانوا أقيالا و عمالا لملوك البيزنطيين فى هذه الديار. و قد عهد إليهم الدفاع عن تخوم الشام من اعتداء الفرس ورد غارات اللخميين أصحاب الحيرة. و كانت سلطة الغسانيين كما قال شلفير تتناول الولاية العربية (أو معظم اقليم حوران و البلقاء و فينيقية و لبنان و فلسطين.) و قال حمزة الأصفهانى و أبو الفداء:

إن عدد ملوك الغسانيين فى الشام أحد و ثلاثون ملكا على حين لم يبلغ عددهم فى أكثر من عشرة فى رواية ابن قتيبة و المسعودى. و يقول الأصفهانى إن الحارث بن جبلة هو من أشهر ملوكهم لم يطل حكمه أكثر من عشر سنين، و يقول مؤرخو الروم: إنه حكم نحو أربعين سنة و هو المحقق. و كان

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۷

للغسانيين تمدن فاقوا به اللخميين لاختلاطهم بالروم البيزنطيين. و لم تكن لهم عاصمة معينة بل كانوا ينزلون الجولان و السويداء و الجابية و جلّق.

و كان الغسانيون يؤدون الجزية عند ما هاجروا من اليمن الى الشام الى رؤساء الأسباط من الرومان، ثم امتنعوا من أدائها عند ما نالوا من الضجاعم و استولوا على الأمر دونهم، فاضطر الروم أن يقروا الغسانيين على أمرهم لحاجتهم اليهم فى رد عادية اللخميين سكان الحيرة. و ربما كان ذلك فى أواخر القرن الخامس للميلاد.

و فى سنة ۵۲۹ عهد الامبراطور يوستنيانوس الى الحارث بن جبلة- و كان الحرث يدين بالنصرانية على مذهب القائلين بطبيعة واحدة فى المسيح متحمسا لهذا المعتقد ذابا عنه- بزعامة جميع القبائل العربية فى الشام و نال لقب رئيس الأسباط و بطريق. و كان هذا اللقب فى مملكة البيزنطيين إذ ذاك أرقى لقب بعد الإمبراطور. و. فى تلك السنة اشترك مع البيزنطيين فى قمع ثورة السامريين و انقضى معظم عهده فى حروب المنذر الثالث ملك الحيرة، و فى سنة ۵۲۸ تغلب على المنذر، و بعد نحو عشر سنين أصبحت المنافسة بينه و بين المناذرة على أتمها بسبب أراضى التخوم الواقعة بين دمشق و تدمر الى الرصافة و كان كل واحد منهما يدعيها. قال هوار: إن الحارث الغسانى كسر المنذر ملك الحيرة سنة ۵۲۸ و إنه لما كان والى فلسطين اشترك فى إعادة السامريين الى الطاعة فوهبه يوستنيانوس لقب الملك ليقضى على العرب الذين كانوا إقطاعا لملوك الساسانيين من الفرس، و كان كثيرا ما يجتاز دجلة و يخرب المعمور و يحمى قبائل العرب النازلة فى برية تدمر من اعتداء المناذرة. و كانوا يحاولون أن يأخذوا منهم الجزية و حاربهم على الطريق الحربى الذى كان ممتدا من دمشق الى تدمر.

حارب الحارث مع الرومان فى العراق، ثم حارب المنذر الحارث و أسر ابنه و قدمه ضحية للعزّى. و فى سنة ۵۵۴ ظفر الحارث بالمنذر فى جهات قنسرين فهلك المنذر فى المعركة. و خلف الحارث ابنه المنذر و تغلب على العرب الفرس الذين هاجموا منازل الغسانيين و ظفر بملكهم قابوس فى عين أباغ على الأغلب. و حاول ملك الروم قتل المنذر فرفع لواء العصيان ثلاث

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۸

سنين، و لما عصى العرب و الفرس على بيزنطية اضطرت هذه أن تعقد الصلح مع المنذر، ثم حمل هذا الى القسطنطينية أسيرا و انقطعت الأموال التى كانت تعطيها له مملكة الروم فثار أولاده الأربعة بقيادة النعمان بكر أولاد الحارث و هاجموا أراضى الروم و خربوا فيها، فأخذ النعمان أسيرا أيضا. و لكن الفوضى انتشرت فى بادية الشام و أخذت كل قبيلة تختار لها زعيما خاصا و هواهم مع الفرس. و لما سقطت دمشق و القدس فى يد ملك الفرس كسرى ابرويز (۶۱۳- ۶۱۴) انهارت مملكة الغسانيين. و قيل: إن جبلة بن الأيهم كان آخر ملوكهم. هذا ما يعرف عن الغسانيين فى الجملة نقلا عمن حقق أمرهم من مؤلفى الغرب.

و لما حاصر كسرى مدينة القسطنطينة خلت أرض الشام من جند الروم.

و كان فى مدينة صور أربعة آلاف يهودى فكتبوا الى إخوانهم ببيت المقدس و قبرس و دمشق و جبل الجليل و طبرية أن يجتمعوا

کلهم فی عید فصح النصاری لیقتلوهم بصور، و یصعدوا الی بیت المقدس فیقتلوا کل نصرانی بها و یغلبوا علی المدینة، فبلغ الخبر بطریق صور فأخذ الیهود و قیدهم و سجنهم و أغلق أبواب صور و صیر علیها المنجنیقات و العرادات، فلما کانت لیلة الفصح اجتمع الیهود من کل بلد الی صور و کانوا زهاء عشرین ألف رجل، فحاربوهم حربا شدیدة من فوق الحصون، فهدم الیهود کل کنیسة کانت خارج صور فکانوا کلما هدموا کنیسة أخرج أهل صور من الیهود المقیدین عندهم مائة رجل و أوقفوهم علی الحصن و ضربوا أعناقهم و رموا برؤوسهم الی خارج، فضربوا أعناق ألفی رجل ثم انهزم الیهود.

کنا نحب التوسع فی سرد وقائع تلک الدول لو لا الخوف من نقل ما لا یقره المحققون. و التعرض للمجهولات یؤدی الی السقوط فی غلطات و متناقضات. و لعل بحث علماء العادیات یوصلهم الی اکتشاف ما کان مجهولا من تاریخ هذه الدیار التی طالما شرقت بدماء الغالبین و المغلوبین و سارت علی أدیمها دول کان الناس فی ظلها ظالمین و مظلومین، و قتل أهلها بالألوف و المئین فی سبیل شهوات الفاتحین.

خطط الشام، ج۱، ص: ۶۹

الشام فی الإسلام «من سنة ۱۵ الی سنة ۱۸ للهجرة»

حالة الشام قبیل الفتح:

دعا الداعی الی الإسلام فی جزیرة العرب و کثر من دانوا به، فکان الشام من أول الأقطار المجاورة للحجاز التی فکر الرسول العربی (علیه الصلاة و السلام) فی فتحها لنشر کلمة التوحید، و کانت تحت حکم الرومان منذ سبعة قرون، و ملکها صاحب مملکة بیزنطیة أو مملکة الروم الشرقیة و یعرف عند العرب باسم هرقل. و کان سکان هذه الدیار من سریان و عرب و روم و فرس أصحاب علاقات مع الحجاز بالتجارة، کما کانت علائق عرب الحجاز فی الجاهلیة کثیرة جدا بأهل هذا القطر، و أهم ما کان یرجی منه تیسیر الفتح أن کانت قبائل عربیة کثیرة تنزل الشام و تشارک دولة الروم فی الأحکام، و أشهرها غسان فی الجنوب و تنوخ فی الشمال و تغلب فی الشرق. و کانت هذه القبائل العربیة دانت بالنصرانیة و ترکت عبادة الأصنام و الأوثان. فقویت الروابط بینها و بین البیزنطیین فکانوا یؤدون لزعمائهم الرواتب لیقفوا فی وجه البادیة فی الجنوب حتی لا یهاجموا الشام، و فی وجه الفرس فی الشرق حتی لا یهددوا آسیا الصغری.

خطط الشام، ج۱، ص: ۷۰

و کان الفرس قبل الهجرة النبویة بثمانی سنین فتحوا الشام (سنة ۶۱۳- ۶۱۴ م) فدافع هرقل عنها سنة ۶۲۶ و انتصر علی کسری و لکنه فقد بانونیا و دلماسیا من أجزاء مملکته، سقطتا فی أیدی الخرواتیین و الصربیین و خوی نجم المملکة و ساء طالعها و ظهرت علیها أعراض الانحطاط، فارتأی هرقل أن یلقی بقیاده الی البطریرک سرجیوس القائل بطبیعة واحدة و مشیئة واحدة فی المسیح (علیه الصلاة و السلام). و کانت النصرانیة تشعبت الی مذاهب مختلفة کنحلة النساطرة و الیعاقبة، و یکره جمیع أرباب هذه المذاهب حکومة الروم و کانت تضطهدهم باسم المذهب الأرثوذکسی و عداوتهم لها تزید علی الأیام تأصلا.

کانت مصر و الشام من جملة الأقطار التی تحاول الانفصال عن بیزنطیة و شغل الامبراطور و شعبه بالمسائل الدینیة و الخلافات المذهبیة، فأخذ ینظر الی غارات العرب نظر العاجز الضعیف، و زاده ضعفا شیخوخته و استسلامه لرجال الدین، مع أنه کان علی ضعف إرادته شجاعا عاملا بعید النظر.

و ما حال ملک ینخر جسمه سوس الفساد فی الداخل، و هل لمن ضعف جسمه و اختلت قواه أن یرسل نظره الی القاصیة فیتقیها و هو علی اتقاء ما لدیه من المنهکات أعجز؟ فلا عجب أن أصبحت أحوال الشام من أشد ما یکون ملاءمة لفتوح العرب فی تلک الحقبة

من الزمن، و أسباب الظفر موفورة لهم من كل وجه.

هذا و خزائن هرقل فارغة، و مرتبات الأمير الغسانى التى كانت الدولة تجريها عليه منقطعة. و النفوس فى الشام مستاءة من المظالم و المغارم، سئمت الحروب و الغارات و هى عرضة لمطامع الفرس أو سوء إدارة الروم، و الناس يتحدثون بقرب انفراج الأزمة على أيدى الفاتحين من العرب، و كان يبلغهم من أخبار عدلهم ما تثلج له الصدور، و تود لو ترى قبل ساعة طلعة الدولة الجديدة التى أتت من الأعمال ما صعب على الفاتحين أن يأتوا مثله فى باب العدل و الرحمة و التسامح.

خطط الشام، ج۱، ص: ۷۱

صلح دومة الجندل و غزوة ذات السلاسل و مؤتة و الجرباء و أذرح و مقنا و جيش أسامة:

لما انتشر الإسلام فى جزيرة العرب حجازها و يمنها و نجدها أخذ الرسول يغزو الروم فى الشام غزوات قليلة و يرسل سرايا ضئيلة تزيد بحسب الحاجة حتى يتعرف المسلمون طرق الشام و أمصاره و يسبروا غور الروم و استعدادهم.

و كانت أول غزواته على رأس تسعة و أربعين شهرا من مهاجره. بلغه أن بدومة الجندل جمعا كثيرا و أنهم يظلمون من مرّ بهم من الضافطة و أنهم يريدون أن يدنوا من المدينة و هى طرف من أفواه الشام، بينها و بين دمشق خمس ليال، و بينها و بين المدينة خمس عشرة أو ست عشرة ليلة.

فندب رسول اللّه الناس و استخلف على المدينة و خرج فى ألف من المسلمين فكان يسير الليل و يكمن النهار، و معه دليل له من بنى عذرة فأخذ نعمهم و شاءهم و رجع لم يلق كيدا.

و فى سنة ست ندب الرسول عبد الرحمن بن عوف الى دومة الجندل و قال له: إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم، فدعاهم الى الإسلام فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبى، و كان نصرانيا و كان رأسهم، و أسلم معه ناس كثير من قومه، و أقام من أقام على إعطاء الجزية، و تزوج عبد الرحمن بتماضر بنت الأصبغ. و كان صاحب دومة أكيدر بن عبد الملك فى طاعة هرقل ملك الروم يعترض سفر المدينة و تجارهم، فصالحه الرسول على الجزية على كل حالم فى أرضه دينارا و كتب له و لأهل دومة كتابا و هو:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم»: من محمد رسول اللّه لأكيدر دومة حين أجاب الى الإسلام و خلع الأنداد و الأصنام مع خالد بن الوليد سيف اللّه فى دومة الجندل و أكنافها أن لنا الضاحية من الضّحل و البور و المعامى و أغفال الأرض و الحلقة و السلاح و الحافر و الحصن، و لكم الضامنة من النخل

خطط الشام، ج۱، ص: ۷۲

و المعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم، و لا تعدّ فاردتكم، و لا يحظر النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، و تؤتون الزكاة لحقها، عليكم بذلك عهد اللّه و الميثاق، و لكم به الصدق و الوفاء، شهد اللّه و من حضر من المسلمين».

و أرسل الرسول كتبا الى هرقل و الحارث بن أبى شمر يدعوهما إلى الإسلام و هذا نص الكتاب الذى بعث به مع دحية الكلبى على يد عظيم بصرى ليدفعه الى هرقل و هو بالشام على ما جاء فى الصحاح: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللّه الى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتبع الهدى. أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، و أسلم يؤتك اللّه أجرك مرتين، و إن توليت فإن عليك إثم الإريسيين . و يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا و بينكم أن لا نعبد الا اللّه و لا نشرك به شيئا، و لا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» اه. و كتب الرسول الى الحارث بن أبى شمر الغسانى أمير دمشق و بعث إليه بشجاع بن وهب. و كان فروة بن عمرو الجذامى عاملا لقيصر على عمّان من أرض البلقاء قد أسلم و أنفله الى الرسول رجلا يقال له مسعود بن سعد من قومه، و أهدى الرسول بغلة يقال لها فضة و حماره يعفور و فرسا يقال له الظرب و أثوابا من كتان و قباء من سندس مخرّصا بالذهب، فقبل رسول اللّه كتابه و هديته و كتب إليه جواب كتابه

خطط الشام، ج ۱، ص: ۷۳

و أجاز رسوله مسعودا بأثنتى عشرة أوقية و نش و بلغ قيصر إسلام فروة ابن عمرو فحبسه حتى مات فلما مات صلبوه- قاله ابن سعد.

و فى السنة الثامنة للهجرة بعث الرسول سرية كعب بن عمير الغفارى الى ذات أطلاح من ناحية الشام و هى وراء وادى القرى بين تبوك و أذرعات و كان ينزلها قوم من قضاعة، و رأسهم رجل يقال له سدوس، فخرج فى خمسة عشر رجلا فوجد جمعا، كثيرا فدعاهم الى الإسلام فأبوا أن يجيبوا و قتلوا أصحاب كعب جميعا، و تحامل رجل منهم حتى بلغ المدينة.

و فى هذه السنة استنفر الرسول الناس الى الشام فكانت غزوة ذات السلاسل، و السلاسل ماء بأرض جذام- فوجه عمرو بن العاص فى ثلثمائة مقاتل ثم استمده فأمده بأبى عبيدة بن الجراح على المهاجرين و الأنصار فيهم أبو بكر و عمر فى مائتين فكان جميعهم خمسمائة، و الغالب أنهم رجعوا من هذه الغزاة على غير جدوى.

و من السرايا التى أرسلت الى الشام سرية زيد بن حارثة الى جذام بحسمى وراء وادى القرى مما يلى فلسطين من أرض الشام. و سببها أن دحية بن خليفة الكلبى كان أقبل من عند قيصر و قد أجاره و كساه فسلبه أهل حسمى، فغزاهم زيد بن حارثة ثم ردّ الرسول عليهم أسلابهم. و فى تلك السنة بعث الرسول جيشا مؤلفا من ثلاثة آلاف مقاتل بلغوا تخوم البلقاء فلقيتهم جموع هرقل و معهم العرب المتنصرة بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف، فانحاز المسلمون الى قرية يقال لها مؤتة و جعلوا على ميمنتهم رجلا من عذرة يقال له قطبة بن قتادة، و على ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له عبادة بن مالك، فلقيتهم الروم فى جمع عظيم فقتل من الأمراء زيد ابن حارثة، ثم جعفر بن أبى طالب، ثم عبد اللّه بن رواحة، فلما فجع المسلمون بثلاثة قواد عظام منهم، و كان خالد بن الوليد من القواد فى ذاك الجيش،

خطط الشام، ج ۱، ص: ۷۴

رأى المصلحة أن يعود الى المدينة بمن معه. و كان سبب هذه الغزوة أن النبى بعث الحارث بن عمير رسولا الى ملك بصرى عاصمة حوران بكتاب كما بعث الى سائر الملوك، فلما نزل بمؤتة عرض له عمرو بن شرحبيل الغسانى فقتله، و لم يقتل لرسول اللّه رسول غيره. و قيل: إن هرقل نزل مآب من أرض البلقاء فى مائة ألف من الروم و انضمت اليه المستعربة من لخم و جذام و بلقين و بهراء و بلى فى مائة ألف منهم.

كانت أخبار الشام عند أهل المدينة كل يوم لكثرة من يرد عليهم من الأنباط فقدمت عليهم قادمة فذكروا أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة بالشام، و أن هرقل صاحب الروم قد رزق أصحابه لسنة، و استنفر العرب المتنصرة فأجلبت معه لخم و جذام و غسان و عاملة و بهراء و كلب و سليح و تنوخ من عرب الشام و زحفوا و قدموا مقدماتهم الى البلقاء و عسكروا بها، و تخلف هرقل بحمص و ضرب الروم على العرب الضاحية البعوث. فرأى الرسول إن لم يبدإ الروم القتال بدأوه به، فأعلم فى سنة تسع بالتجهيز لغزو الروم و الطلب بدم جعفر بن أبى طالب الذى استشهد فى مؤتة فى السنة الفائتة. و كان الرسول إذا أراد غزوة ورّى بغيرها إلا فى هذه، لقوة العدو و بعد الطريق و الجدب و الحر و الناس فى عسرة. و كان معه ثلاثون ألفا، و الخيل عشرة آلاف، و الجمال اثنا عشر ألفا، و لقى الجيش حرا و عطشا.

و قد أنفق أبو بكر الصديق فى تجهيز هذا الجيش جميع ماله، و أنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة.

خرج المسلمون فى غزوة تبوك الرجلان و الثلاثة على بعير، و خرجوا فى حر شديد فأصابهم يوما عطش شديد حتى جعلوا ينحرون إبلهم فيعصرون أكراشها و يشربون ماءها، فكان ذلك عشرة من الماء و عسرة من الظهر و عسرة من النفقة و لذلك سمى جيش العسرة.

خطط الشام، ج ۱، ص: ۷۵

و بلغ الجيش الحجر أرض ثمود فنهاهم الرسول عن مائة، و وصلوا تبوك فأقام بها عشرين ليلة، و سميت هذه الغزوة غزوة تبوك، و

لم يلق المسلمون فى هذه المعركة كيدا. و أتى يحنة بن رؤبة أسقف أيلة على البحر الأحمر فصالحه الرسول على الجزية. و كتب له كتابا صورته:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم: هذا أمنة من اللّه و محمد النبى ليحنة بن رؤبة و أهل أيلة أساقفهم و سائرهم فى البر و البحر، لهم ذمة اللّه و ذمة النبى و من كان معهم من أهل الشام و أهل اليمن و أهل البحر، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول ماله دون نفسه و إنه طيب لمن أخذه من الناس. و إنه لا يحل أن يمنعوا ما يريدونه و لا طريقا يريدونه من بر او بحر. هذا كتاب جهيم بن الصلت و شرحبيل بن حسنة بإذن رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم و كان ذلك فى سنة تسع من الهجرة».

و صالح الرسول أهل جرباء و أذرح من أرض الشراة، صالح أهل أذرح على مائة دينار، و صالح أهل مقنا على مقربة من أيلة على ثلاثمائة دينار على ربع عروكهم و غزولهم و ربع كراعهم و حلقتهم و على ربع ثمارهم و كانوا يهودا، و كتب إليهم هذا الكتاب:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم. من محمد رسول اللّه الى بنى حبيبة و أهل مقنا سلم أنتم فإنه أنزل علىّ أنكم راجعون الى قريتكم، فإذا جاءكم كتابى هذا فإنكم آمنون و لكم ذمة اللّه و ذمة رسوله، و إن رسول اللّه قد غفر لكم ذنوبكم و كل دم اتبعتم به لا شريك لكم فى قريتكم إلا رسول اللّه أو رسول رسول اللّه، و إنه لا ظلم عليكم و لا عدوان، و إن رسول اللّه يجيركم مما يجير به نفسه فإن لرسول اللّه بزتكم و رقيقكم و الكراع و الحلقة إلا ما عفا عنه رسول اللّه أو رسول رسول اللّه، و أن عليكم بعد ذلك ربع ما أخرجت نخيلكم و ربع ما صادت عروككم و ربع ما اغتزلت نساؤكم و انكم قد ثريتم بعد ذلكم و رفعكم رسول اللّه عن كل جزية و سخرة، فإن سمعتم و أطعتم فعلى رسول اللّه أن يكرم

خطط الشام، ج۱، ص: ۷۶

كريمكم و يعفو عن مسيئكم، و من ائتمر فى بنى حبيبة و أهل مقنا من المسلمين خيرا فهو خير له، و من أطلعهم بشر فهو شر له، و ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم أو من أهل بيت رسول اللّه و كتب على بن أبى طالب فى سنة ۹.

و فى السنة الحادية عشرة ضرب الرسول على الناس بعثا الى الشام أيضا و أمر عليه أسامة بن زيد ندبه الى البلقاء و أذرعات و مؤتة ثائرا بأبيه و لأسامة يومئذ ثمانى عشرة سنة. و فى رواية أن الرسول أمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء و الداروم، و أن يبلغ يبنى و أشدود من أرض فلسطين، و قيل:

أمر أن يوطىء من آبل الزيت بالأردن من مشارف الشام، و دعا الرسول عليه السلام أسامة بن زيد فقال: «سر الى موضع مقتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش فاغر صباحا على أهل يبنى و حرّق عليهم، و أسرع السير تسبق الأخبار، فإن ظفرك اللّه فأقلل اللبث فيهم و خذ معك الأدلاء و قدم العيون و الطلائع أمامك». و بينا الناس يتأهبون للغزاة ابتدأ الرسول شكواه التى قبضه اللّه عز و جل فيها. و كان يقول فى علته: جهزوا جيش أسامة. ثم سار أسامة الى يبنى فشنّ عليها الغارة و قتل قاتل أبيه و لم يصب أحد من المسلمين. و بلغ هرقل و هو بحمص ما صنع أسامة فبعث رابطة يكونون بالبلقاء، فلم تزل هناك حتى قدمت البعوث الى الشام فى خلافة أبى بكر و عمر.

فأول غزوات الشام دومة الجندل و الثانية مؤتة و الثالثة ذات السلاسل و الرابعة تبوك و الخامسة آبل الزيت و جملة غزواتهم سبع غزوات. و كلها مقدمات لفتح هذا القطر و أمر قطعى من صاحب الرسالة الى أصحابه بأن يكملوا العمل الذى وضع أساسه بنفسه الشريفة. عن سلمة بن نفيل الحضرمى قال:

فتح اللّه على رسول اللّه فتحا فأتيته فدنوت منه حتى كادت ثيابى تحس ثيابه فقلت: يا رسول اللّه سيبت الخيل و عطلوا السلاح و قال: قد نفيل وضعت الحرب أوزارها فقال رسول اللّه: كذبوا الآن جاء القتال الآن جاء القتال، لا يزال اللّه يزيغ قلوب أقوام تقاتلونهم و يرزقكم اللّه عز و جل منهم حتى يأتى أمر اللّه و هم على ذلك و عقر دار الإسلام بالشام.

خطط الشام، ج۱، ص: ۷۷

جيوش العرب و جيوش الروم نصيحة أبى بكر الصديق لقواده:

توفى الرسول عليه السلام فارتدت بعض قبائل العرب فقاتلهم أبو بكر الصديق حتى جمع شملهم بالإسلام فلما أمن من ناحيتهم كتب الى أهل مكة و الطائف و اليمن و جميع العرب بنجد و الحجاز يستنفرهم للجهاد فى الشام، و يرغبهم فيه و فى غنائم الروم، فسارع الناس إليه بين محتسب و طامع فعقد ثلاثة ألوية لثلاثة رجال، و هم يزيد بن أبى سفيان و شرحبيل ابن حسنة و عمرو ابن العاص. و كان أبو بكر أمر عمرو بن العاص أن يسلك طريق أيلة عامدا لفلسطين. و أمر يزيد و شرحبيل أن يسلكا طريق تبوك، فقصد الجيش فلسطين فى الجنوب و قسم منه قلب الشام.

و كان العقد لكل أمير فى بدء الأمر على ثلثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم بالإمداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف و خمسمائة ثم تتام جمعهم بعد ذلك أربعة و عشرين ألفا. و كان جيش الروم أربعين و مائتى ألف منهم المسلسل للموت و المربوط بالعمائم و الفرسان و الرجالة، جمعهم هرقل من أهل الشام و الجزيرة و إرمينية، و ولى عليهم رجلا من خاصته و بعث على مقدمته جبلة بن الأيهم الغسانى فى مستعربة الشام.

و أنجد أبو بكر جيوش الشام بخالد بن الوليد من العراق فى تسعة و قيل فى عشرة آلاف فصار المسلمون ستة و ثلاثون ألفا و فى رواية ستة و أربعين ألفا.

و يقول سيديليو: إن جيش العرب كان على أكثر تعديل مؤلفا من عشرين ألفا و جيش الروم من ستين ألفا. قال سعيد بن عبد العزيز: إن المسلمين يوم اليرموك كانوا أربعة و عشرين ألفا و الروم عشرين ألفا و مائتى ألف عليهم ماهان و صقلان (سقلار).

و مهما كان من تقدير الجيشين فالعرب كانوا أقل من الروم: و تقدير مؤرخى العرب للجيش الإسلامى بستة و ثلاثين ألفا و لجيش الروم بزهاء مائتى ألف أقرب الى الصحة، و هو تقدير معقول لا سيما إذا عرف أنه كان سكان الشام إذ ذاك نحو سبعة ملايين، و أن العرب على بعد الحجاز عن الشام لا يستطيعون أن يجهزوا أكثر من ذلك لأنهم كانوا يحاربون فى جهات أخرى.

خطط الشام، ج ۱، ص: ۷۸

و لما أنفذ أبو بكر الأمراء الى الشام كان فيما أوصى به يزيد بن أبى سفيان و هو مشيع له: إذا قدمت على أهل عملك فعدهم الخير و ما بعده، و إذا وعدت فأنجز، و لا تكثر عليهم الكلام، فإن بعضه ينسى بعضا، و أصلح نفسك يصلح الناس لك، و إذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مثواهم، فإنه أول خيرك اليهم، و أقلل حبسهم حتى يخرجوا و هم جاهلون بما عندك، و امنع من قبلك من محادثتهم، و كن أنت الذى تلى كلامهم، و لا تجعل سرّك مع علانيتك فيمرج أمرك، و إذا استشرت فاصدق الخبر تصدق لك المشورة، و لا تكتم المستشار فتؤتى من قبل نفسك، و إذا بلغتك عن العدو عورة فاكتمها حتى توافيها، و استر فى عسكرك الأخبار، و أذك حراسك، و أكثر مفاجأتهم فى ليلك و نهارك، و اصدق اللقاء إذا لقيت، و لا تجبن فيجبن من سواك.

و قد شيع أبو بكر يزيد بن أبى سفيان راجلا الى ما بعد ربض المدينة فقال له يزيد: إما أن تركب و إما أن أنزل. فقال: ما أنت بنازل و ما أنا براكب. إنى احتسب خطاى هذه فى سبيل اللّه ثم قال: إنك ستجد قوما حبسوا أنفسهم للّه فذرهم و ما حبسوا أنفسهم له يعنى الرهبان.

و ستجد قوما فحصوا عن أوساط رؤوسهم فاضرب ما فحصوا عنه بالسيف. ثم قال: إنى موصيك بعشر: لا تغدر، و لا تمثّل، و لا تقتل هرما و لا امرأة و لا وليدا، و لا تعقرن شاة و لا بعيرا الا ما أكلتم، و لا تحرقن نخلا، و لا تخربن عامرا، و لا تغلّ و لا تجبن.

وصل الجيش العربى الى مشارف الشام فنزل فى آبل وزيزاء و القسطل، و كان جيش الروم من دون زيزاء بثلث. و طلع ماهان قائد الروم و قدم قدامه الشمامسة و الرهبان و القسيسين يحضون جيش الروم على القتال. و كان هرقل و هو من عظام القواد أدرك الخطر و رأى لما أتاه الخبر بقرب جيش العرب أن لا يقاتلهم و أن يصالحهم. و قال لقومه: فو اللّه لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام و

تأخذوا نصفا و تقرّ بكم جبال الروم خير لكم من

خطط الشام، ج۱، ص: ۷۹

أن يغلبوكم على الشام و يشاركوكم فى جبال الروم، فلما رآهم يعصونه و يردون عليه بعث أخاه تيودورا و أمّر الأمراء.

مبدأ الحرب بين العرب و الروم:

و أول وقعة كانت بين العرب و الروم بقرية من قرى غزة يقال لها داثن (۱۲ ه) كانت بينهم و بين بطريق غزة فاقتتلوا فيها قتالا شديدا فهزم الروم، و توجه يزيد بن أبى سفيان فى طلب ذلك البطريق فبلغه أن بالعربة من أرض فلسطين جمعا للروم فأوقع بهم و قتل عظيمهم، و انتهى إليه أن ستة من قواد الروم نزلوا العربة فى ثلاثة آلاف فسار إليهم المسلمون فى كثف منهم فهزموهم، و قتل أحد القواد فصار الروم الى الدّبة فهزمهم المسلمون و غنموا غنما حسنا. و أول صلح كان بالشام صلح مآب.

مرّ أبو عبيدة بهم فى طريقه فقاتلوه، ثم سألوه الصلح فصالحهم، و قالوا: إن أول حرب كانت بالشام بعد سرية أسامة بالعربة ثم أتوا داثن ثم كانت مرج الصفّر، و أول مدينة فتحت بصرى قصبة حوران.

لما سار خالد بن الوليد من العراق مددا للمسلمين فى الشام و قد ضاق المسلمون فيه لكثرة جيوش الروم فتح فى طريقه ما اجتاز به من شرق الشام، مثل أركك و دومة الجندل و قصم و تدمر و القريتين و حوّارين و مرج راهط، و وجه أحد رجاله الى غوطة دمشق فأغار على قرى من قراها، و صار خالد الى الثنية التى تعرف بثنية العقاب المشرفة على الغوطة، فوقف عليها ساعة ناشرا رايته و هى راية كانت لرسول اللّه تسمى العقاب علما لها.

و العرب تسمى الراية عقابا. و أغار على بنى غسان فى يوم فصحهم.

ثم سار خالد حتى انتهى الى المسلمين بقناة بصرى، و يقال: إنه أتى الجابية من حوران و بها أبو عبيدة فى جماعة من المسلمين فالتقيا و مضيا جميعا الى بصرى. و لما فتحت بصرى توجه أبو عبيدة بن الجراح فى جماعة كثيفة فأتى مآب من أرض البلقاء، و بها جمع العدو فافتتحها صلحا على مثل صلح بصرى، ثم كانت وقعة أجنادين قرب القدس، شهدها من الروم زهاء مئة ألف سرّب هرقل أكثرهم و تجمع باقوهم من النواحى

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۰

فقتل المسلمون منهم مقتلة عظيمة. و قالوا: إن خالد بن الوليد لما جاء بصرى و المسلمون نزول عليها ضايق أهلها حتى صالحهم على أن يؤدوا عن كل حالم دينارا و جريب حنطة. و افتتح المسلمون جميع أرض حوران و غلبوا عليها وقتئذ و ذلك فى سنة ۱۳.

وقعة اليرموك:

أهم وقائع العرب فى الشام التى انهزم فيها الروم شر هزيمة و لحق فلّهم بالشمال وقعة اليرموك- و اليرموك نهر- فهى الوقعة الفاصلة التى هان بها الاستيلاء بعد ذلك على القدس و دمشق و ما إليها، ثم على حمص و حماة و حلب و ما إليها من البلدان، و ظهر فيها النبوغ العربى فى الحرب بأجلى مظاهره.

و تبين أن تلك الأمة الفقيرة بمالها، ليست فقيرة بعقل رجالها. و قرأ العرب على الروم يومئذ درسا من مضائهم و حسن بلائهم، و أروهم راموزا من تضامنهم و استماتتهم، و أتوهم بمثال من طيب أخلاقهم وجودة فطرهم، خلافا لما كان عليه أعداؤهم من الانقسام و تشتت الأهواء و الخصام.

«لما قدم خالد بن الوليد مددا للمسلمين فى اليرموك وجد العرب يقاتلون الروم متساندين كل أمير على جيش: أبو عبيدة على جيش، و يزيد بن أبى سفيان على جيش، و شرحبيل بن حسنة على جيش، و عمرو بن العاص على جيش.

فقال خالـد: إن هـذا اليوم من أيام اللّه لا ينبغى فيه الفخر و لا البغى، فأخلصوا للّه جهادكم، و توجهوا الى اللّه بعملكم. فإن هـذا يوم له ما بعـده، فلا تقاتلوا قوما على نظام و تعبئـة و أنتم على تساند و انتشار، فإن ذلك لا يحل و لا ينبغى، و إن من وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم و بين هذا. فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه هو الرأى من واليكم.

قالوا: فما الرأى؟ قال: إن الذى أنتم عليه أشد على المسـلمين مما غشـيهم و أنفع للمشركين من أمدادهم. و لقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم و اللّه، فهلموا فلنتعاور الإمارة، فليكن علينا بعضـنا اليوم، و بعضـنا غدا، و الآخر بعد غد حتى يتأمر كلكم، و دعونى اليوم عليكم.

قالوا: نعم. فأمروه و هم يرون أنها كخرجاتهم، فكان الفتح على يد خالد. و جاءه البريد يومئذ بموت

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۱

أبى بكر و خلافة عمر و تأمير أبى عبيدة على الشام كله و عزل خالد، فأخذ الكتاب منه و تركه فى كنانته و وكل به من يمنعه أن يخبر النـاس من الأـمر لئلاـ يضـعفوا. و هزم الروم و قتـل منهم على الواقوصـة مـا يزيـد على مئـة ألف ثم دخل على أبى عبيـدة و سـلم عليه بالإمارة، و كانت من أعظم فتوح المسلمين و باب ما جاء بعدها من الفتوح، لأن الروم كانوا قد بلغوا فى الاحتشاد فلما كسروا ضعفوا و دخلتهم هيبة».

و فى كتاب أبى حذيفة أن المسـلمين أوقعوا بالروم يوما باليرموك فشد خالد فى سـرعان الناس و شدّ المسـلمون معه يقتلون كل قتلة، فركب بعضـهم بعضا حتى انتهى الى أعلى مكان مشـرف على أهوية فأخذوا يتساقطون فيها و هم لا يبصـرون. و هو يوم ذو ضـباب- و فى روايـة ثارت فيه الرياح الهوج- و قيل: كان ذلك بالليل و كان آخرهم لا يعلم بما صار إليه الـذى قبله حتى سـقط فيها ثمانون ألفا فما أحصوا إلا بالقضـيب، و سـميت هـذه الأهويـة بالواقوصـة من يومئذ لأنهم واقصوا فيها أى اقتربوا، فلما أصـبح المسـلمون و لم يروا أعداءهم ظنوا أنهم قد كمنوا لهم حتى أخبروا بأمرهم.

و قال سـعيد بن بطريق: بلغ ماهان قائـد الروم أن العرب قـد خرجوا من طبريـة يريدون دمشق، فجمع عسـكره و خرج منها و سار يومين حـتى نزل على واد كـبير يقـال له وادى الرمـاد، و يقـال للموضـع الجولاـن و يعرف بالياقوصـة، و صـير الـوادى بينه و بين العرب شـبيه الخنـدق و أقاموا أياما و العرب بحـذائهم. و بعـد أيام خرج منصور العامل من دمشق يريد عسـكر ماهان و معه مال قد جباه من دمشـق بالمشاعل، فلما قربوا من العسكر ضربوا و بوّقوا و صاحوا، و كان ذلك من منصور مكيدة، فلما نظر الروم الى المشاعل

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۲

خلفهم و سـمعوا صوت الطبول و البوقات، توهموا أن العرب قد جاءوهم من خلفهم و كبسوهم فوقعت فيهم الهزيمة فسقطوا كلهم فى ذلـك الوادى أعنى وادى الرمـاد، و هو واد عظيم كـبير فمـاتوا و لم يتخلص منهم إلاـ نفر قليـل، و منهم من هرب الى مواضع شـتى، و منهم من تراجع الى دمشق، و منهم من هرب إلى بيت المقدس، و منهم من هرب الى قيسارية اه.

و شـهد اليرموك ألف صـحابى منهم نحو من مائـة من أهل بـدر، و تهافت فى الواقوصـة من الروم عشـرون و مائة ألف، ثمانون ألف مقرّن و أربعون ألف مطلق سوى من قتل فى المعركة من الخيل و الرجل. و يقول الطبرى:

إن قتلى اليرموك من الروم سبعون ألفا، و زعم بعض المؤرخين أن جيش الروم تكامل يوم اليرموك أربعمائة ألف.

فتح فحل و أجنادين و بيسان:

ذكروا أن أول كتاب كتبه عمر حين ولى أبا عبيـدة الشام: أوصـيك بتقوى اللّه الذى يبقى و يفنى ما سواه، الذى هدانا من الضـلالة، و أخرجنا من الظلمات الى النور، و قد اسـتعملتك على جند خالد بن الوليد، فقم بأمرهم الذى يحق عليك. لا تقدم المسلمين الى هلكة رجـاء غنيمـة، و لاـ تنزلهم منزلاـ قبـل أن تستريـده لهم و تعلم كيف مأتـاه، و لاـ تبعث سـريّة إلاـ فى كثف من الناس، و إياك و إلقاء المسـلمين فى الهلكـة، و قـد ابتلاـك اللّه بى و ابتلاـنى بـك، فغمّض بصـرك عن الـدنيا، و ألـه قلبـك عنهـا، إيـاك أن تهلكك كما

أهلكت من كان قبلك، فقد رأيت مصارعهم اه.

توفى أبو بكر الصديق قبل فتح اليرموك بعشر ليال و بعد أن أصيبت الروم بالهزيمة القاطعة على اليرموك، كانت وقعة فحل من الأردن بعد خلافة عمر بن الخطاب بخمسة أشهر، و لما انتصر المسلمون على اليرموك كان هرقل فى البيت المقدس، جاءها للاحتفال بتخليص الصليب الذى استرده قبل ذلك

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۳

فصار الى أنطاكية و استنفر الروم و أهل الجزيرة و بعث عليهم رجالا من خاصته و ثقاته فلقوا المسلمين بفحل فقاتلوهم أشد قتال و أبرحه حتى ظهروا عليهم، و قتل بطريقهم و زهاء عشرة آلاف معه و تفرق الباقون فى مدن الشام و لحق بعضهم بهرقل.

و لما سار المسلمون بعد أن فرغوا من أجنادين الى فحل نزلت الروم بيسان فبثقوا أنهارها و فى أرض سبخة فكانت وحلا، و نزلوا فحل و بيسان، فلما غشيها المسلمون و لم يعلموا بما صنعت الروم و حلت خيولهم، و لقوا فيها عناء ثم سلموا. و سميت بيسان ذات الردغة لما لقى المسلمون فيها، ثم نهضوا الى الروم و هم بفحل فاقتتلوا فهزمت الروم و دخل المسلمون فحل و لحقت رافضة الروم بدمشق، فكانت وقعة فحل فى ذى القعدة سنة ثلاث عشرة. قال الطبرى: «كان الروم فى فحل بعد أن رحلت حيارى لا يعرفون مأخذهم، فأسلمتهم هزيمتهم و صيرتهم الى الوحل فركبوه و لحق أوائل المسلمين بهم و قد و حلوا فركبوهم و ما يمنعون يد لامس فوخزوهم بالرماح، فكانت الهزيمة فى فحل، و كان مقتلهم فى الرّداغ فأصيب الثمانون ألفا لم يفلت منهم إلا الشريد. و كان اللّه يصنع للمسلمين و هم كارهون: كرهوا البثوق فكانت عونا لهم على عدوهم، و أناة من اللّه ليزدادوا بصيرة وجدا».

الأردن و فلسطين و جبل اللكام:

افتتح شرحبيل بن حسنة الأردن عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه على أنصاف منازلهم و كنائسهم، و فتحت جميع مدن الأردن و حصونها على مثل صلح طبرية فتحا يسيرا بغير قتال، ففتح بيسان وسوسية و أفيق و جرش و بيت رأس و قدس و الجولان، و غلب على سواد الأردن و جميع أرضها و على صفورية و عكا و صور، و بفتح هذين الثغرين من الساحل

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۴

انقطع ما بين الروم فى إيلياء و بين خط رجعتهم من البر مع أنطاكية و ما وراءها من الدروب. و صالح أبو عبيدة السامرة بالأردن و كانوا عيونا و أدلاء للمسلمين، كما صالح الجراجمة فى جبل اللّكام بين بياس و بوقا على أن يكونوا أعوانا للمسلمين و عيونا و مسالح فى جبل اللّكام، و فتح عمرو ابن العاص غزة ثم سبسطية و نابلس و لدّ و يبنى و عمواس و بيت جبرين و يافا و رفح، و ظلت القدس و قيسارية محاصرتين، و لم تفتح القدس إلا سنة خمس عشرة أى بعد فتح دمشق بسنة و نيف، و طلب أهله من أبى عبيدة أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام و أن يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك فسار عن المدينة و خرج صفرونيوس بطريق بيت المقدس الى عمر بن الخطاب فأعطاه عمر أمانا و كتب لكل كورة كتابا واحدا ما خلا أهل إيلياء. و هذا نص عهد أهل إيلياء:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم»: هذا ما أعطى عبد اللّه عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانا لأنفسهم و أموالهم و لكنائسهم و صلبانهم و سقيمها و بريئها و سائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم و لا تهدم و لا ينتقض منها و لا من حيّزها و لا من صليبهم و لا من شىء من أموالهم و لا يكرهون على دينهم و لا يضار أحد منهم، و لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. و على أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، و عليهم أن يخرجوا منها الروم و اللصوت (اللصوص)، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه و ماله حتى يبلغوا مأمنهم، و من أقام منهم فهو آمن، و عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، و من شاء سار مع الروم، و من شاء رجع الى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شىء حتى يحصد حصادهم، و على ما فى هذا الكتاب عهد اللّه و ذمة رسوله و ذمة الخلفاء و ذمة المؤمنين إذا أعطوا الذى عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد و عمرو بن العاص و عبد الرحمن بن عوف و معاوية ابن

أبى سفيان و كتب و حضر سنة ۱۵.

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۵

و كتب عمر الى أهل لـدّ و من دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين مثل شـروط أهل إيلياء. و اختلف القوم فى صـلح بيت المقـدس فقالوا صالح اليهود و قالوا النصارى، و المجمع عليه أنه صالح النصارى. و فى كتاب عمر صـراحة فى ذلك. و اشترط فيه إخراج الروم الذين ليسوا من أبناء القطر الأصـليين. و أتاه جبلة بن الأيهم رأس بنى غسان و كان هذا أسـلم ثم ارتد و قاتل المسـلمين مع الروم فقال له: تأخـذ منى الصدقـة كمـا تصـنع العرب قـال: بـل الجزيـة و إلا فالحق بمن هو على دينك. فخرج فى ثلاثين ألفا من قومه حتى لحق بأرض الروم، و ندم عمر على ما كان منه فى أمره.

فتح دمشق و الأحكام العسكرية:

كتب عمر الى أبى عبيدة و كان كتب اليه فى أمر الشام: أما بعد فابدأوا بدمشق و انهدوا لها فإنها حصن الشام و بيت ملكهم. و بعد أن تم للمسـلمين ما أرادوا من هزيمة الروم على اليرموك جمعت الروم جمعا عظيما و أمدهم هرقل بمدد فلقيهم المسـلمون بمرج الصّـفّر بين دمشق و الجولاـن و هم متوجهون الى دمشق، و ذلك لهلال المحرم سـنة ۱۰ فاقتتلوا قتالا شديدا و جرح من المسـلمين زهاء أربعة آلاف، و ولى الروم مفلولين لا يلوون على شـىء حتى أتوا دمشق و بيت المقدس. و لما فرغ المسلمون من قتال من اجتمع لهم بالمرج رجعوا الى مدينـة دمشق فأخذوا الغوطة و كنائسـها عنوة، و نازلوا دمشق و حاصـروها من الباب الشـرقى و باب توما و باب الفراديس و باب الجابية و الباب الصـغير و فتح نصـفها عنوة و النصف الآخر صـلحا، فأجراها عمر كلها صلحا. و كتب أهل دمشق كتابا لأبى عبيدة هو هذا:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم»: هذا كتاب لأبى عبيدة بن الجراح ممن أقام بدمشق و أرضـها و أرض الشام من الأعاجم، إنك حين قدمت بلادنـا سألناك الأمان على أنفسـنا و أهل ملتنا، و إنا اشترطنا لك أن لا نحـدث فى مدينـة دمشق و لا فيما حولها كنيسـة و لا ديرا و لا قلاية و لا صومعة

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۶

راهب، و لا نجدد ما خرب من كنائسنا و لا شيئا منها مما كان فى خطط المسلمين، و لا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها فى الليل و النهـار، و أن نوسع أبوابهـا للمـارة و أبناء السبيل، و لا نؤوى فيها و لا فى منازلنا جاسوسا، و لا نكتم على من غش المسـلمين، و على أن لا نضرب بنواقيسنا إلا ضربا خفيفا فى جوف كنائسنا، و لا نظهر الصليب عليها، و لا نرفع أصواتنا فى صلاتنا و قراءتنا فى كنائسنا، و لا نخرج صـليبنا و لا كتابنا و لا نخرج باعوثا و لا شـعانين، و لا نرفع أصواتنا بموتانا، و لا نظهر النيران معهم فى أسواق المسـلمين، و لا نجاورهم بالخنازير و لا نبيع الخمور، و لا نظهر شركا فى نادى المسلمين، و لا نرغب مسلما فى ديننا، و لا ندعو إليه أحدا و على أن لا نتخذ شـيئا من الرقيق الذى جرت عليه سـهام المسلمين، و لا نمنع أحدا من قرابتنا إن أرادوا الدخول فى الإسلام، و أن نلزم ديننا حيثما كنـا و لاـ نتشـبه بالمسـلمين فى لبس قلنسوة و لاـ عمامـة و لاـ نعلين و لا فرق شـعر و لا فى مراكبهم، و لا نتكلم بكلامهم و لا نتسـمى بأسـمائهم و أن نجز مقادم رؤوسنا و نفرق نواصينا و نشد الزنانير على أوساطنا، و أن لا ننقش فى خواتيمنا بالعربية و لا نركب السروج، و لا نتخذ شـيئا من السـلاح، و لا نجعله فى بيوتنا و لا نتقلد السيوف، و أن نوقر المسلمين فى مجالسهم و نرشدهم للطريق، و نقوم لهم من المجالس إذا أرادوها، و لا نطلع عليهم فى منازلهم، و لا نعلم أولادنا القرآن و لا نشارك أحدا من المسـلمين إلا أن يكون للمسلم أمر التجـارة، و أن نضـيف كل مسـلم عابر سبيل من أوسط ما نجـد، و نطعمه فيها ثلاثـة أيام، و علينا أن لا نشـتم مسـلما، و من ضـرب مسلما فقد خلع عهده.

ضمنا ذلك على أنفسـنا و ذرارينا و أرواحنا و مساكننا، و إن نحن غيرنا أو خالفنا عما اشترطنا لك و قبلنا الأمان عليه فلا ذمة لنا، و قد

حل لک منا ما حلّ من أهل المعاندة و الشقاق. على ذلک أعطينا الأمان لأنفسنا و أهل ملتنا فأقرونا فى بلادكم التى ورثكم اللّه إياها. شهد اللّه على ما شرطنا لكم على أنفسنا و كفى به شهيدا.

و كتب عمر بن الخطاب على النصارى كتابا فى هذا المعنى أيضا و هذان

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۷

الكتابان هما من قبيل ما يقرره الفاتحون من الأحكام العسكرية أو الإدارة العرفية كما يسمونها اليوم و هى كما لا يخفى تختلف باختلاف الأمم و الحالات و ليست أصلا من أصول الدين لا يجوز تبديله.

و هذا نص العهد الذى أعطاه خالد بن الوليد قبل أن يعلم بما صار إليه حال المسلمين فى الشق الآخر من المدينة مدينة دمشق:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم»: هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذ دخلها، أعطاهم أمانا على أنفسهم و أموالهم و كنائسهم و سور مدينتهم لا يهدم و لا يسكن شىء من دورهم، لهم بذلک عهد اللّه و ذمة رسوله صلى اللّه عليه و سلم و الخلفاء و المؤمنين لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية.

و ذكر الطبرى أن أبا عبيدة بن الجراح دخل دمشق فى سنة ۱۴ فشتى بها، فلما ضاقت الروم سار هرقل بهم حتى نزل أنطاكية و معه من المستعربة لخم و جذام و بلقين و بلى و عاملة، و من تلک القبائل من قضاعة و غسان بشر كثير، و معه من أهل إرمينية مثل ذلک، و بعث الصقلار خصيا له فسار بمائة ألف مقاتل معه، من أهل إرمينية اثنا عشر ألفا و معه من المستعربة من غسان و تلک القبائل من قضاعة اثنا عشر ألفا عليهم جبلة بن الأيهم الغسانى و سائرهم من الروم. و سار اليهم المسلمون و هم أربعة و عشرون ألفا عليهم أبو عبيدة بن الجراح فالتقوا باليرموک فى ۱۲ رجب سنة ۱۵ (۲۰ آب ۶۳۶) فاقتتل الناس قتالا شديدا. و تدل عبارة الطبرى على أن فتح دمشق كان قبل فتح اليرموک و المعقول المعول عليه أن فتح اليرموک كان قبل فتح دمشق.

فتح حمص و شيزر و المعرة و بعلبک و صيدا و بيروت و جبيل و عرقة:

و بينا المسلمون على حصار دمشق، و قد حوصرت ستة أشهر، أقبلت خيل من عقبة السليمة مخمرة بالحرير فثار إليهم المسلمون فالتقوا فيما بين بيت لهيا قرب دومة و العقبة التى أقبلوا منها، فهزموهم و طردوهم الى أبواب حمص، فلما رأى أهل حمص ذلک ظنوا أنهم فتحوا دمشق فقال

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۸

لهم أهل حمص: إنا نصالحكم على ما صالحتم عليه أهل دمشق ففعلوا، و لما فرغ أبو عبيدة من دمشق سار الى حمص فاستقراها و أجرى صلحها على مثل صلح بعلبک، ثم مضى نحو حماة فتلقاه أهلها مذعنين، فمضى نحو شيزر و بلغت خيله الزراعة و القسطل.

و مر أبو عبيدة بمعرة النعمان فخرج أهلها يقلسون (يلعبون) بين يديه ثم اتى فامية (قلعة المضيق) ففعل أهلها مثل ذلک، و بعث خالد بن الوليد الى البقاع ففتحه بالسيف، و بعث سرية فالتقوا مع الروم بعين ميسنون و على الروم رجل يقال له سنان تحدر على المسلمين من عقبة بيروت، فقتل منهم يومئذ جماعة من الشهداء، فكانوا يسمون عين ميسنون عين الشهداء.

و استخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبى سفيان شقيق معاوية كما وعده بها الصديق، فسار يزيد الى صيدا و بيروت و جبيل و عرقة ففتحها فتحا يسيرا، و بعث يزيد دحية بن خليفة الى تدمر فى سرية ليمهدوا أمرها، و بعث أبا الزهر القشيرى الى البثنية و حوران فصالح أهلهما.

قنسرين و حلب و أنطاكية و كور الشمال:

و سار أبو عبيدة الى قنّسرين فصالحه أهلها على مثل صلح حمص، و غلب المسلمون على أرضها و قراها، ثم سار الى حلب و حاصرها

ففتحها، و بعث أبو عبيدة بعد فتح حمص خالد بن الوليد الى قنسرين فلما نزل بالحاضر زحف اليهم الروم و عليهم ميناس، و هو رأس الروم و أعظمهم فيهم بعد هرقل، فالتقوا بالحاضر فقتل ميناس و من معه مقتلة عظيمة لم يقتلوا مثلها. فأما الروم فماتوا على دمه حتى لم يبق منهم أحد، و أما أهل الحاضر فأرسلوا الى خالد أنهم عرب، و أنهم إنما حشروا و لم يكن من رأيهم حربه فقبل منهم و تركهم.

و سار أبو عبيدة الى أنطاكية و قد لحق بها خلق من أهل جند قنسرين، فلما صار بمهروبة قريب فرسخين من أنطاكية لقيه جمع للعدو ففضهم و ألجأهم الى المدينة فحاصرها، ثمّ صالحه أهلها على الجزية و الجلاء فجلا بعضهم و أقام بعضهم. و وجه أبو عبيدة ميسرة بن مسروق العبسى الى

خطط الشام، ج۱، ص: ۸۹

درب بغراس (بيلان) فلقى جمعا للروم و معهم مستعربة من غسان و تنوخ يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم و قتل منهم مقتلة عظيمة. و بلغ أبا عبيدة أن جمعا للروم بين معرة مصرين و حلب فلقيهم و قتل عدة بطارقة و فض ذلك الجيش، و فتح معرة مصرين على مثل صلح حلب، و جالت خيوله فبلغت بوقا و فتحت قرى الجومة و سرمين و مرتحوان و تيزين و عزاز و صالحوا أهل دير طبايا و دير الفسيلة؟ على أن يضيفوا من مرّ بهم من المسلمين، و أتاه نصارى خناصرة فى سيف البادية فصالحهم، و فتح أبو عبيدة جميع أرض قنسرين و أنطاكية و اللاذقية. و ورد عبادة بن الصامت السواحل ففتح مدينة تعرف ببلدة على فرسخين من جبلة و انطرطوس و مرقبة و بانياس، ثم صالح أبو عبيدة أهل قورس و بث خيله فغلب على جميع أرض قورس الى آخر حد نقابلس، و فتح منبج و دلوك و رعبان و عراجين و بالس و قاصرين، و بلغ أبو عبيدة الفرات و اشترط على أهل رعبان و دلوك أن يبحثوا عن أخبار الروم و يكاتبوا بها المسلمين.

وقعة مرج الروم و قيسارية:

و فى سنة خمس عشرة كانت الوقعة بمرج الروم، و كان من ذلك أن أبا عبيدة خرج بخالد بن الوليد من فحل الى حمص، و انصرف بمن أضيف إليهم من اليرموك فنزلوا جميعا على ذى الكلاع، و قد بلغ الخبر هرقل فبعث تيودرا البطريق حتى نزل بمرج دمشق و غربها، فنزل أبو عبيدة بمرج الروم فنازله يوم نزل عليه شنس الرومى فى مثل خيل تيودرا إمدادا ليتودرا و ردءا لأهل حمص فنزل فى عسكر على حدة، فلما كان من الليل أصبحت الأرض من تيودرا بلاقع، و كان خالد بإزائه و أبو عبيدة بإزاء شنس، و أتى خالدا الخبر أن تيودرا قد رحل الى دمشق فأجمع رأيه و رأى أبى عبيدة أن يتبعه خالد و هم يقتتلون، فأخذهم من خلفهم فقتلوا من بين أيديهم و من خلفهم، فأناموهم و لم يفلت منهم إلا الشريد، فأصاب المسلمون ما شاؤوا من ظهر و أداة و ثياب. و ناهد أبو عبيدة بعد خروج

خطط الشام، ج۱، ص: ۹۰

خالد فى إثر تيودرا و شنس و امتلأ المرج من قتلاهم فأنتنت منهم الأرض و هرب من هرب منهم فلم يفلتهم و ركب أكتافهم الى حمص.

هكذا تم فتح الشام على هذا الوجه المحكم فى ثلاث سنين و لم تعص إلا قيسارية فإن معاوية فتحها سنة ۱۹ بعد أن حوصرت نحو سبع سنين، و كان أهلها يزاحفون معاوية و جعلوا لا يزاحفونه مرة إلا هزمهم و ردهم إلى حصنهم، ثم زاحفوه آخر ذلك و خرجوا من صياصيهم فاقتتلوا فى حفيظة و استماتة فبلغت قتلاهم فى المعركة ثمانين ألفا و كملها فى هزيمتهم مائة ألف (الطبرى). و كانت قيسارية من أعيان أمهات المدن قيل كان مقاتلة الروم الذين يرزقون فيها مائة ألف، و سامرتها ثمانون ألفا، و يهودها مائة ألف (ياقوت). و كان كتاب عمر الى معاوية: أما بعد فإنى قد وليتك قيسارية فسر إليها و استنصر عليهم و أكثر من قول لا حول و لا قوة إلا باللّه، اللّه ربنا و ثقتنا و رجاؤنا و مولانا، نعم المولى و نعم النصير.

و من المدن التى امتنعت و حوصرت زمنا طويلا مدينة عسقلان، كتب عمر بن الخطاب الى معاوية يأمره بتتبع ما بقى من فلسطين ففتح

عسقلان سنة ۲۳ ه صلحا بعد كيد. و يقال: إن عمرو بن العاص كان فتحها ثم نقض أهلها و أمدّهم الروم، ففتحها معاوية و أسكنها الروابط و وكل بها الحفظة.

سر نجاح المسلمين و قتال نسائهم يوم اليرموك:

بمثل تلك الجيوش القليلة التى ظهرت على جيوش الروم و من والاهم فتح العرب هذا القطر العزيز، و كانت قوتهم فى معظم الوقائع على نسبة واحد الى ثلاثة أو أربعة من قوة أعدائهم بعد أن قطعوا بوادى الحجاز و العراق و الشام على جمالهم و خيولهم، قليل عتادهم، جليل جهادهم.

و ساروا فى فلوات لا- ماء فيها يستقون منه، و لا مراعى يرعون فيها أنعامهم، و لا ميرة يمتارونها، و كل ما لديهم من الماديات قليل ضئيل، و لكن معنوياتهم كانت فوق معنويات من رحلوا إليهم و كان كل فرد من

خطط الشام، ج۱، ص: ۹۱

أفراد جيوشهم يعتقد بأنه إن مات مات شهيدا، و إن عاش عاش سعيدا.

أما الروم فكانوا على كثرة جيوشهم، و وفرة أسبابهم من المؤن و الذخائر فى أرض عامرة هى و ما وراءها الى أرض الروم، و النجدات تأتيهم أرسالا- على أيسر سبيل، و مع هذا فقد كثرت هزائمهم وعد قتلاهم بالألوف و قتلى العرب بالمئات، و تركوا أرضا عرفوا معالمها و مجاهلها فلم تغن عنهم كثرتهم و لا- وفرة أسبابهم، فقهروا و غلبوا على أمرهم، و هاموا على رؤوسهم لا- يلويهم شىء، و ذلك لأنهم كانوا متفسخين مشتة أهواؤهم، و الناس هنا قد يئسوا من عدل الرومان فى أواخر أيامهم حتى إنهم لما طلبوا مالا من منصور عامل هرقل بدمشق لاستئجار رجال يحاربون المسلمين نادى بأن ليس لديه مال، ليسمع الناس و ييأسوا و يفتح السبيل للمسلمين.

و كان هرقل كتب الى منصور هذا أن يمسك عليه الرجال بالمال فأبى منصور و قال: إن الملك غير محتاج إلى هذا العسكر العظيم، و إن العرب قوم غزاة، و هذا العسكر يحتاج الى مال كثير و ليس بدمشق مال عظيم.

قال ابن بطريق: أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم فيتفرقوا و يسلّم دمشق الى المسلمين.

و لعل لتأليف جيش الروم، و كان مؤلفا من أجناس و أخلاط دخلا فى الهزيمة، و ربما كان رجال الدين من الروم فى دمشق يوم الفتح العربى مستائين من القواعد التى سنها هرقل ليضع حدا للمنازعات الدينية، و لعلهم عاونوا على تسليم دمشق للعرب أو تركوا المسائل تجرى فى أعنتها. و لكن من المحقق أن العرب المتنصرة فى الشام عادوا بعد أن صاروا مع الروم فانضموا الى العرب المسلمين و أخذتهم النّعرة الجنسية فغلّبوها على النّعرة الدينية و أصبحوا للمسلمين عيونا على الروم و أن اليهود و السامرة كانوا مع المسلمين الفاتحين. قال هوار: توصل الامبراطور أن يجمع فى حمص ثمانين ألف مقاتل نصفهم من جنده و النصف الآخر من معاونين أرمن، و كانت النجدات تتوالى عليه إلا- أن الشقاق الداخلى كان يمزق أحشاء الجيش الرومانى، و قد شغب الجنود من الأرمن و طلبوا أن يكون ماهان امبراطورا قبيل وقعة اليرموك.

خطط الشام، ج۱، ص: ۹۲

لا- جرم أن سلاح الروم كان أمضى من سلاح العرب، و نظامهم الظاهرى كان أجلى. قال سيديليو: كان جيش الروم يفوق جيش العرب بلباسه، و خبرة ضباطه، و نوع سلاحه، و غنى دور صناعاته و مناعة حصونه، و سهولة المواصلات و التموين عليه. و الروم يعرفون الخطط و يمسكون البحر و لهم من ورائهم ولايات مأهولة مخصبة. أما العرب فكانوا جاهلين معدمين ليس لهم شىء من الأسباب المادية، و لا يحسنون من ضروب الحرب غير حروب العصابات على أصول البادية، و قد يعمدون الى الفرار أحيانا، و يرى جيشهم لأول وهلة كأنه عصابات مجموعة كيفما اتفق:

الفرسان وسط المشاة، و من الجنود من يسترون بعض أجسامهم و منهم العراة. و سلاح كل واحد كما يحب من قوس الى حربة أو دبوس و سيف و رمح. قال: و وجه الغرابة أن يضيف العرب الى المفاداة احترام النظام يضاف إليهما عظمة العواطف، و هم طالما وصموا بأنهم متوحشون ظلما و تعنتا.

قلنا: و هكذا كان شأن العرب فى سائر فتوحاتهم فى آسيا و إفريقيا و أوروبا، كانت معنوياتهم فى كل مكان أرقى من معنويات من غلبوهم على أمرهم، و دون ماديات أمم كانت راسخة القدم فى أرضها، عزيزة السلطان فى ربوعها، و حاجياتها منها على طرف الثّمام تأتيها بدون تعمل كثير. و كان العرب يتبلغون و دوابهم بميسور العيش. حتى إن خالد بن الوليد لما سار فى جيشه من العراق الى الشام من طريق البرية لتخرج من وراء جموع الروم لأنه كان يرى أنه إذا استقبلها حبسته عن غياث المسلمين، سقى الجمال مرتين لقلة الماء فى الطريق، فكلما نزل منزلا نحر و جعل أكراشها على النار و شرب القوم.

و من أعظم العوامل فى غلبة المسلمين خوف الهزيمة من الزحف، و كانت الهزيمة أو التخلف عن الجهاد من أعظم العار، بل من الكبائر التى لا- يرحم فاعلها. فقد ذكروا أن فلّ جيش مؤتة لما رجع الى المدينة جعل الناس يحثون عليهم التراب و يقولون: يا فرّار فررتم فى سبيل اللّه. فقال النبى (عليه الصلاة و السلام): ليسوا بالفرار و لكنهم الكرّار إن شاء

خطط الشام، ج ۱، ص: ۹۳

اللّه. هذا و كان فى جملة أولئك الفرار خالد بن الوليد سيف اللّه و عن رأيه رجع الجيش.

و كان للنساء يد طولى فى نصرة العرب. فقد تطوع أبو سفيان بن حرب فى حرب الشام و كانت له تجارات و أملاك فى الجاهلية، و له قرية فى البلقاء اسمها نقنّس. و كان شيخ مكة بل شيخ تجار قريش و رئيسهم، و من أعظم أهل الرأى و المكانة فيهم، و هو كابنه معاوية من المؤلفة قلوبهم ثم حسن إسلامهما، و قد حارب الرسول كثيرا و قال له الرسول يوم أسلم فى فتح مكة سنة ثمان للهجرة: «من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، و من دخل المسجد فهو آمن، و من أغلق عليه بابه فهو آمن». و جاء الشام فى الإسلام فى مشيخة من قريش يحارب تحت راية ابنه يزيد و كان له و لابنيه يزيد و معاوية بل و لجماعة من أسرته بل للنساء منهن اليد الطولى و الكعب المعلى فى فتح الشام.

و مما قاله أبو سفيان للنساء اللاتى مع المسلمين، و كان كثير من المهاجرات حضرن يومئذ مع أزواجهن و أبنائهن، و قد أجلسهن خلف صفوف المسلمين فأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهن: لا يرجع إليكن أحد من المسلمين إلا رميتموه بهذه الحجارة و قلتن له: من يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام و أهله و عن النساء و هم أمام العدو. و لما حمى الوطيس و استقبل النساء سرعان من انهزم من المسلمين معهن بعمد البيوت أو عمد الفساطيط و أخذن يضربن وجوههم و يرمين بالحجارة و يقلن: أين أين عز الإسلام و الأمهات و الأزواج. و لقد قاتل بعض النساء بالفعل يوم اليرموك مثل جويرية ابنة أبى سفيان و كانت مع زوجها. قال البلاذرى: و قاتل يوم اليرموك نساء المسلمين قتالا شديدا و فيهن هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان. و قال الطبرى: و قاتل نساء من نساء قريش يوم اليرموك بالسيوف حتى سابقن الرجال منهن أم حكيم بنت الحارث بن هشام.

وصف رومى العرب، و كان أسيرا فى أيديهم فأفلت، و سأله هرقل عنهم فقال: «أخبرنى عن هؤلاء القوم، فقال: أحدثك كأنك تنظر إليهم «فرسان بالنهار، رهبان بالليل، ما يأكلون فى ذمتهم إلا بثمن،

خطط الشام، ج ۱، ص: ۹۴

و لا يدخلون إلا بسلام، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه.

فقال: لئن كنت صدقتنى ليرثنّ ما تحت قدمىّ هاتين».

و لما انتصر المسلمون بفحل و قدم المنهزمون من الروم على هرقل بأنطاكية دعا رجالا منهم فأدخلهم عليه فقال: حدثونى و يحكم عن هؤلاء القوم الذين يقاتلونكم أليسوا بشرا مثلكم؟ قالوا: بلى. قال: فأنتم أكثر أو هم؟ قالوا: بل نحن. قال: فما بالكم؟ فسكتوا، فقام شيخ

منهم و قال: ألا- أخبرك إنهم إذا حملوا صبروا و لم يكذبوا، و إذا حملنا لم نصبر و نكذب، و هم يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر و يرون أن قتلاهم فى الجنة و أحياءهم فائزون بالغنيمة و الأجر. فقال: يا شيخ لقد صدقتنى و لأخرجن من هذه القرية و مالى فى صحبتكم من حاجة، و لا فى قتال القوم من أرب. فقال ذلك الشيخ: أنشدك اللّه أن تدع سورية جنة الدنيا للعرب و تخرج منها و لم تعذر. و ما زال به حتى ثناه الى المقام و أرسل الى رومية و قسطنطينية و إرمينية و جمع الجيوش و قاتل العرب.

و بعث أخو ملك الروم لما تراءى العسكران فى اليرموك رجلا عربيا من قضاعة و قال له: ادخل فى هؤلاء القوم فأقم فيهم يوما و ليلة ثم ائتنى بخبرهم فدخل فى الناس رجل عربى لا ينكر فأقام فيهم ثم أتاه فقال:

ما وراءك قال: هم رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، و لو زنى رجموه إقامة للحد. فقال صاحب جيش الروم:

لئن كنت صادقا لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها.

و مما أعانهم على تأييد سلطانهم تسامحهم مع أهل الذمة و حمايتهم لهم؛ فكانوا كأنهم بين أهلهم و عشيرتهم، لا يرهبون من وراءهم كما أنهم لم يرهبوا من أمامهم. روى البلاذرى أن هرقل لما جمع للمسلمين الجموع و بلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك ردّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج و قالوا: قد شغلنا عن نصرتكم و الدفع عنكم فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم و عدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم و الغشم، و لندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم

خطط الشام، ج۱، ص: ۹۵

و نهض اليهود فقالوا: و التوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب و نجهد.

قال غستاف لبون: لما دخلت العرب الشام كانت رومانية منذ نحو سبعمائة سنة، فأبانوا عن تسامح مع كل مدن الشام و لذلك رضى السكان بسلطتهم مختارين، و انتهت بهم الحال أن اطرحوا النصرانية و قبلوا دين الفاتحين و تعلموا لسانهم. و قال دى توری: إن الخطر الذى اندفع عن الشام من جهة الفرس على يد الإمبراطور هرقل عاد فداهمها من جهة جزيرة العرب، و لكنه خطر كانت فيه سلامتها من الانحلال و الاضمحلال، و ذلك أن العرب هاجمتها و قد أصبح العرب أمة برسولهم فزعزعوا أركان المملكة الرومانية. و فى سنة ۶۳۶ فتحت دمشق و بعد سنتين فتحت القدس و لم تدخل سنة ۶۳۹ حتى فتح الشام كله، و ساد فيه السلام بدل الخصام، فمن آمن عصم دمه و ماله، و من لم يؤمن دفع الجزية و اعتصم فى الجبال فتركه الفاتحون و شأنه اه.

وداع صاحب الروم و آخر سهم فى كنانتهم:

لما دخل اليأس على هرقل من الشام سار عنه الى القسطنطينية من الرّها فالتفت الى الشام عند مسيره و هو على نشز و قال: «السلام عليك يا سورية سلام لا اجتماع بعده، و لا يعود إليك رومى بعدها إلا خائفا حتى يولد الولد المشؤوم و ليته لم يولد فما أجل نفعه و أمرّ فتنته على الروم».

و لم يفسر المؤرخون الذين نقلوا عبارة هرقل هذه معنى «الولد المشؤوم» و قيل: إنه قال باليونانية «سوزه سورية» أى كونى بسلام. و قد أخذ هرقل أهل الحصون التى بين الإسكندرونة و طرسوس معه لئلا يسير المسلمون فى عمارة ما بين أنطاكية و أرض الروم، و شعث الحصون فكان المسلمون لا يجدون بها أحدا.

و فى سنة ۱۷ قصدت الروم أبا عبيدة بحمص فضم أبو عبيدة إليه مسالحه و عسكروا بفناء حمص، و أقبل خالد من قنسرين حتى انضم إليهم فيمن انضم من أمراء المسالح، و كتب أبو عبيدة الى عمر بخروج الروم عليه

خطط الشام، ج۱، ص: ۹۶

و شغلهم أجناد الشام عنه، و قد كان عمر اتخذ فى كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عدة لكون إن كان. فكان

بالكوفة أربعة آلاف فرس، فلما وقع الخبر لعمر كتب بأن يسرح الجند منها الى الشام مددا لأبى عبيدة. و لما أحيط بالمسلمين جمع أبو عبيدة الناس فحمد اللّه و أثنى عليه و قال: أيها الناس إن هذا يوم له ما بعده أما من حيى منكم فإنه يصفو له ملكه و قراره، و أما من مات منكم فإنها الشهادة.

فأحسنوا باللّه الظن و لا يكرّهن اليكم الموت أمر اقترفه أحدكم دون الشرك، توبوا الى اللّه و تعرضوا للشهادة فإنى أشهد، و ليس أوان الكذب، أنى سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: من مات لا يشرك باللّه شيئا دخل الجنة. و كأنما كان فى الناس عقل تنشطت، فخرج بهم و خالد على الميمنة و عباس على الميسرة و أبو عبيدة فى القلب و على باب المدينة معاذ بن جبل فاحتلدوا بها، فإنهم كذلك إذ قدم القعقاع متعجلا فى مائة و انهزم أهل قنسرين بالروم، فاجتمع القلب و الميمنة على قلبهم، و قد انكسر أحد جناحيه و أوعبوا المدد، فما أفلت منهم مخبر، و ذهبت الميسرة على وجهها، و كان آخر من أصيب منهم بمرج الديباج انتهوا إليه فكسروا سلاحهم و ألقوا يلامقهم تخفيفا فأصيبوا و تغنّموا. و لما ظفر المسلمون جمعهم أبو عبيدة فخطبهم و قال: لا- تتكلوا و لا تزهدوا فى الدرجات فلو علمت أنه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث.

منزلة أبى عبيدة و بعد نظر عمر:

توفى أبو عبيدة فى طاعون عمواس سنة ۱۹ و كان من أعماله فى الشام و عدله ما حببه الى الروم حتى إنهم لما فتحوا له باب الجابية بدمشق سنة أربع عشرة للهجرة و دخل خالد بن الوليد من الباب الشرقى عنوة، قال خالد لأبى عبيدة: اسبهم فإنى دخلت و شرحبيل بن حسنة عنوة، فأبى أبو عبيدة. و لذلك كان الروم يميلون الى أبى عبيدة دون خالد

خطط الشام، ج۱، ص: ۹۷

ابن الوليد. و لما طعن أبو عبيدة بالأردن دعا من حضره من المسلمين فقال: إنى موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير: أقيموا الصلاة، و آتوا الزكاة، و صوموا شهر رمضان، و تصدقوا و حجوا و اعتمروا، و تواصوا، و انصحوا لأمرائكم، و لا تغشوهم، و لا تلهكم الدنيا، فإن امرأ لو عمر ألف حول ما كان له بد من أن يصير الى مصرعى هذا الذى ترون، إن اللّه تعالى كتب الموت على بنى آدم فهم ميتون، و أكيسهم أطوعهم لربه، و أعملهم ليوم معاده و السلام عليكم و رحمة اللّه. يا معاذ ابن جبل صلّ بالناس و مات رضى اللّه عنه. و كان عهد بولاية دمشق لسعيد العدوى و سويد الفهرى و كلهم من الصحابة الكرام. و كان عياض ابن غنم مع ابن عمه أبى عبيدة بن الجراح فى الشام، فلما توفى أبو عبيدة استخلفه بالشام فأقره عمر بن الخطاب و قال: لا أغير أميرا أمّره أبو عبيدة.

و لما ولى أبو عبيدة معاذا قام هذا فى الناس فقال: أيها الناس توبوا الى اللّه من ذنوبكم توبة نصوحا، فإن عبدا لا يلقى اللّه تعالى إلا تائبا من ذنبه إلا- كان حقا على اللّه أن يغفر له، من كان عليه دين فليقضه، فإن العبد مرتهن بدينه، و من أصبح منكم مهاجرا أخاه فليلقه فليصالحه، و لا- ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث، و الخطب العظيم أنكم أيها المسلمون قد فجعتم برجل ما أزعم أنى رأيت عبدا أبر صدرا، و أبعد من الغائلة، و لا أشد حبا للعامة، و لا أنصح للعامة منه، فترحموا عليه رحمه اللّه تعالى، و احضروا الصلاة عليه.

و أقام معاذ على إمرته و لم تطل مدته حتى مات فى طاعون عمواس فى هذه السنة و استخلف معاذ عمرو بن العاص. و لما قدم عمر الى الشام بالجابية أمر عمرو بن العاص بالمسير الى مصر، و بقى الشام ليزيد بن أبى سفيان، و لم يطل أمد ولايته طويلا حتى هلك فى طاعون عمواس أيضا.

و عمواس من الرملة على أربعة أميال مما يلى بيت المقدس. و الطاعون الذى عرفت به مات به خمسة و عشرون ألفا و طمع العدو فى الشام بسببه.

و أبو عبيدة بن الجراح أمين هذه الأمة كان عظيما بإخلاصه للإسلام،

خطط الشام، ج۱، ص: ۹۸

عظيما بنفسه و عدله و شجاعته، و الشام مدين لفضله بفتحه و تمهيد أموره.

ذكر أهل الأخبار عن عائشة أنها قالت: سمعت أبا بكر يقول: لما كان يوم أحد و رمى رسول اللّه فى وجهه حتى دخلت فى وجنتيه حلقتان من المغفر فأقبلت أسعى إلى رسول اللّه و إنسان قد أقبل من قبل المشرق يطير طيرانا فقلت: اللهم اجعله طاعة حتى توافينا الى رسول اللّه، فإذا أبو عبيدة ابن الجراح قد بدرنى فقال: أسألك باللّه يا أبا بكر ألا تركتنى فأنزعه من وجنة رسول اللّه قال أبو بكر: فتركته فأخذ أبو عبيدة بثنيته إحدى حلقتى المغفر فنزعها و سقط على ظهره و سقطت ثنية أبى عبيدة، ثم أخذ الحلقة الأخرى بثنيته الأخرى فسقطت، فكان أبو عبيدة فى الناس أثرم.

هذا مثال من قوة نفس أبى عبيدة و حبه لرسول اللّه. شهد أبو عبيدة و اسمه عامر بن عبد اللّه بدرا و أحدا و ثبت يوم أحد مع الرسول حين انهزم الناس و ولوا، و شهد الخندق و المشاهد كلها مع رسول اللّه و كان من علية أصحابه. طلب أهل نجران من الرسول أن يبعث معهم رجلا أمينا.

قال: لأبعثن إليكم رجلا أمينا حقّ أمين حقّ أمين حقّ أمين قالها ثلاثا:

فبعث أبا عبيدة. قال أبو عبيدة و هو أمير على الشام: يا أيها الناس إنى امرؤ من قريش و ما منكم من أحد أحمر و لا أسود يفضلنى بتقوى إلا ـ وددت أنى فى مسلاخه . قال عمر بن الخطاب لجلسائه: تمنوا فتمنوا فقال عمر بن الخطاب: لكنى أتمنى بيتا ممتلئا رجالا مثل أبى عبيدة بن الجراح قال سفيان فقال له رجل: و ما ألوت الإسلام فقال: ذاك الذى أردت. و قال عمر بن الخطاب: لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح لاستخلفته و ما شاورت، فإن سئلت عنه قلت: استخلفت أمين اللّه و أمين رسوله، و فى رواية لو سألنى عنه ربى لقلت سمعت نبيك يقول: هو أمين هذه الأمة، و قال عمر: لئن عشت إن شاء اللّه لأسيرن فى الرعية حولا، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع دونى، أما عمالهم فلا يرفعونها و أما هم فلا يصلون اليّ، فأسير الى الشام فأقيم شهرين و بالجزيرة شهرين و بمصر

خطط الشام، ج۱، ص: ۹۹

شهرين و بالبحرين شهرين و بالكوفة شهرين و بالبصرة شهرين. و كان عماله على مثاله من العدل و الزهد و حب الحق. قالوا: إنه ولى سعيد بن عامر ابن حذيم حمص و كان لا يقبض رزقه و عطاءه، و لما قدم عمر حمص أمر أن يكتبوا له فقراءهم فرفع الكتاب اليه فإذا فيه سعيد بن عامر، فبكى عمر ثم عدّ ألف دينار فصرّها و بعث بها إليه فبكى سعيد و انتحب ثم اعترض جيشا من جيوش المسلمين فأعطاهم إياها، و لامته زوجته على عمله و قالت:

لو كنت حبست منها شيئا نستعين به فلم يلتفت الى قولها.

بمثل هؤلاء النوابغ المخلصين فتحت الأمصار و تمهدت، و دخل الناس فى الإسلام أفواجا. و بمثل هذه الأمانة و العدل و الإحسان استمال العرب القلوب فأصبح أعداؤهم أولياءهم، بعد أن شاهدوا عيانا ما انطوت عليه تلك النفوس الكبيرة. قالوا: إن الأقطار الحارة ضنينة بالنوابغ العاملين فأكذب العرب فى هذا المثال من فتوحهم ذاك النظر بمن أخرجوا من رجالاتهم الذين أدهشوا، على قلتهم و فقرهم، العالم المعروف إذ ذاك بشجاعتهم و صبرهم، و قناعتهم و إخلاصهم، و توجيه قوى الصغير و الكبير منهم الى مقصد واحد، أى إنهم كانوا موحّدين فى عقائدهم، موحّدين فى مقاصدهم، و هذا غريب من نصف أميين ليس لهم فى المدنية قدم راسخة. خطط الشام ؛ ج۱ ؛ ص ۱۰۰

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۰

الدولة الأموية «من سنة ۱۸ الى ۱۳۲»

إمارة معاوية بن أبى سفيان:

لما هلك يزيد بن أبى سفيان والى دمشق سنة ۱۸ ولى عمر بن الخطاب أخاه معاوية بن أبى سفيان فلم يزل واليا لعمر حتى قتل عمر. ثم ولاه عثمان بن عفان و أقرّ عمال عمر على الشام، فلما مات عبد الرحمن بن علقمة الكنانى و كان على فلسطين ضم عمله الى معاوية. و كان عمير بن سعيد الأنصارى فى سنة ۲۱ على دمشق و البثنية و حوران و حمص و قنسرين و الجزيرة، و معاوية على البلقاء و الأردن و فلسطين و السواحل و أنطاكية و معرة مصرين و قليقية، ثم جعل عمير فى سنة ۲۳ على حمص و معاوية على دمشق، ثم تولى عمير بن سعيد حمص و قنسرين، و علقمة بن مجزّز فلسطين، و عمير بن سعيد هو الذى قال على منبر حمص: ألا إن الإسلام حائط منيع و باب وثيق، فحائط الإسلام العدل و بابه الحق، فإذا نقض الحائط و حطم الباب استفتح الإسلام، فلا يزال الإسلام منيعا ما اشتد السلطان و ليس شدة السلطان قتلا بالسيف و لا ضربا بالسوط، و لكن قضاء بالحق و أخذا بالعدل.

اجتمع الشام على معاوية لسنتين من إمارة عثمان، أى فى السنة الخامسة و العشرين للهجرة أضاف عثمان الى معاوية حمص و حماة و قنسرين و العواصم و فلسطين مع دمشق و رزقه ألف دينار كل شهر.

و بعث معاوية عمرو بن العاص الى مصر و معه أهل دمشق عليهم يزيد

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۱

ابن أسد البجلى، و على أهل فلسطين رجل من خثعم، و معاوية بن حديج على الخارجة، و أبو الأعور السّلمى على أهل الأردن، فساروا حتى قدموا مصر فاقتتلوا بالمسناة و على أهل مصر محمد بن أبى بكر فهزم أهل مصر بعد قتل فى الفريقين جميعا. قال عمرو: شهدت أربعة و عشرين زحفا فلم أر كيوم المسناة و لم أر الأبطال إلا يومئذ. فلما هزم أهل مصر تغيب محمد بن أبى بكر فأخبر معاوية بن حديج بمكانه فمشى إليه فقتله.

و من الأحداث مع الروم غزوة معاوية بن أبى سفيان (سنة ۲۱) و صلح أبى هاشم ابن عتبة على قليقية و أنطاكية و معرة مصرين. و جاشت الروم (۲۴) حتى استمد من بالشام من جيوش المسلمين من عثمان مددا فأمدهم بثمانية آلاف رجل من أهل الكوفة، فدخلوا مع أهل الشام الى أرض الروم و شنوا الغارات فأصاب الناس ما شاءوا من سبى و ملأوا أيديهم من المغنم و افتتحوا بها حصونا كثيرة، و غزا قبرس (۲۸) فصالحه أهلها على جزية سبعة آلاف دينار كل سنة. و خرج أهل الشام (۳۱) و عليهم معاوية و على البحر عبد اللّه بن سعيد، و خرج عامئذ قسطنطين بن هرقل لما أصاب المسلمون منهم بإفريقية فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط مذ كان الإسلام فخرجوا فى خمس مائة مركب، فربط المسلمون سفنهم بعضها الى بعض حتى كان يضرب بعضهم بعضا على سفن المسلمين و سفن الروم و قاتلوهم أشد قتال، و وثبت الرجال على الرجال يضطربون بالسيوف على السفن و يتواجأون بالخناجر حتى رجعت الدماء الى الساحل تضربها الأمواج، و طرحت الأمواج جثث الرجال ركاما. ثم انتصر المسلمون و انهزم قسطنطين مدبرا فما انكشف إلا لما أصابه من القتل و الجرح.

و افتتح معاوية جزيرة أرواد فى السنة الثالثة لعثمان و هدم سورها و أحرقها و جلا أهلها الى الشام. و وجه ملك الروم الى معاوية يسأله الصلح، فأجاب إليه على أن يكون عنده عدة من أهل بيته رهائن. و فى السنة الثامنة لعثمان وجه معاوية بجيوش الى جزيرة رودس فأخذوها و رتبوا بها المسالح و جعلوها منظرة للعرب. و فى السنة الثالثة لمعاوية كانت غزوة بسر بن أرطاة الروم دفعة ثانية و سبى بها و هزمت الروم حتى بلغت القسطنطينية، و فى سنة ۴۸

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۲

سير معاوية جيشا كثيفا الى القسطنطينية مع سفيان بن عوف، و توفى فى مدة الحصار أبو أيوب الأنصارى و دفن بالقرب من سورها. و فى سنة ثلاث عشرة لمعاوية غزا بسر بن أرطاة الروم فقتل و أخرج معه سبيا كثيرا. و فى السنة الرابعة عشرة لمعاوية غزت العرب الروم فى البحر و صاروا الى لوقية فخرج إليهم ثلاثة بطارقة فقتل الروم من العرب ثلاثين ألفا و من بقى منهم ركب البحر، فلما توسطوه لحقهم بعض الروم فى سفينة فألقى النار فى سفن فاحترقت كلها و فازت الروم و هم أول من أخرج النار و صارت لهم عادة. و فى

السنة السابعة عشرة ركب الروم السفن و أقبلوا فيها فى البحر حتى أتوا ساحل صور و صيدا ثم خرجوا من السفن و استولوا على جبل لبنان، و كان الناس يسمونهم الجراجمة و انتشروا من جبل الجليل الى الجبل الأسود، و ذلك أن قسطنطين دسهم ليشغلوا العرب عن الغزو.

و لم يكد معاوية يتولى الأمر بالشام حتى أخذ بما أوتيه من عقل و حلم يضع أساس الملك و يسير فى رعيته سيرة حسنة حببته إليهم، و كان يتأنى الأمور و يداری الناس على منازلهم، و يرفق بهم على طبقاتهم، فأوسع الناس من أخلاقه، و أفاض عليهم من بره و عطائه، و شملهم من إحسانه، فاجتذب القلوب و استدعى النفوس، حتى آثروه على الأهل و القرابات و عدّ «مربى دول و سائس أمم و داعى ممالك».

إقدام عمرو فى سماحة حاتم فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

و لطالما أفضل على أشراف قريش مثل عبد اللّه بن العباس و عبد اللّه ابن الزبير و عبد اللّه بن جعفر الطيار و عبد اللّه بن عمر و عبد الرحمن بن أبى بكر و أبان بن عثمان و ناس من آل أبى طالب يفدون عليه بدمشق فيكرم مثواهم، و منهم عقيل بن أبى طالب شقيق على بن أبى طالب قدم على معاوية بالشام فأمر له معاوية بثلاثمائة ألف دينار و قال له: هذه مائة ألف تقضى بها ديونك و مائة ألف تصل بها رحمك و مائة ألف توسع بها على نفسك. و كان عقيل قدم من قبل على أخيه فى الكوفة فشكا له الضائقة فوعده بأن يعطيه عطاءه إذا خرج فقال عقيل: و إنما شخوصى من الحجاز إليك من أجل عطائك و ماذا يبلغ منى عطاؤك و ما يدفع من

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۳

حاجتى؟ و كان معاوية مدة حكمه فى الشام أميرا نحو عشرين سنة، و خليفة مثلها يعمد الى المال فينفقه إذا رأى هناك مصلحة، و ما ينحسم بالمال و حسن التدبير لا يحله بإهراق الدماء إلا بعد الاضطرار الشديد.

مقتل عثمان بن عفان:

و بينا كان معاوية فى الشام مستقلا بعض الاستقلال بعيدا عن كل شغب أخذ الناس ينقمون فى الحجاز و غيره على عثمان لست سنين من خلافته و تكلم فيه من تكلم. «فاجتمع ناس من أصحاب النبى عليه الصلاة و السلام كتبوا كتابا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان سنة رسول اللّه و سنة صاحبيه، و ما كان من هبته خمس إفريقية لمروان و فيه حق اللّه و رسوله و منهم ذوو القربى و اليتامى و المساكين، و ما كان من تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة دارا لنائلة و دارا لعائشة و غيرهما من أهله و بناته، و بنيان مروان القصور بذى خشب و عمارة الأموال بها من الخمس الواجب للّه و رسوله، و ما كان من إفشائه العمل و الولايات فى أهله و بنى عمه من بنى أمية أحداث و غلمة لا صحبة لهم من الرسول و لا تجربة لهم بالأمور». هذه خلاصة دعواهم عليه و قد دفع عن نفسه كل ذلك فما اقتنعوا و لا كفوا عن النيل منه.

و ما زال عثمان على شيخوخته مغلوبا لمروان و بنى أمية و أهم ما عدوا عليه توسيده الأمور لهم، حتى قتل فى المدينة و تولى الخلافة على بن أبى طالب.

و كان معاوية على مثل اليقين من أن عليا لا يقره على الشام فكان كما ظن، و هنا ظهر نبوغ معاوية السياسى حتى بلغ ما أراد و قسم الأمة شطرين له و عليه و كانت كفته الراجحة. و لما بعث علىّ عماله على الأمصار كان من جملة من بعث سهل بن حنيف الى الشام، فأما سهل فإنه لما انتهى الى تبوك و هى تخوم أرض الشام استقبلته خيول لمعاوية فردوه فانصرف الى علىّ فعلم علىّ عند ذلك أن معاوية قد خالف و أن أهل الشام بايعوه.

و اختلفت الآراء فى تبعة معاوية من مقتل عثمان فقال فريق: إن عثمان كتب الى معاوية: «إن أهل المدينة قد كفروا و خلعوا الطاعة و تكثوا البيعة

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۴

فابعث الیّ من قبلک من مقاتلة أهل الشام علی کل صعب و ذلول».

فتربص به معاویة و کره إظهار مخالفة أصحاب رسول اللّه و قد علم اجتماعهم فأبطأ أمره علی عثمان حتی قتل فیما قیل.

آمال علی بن أبی طالب فی الخلافة:

و لم یتخلف معاویة عن مبایعة علی بن أبی طالب (کرم اللّه وجهه) فقط، بل قام یطالب بدم عثمان و یتهم علیا بقتله لأن علیا کان یحتج علی الصحابة منذ یوم البیعة لأبی بکر و یقول: أنا أجدر بهذا الأمر منکم لا أبایعکم و أنتم أولی بالبیعة لی حتی قال له أبو عبیدة بن الجراح:

«یا ابن عم إنک حدیث السن و هؤلاء مشیخة قومک لیس لک مثل تجربتهم و معرفتهم بالأمور، و لا أری أبا بکر إلا أقوی علی هذا الأمر منک، و أشد احتمالا و اضطلاعا فسلّم لأبی بکر، فإنک إن تعش و یطل بک بقاء فأنت لهذا الأمر خلیق و حقیق فی فضلک و دینک و علمک و فهمک و سابقتک و نسبک و صهرک». و قد وقعت لعلی تأوهات فی المطالبة بالخلافة و أنه بغی علیه فی ذلک و غمط حقه فی عهد الثلاثة الخلفاء، و لذلک کان فی تساهله بالدفاع عن عثمان وجه عند بعضهم علی حین ثبت أن علیا قرّع عثمان علی التفریط و أنذره بأن عاقبته تکون القتل بقوله:

أحذرک أن تکون إمام هذه الأمة الذی یقتل فیفتح علیها القتل و القتال الی یوم القیامة.

و ذکر ابن حزم أن امتناع معاویة من بیعة علیّ کامتناع علی من بیعة أبی بکر، فما حارب أبو بکر و لا أکرهه و أبو بکر أقدر علی علیّ من علیّ علی معاویة، و معاویة فی تأخره عن بیعة علیّ أعذر و أفسح مغارا من علیّ فی تأخره عن بیعة أبی بکر، لأن علیا لم یمتنع من بیعة أبی بکر أحد من المسلمین غیره بعد أن بایعه الأنصار و الزبیر، و أما بیعة علی فإن جمهور الصحابة تأخروا عنها إما علیه و إما لا له و لا علیه، و ما تابعهم فیه الا الأقل سوی أزید من مائة ألف مسلم بالشام و العراق و مصر و الحجاز کلهم امتنع من بیعته، فهل معاویة إلا کواحد من هؤلاء فی ذلک؟ الی أن

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۵

قال بشأن البیعة: فصح أن علیا هو صاحب الحق الإمام المفترضة طاعته و معاویة مخطیء مأجور مجتهد قال: و لم یقاتل علیّ معاویة لإمتناعه من بیعته لأنه کان یسعه فی ذلک ما وسع ابن عمر و غیره و لکن قاتله لامتناعه من إنفاذ أوامره فی جمیع أرض الشام و هو الإمام الواجبة طاعته، فعلیّ المصیب فی هذا و لم ینکر معاویة قط فضل علیّ و استحقاقه الخلافة، لکن اجتهاده أداه الی رأی تقدیم أخذ القود من قتلة عثمان رضی اللّه عنه علی البیعة، و رأی نفسه أحق بطلب دم عثمان و الکلام فیه عن ولد عثمان و ولد الحکم بن أبی العاص لسنه و لقوته علی الطلب بذلک.

اتفاق معاویة و عمرو بن العاص علی المطالبة بدم عثمان:

اغتنم معاویة هذه الفرصة السانحة فی مقتل عثمان لیعید الأمر الی بنی أمیة و یصبحوا أمراء فی الإسلام کما کانوا أمراء فی الجاهلیة. و کان النعمان ابن بشیر أتاه الی دمشق من المدینة بقمیص عثمان الذی قتل فیه مخضبا بدمه و بأصابع نائلة زوجته فوضع القمیص علی منبر دمشق، و کتب بالخبر الی الأجناد، و ثاب الیه الناس و بکوا سنة و هو علی المنبر و الأصابع معلقة فی أردانه، و تعاهد الرجال من أهل الشام علی قتل قتلة عثمان و من عرض دونهم بشیء أو تفنی أرواحهم، و کان ستون ألف شیخ یبکون تحت قمیص عثمان.

و کان عمرو بن العاص لما نشب الناس فی أمر عثمان فی ضیعة له بالسبع من حیز فلسطین قد اعتزل الفتنة، فاستدعاه معاویة یسترشد برأیه و وعده بملک مصر إن هو ظفر بعلی. فارتأی عمرو أن یجلب معاویة شرحبیل بن السمط الکندی رأس أهل الشام، فسار هذا

یستقری مدنها مدینة مدینة یحرض الناس علی الأخذ بدم عثمان، فأجابه الناس کلهم إلا نفرا من أهل حمص نساکا فإنهم قالوا: نلزم بیوتنا و مساجدنا و أنتم أعلم منا.

و ذکر المؤرخون أن معاویة قدم بیت المقدس و قدم علیه عمرو بن العاص فبایعه علی دم عثمان و کتبا کتابا بینهما کانت صورته: «بسم اللّه الرحمن الرحیم». هذا ما تعاهد علیه معاویة بن أبی سفیان و عمرو بن العاص

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۶

ببیت المقدس بعد قتل عثمان و حمل کل واحد منهما صاحبه الأمانة أن بیننا عهد اللّه علی التناصر و التخالص و التناصح فی أمر اللّه و الإسلام، و لا یخذل أحدنا صاحبه بشیء و لا یتخذ من دونه و لیجة و لا یحول بیننا ولد و لا والد أبدا ما حیینا فیما استطعنا».

و هکذا أخذ معاویة یحرک النفوس و یطالب بثأر عثمان و مما کتب به الی علیّ: «و لکنک أغریت بعثمان المهاجرین و خذلت عنه الأنصار فأطاعک الجاهل و قوی بک الضعیف و قد أبی أهل الشام إلا قتالک حتی تدفع إلیهم قتلة عثمان». فأجابه علیّ: «زعمت أنه إنما أفسد علیک بیعتی خطیئتی فی عثمان، و لعمری ما کنت إلا رجلا من المهاجرین أوردت کما أوردوا و أصدرت کما أصدروا، و ما کان اللّه لیجمعهم علی ضلال و لا لیضربهم بالعمی، و ما أمرت فیلزمنی خطیئة عثمان، و لا قتلت فیلزمنی قصاص القاتل ... و أما قولک ندفع إلیک قتلة عثمان، فما أنت و عثمان؟ إنما أنت رجل من بنی أمیة و بنو عثمان أولی بعثمان منک».

حرب صفّین:

و ما برحت الحزازات تشتد بین علیّ و معاویة یرید الأول أن یبایع له الثانی، و یطالب الثانی بدم عثمان و هو مستقل بالشام، حتی التقیا سنة ۳۷ فی صفّین من أرض الشام بجیشیهما و کانت بینهما وقائع سالت فیها الدماء کالأنهار، فقتل من أهل الشام جیش معاویة خمسة و أربعون ألفا، و من أهل العراق و الحجاز جیش علیّ خمسة و عشرون ألفا، و کان معاویة فی مائة و عشرین ألفا، و علی فی تسعین ألفا، و جیّر علیّ الجنود «حتی قتل من أبطال الإسلام فی تلک المعارک ألوف و لم یکترث بقتلهم» «و إن علیا لینغمس فی القوم فیضرب بسیفه حتی ینثنی ثم یخرج متخضبا بالدم حتی یسوی له سیفه ثم یرجع فینغمس فیهم». و یقول الدینوری: کان أهل الشام أیام صفین إذا انصرفوا من الحرب یدخل کل فریق منهم فی الفریق الآخر فلا یعرض أحد لصاحبه، و کانوا یطلبون قتلاهم فیخرجونهم من المعرکة و یدفنونهم. و روی ابن سعد قال: «اقتتل الناس بصفین قتالا

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۷

شدیدا لم یکن فی هذه الأمة مثله قط حتی کره أهل الشام و أهل العراق القتال و ملوه من طول تبادلهم السیف. فقال عمرو بن العاص و هو یومئذ علی القتال لمعاویة: أنت مطیعی فتأمر رجلا بنشر المصاحف، ثم یقولون: یا أهل العراق ندعوکم الی القرآن و الی ما فی فاتحته الی خاتمته، فإنک إن تفعل ذلک یختلف أهل العراق و لا یزید ذلک أمر أهل الشام إلا استجماعا، فأطاعه معاویة ففعل، و أمر عمرو رجالا من أهل الشام فقریء المصحف ثم نادی یا أهل العراق ندعوکم الی القرآن، فاختلف أهل العراق فقالت طائفة: أولسنا علی کتاب اللّه و بیعتنا؟ و قال آخرون کرهوا القتال: أجبنا الی کتاب اللّه، فلما رأی علی علیه السلام وهنهم و کراهتهم للقتال قارب معاویة فیما یدعوه الیه و اختلف بینهم الرسل فقال علی علیه السلام: قد قبلنا کتاب اللّه فمن یحکم بکتاب اللّه بیننا و بینک، قال: تأخذ رجلا منا نختاره و نأخذ منکم رجلا تختاره، فاختار معاویة عمرو بن العاص، و اختار علی أبا موسی الأشعری». و جرت المهادنة بین علی و معاویة علی وضع الحرب بینهما و یکون لعلی العراق. و لمعاویة الشام، فلا یدخل أحدهما علی صاحبه فی عمله بجیش و لا غارة و لا غزو، فأقام معاویة بالشام یجبیها و کان ذلک سنة ۴۰.

کانت حرب صفّین من أشأم الحروب علی الأمة، و هی فی أول شبابها، التقی فیها المسلم بالمسلم بالسلاح، و اقتتلا قتالا شدیدا، و هلکت من الفریقین نفوس زکیة، فیهم الصحابة و القراء و العلماء، و لو لم یشغل بال معاویة بمقتل عثمان ثم بمدافعة علیّ لکان تفرغ

للقضاء على الدولـة البيزنطيـة آخر الدهر. خصوصا و قد كان من أكبر همه أن يغادى الروم القتال و يراوحهم منذ اسـتقل بإمارة الشام. يغزوهم برا و بحرا و يصيب منهم و قلمـا يصـيبون منه، و ربما توفق معاويـة و آله لو لا هـذه الغائلـة الأهليـة الى استصـفاء معظم أقطار الأرض و نشر الدين و اللغة فيها، و اضطرت حوادث علىّ معاوية أن يهادن صاحب الروم و يرضيه بمال عظيم ريثما يتفرغ له.

و قال عمرو بن العاص لمعاويـة: كما بدأت الفتنة اكتب الى قيصـر الروم تعلمه أنك ترد عليه جميع من فى يديك من أسارى الروم و تسأله المواءمة و المصالحة تجده سريعا الى ذلك راضيا بالعفو منك.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۸

صلح الحسن مع معاوية:

و من أهم الأحـداث فى زمن معاويـة قيـام الحسن بن على فى العراق عقيب مقتل أبيه على بن أبى طالب، فسار معاويـة الى الموصل و التقى العسـكران، فوجه معاويـة الى قيس بن سـعد أمير جيش الحسن يبذل له ألف ألف درهم على أن يصـير معه أو ينصـرف فأبى، و يقال: إنه أرسل الى عبـد اللّه بن عباس و بذل له مثل هذا المال فصار إليه فى ثمانية آلاف من أصـحابه و هم من شـيعة الحسن، و أقام قيس على محاربته حتى اضـطر الحسن الى صـلح معاويـة بعد أن رأى أصـحابه تفرقوا عنه و صـعد المنبر فحمد اللّه و أثنى عليه و قال: «أيها الناس إن اللّه هداكم بأولنا و حقن دماءكم بآخرنا و قد سالمت معاوية و إن أدرى لعله فتنة لكم و متاع الى حين».

يقول الدينورى: لما رأى الحسن من أصحابه الفشل أرسل الى عبد اللّه ابن عامر بشرائط اشترطها على معاوية على أن يسلم له الخلافة، و كانت الشـرائط ألا يأخـذ أحـدا من أهل العراق بإحنة و أن يؤمن الأسود و الأحمر و يحتمل ما يكون من هفواتهم، و يجعل له خراج الأهواز مسـلما فى كل عام، و يحمل الى أخيه الحسين بن على فى كل عام ألفى ألف درهم، و يفضل بنى هاشم فى العطاء و الصلات على بنى عبـد شـمس، فكتب عبـد اللّه بن عامر بـذلك الى معاويـة فكتب معاويـة جميع ذلك بخطه و ختمه بخاتمه و بذل له. العهود المركبة و الأيمان المغلظة و أشـهد على ذلك جميع رؤساء أهل الشام، و وجه الى عبد اللّه بن عامر فأوصله الى الحسن (رض) فرضى به و كتب الى قيس بن سـعد بالصـلح و يأمره بتسـليم الأمر الى معاوية و الانصراف الى أعدائه، فلما وصل الكتاب بذلك الى قيس بن سعد قام فى الناس فقال:

أيها الناس اختاروا أحـد أمرين: القتال بلا إمام أو الدخول فى طاعة معاوية فاختاروا الدخول فى طاعة معاوية. فسار حتى وافى المدائن و سار الحسن بالناس فى المدائن حتى وافى الكوفة و وافاه معاوية بها فالتقيا فوكد عليه الحسن (رض) تلك الشـروط و الأيمان اه. قال الأحنف بن قيس و قد أتاه كتاب الحسن بن على رضى اللّه تعالى عنهما يستنصره: قد بلونا الحسن

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۰۹

و آل الحسن فلم نجد عندهم إيالة الملك و لا صيانة المال و لا مكيدة الحرب.

و لم يجبه الى ما طلبه إليه.

و لما مات الحسن بعد شـهرين و قيل أربعة أشـهر من استيلائه على العراق صفا الجو لمعاوية و بايع له الناس فملك العراق و الحجاز و مصـر، و أجمعت القلوب على مبـايعته طوعا أو كرها. و كان ممن مالأ معاويـة على تحقيق رغائبه عمرو بن العاص عامله على مصـر، و المغيرة بن شعبة عامله على الكوفة.

خلافة يزيد و رأى ابن خلدون:

أوعز معاويـة سـرا الى ولاـة الأمصـار أن يوفـدوا الوفود اليه يزينون له إعطـاء العهـد لابنه يزيـد، حتى اسـتوثق له أكثر الناس و بايعوه و السـيوف مسـلولة فيما قيل على رقاب الصـحابة فى مسجد الرسول. و بذلك أخرج معاوية الخلافة عن أصولها، و كانت بالعهد لأفضل

الصحابة أو بالشورى بينهم لمن يقع اختيارهم عليه، و جعلها كالملك يورثها الأب ابنه أو من يراه أهلا لها من خاصته، أو كسروية أو قيصرية على سنة كسرى و قيصر كما قالوا. و بذلك نقم على معاوية بعض الصحابة و التابعين من الأنصار و المهاجرين.

و الذى دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه- كما قال ابن خلدون- إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس و اتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل و العقد عليه حينئذ من بنى أمية، إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم و هم عصابة قريش و أهل الملة أجمع و أهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره مما يظن أنه أولى بها و عدل عن الفاضل الى المفضول حرصا على الاتفاق و اجتماع الأهواء الذى شأنه أهم عند الشارع، و إن كان لا يظن بمعاوية غير هذا فعدالته و صحبته مانعة من سوى ذلك، و حضور الأكابر لذلك و سكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا ممن تأخذهم فى الحق هوادة، و ليس معاوية ممن تأخذه العزة فى قبول الحق، فإنهم كلهم أجلّ من ذلك و عدالتهم مانعة منه، و فرار عبد اللّه ابن عمر من ذلك إنما هو محمول على تورعه من الدخول فى شىء من

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۰

الأمور مباحا كان أو محظورا. كما هو معروف عنه، و لم يبق فى المخالفة لهذا العهد الذى اتفق عليه الجمهور إلا ابن الزبير. و ندور المخالف معروف.

ثم قال: إنه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يتحرون الحق و يعملون به مثل عبد الملك و سليمان من بنى أمية، و السفاح و المنصور و المهدى و الرشيد من بنى العباس، و أمثالهم ممن عرفت عدالتهم و حسن رأيهم للمسلمين و النظر لهم، و لا يعاب عليهم إيثارهم أبناءهم و إخوانهم و خروجهم عن سنن الخلفاء الأربعة فى ذلك فشأنهم غير شأن أولئك الخلفاء، فإنهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك. و كان الوازع دينيا فعند كل أحد وازع من نفسه، فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط و آثروه على غيره. و وكلوا كل من يسمو ذلك الى وازعه، و أما من بعدهم من لدن معاوية فكانت العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك؛ و الوازع الدينى قد ضعف و احتيج الى الوازع السلطانى و العصبانى، فلو عهد الى غير من ترتضيه العصبية لردت ذلك العهد و انتقض أمره سريعا و صارت الجماعة الى الفرقة و الاختلاف.

و من جملة وصايا معاوية لابنه يزيد فى أهل الشام: «أنظر أهل الشام فليكونوا بطانتك و رعيتك، فإن رابك من عدوك شىء فانتصر بهم، فإذا أصبتهم فاردد أهل الشام الى بلادهم فإنهم إن أقاموا بغير بلادهم تغيرت أخلاقهم. و لما قدم مشيخة أهل الكوفة على معاوية كان فيما سألهم عنه رأيهم فى أهل الأحداث من الأمصار فقال أحدهم: و أما أهل الشام فأطوع الناس لمرشدهم و أعصاهم لمغويهم.

غزوات معاوية و أعماله و وصيته:

و مما يجب أن يذكر لمعاوية أنه مع اشتغال ذهنه بالملك لم يغفل قط عن إنشاء أسطول عظيم غزا به الروم و غزا القسطنطينية غير مرة و أغزى الروم مرارا، و كان يغزو الصوائف و الشواتى أى غزوات الصيف و الشتاء، و خص قوما من رجاله بتولى هذه الغزوات و بلغه أن الروم سنة ۴۱ قد زحفت

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۱

فى جموع كثيرة فخاف أن يشغلوه عما يحتاج الى تدبيره و أحكامه خصوصا بعد خروجه من وقعة صفين فوجه إليهم فصالحهم على مائة ألف دينار.

و كان معاوية أول من صالح الروم، فلما استقام له الأمر أغزى أمراء الشام على الصوائف فسبوا فى الروم سنة بعد سنة، و طلب صاحب الروم الصلح على أن يضعف المال فلم يجبه، و رضى مرة بصلح ملك الروم على أن يكون عنده من أهل بيت ملكهم رهائن.

و حدث سنة ۳۴ أن معاوية كان يستعد لقصد القسطنطينية و يعد السفن الكثيرة بمدينة طرابلس و يحمل من السلاح أمرا عظيما أن

أخوين لرجل يقال له بقنطر، و كانا فى خدمة العرب، فلما نظرا ما أعده معاوية أخذتهما الغيرة فأتيا السجن ففتحاه و أخرجا من فيه من الروم و قتلوا عامل البلد و أحرقوا السفن و العدة و ركبوا البحر. فلما بلغ معاوية ذلك جهز جيوشا كثيرة الى الروم فافتتح أرضا كثيرة و سبى من أهلها مئة ألف إنسان و بعث أخاه على البحر فانهزم الروم بحرا أيضا، ثم تعددت وقائعه مع الروم. و من وقائعه وقعة سنة ۳۱. و لو لا النار التى اخترعها الروم لإحراق السفن، و بها حرقت سفن كثيرة للعرب و هلك ألوف من رجال بحريتهم، لامتدت الفتوحات و لسهل على معاوية فتح القسطنطينية كما سهل عليه غزو الروم لتحصينه سواحل الشام و إقامته الصناعة فى صور و عكا و غيرها من مدن الشام.

توفى معاوية سنة ۶۰ بعد أن وطأ أكناف الملك و ابتكر فى الدولة أشياء لم يسبقه أحد إليها، منها أنه أول من وضع الحشم للملوك و رفع الحراب بين أيديهم، و وضع المقصورة التى يصلى الملك أو الخليفة بها فى الجامع منفردا عن الناس، و هو أول من وضع البريد، و اخترع ديوان الخاتم و استخدم النصارى فى مصالح الدولة، فعهد بنظارة المالية الى منصور و سرجون من نصارى العرب الشاميين. أوصى معاوية بنى أمية فقال: إنه لما قرب منى ما كان بعيدا، و خفت إن يسبق الموت إلىّ و يسبقكم بى سبقته اليكم بالموعظة لأبلغ عذرا، و إن لم أردّ قدرا، إن الذى أخلفه لكم من دنياى أمر تشاركون فيه أو تقبلون عليه، و إن الذى أخلف لكم من

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۲

رأيى مقصور عليكم نفعه إن فعلتموه، مخوف عليكم ضرره إن ضيعتموه، فاجعلوا مكافأتى، قبول نصيحتى، و إن قريشا شاركتكم فى أنسابكم، و تفردتم دونها بأفعالكم، فقدمكم ما تقدمتم فيه إذا أخر غيركم ما تأخروا له، و لقد جهر لى فعلمت، و فهم لى ففهمت، حتى كأنى أنظر الى أولادكم بعدكم كنظرى الى آبائهم قبلهم، إن دولتكم ستطول، و كل طويل مملول، و كل مملول مخذول، فإذا انقضت مدتكم كان أول ذلك اختلافكم بينكم، و اتفاق المختلفين عليكم، فيدبر الأمر بضد ما أقبل به، فلست أذكر عظيما ينال منكم، و لا حرمة تنتهك لكم، إلا و ما أكف عن ذكره أعظم منه، فلا معوّل عليه عند ذلك أفضل من الصبر، و احتساب الأجر، فيا لها دولة أنست أهلها الدول فى الدنيا و العقوبة فى الآخرة، فيمادّكم القوم دولتكم تمادّ العنانين فى عنق الجواد، فإذا بلغ الأمر مداه، و جاء الوقت الذى حده رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم، ضعفت الحيلة، و عزب الرأى، و صارت الأمور الى مصايرها، فأوصيكم عندها بتقوى اللّه عز و جلّ الذى يجعل لكم العاقبة إن كنتم متقين.

خلافة يزيد و مقتل الحسين و وقعة الحرة:

تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أبيه ثلاث سنين و ستة أشهر، و سار على خطته فى جهاد الروم و كان جلدا صبورا، و لم تمنعه فتن ابن الزبير و شيعة العراق عن قتالهم، و أهم الأحداث فى زمانه قتل الحسين بن على (رضى اللّه عنهما) فى كربلاء من العراق، و حمل رأسه الشريف الى الشام، و إهانة أسرته الطاهرة، و قتل بعض رجالها. فارتكب ابن زياد عامل العراق ليزيد من ذلك أمرا نكرا أكبره أهل الإسلام و زادت بذلك شيعة على و آله حنقا و شدة. و لم يكن يزيد يريد قتل الحسين عملا بوصية والده له، فإن زحر بن قيس لما حمل من العراق الى الشام أهل بيت الحسين و دخل على يزيد و بشره بذلك دمعت عينه و قال: قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين لعن اللّه ابن سميّة (يعنى ابن زياد)،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۳

أما و اللّه لو أنى صاحبه لعفوت عنه فرحم اللّه الحسين. و من الأحداث فى أيام يزيد تسييره بالجيش الى نواحى حماة و تصدى أهل لبنان له و هزيمته.

و غزا الروم فى ولايته للعهد ثم غزاهم فى خلافته وعد ذلك من مزاياه و مزايا أبيه.

و اتفق أهل المدينة سنة ۶۲ على خلع يزيد فأخرجوا عماله و آله فجهز جيشا مع مسلم بن عقبة و أمره بقتال أهل المدينة فإذا ظفر بها

أباحها للجند ثلاثه أيام، و أن يبايعهم على أنهم خول و عبيد ليزيد. فقاتل جند الشام أهل المدينة فى الحرّة و استباح مسلم المدينة، و كان قتلى الحرة سبعمائة من وجوه الناس من قريش و المهاجرين و الأنصار و عشرة آلاف من وجوه الموالى، ثم بايع من بقى من الناس.

حنقت نفوس الأمة من وقعة الحرة لأن فتنتها التهمت بضع مئات من علية قريش، و كانت غلطة زياد فى قتل الحسين و سبى آله الطاهرين ذريعة أكبر للنيل من يزيد و آل يزيد، فتقولوا عليه و حطوا من كرامته، مع أنه سار بسيرة أبيه فى الملك من التوسع فى الفتوح و قتال أعداء المملكة من الروم. أما وقعة الحرة فإن أهل المدينة استطاعوا على يزيد و حاسنهم فخاشنوه و أحرجوه حتى أخرجوه.

عهد معاوية الصغير:

توفى يزيد بن معاوية سنة ۶۴ و بويع ابنه معاوية بن يزيد ثالث خلفاء بنى أمية، و لما استخلف لبث شهرين و ليالى محجوبا لا يرى، ثم خرج بعد ذلك فجمع الناس فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنى نظرت فيما صار اليّ من أمركم، و قلدته من إمارتكم، فوجدت ذلك لا- يسعنى فيما بينى و بين ربى أن أتقدم على قوم و فيهم من هو خير منى، و أحقهم بذلك و أقوى على ما قلدته، فاختاروا منى إحدى خصلتين إما أن أخرج منها و أستخلف عليكم من أراه لكم رضى و مقنعا، و لكم اللّه علىّ لا آلوكم نصحا فى الدين و الدنيا، و إما أن تختاروا لأنفسكم و تخرجونى

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۴

منها، فأنف الناس من قوله، و أبوا من ذلك و خافت بنو أمية أن تزول الخلافة منهم و ماج أمرهم و اختلفوا.

و قيل: إنه خطب الناس و قال: «ما كنت أتقلدكم حيا و ميتا فو اللّه لئن كانت الدنيا مغنما فقد نلنا منها حظا، و إن تكن شرا فحسب آل أبى سفيان ما أصابوا منها». فقال له مروان بن الحكم: سنّها فينا سيرة عمرية قال: ما كنت أتقلدكم حيا و ميتا. و لما حضرته الوفاة بعد خلافته بأربعة أشهر و قيل أقل من ذلك، و له عشرون سنة و قيل إحدى و عشرون سنة، لم يرض أن يعهد بالأمر من بعده. و قال: أتفوز بنو أمية بحلاوتها، و أبوء بوزرها و أمنعها أهلها، كلا- إنى لبرىء منها. قال المسعودى: إنه أراد أن يجعلها الى نفر من أهل الشورى ينصبون من يرونه أهلا لها. و قيل: إن معاوية بن يزيد كان قدريا، لأن عمر المقصوص كان علمه ذلك، فدان به و تحققه، فلما بايعه الناس قال للمقصوص:

ما ترى؟ قال: إما أن تعتدل أو تعتزل. فخطب الناس يستعفى من بيعتهم، فوثب بنو أمية على عمر المقصوص و قالوا: أنت أفسدته و علمته فطمروه و دفنوه حيا. و يقول الطبرى: و كان معاوية بن يزيد بن معاوية فيما بلغنى أمر بعد ولايته فنودى الصلاة جامعة فحمد اللّه و أثنى عليه ثم قال: أما بعد فإنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب رحمة اللّه عليه حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل ستة عمر فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم. ثم دخل منزله و لم يخرج الى الناس و تغيب حتى مات. فقال بعض الناس: دس إليه فسقى سما و قال بعضهم: طعن.

قيام ابن الزبير و خلافة مروان بن الحكم و وقعة مرج راهط:

و كان عبد اللّه بن الزبير قد تغلب على مكة و تسمى بأمير المؤمنين و مال إليه أكثر النواحى. ابتدأ أمره فى أيام يزيد بن معاوية فلما توفى يزيد مال الناس الى ابن الزبير. و كان بفلسطين ناتل بن قيس الجذامى، و بدمشق الضحاك بن قيس الفهرى، و بحمص النعمان بن بشير الأنصارى،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۵

و بقنسرين و العواصم زفر بن الحارث الكلابى، وثب على سعيد بن بدل الكلبى و أخرجه منها، و لم تبق ناحية إلا مالت الى ابن الزبير خلا الأردن و رئيسها يومئذ حسان بن بحدل الكلبى بمعنى أن الناس افترقوا «ثلاثا:

فرقة بحدلية و هو اسم لبنى حرب، و فرقة زبيرية، و فرقة لا يبالون لمن كان الأمر».

و قدم مروان بن الحكم، و أمر الشام مضطرب و معظم أجنادها مبايعة لابن الزبير، فدعا مروان الى نفسه و هو من أعظم رجال أمية عقلا- و دهاء و سياسة و حنكة. و اجتمع الناس بالجابية من أرض حوران فتناظروا فى ابن الزبير و فيما تقدم من بنى أمية عندهم، و تناظروا فى خالد بن يزيد بن معاوية، و فى عمرو بن سعيد بن العاص بعده، فكان روح ابن زنباع الجذامى يميل مع مروان فقام خطيبا فقال: يا أهل الشام هذا مروان بن الحكم شيخ قريش، و المطالب بدم عثمان، و المقاتل لعلى بن أبى طالب يوم الجمل و يوم صفين، فبايعوا الكبير و استنيبوا للصغير.

فلما عقدوا البيعة جمعوا من كان فى ناحيتهم، ثم تناظروا فى أى بلد يقصدون فقال: نقصد دمشق فإنها دار الملك و منزل الخلفاء، و قد تغلب بها الضحاك بن قيس فلقوا الضحاك بمرج راهط، و كان مع الضحاك من أهل دمشق و فتيتهم جماعة، و قد أمده النعمان بن بشير عامل حمص بشرحبيل بن ذى الكلاع فى أهل حمص، و أمده زفر بن الحارث الكلابى بقيس بن طريف بجيش من شمالى الشام، فكان فى ثلاثين ألفا، و مروان فى ثلاثة عشر ألفا أكثرهم رجالة، و التقوا بمرج راهط فاقتتلوا قتالا شديدا و دام القتال عشرين يوما فقتل الضحاك بن قيس و خلق من أصحابه، و هرب من بقى من جيشه. و بلغ الخبر النعمان بن بشير و هو بحمص فخرج هاربا، فتبعه قوم من حمير و باهلة، و قيل من أهل حمص فقتلوه فى البرية، و كان من أخطب أهل الدنيا، و هرب زفر بن الحارث الكلابى و الخيل تتبعه حتى أتى قرقيسيا على الخابور.

و أقام مروان بن الحكم بالشام فى أيام ابن الزبير و اجتمعت إليه بنو أمية بعد وقعة مرج راهط التى انقسمت بها الشام فرقتين قيسية و يمانية،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۶

و غلب اليمانية و كان بنو أمية يبغضون اليمانية. قال المسعودى: و كانت هذه الوقعة سبب رد ملك بنى أمية، و قد كان زال عنهم الى بنى أسد ابن عبد العزّى، و لذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف.

و هذه الوقعة من الوقائع المشهورة التى تفتخر بها اليمانية على النزارية، و قد أكثرت شعراؤها الافتخار بذلك. و لما بويع لمروان بن الحكم اشترط حسان بن مالك، و كان رئيس قحطان و سيدها بالشام، على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية و ابنه يزيد و ابنه معاوية بن يزيد، منها أن يفرض لهم لألفى رجل، ألفين ألفين، و إن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، و على أن يكون لهم الأمر و النهى و صدر المجلس، و كل ما كان من حل و عقد فعن رأى منهم و مشورة، فرضى مروان بذلك و انقاد إليه. و كان هذا أول قانون عربى وضع للتشريفات (بروتوكول) وضع أساسه القحطانية، و كانوا اصطلحوا على ذلك منذ عهد معاوية، أرضاهم بهذا التصدر فدخل مصطلحهم فى طور الدساتير المعمول بها.

و لم يلبث مروان أن وجه جيشا الى الحجاز لمحاربة ابن الزبير ثم خرج يريد مصر، فلما سار الى فلسطين وجد ناتل بن قيس متغلبا على البلد فحاربه، فهرب و لحق بابن الزبير، و سار مروان الى مصر فصالحه أهلها.

و أرسل عبيد اللّه بن زياد الى العراق لقتال الشيعة، و لما صار مروان الى الصّنبرة من أرض الأردن منصرفا من مصر بلغه أن حسان بن بحدل قد بايع عمرو بن سعيد بن العاص، فأحضره فأنكر و بايع لعبد الملك، ثم بعده لعبد العزيز بن مروان، و كانت ولاية مروان تسعة أشهر و قيل ثمانية و قيل ستة. و بايع أهل الشام بعده لابنه عبد الملك «و كان مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف كرها، على ما قيل بغير رضى من عصبة من الناس، بل كل خوّفه إلا عدد يسير حملوه على وثوبه عليها، و قد كان غيره ممن سلف أخذها بعدد و أعوان».

لا- جرم أن مروان سيد بنى عبد مناف فى عصره كان من الرجال العظام و كان مولعا بالشورى فى إمارته المدينة و كان يجمع فى

ولايته عليها أصحاب رسول اللّه يستشيرهم و يعمل بما يجمعون له عليه، و مثل هذا الرجل بطول تجربته و حنكته

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۷

و أخذه بالآراء السديدة ينجح و لا شك فى عمله، فهو مفخرة من مفاخر الأمويين و بنو أمية مدينة بالخلافة له.

خلافة عبد الملك بن مروان:

كان عبد الملك بن مروان بعد مهلك أبيه بعيدا عن دمشق فأقبل مسرعا خوفا من وثوب عمرو بن سعيد، و كان عمرو بن سعيد من أحب الناس الى أهل الشام يسمعون له و يطيعون. و اجتمع الناس على عبد الملك فقال لهم: إنى أخاف أن يكون فى أنفسكم منى شىء فقام جماعة من شيعة مروان فقالوا: و اللّه لتقومنّ الى المنبر أو لنضر بن عنقك، فصعد المنبر و بايعوه.

و تفرغ عبد الملك لاستصفاء العراق من شيعة على فاستخلصها منهم بعد أن قتل من الطرفين جمهور كبير، و قتل أشراف أهل الشام و كان جيشهم ثلاثين ألفا. و ذكر اليعقوبى و أكد روايته غير واحد من المؤرخين أن عبد الملك منع أهل الشام من الحج و ذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة. و وجه وجوه الناس الى مسجد بيت المقدس فبنى على الصخرة قبة و علق عليها ستور الديباج و أقام لها سدنة، و أخذ الناس بالطواف حولها كما تطوف حول الكعبة. قلنا: و كذلك فعل بنو أمية فى الأندلس فى الغرب، فإنهم منعوا الناس عن الحج مدة ملكهم أوائل عهد بنى العباس مخافة أن يأخذهم العباسيون بالبيعة لهم.

و من الأحداث فى أيام عبد الملك تجهيز يوحنا أمير جبل لبنان اثنى عشر ألف فارس و ذهابه الى البقاع و نزوله فى قب الياس، و غزوه الجبل الشرقى و شنه الغارات على الحجاج حتى ضاقت به الرعية و قطعت الطرق و خربت المسالك. و كان أمير لبنان مرتبطا مع صاحب الروم بعهود فسار قائد جيوشهم لاون سنة ۶۵ و ضم إليه عساكر الجبل، و غزا أرض العرب و استرد منهم ما كانوا أخذوه، فاضطر عبد الملك بن مروان الى تجديد الهدنة مع ملك الروم على أن يدفع له كل يوم ألف دينار و فرسا و مملوكا

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۸

و يقاسمه على خراج قبرس و إرمينية على شرط أن يخرج اللبنانيين من جبلهم، فأجابه ملك الروم الى ذلك.

الجراجمة و المردة فى جبل لبنان:

و يؤخذ مما قاله ابن عساكر أن طاغية الروم لما رأى ما صنع اللّه للمسلمين من منعه مدائن الساحل، كاتب أنباط جبل لبنان و اللكام فخرج الجراجمة و عسكروا بالجبل، و وجه ملك الروم قلقط البطريق فى جماعة من الروم فى البحر فسار بهم حتى أرسى بهم بوجه الحجر و خرج بمن معه حتى علا بهم على جبل لبنان، و بث قواده فى أقصى الجبل حتى بلغ أنطاكية و غيرها من الجبل الأسود، فأعظم ذلك المسلمون بالساحل حتى لم يكن أحد يخرج فى ناحية من رجال و لا غيرها إلا بالسلاح، فغلبت الجراجمة على الجبال كلها من لبنان و سنير و جبل الثلج و جبال الجولان، فكانت بالسبل مسلحة لنا، و فى الرقاد و عقربا الجولان مسلحة، حتى جعلوا ينادون عبد الملك بن مروان من جبل دير مران من الليل، و بعث إليهم عبد الملك بالأموال ليكفوا حتى يفرغ إليهم، و كان مشغولا بقتال أهل العراق و مصعب بن الزبير و غيره. قال: ثم كتب عبد الملك الى سحيم بن المهاجر فى مدينة طرابلس و كان أميرها يتواعده و يأمره بالخروج إليهم، فلم يزل سحيم ينتظر الفرصة منهم و يسأل عن أخبارهم و أمورهم حتى بلغه أن قلقط فى جماعة من أصحابه، و تهيأ بهيئة الروم فى لباسه و هيئته و شعره و سلاحه، متشبها ببطريق من بطارقة الروم قد بعثه ملك الروم الى جبل اللكام فى جماعة من الروم فغلب على ما هنالك، فلما دنا من القرية خلّف أصحابه فقال: انتظرونى الى مطلع كوكب الصبح فدخل على قلقط و أصحابه و هم فى كنيسة يأكلون و يشربون، فمضى الى مقدم الكنيسة فصنع ما يصنعه النصارى من الصلاة و القول عند دخولهم كنائسها، ثم جلس الى قلقط فقال له: من أنت فانتمى الى الرجل الذى يشبه به فصدقه، و قال له: إنما جئتك لما بلغنى عن جهاد سحيم و ما اجتمع

عنده من العساكر للخروج إليك، فأتيت لأخبرك به و أكفيك أمره، إياك أن

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۱۹

تتناول من طعامهم. ثم قال لقلقط و أصحابه: إنكم لم تأتوا هنا للطعام و الشراب، ثم قال لقلقط: ابعث معى عشرة من هؤلاء من أهل النجدة و البأس حتى نحرسك الليلة، فإنى كئيب أن تأتيك بلية، فبعث معه عشرة و أمرهم بطاعته، فخرج بهم إلى أقصى القرية و قام بهم على الطريق الذى يتخوفون أن يدخل عليهم منه، فأقام حارسا منهم و أمر أصحابه فناموا، فأمر الحارس إذا هو أراد النوم أن يوقظ حارسا منهم و ينام هو، فحرس الأول ثم أقام الثانى ثم قام سحيم ثم قال: أنا أحرس فنم فلما ثقل نومهم قتلهم بذبابة سيفه رجلا بعد رجل، فاضطرب التاسع، فأصاب العاشر برجله، فوثب إلى سحيم فأخذه و صرعه الرومى و جلس على صدره و أخرج سحيم سكينا و مقلها فى نحره فقتله، ثم أتى الكنيسة فقتل قلقط و أصحابه رجلا بعد رجل، ثم خرج الى أصحابه العشرين فجاء بهم و أراهم قتله و قتل الحرس و قلقط و من فى الكنيسة و وضعوا سيوفهم فيمن بقى فنذر بهم من بقى منهم، و خرجوا هرابا حتى أتوا سفنهم بوجه الحجر فركبوها، و لحقوا بأرض الروم و رجع أنباط جبل لبنان الى قراهم.

و رواية البلاذرى فى هذه الوقعة هكذا: و أقبل طاغية الروم يريد الشام و خرج أيضا قائد قواد الضواحى فى جبل اللكام فاتبعه خلق من الجراجمة و الأنباط و أبّاق عبيد المسلمين و غيرهم، ثم صار الى لبنان فأقبل عبد الملك مغذا للسير حين أتاه كتاب ابن أم الحكم بذلك، فلما ورد دمشق وجه حميد بن خريث بن بحدل الكلبى بهدايا و ألطاف الى طاغية الروم و كتب إليه معه يسأله الموادعة على إتاوة و أعطاه إياها كما فعل معاوية حين أراد، إتيان العراق فقبل الطاغية الهدايا و ما بذل له عبد الملك من الإتاوة و أعطاه رهناء من أبناء الروم و صيرهم ببعلبك، و وادع عبد الملك الذين خرجوا بلبنان و جعل لهم فى كل جمعة ألف دينار فركنوا الى ذلك و لم يعيثوا بفساد، ثم دس إليهم سحيم بن المهاجر فتلطف حتى وصل الى رئيسهم متنكرا فأظهر ممالأته و تقرّب إليه بذم عبد الملك و شتمه و وعده أن يدله على عوراته و ما هو خير له من الصلح الذى بذل له، ثم عطف عليه و هو و أصحابه غارون غافلون بجيش من موالى عبد الملك و بنى أمية و جند من

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۰

ثقات جنده و كماتهم كان أعدهم لمحاربته و أكمنهم فى مكان بالقرب منه خفيّ فقتل أولئك الروم و بشرا من الجراجمة و غيرهم ثم أذن بالأمان فيمن بقى من الجراجمة و من سواهم فتفرقوا فى قراهم و مواضعهم، فلما أصلح عبد الملك أموره استخلف ابنه الوليد على دمشق و معه سعيد بن مالك بن بحدل. قال: و أمر عبد الملك فنادى من أتانا من العبيد يعنى الذين كانوا مع أولئك القوم فهو حر و له أن أثبته فى الديوان، فانفض إليه خلق منهم كانوا ممن قاتل مع سحيم و قد وفى لهم و جعل لهم ربعا على حدة فهم يسمون الفتيان الى الآن.

و لما كانت سنة ۸۹ اجتمع الجراجمة الى مدينتهم و أتاهم قوم من الروم من قبل الإسكندرونة و مرسين، فوجه الوليد بن عبد الملك إليهم مسلمة ابن عبد الملك فأناخ عليهم فى خلق فافتتحها، على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام، و يجرى على كل امرىء منهم ثمانية دنانير و على عيالاتهم القوت من القمح و الزيت و هو مدان من قمح، و قسطان من زيت، و على أن لا يكرهوا و لا أحد من أولادهم و نسائهم على ترك النصرانية، و على أن يلبسوا لباس المسلمين و لا يؤخذ منهم و لا من أولادهم و نسائهم جزية، و على أن يغزوا مع المسلمين فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة، و على أن يؤخذ من تجاراتهم و أموال موسريهم ما يؤخذ من أموال المسلمين، فأخرب مدينتهم و أنزلهم فأسكنهم جبل الحوّار و سنح اللولون (؟) و عمق تيزين و صار بعضهم الى حمص و نزل بعضهم بطريق الجرجومة فى جماعة معه من أنطاكية ثم هرب الى الروم. قال ياقوت: و استعان المسلمون بالجراجمة فى مواطن كثيرة فى أيام بنى أمية و بنى العباس و أجروا عليهم الجرايات و عرفوا منهم المناصحة.

قتل ابن الزبير فى مكة بعد أن كانت خلافته تسع سنين و الفتنة بينه و بين عبد الملك سبع سنين، فبويع لعبد الملك بالحجاز و اليمن و

صفا له ملک مصر و الشام و الحجاز و العراق و الیمن و غیرها. و فی سنهٔ ۷۵ وصل موریق و موریقان من قواد الروم الی الشام و حملا بجیوشهما علی دیر القدیس مارون فی جهات حماهٔ و قتلا منه خمسمائهٔ راهب و هدما بنیانه، ثم تحولا

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۱

من هناک الی قنسرین و العواصم فقتلا الأهلین و نهبا و خربا المساکن و لم یعفیا أحدا من أتباع بطریرک الموارنهٔ، ثم انتهی جیشهما الی طرابلس فخضع لهم أهل الکورهٔ، ثم قوی الجبلیون علی عسکر الروم ثم قتلوا أکثرهم و انهزم الباقون. دعا الروم الی قتال الموارنهٔ لقولهم بالطبیعتین و المشیئتین ثم وفد وفد منهم مع لاون القائد یبیح أن یحارب الجیش الموجه علیهم، فلما عرف الجبلیون و أهل العواصم بهذا انهالوا علی الأروام من أعالی الجبل فقاتلوهم حتی قتلوا أکثرهم و انهزم الباقون. قال الدویهی: و بسبب هذه الحملهٔ علی یوحنا مارون و لا سیما بسبب الوقعهٔ التی جرت بین أهل الکورهٔ وجبهٔ بشری کان بدء التفرقهٔ بین الموارنهٔ و الملکیهٔ. لأن الذین اتبعوا جیش الروم و انقادوا لرأیهم سموا ملکیهٔ تبعا للملک، و الذین ثبتوا فی الأمانهٔ تحت طاعهٔ البطریرک یوحنا مارون سموا موارنهٔ.

و قال ابن القلاعی: إن الموارنهٔ فی دخول المسلمین الی الشام کانوا یسکنون جبل لبنان، و یتولون الجبال و السواحل التی تجاورهم، و بلادهم من حدود الشوف الی بلاد الدریب، و أمیرهم یسکن قریهٔ بسکنتا نزل الی البقاع فی رجاله و نهبها و قتل کثیرین و لبث أیاما فی قب الیاس، فلما انتهی خبره الی عبد الملک بن مروان أرسل الیه هدیهٔ و لم یزل یمکر به حتی قتله و قتل کثیرین من عسکره، و أحرق القری و أبعد الموارنهٔ من البقاع، و لم تزل الحروب منذ ذلک الحین ثائرهٔ بین المسلمین و الموارنهٔ الی نحو ثلاثین سنهٔ ثم ابتنی الموارنهٔ حصنا فوق نهر الکلب جرت عنده موقعهٔ هائله.

عهد الولید:

توفی عبد الملک فی سنهٔ ۸۶ بعد أن ولی الخلافهٔ منذ قتل ابن الزبیر ثلاث عشرهٔ سنهٔ و أربعهٔ أشهر، و کان من الحزم وسعهٔ الصدر و جمال العلم و الأدب علی جانب عظیم، و یعد من فقهاء المدینهٔ و هو أول من حولت الدواوین فی أیامه الی العربیهٔ، و فی عهده نقشت الدنانیر و الدراهم بالعربیهٔ (۷۶) و کان قبل ذلک نقش الدنانیر بالرومیهٔ و نقش الدراهم

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۲

بالفارسیهٔ، و هو أول من نهی عن الکلام بحضرهٔ الخلفاء، و کان الناس قبل ذلک یراجعون و یعترضون علیهم.

و بویع للولید بن عبد الملک. و کانت أیامه من أبرک أیام بنی أمیهٔ عمّر الجوامع العظام، و کتب الی الأمصار بهدم المساجد و الزیادهٔ فیها، و بث فی الأمهٔ روح العمران، فکان الناس إذا التقوا فی زمانه، یسأل بعضهم بعضا عن الأبنیهٔ و العمارات فی کل مکان، و کان أول من عمل أعمالا جسیمهٔ ابتدعها فی الصدقات و القربات، هذا مع أن الخراج انکسر فی أیامه فلم یحمل کثیر شیء من العراق و غیره، فاضطر الی إحصاء أهل الدیوان، و ألقی منهم بشرا کثیرا بلغت عدتهم عشرین ألفا، و أجری الولید علی زمنی أهل الشام کالمجذّمین و العمیان و کساهم و أمر لکل منهم بخادم، و أخرج لعیالات الناس الطیب و الکسوهٔ، و زاد الناس جمیعا فی العطاء عشرهٔ عشرهٔ، ثم زاد أهل الشام بعد زیادهٔ العشرات عشرهٔ عشرهٔ لأهل الشام خاصهٔ، و زاد من وفد إلیه من أهل بیته فی جوائزهم الضعف، و کان و هو ولیّ عهد، یطعم من وفد إلیه من أهل الصائفهٔ قافلا، و یطعم من صدر عن الحج بمنزل زیزاء فی البلقاء ثلاثهٔ أیام، و یعلف دوابهم، و لم یقل فی شیء یسأله: لا. فقیل له: إن فی قولک أنظر عدهٔ ما، یقیم علیها الطالب فقال: لا أعوّد لسانی شیئا لم أعتده و قال:

ضمنت لکم إن لم تعقنی عوائقبأن سماء الضر عنکم ستقلع

سیوشک إلحاق معا و زیادهٔو أعطیهٔ منی علیکم تبرّع

محرّمکم دیوانکم و عطاؤکمبه یکتب الکتاب شهرا و تطبع

و قد بلغ بنو أمیهٔ فی عهد الولید أقصی درجات عزهم، و اعتز بحکمه الإسلام و المسلمون، و فتحت الفتوح العظام و تغلغلت جیوشه

فی أرض الترک و الروم و الهند، و فتحت الأندلس و جاء فاتحها موسی بن نصیر الی دمشق یضع بین یدی الخلیفة الأموال و الجواهر، و یعرض أبناء ملوک البربر و الجزائر و الروم و الإسبان و الإفرنج یلبسون تیجانهم، و یقف أبناء ملوک أوروبا فی باب الخلیفة الأموی بحالة الأسر. و بعث الولید أخاه مسلمة

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۳

لغزو الروم فقتل منهم أربعین ألف رجل، و غزا قلقیة و فتح فیها حصونا کثیرة بالأمان، و حمل أهلها الی الشام و فتح أمسیة و حصونا کثیرة.

سلیمان بن عبد الملک:

توفی الولید سنة ۹۶ فبویع أخوه سلیمان بن عبد الملک سابعهم، و کان حسن السیرة فصیحا مفوّها، أتته بیعة الأجناد و هو بالبلقاء فأتی القدس و أتته الوفود بالبیعة، فلم یر الناس وفادة أحسن منها، جلس فی قبة صحن المسجد، و قد بسطت البسط لدیه و النمارق علیها و الکراسی، فجلس و أذن للناس أن یجلسوا علی الکراسی و الوسائد، و الی جانبه الأموال و الکساوی و آنیة الذهب و الفضة و الدواوین، فیدخل وفد الجند و یتقدم صاحبهم فیتکلم عنهم و عمن قدموا من عنده و یقول: إن من جندنا کذا و من حاجتهم کذا و کذا و مما یصلحهم کذا، فیأمر سلیمان بذلک کله.

ردّ المظالم و عزل عمال الحجاج، و أخرج من کان فی سجن العراق، و أعتق سبعین ألف مملوک و مملوکة و کساهم، و کانت أیامه ذات فتوح متوالیة، جاء الخبر الی سلیمان بن عبد الملک أن الروم خرجت علی ساحل حمص، فسبت امرأة و جماعة، فغضب سلیمان و قال: و اللّه لأغزونهم غزوة افتتح بها القسطنطینیة أو أموت دون ذلک، فأغزی جماعة أهل الشام و الجزیرة و الموصل فی البر فی نحو مائة و عشرین ألفا، و أغزی أهل مصر و إفریقیة فی البحر فی ألف مرکب، و علی جماعة الناس مسلمة بن عبد الملک، و أغزی داود بن سلیمان فی جماعة من أهل بیته، و قدم سلیمان من القدس الی دمشق، و مضی حتی نزل مرج دابق فأمضی البعث و أقام بالمرج. و اتخذ ابن عمه عمر بن عبد العزیز وزیرا و أوصی له سلیمان بالخلافة، فسمی سلیمان مفتاح الخیر لاستخلافه عمر بن عبد العزیز.

عهد عمر بن عبد العزیز و سیرته:

لما تولی الخلافة عمر بن عبد العزیز أوائل سنة تسع و تسعین أبطل سب علی رضی اللّه عنه علی المنابر، و کان من العادة سبه عقیب کل خطبة

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۴

منذ عهد معاویة بن أبی سفیان الذی قدم الخطبة علی صلاة الجمعة، لأن الناس کانوا یکرهون سماع اللعن، فکانوا إذا أدوا الصلاة خرجوا من المسجد. أراد معاویة من ذلک کما قال ابن أبی الحدید: «تشیید الملک و تأکید ما فعله الأسلاف، و أن یقرر فی أنفس الناس أن بنی هاشم لاحظ لهم فی هذا الأمر، و أن سیدهم الذی به یصولون، و بفخره یفخرون، هذا حاله و هذا مقداره، فیکون من ینتمی إلیه و یدلی به عن الأمر أبعد، و عن الوصول إلیه أشحط و أنزح». علی أن الطالبیین کانوا یقنتون عقیب کل صلاة و یلعنون أیضا بنی أمیة.

و کتب عمر بن عبد العزیز الی نوابه بإبطال السب و کانوا یقولون:

لعن اللّه أبا تراب. و لما خطب یوم الجمعة، أبدل السب فی الخطبة بقوله تعالی: «رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا وَ لِإِخْوانِنَا الَّذِینَ سَبَقُونا بِالْإِیمانِ، وَ لا تَجْعَلْ فِی قُلُوبِنا غِلًّا لِلَّذِینَ آمَنُوا، رَبَّنا إِنَّکَ رَؤُفٌ رَحِیمٌ». و قیل: بل جعل مکان ذلک قوله تعالی: «إِنَّ اللَّهَ یَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ وَ إِیتاءِ ذِی الْقُرْبی، وَ یَنْهی عَنِ الْفَحْشاءِ وَ الْمُنْکَرِ وَ الْبَغْیِ، یَعِظُکُمْ لَعَلَّکُمْ تَذَکَّرُونَ».

فاستمر الخطباء على قراءتها الى هذا اليوم، و شكر سعيه كل عاقل.

و ردّ عمر بن عبد العزيز المظالم، و سار سيرة عمر بن الخطاب جده لأمه، و استعمل أصلح من قدر عليه، فسلك عماله طريقته، و استدعى الجيش الإسلامى من حصار القسطنطينية ساعة ولى الخلافة حقنا لدماء المسلمين، و كان قد بلغ منهم الجهد، و لم يغفل مع ذلك عن غزو الروم عند الاقتضاء الشديد. و لو طال أجله لأجلى المسلمين عن الأندلس لأنه رأى مقامهم فيها غير طبيعى لإحاطة الأعداء بهم، و ردّ جيوش المسلمين من الشرق و منعهم من التوغل فيه قائلا: يكفى ما فتح اللّه على المسلمين من الفتوح.

و يرجع الفضل فى العهد لعمر بن عبد العزيز الى سليمان بن عبد الملك الذى عرف بحكمته أن ابن عبد العزيز أعدل رجل و أعقل رجل فى بنى أمية، فعهد إليه بالخلافة فأحسن للأمة و أى إحسان، و حنق عليه بعض المتلاعبين من أهل بيته فسقوه السم فيما قيل فهلك سنة ۱۰۱، و خلافته

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۵

سنتان و خمسة اشهر. و كانت سيرة عمر بن عبد العزيز مضرب الأمثال فى القاصية و الدانية، و قدوة السلف للخلف فى كل عصر و مصر. قال عمرو ابن ميمون: كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة.

بعث عمر بن عبد العزيز وفدا الى ملك الروم فى أمر من مصالح المسلمين و حق يدعوه إليه، فلما دخلوا إذا ترجمان يفسر عليه، و هو جالس على سرير ملكه و التاج على رأسه، و البطارقة عن يمينه و شماله، و الناس على مراتبهم بين يديه، فأدى إليه ما قصدوا له فتلقاهم بجميل و أجابهم بأحسن جواب و انصرفوا عنه فى ذلك اليوم، فلما كان فى غداة غد أتاهم رسوله فدخلوا عليه، فإذا هو قد نزل عن سريره و وضع التاج عن رأسه، و قد تغيرت صفاته التى شاهدوه عليها كأنه فى مصيبة فقال: هل تدرون لما ذا دعوتكم؟ قالوا لا: قال: إن صاحب مسلحتى التى تلى العرب جاءنى كتابه فى هذا الوقت أن ملك العرب الرجل الصالح قد مات، فما ملكوا أنفسهم أن بكوا فقال: لا تبكوا له و ابكوا لأنفسكم ما بدا لكم. فإنه قد خرج الى خير مما خلف. قد كان يخاف أن يدع طاعة للّه فلم يكن اللّه ليجمع عليه مخافة الدنيا و الآخرة. لقد بلغنى من بره و فضله و صدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيى الموتى لظننت أنه يحيى الموتى، و لقد كانت تأتينى أخباره باطنا و ظاهرا فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدا، بل باطنه أشد حين خلوته بطاعة مولاه. و لم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيا و عبد ربه على رأس صومعة، و لكنى عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدمه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب، إن أهل الخير لا يبقون مع أهل الشر إلا قليلا.

يزيد بن عبد الملك و هشام و الوليد بن يزيد:

تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك تاسع الأمويين، و قد لقب الوليد و سليمان و يزيد و هشام أبناء عبد الملك بالأكبش الأربعة، و لم يل الخلافة من بنى أمية و لا- من غيرهم أربعة إخوة إلا- هؤلاء. فعزل يزيد عمال عمر بن عبد العزيز جميعا و أعاد سب علىّ على المنابر، و دام ذلك الى

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۶

انقضاء أمر بنى مروان، يربو عليها الصغير و يهرم الكبير، و لم يكن يزيد بن عبد الملك بالخليفة الذى تحمد سيرته كثيرا، و توفى بعد أن تولى الخلافة أربع سنين و شهرا و عهد بها الى أخيه هشام و هو عاشرهم، و كان هشام يحب جمع المال و عمارة الأرض و اصطناع الرجال و تقوية الثغور و إقامة البرك و القنى فى طريق مكة و غير ذلك. و كان لا يدخل بيت ماله مال حتى يشهد أربعون قسامة لقد أخذ من حقه و أعطى لكل ذى حق حقه.

و ظهر فى أيامه بخراسان سليمان بن كثير الخزاعى و أصحابه يدعون الى بنى هاشم سنة ۱۱۱ فانتشرت دعوتهم و كثر من يجيبهم، و أرادوا خلع بنى أمية و بيعة بنى هاشم، فقاتلهم و قاتل الخوارج على ملكه فى أقطار أخرى، و كان قد بلغ ملك بنى أمية فارس و السند

و شمالی إفریقیهٔ و الأندلس.

و غزا هشام و هو من أحزم بنی أمیهٔ الروم مرات و أسر قسطنطین ملکهم و حارب الترک کما حاربهم من قبله من الخلفاء و توفی سنهٔ ۱۲۵ فبویع بعده للولید بن یزید فاضطربت المملکهٔ فی عهده، لأنه کان مهملا قلیل العنایهٔ بأطرافه و قیل: إنه کان صاحب ملاه «و ضم ذلک الی ما ارتکبه من إغضاب أکابر أهله و الإساءهٔ إلیهم و تنفیرهم فاجتمعوا علیه مع أعیان رعیته و هجموا علیه و قتلوه» بعد سنهٔ و خمسهٔ أشهر من ولایته «و کانت تتابعت منه فعال أنکرها الناس علیه فدب یزید بن الولید فی الدعاء الی خلعه فأجابته الیمن بأسرها و عاضدوه و وثبوا معه علی عامل الولید بدمشق فأجابوه و بایعوا یزید ثم ساروا الی الولید فقتلوه».

و کان اجتمع من بأقطار الشام من الیمانیهٔ فخرج الیهم الولید بمضر و اقتتلوا، و أثخنت الیمانیهٔ القتل فی مضر فانهزمت مضر و أخذوا نحو دمشق، و دخل الولید قصره فتحصن فیه فبایعوا یزید بن الولید و بایعه أشراف المضریین طوعا و کرها و خلعوا الولید بن یزید فلبث مخلوعا أیاما کثیرهٔ و هو خلیع بنی أمیهٔ ثم قتلوه.

و فی سنهٔ ۱۲۶ اضطرب أمر بنی أمیهٔ و هاجت الفتنهٔ، فکان من ذلک و ثوب سلیمان بن هشام بن عبد الملک بعد قتل الولید بعمان، و کان قد حبسه الولید بها، فخرج من الحبس و أخذ ما کان بها من الأموال و أقبل

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۷

الی دمشق. و فی هذه السنهٔ أمّر الولید بن یزید علی جیوش البحر، الأسود بن بلال المحاذی و سیره الی قبرس لیخیر أهلها بین المسیر الی الشام أو الی الروم، فاختارت طائفهٔ جوار المسلمین فسیرهم الی الشام، و اختار آخرون الروم فسیرهم إلیهم و أسکنهم الماحوز علی ساحل البحر بین صور و صیدا.

یزید بن الولید:

و کان من أمر یزید بن الولید و هو ثانی عشر خلفائهم أن نقص الناس من عطائهم فسمی یزید الناقص، و کان الخلیفهٔ من بنی أمیهٔ إذا مات و قام آخر زاد فی أرزاقهم و عطایاهم عشرهٔ دراهم فیقولون: عیر بعیر و زیادهٔ عشرهٔ.

اضطربت البلدان علی یزید و لما قتل خرج أهل حمص و أغلقوا أبواب المدینهٔ و أقاموا النوائح و البواکی علیه و طالبوا بدمه، و قتلوا مروان بن عبد اللّه بن عبد الملک و کان عامل الولید علی حمص و هو من سادهٔ بنی مروان نبلا و کرما و عقلا و جمالا، و لما أجمع الحمصیون علی محاربهٔ یزید بدمشق جهز جیشا قاتلهم قریبا من ثنیّهٔ العقاب فانهزم الحمصیون و استولی علی المدینهٔ و أخذ البیعهٔ علیهم. قال الدینوری معللا سر قیام الحمصیین: إن المضریهٔ تلاومت فیما کان من غلبهٔ الیمانیهٔ علیها، و قتلهم الخلیفهٔ الولید بن یزید فدبّ بعضهم الی بعض، و اجتمعوا من أقطار الأرض، و ساروا حتی وافوا مدینهٔ حمص و بها مروان بن محمد بن مروان ابن الحکم و کان یومئذ شیخ بنی أمیهٔ و کبیرهم و کان ذا أدب کامل، و رأی فاضل، فاستخرجوه من داره و بایعوه و قالوا له: أنت شیخ

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۸

قومک و سیدهم فاطلب بثأر ابن عمک الولید بن یزید. فاستعد مروان بجنوده فی تمیم و قیس و کنانهٔ و سائر قبائل مضر و سار نحو مدینهٔ دمشق.

و لما بویع یزید بن الولید خطب و ذکر الولید بن یزید فقال علی روایهٔ ابن الطقطقی: إن سیرته کانت خبیثهٔ و کان منتهکا لحرمات اللّه فقتلته ثم قال: أیها الناس إن لکم علیّ أن لا أضع حجرا فوق حجر، و لا لبنهٔ علی لبنهٔ، و لا أکری نهرا، و لا أکنز مالا، و لا أنقل مالا من بلد الی بلد حتی أسد ثغره، و خصاصهٔ أهله بما یغنیهم، فما فضل منه نقلته الی البلد الآخر الذی یلیه، و لا أغلق بابی دونکم، و لکم أعطیاتکم فی کل سنهٔ، و أرزاقکم کل شهر، حتی یکون أقصاکم کأدناکم، فإن وفیت لکم ما قلت فعلیکم بالسمع و الطاعهٔ و حسن المؤازرهٔ، و إن لم أف فلکم أن تخلعونی، إلا أن أتوب، و إن کنتم تعلمون أن أحدا ممن یعرف بالصلاح یعطیکم من نفسه ما

قد بذلت لكم، و أردتم أن تبايعوه، فأنا أول من يبايعه معكم، إنه لا طاعة لمخلوق، فى معصية الخالق.

و خرج على يزيد بن الوليد بشر بن الوليد بقنسرين و عمر بن الوليد و يزيد بن سليمان بفلسطين، و وجه الى الأردن أخاه إبراهيم ولى عهده، و قد أمروا عليهم محمد بن عبد الملك فاستمال الثائرين بالمال فتفرقوا، و كانت ولايته خمسة أشهر و الفتنة فى جميع المملكة عامة، و قتل أهل حمص عاملهم عبد اللّه بن شجرة الكندى و كانوا انتخبوه واليا على جندهم، و لما توفى يزيد بن الوليد ملك إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك فامتنع أهل حمص من البيعة فجاءهم الجند من دمشق و حاصرهم.

مروان بن محمد:

و قدم مروان بن محمد بن مروان من إرمينية خالعا ليزيد بن الوليد، فلما صار بحران دعا الى نفسه فبايع له أهل الجزيرة سرا، و أقبل فى جموع من أهل الجزيرة، فلقى بشرا و مسرورا ابنى الوليد بن عبد الملك معسكرين بحلب فهزم عسكريهما و أسرهما، ثم مضى حتى أتى حمص، و بلغ إبراهيم الخبر فوجه إليه سليمان بن هشام، و كان سليمان فى مائة و عشرين ألفا،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۲۹

فلقى مروان و كان فى ثمانين ألفا و من معه من أهل الجزيرة و قنسرين و حمص فالتقوا بعين الجر فتناوشوا القتال (۱۲۷) و انصرف بعضهم عن بعض، فلما كان من الغد انهزم سليمان بن هشام و أصحابه فلحقوا بإبراهيم و أقبل مروان فبايع له أهل دمشق و دخلها فخلع إبراهيم نفسه و بايع لمروان.

و قد قتل فى وقائع عين جر و ما تقدمها و تأخر عنها ثمانية عشر ألف مقاتل.

و روى الطبرى أنه لما قيل قد دخلت خيل مروان دمشق هرب إبراهيم بن الوليد و تغيب، فأنهب سليمان ما كان فى بيت المال و قسمه فيمن معه من الجند، و خرج من المدينة، و ثار من فيها من موالى الوليد بن يزيد الى دار عبد العزيز بن الحجاج فقتلوه، و نبشوا قبر يزيد بن الوليد و صلبوه على باب الجابية، و دخل مروان دمشق فنزل دير العالية من ضواحيها.

و لما ملك مروان بن محمد كتب الى عمال البلدان فأتته كتبهم بالسمع و الطاعة، و لم يلبث إلا ثلاثة أشهر حتى أتاه الخبر أن أهل حمص مقيمون على المعصية، فسار إليهم فحاصرهم حتى فتح المدينة، و قاتل الثائرين و قتل خمسمائة أو ستمائة صلبوا حول مدينة حمص، و هدم من حائطها نحوا من غلوة. و ثار أهل الغوطة فولوا عليهم يزيد بن خالد القسرى و حصروا دمشق و أميرها زامل بن عمرو، فوجه إليهم مروان من حمص أبا الورد بن الكوثر فى عشرة آلاف، فلما دنوا من المدينة خرج عليهم من فيها فانهزموا و استباح أهل مروان عسكرهم و أحرقوا المزة و قرى من اليمانية، و أخذ يزيد بن خالد فقتل، و خرج ثابت بن نعيم الجذامى بناحية الأردن فوجه إليه جيشا. و كان مروان عند دخوله دمشق ترك لأهل كل جند من أجناد الشام أن يختاروا عمالهم فوقع اختيارهم على هؤلاء العمال الذين ثاروا بهم بعد على مروان، و ممن ثار سليمان بن هشام فى أهل حمص و قنسرين، و قصد حمص فحصنها فبايعه أصحابه بالخلافة، و خرجوا قاصدين مروان و كمنوا له فى طريقه فى قرية تعرف بتل مير من عمل معرة النعمان فالتقى العسكران و قتل منهما خلق كثير فانهزم سليمان الى حمص، فجاء مروان

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۰

إليها و حاصرها ثانية عشرة أشهر ثم صالحها و تسلمها، و كان سليمان بن هشام فى سبعين ألفا و قتل زهاء ثلاثين ألفا.

إدبار الأمويين:

و ما زالت الحال على ذلك حتى استقامت لمروان الشام كلها، ثم قوى أمر أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة العباسية بخراسان، و دعا علنا لبنى هاشم و قتل عسكر الأمويين، و لما بايعوا بالخلافة فى الكوفة لأبى العباس سرا وجه عمه عبد اللّه بن على لقتال مروان، و

کان مع مروان مئة ألف مقاتل و لا یکون مع عبد اللّه بن علی إلا الأقل من ذلک، فلقیه بالزاب قرب الموصل، فحاربه عبد اللّه بن علی فهزمه، ثم لم یزل فی إثره و هو منهزم لا یلوی علی شیء حتی أخرجه الی الجزیرة، ثم أخرجه من الجزیرة الی الشام، فجعل مروان لا یمرّ بجند من أجناد الشام إلا انتهبوه، فلما اجتاز بقنسرین و حاضر حلب أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرین بساقته و وثب أهل حمص و قالوا: مرعوب منهزم، فاتبعوه بعدما رحل عنهم فلحقوه علی أمیال فناشدهم فأبوا إلا مکاثرته و قتاله، فنشب القتال و أثار کمینین من خلفهم و کان قد نصبهما فهزمهم و قتلتهم خیله.

و سار مروان الی دمشق فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشی، ثم أتی الأردن فوثب به هاشم بن عمر العنسی و المذحجیون أی الیمانیون جمیعا، ثم مرّ بفلسطین فوثب به الحکم بن ضبعان بن روح بن زنباع لما رأوا من إدبار الأمر عنه. قال الدینوری: جعل مروان یستقری مدن الشام فیستنهضهم فیروغون عنه و یهابون الحرب فلم یسر معه منهم إلا قلیل.

قالوا: و لما صار مروان الی دمشق و هو مضمر أن یتحصن بها لو لا ما انتهبه أهلها و وثب علیه من بها من قیس فدخلها عبد اللّه بن علی العباسی عنوة، و مضی مروان الی فلسطین هاربا حتی جاء مصر، فقاتل مروان فی قریة بوصیر قرب القاهرة حتی قتل و ذلک فی ذی الحجة ۱۳۲، و بموته انقرض ملک بنی أمیة فی المشرق و هو الرابع عشر من خلفائهم. و کان من رأیه أن

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۱

یقطع الدرب و ینزل بعض حصون الروم و یکاتب ملکها و یجمع علیه رجاله و شیعته الی أن یرتئی فی أمره، و لکن حمّ القضاء و لا رادّ لحکمه.

دولة بنی مروان و حسناتها:

انقضت دولة بنی مروان، و کانت دولة عربیة صرفة سارت مع المدنیة أشواطا مع انشغالها بالفتح و قیام الخارجین علیها، و لم یبطلوا فی کل دور غزو الروم، و کانوا علی الأکثر یسبون و یقتلون و یغنمون و یخربون حصونهم، و الروم یغزون الشام و آسیا الصغری و قد یصلون الی أنطاکیة و دلوک (مرعش). و کان أکثر ملوک الأمویین من الحزم و العلم و حسن السیاسة و الإدارة علی جانب عظیم، و السواس منهم معاویة و عبد الملک و هشام، و لیس کالولید فی باب الاضطلاع بإقامة المصانع، و لا مثل عمر ابن عبد العزیز فی تطهیر المملکة من المظالم و إحیاء سنن العدل و المراحم، و لا کسلیمان ببعد النظر، و ما منهم إلا العالم و الشاعر و الخطیب و السیاسی، و قد فتحت علیهم الأقطار فنشروا فیها اللغة والدین علی أیسر سبیل، و هذا مما لم یوفق إلی مثله غیرهم، و وضعوا أسس النظام فی الممالک التی دوخوها و عرفوا ما یصلحها، و کانت إرادتهم أشبه باللامر کزیة فی عهدنا، یبعثون بالعامل فیحل المسائل باجتهاده علی رأی أهل الشرف و المکانة فی القطر الذی یتولاه، و لا یفاوض مقر الخلافة إلا فی عویص الأمور، و قد نصب علم الأمویین الأبیض فی المشارق و المغارب، نصب فی الصین کما نصب فی بواتیه فی فرنسا، هذا و قد کثر المخلصون لدولتهم الی أواخر أیامهم و قل المنتقضون علیهم المتوثبون علی خلافتهم.

للدول کما للأفراد أعمار طبیعیة. و ملک بنی أمیة لم یطل أکثر من ألف شهر کاملة لأنهم ملکوا تسعین سنة و أحد عشر شهرا و ثلاثة عشر یوما، یوضع من ذلک أیام الحسن بن علی و هی خمسة أشهر و عشرة أیام، و أیام عبد اللّه بن الزبیر الی الوقت الذی قتل فیه و هی سبع سنین و عشرة أشهر و ثلاثة أیام، فیصیر الباقی بعد ذلک ثلاثا و ثمانین سنة و أربعة أشهر.

ذهب بنو أمیة بالفضل فی جمع الشمل، و لو لا قیامهم هذا القیام

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۲

المحمود یحدوه الانتباه لکل ما یعلی شأن دولتهم. لما ثبتت الدولة الإسلامیة هذا الثبات الذی استغرب منه الخبر و الخبر. قال المقریزی: أظهر الرسول بنی أمیة لجمیع الناس بتولیتهم أعماله مما فتح اللّه علیه من البلاد، فقوی ظنهم و انبسط رجاؤهم و امتد فی

الولايۀ أملهم، و ضعف أمل بنى هاشم و انقبض رجاؤهم و قصر أملهم. قال: و قد ظهر لى أن ولايۀ رسول اللّه بنى أميۀ الأعمال كانت إشارۀ منه الى أن الأمر سيصير إليهم. قال: إنه عليه السلام توفى و ثلاثۀ أرباع عماله منهم.

وطـد مؤسـس ملك الأمويين السـلطان بالشام و بجنـد من أهله قاتل هو و أخلافه، و اشـتهر جند الشام بالطاعۀ حتى تمنى على بن أبى طالب لو يقايض على عشـرۀ من جنـده بواحـد من جنـد معاويۀ، فقال فى إحدى خطبه: «لوددت و اللّه أن معاويۀ صارفنى بكم صـرف الدينار بالدرهم، فأخذ منى عشـرۀ منكم و أعطانى رجلا منهم». فتحت هذه الفتوح بنفس قويۀ و عقول راجحۀ و سياسۀ حازمۀ، و قاتل زعمـاؤهم و أبنـاؤهم بل بناتهم و نساؤهم حتى فتحوا الشام. و كان من جملـۀ توفيق معاويـۀ أنه عرف طبائع هـذا القطر و خصائصه من أبيه و آله و كانت لهم به علائق كثيرۀ فى الجاهليـۀ، ثم درس أحواله بنفسه فكان يعرف قوته معرفـۀ حقيقيۀ، و لذلك لم ينل منه على بن أبى طالب منالا لأنه كان أخـذ لهـذا الأمر عدته و تدبره و دبّره كان يأخذ بآراء أشـراف القوم و النزول على حكم وفود الأرجاء، و كانت وفودهم تشـبه ما يسـميه الإفرنـج بمجالس الولايات، و كان لمعاويۀ و آل بيته مجالس يعقدونها فى المسـجد الجامع تدور حول سياسۀ الأمۀ فى الأكثر، و خطاب الخليفۀ يوم الجمعۀ بمثابۀ ما نسـميه فى عرف سـياسۀ اليوم خطاب العرش، و مجالسهم أشبه بمجالس النواب و الشيوخ و الولايات، فلم يكونوا الى الاستبداد بالرأى فى معظم حالاتهم.

و فى الحق أن معاويـۀ بن أبى سـفيان أورث الإسـلام مجـدا، و أولى العرب عزّۀ و منعـۀ، و كـان العربى حيث نزل من الأرض محترما، مرعى الجـانب آمنا على نفسه و حقه، و لم يوفق الى ذلك إلا بحسن السـياسۀ و صائب التـدبير. ذكر المسـعودى، و هو من المنحرفين عن بنى أميۀ، أن

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۳

المسلمين غزوا فى أيام معاويۀ فأسر جماعۀ منهم، فأوقفوا بين يدى الملك فتكلم بعض أسارى المسلمين، فدنا منه بعض البطارقۀ ممن كان واقفا بين يدى الملك فلطم حرّ وجهه فآلمه، و كان رجلا من قريش فصاح:

وا إسـلاماه، أين أنت عنا يا معاويۀ إذ أهملتنا، وضيعت ثغورنا، و حكمت العدو فى ديارنا و دمائنا و أعراضنا. فنمى الخبر الى معاويۀ و غضب و أقام الفـداء بين المسـلمين و الروم و فادى بذلك الرجل، فلما صار الى دار الإسـلام دعاه فبرّه و أحسن اليه. و بعث الى رجل من ساحـل دمشق من مدينـۀ صور و كان به عارفا كثير الغزوات فى البحر، صـملّ من الرجال مرطان بالروميـۀ، و أعطاه كل ما طلب، و هيأ له مركبا و أوعز إليه أن يتظاهر بأنه يتاجر مع روم القسـطنطينيۀ، و ما زال على ذلك سنين حتى أسر الصوريّ البطريق الرومى الذى كان لطم القرشـى و أتى به الى معاويۀ فى قصۀ طويلۀ. فقال معاويۀ: علىّ بالرجل القرشـى فأتى به و قد حضـر خواص المسـلمين و قال له: قم و اقتص من هذا البطريق الذى لطم وجهك على بساط معظم الروم فإنا لم نضيعك و لا أبحنا دمك و عرضك، فقام القرشى و دنا من البطريق فقال له معاويـۀ: انظر لا تتعدّ ما جرى عليك منه. و انقلب القرشـى على يدى معاويۀ و أطرافه يقبلها و قال: ما أضاعك من سوّدك، و لاـ خـاب فيـك أمل من أمّلك، أنت ملك لا تسـتضام، تمنع حماك و تصون رعيتك. و أحسن معاويـۀ الى البطريق و حمـل معه هـدايا الى الملك و قال له: ارجع الى ملكك و قل له: تركت ملك العرب يقيم الحـدود على بساطك، و يقتص لرعيته فى دار مملكتك و سـلطانك، فقال ملك الروم: هـذا أمكر الملوك و أدهى العرب. و لهذا قدمته العرب عليها فساس أمورها و اللّه لو همّ بأخذى لتمت له الحيلۀ علىّ.

قواد الأمويين و أسباب انقراضهم:

نشأ للأمويين رجال عظام فى الحرب و السياسۀ و الحكم، مثل زياد بن

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۴

أبى سـفيان و عتبـۀ بن أبى سـفيان و موسـى بن نصـير و طارق بن زياد و قتيبۀ بن مسـلم و عقبۀ بن نافع الفهرى و بسـر بن أبى أرطاۀ و

شرحبيل بن السمط و حبيب بن مسلمة و مسلمة بن عبد الملك و أسد بن عبد اللّه و عبد الرحمن بن أم الحكم الثقفى و مالك بن عبد اللّه الذى كان أميرا على الجيوش فى غزوة الروم أربعين سنة أيام معاوية و قبلها و أيام يزيد و أيام عبد الملك بن مروان و لما مات كسر على قبره أربعون لواء لكل سنة غزاها لواء. و روح بن زنباع و زفر بن الحارث الكلابى و الجراح بن عبد اللّه الحكمى و حبيش بن دلجة القينى و حسان بن مالك بن بحدل الكلبى و ميمون بن مهران و خالد ابن عبد اللّه بن خالد بن أسيد و عمر بن عبيد اللّه بن معمر و خالد بن عبد اللّه القسرى و عثمان بن الوليد و يزيد بن المهلب و المهلب بن أبى صفرة و عمرو بن هبيرة الفزارى و عبد اللّه بن أبى بكرة و القاسم بن محمد الثقفى و العباس بن الوليد و مروان بن الوليد و خالد بن كيسان و عبد اللّه ابن عقبة بن نافع و معاوية بن هشام و عبد الرحمن بن معاوية بن خديج و إسحاق بن مسلم العقيلى و نصر بن سيار و عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح و معاوية بن حديج و عبد الرحمن بن حبيب و زهير بن قيس البهلوى و حسان بن النعمان و ميسرة بن مسروق العبسى و عبد اللّه بن قيس و مالك ابن هبيرة السكونى و فضالة بن عبيد الأنصارى و سفيان بن عوف و عبد اللّه ابن مسعدة الفزارى و جنادة بن أمية الأزدى و محمد بن مالك و عمرو بن مرة الجهنى و علقمة بن يزيد الأنصارى و الضحاك بن قيس و يزيد بن شجرة و عياض بن الحارث و المخارق بن الحارث الزّبيدى و زامل بن عمر العذرى و أبو الأعور السلمى عمرو بن سفيان و سبيع بن يزيد الأنصارى و يزيد بن الحر العبسى و علقمة بن حكيم الكنانى و يوسف بن عمر و محمد بن القاسم الثقفى و مالك بن عبد اللّه الخثعمى و حمزة بن مالك الهمدانى و غيرهم.

دوّخ هؤلاء القواد الأقطار على بعد المواصلات مع مركز الخلافة و فتحوا الفتوح العظام بهمة لم تعرف الملل، و أدخلوا فيها نظامهم و عاداتهم و أداروها أى إدارة، فامتد ملك الأمويين كما قال أحد كتاب الإفرنج من أقاصى جبال هملايا فى الشرق الى أدانى جبال الألب فى الغرب، ثم انحلت هذه

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۵

المملكة المساوية تقريبا لمملكة قياصرة رومية على وجه غريب من السرعة.

و كان مروان بن محمد الجعدى الذى لقب بالحمار لصبره على الحرب من أمثل خلفائهم و كان «سديد الرأى ميمون النقيبة حازما، فلما ظهرت المسوّدة و لقيهم كان ما يدبّر أمرا إلا كان فيه خلل». فما السريا ترى فى انحلال هذا الملك الضخم و القوة تدعمه و فيه أفراد أفذاذ مثلوا النبوغ العربى أجمل تمثيل لا تستطيع دولة من دول الحضارة الحديثة أن تقوم بأحسن منه، مع اعتبار الفرق بين عصر الدولة الأموية و هذا العصر؟. نظن السر فى ذلك أن بنى العباس كانوا قد أجمعوا أمرهم و هيأوا أسباب قيام دولتهم على صورة متينة جدا، و كان منشؤها من خراسان و العراق و هما القطران اللذان أفحش القتل فيهما الحجاج بن يوسف الثقفى حتى قتل من أهل العراق مئة و عشرين ألفا مدة حكمه، و اشمأز الناس من بنى أمية بسببه و سبب من يستسهلون من قوادهم إهراق الدماء فكثرت الأحقاد و الحفائظ و نغلت نيات الأمة، و اختلف الأمويون بينهم و أصبحوا فى هرج يقتل بعضهم بعضا.

و قد نسب الخضرى أسباب سقوط دولة بنى أمية الى استيلائهم على الخلافة بالقهر و الغلبة لا عن رضا و مشورة، فإن معاوية بن أبى سفيان استعان بأهل الشام الذين كانوا شيعته، على من خالفه من أهل العراق و الحجاز حتى تم له الأمر و رضى الناس عنه، و القلوب منطوية على ما فيها من كراهية ولايته، و كان فى الأمة فريقان لا يرضيان عنه:

الخوارج و شيعة بنى هاشم، و استعمل ضروب السياسة مع رؤساء العشائر و كبار الشيعة فألان شكيمتهم و أسكن ثورتهم. و من رأيه أن معاوية زل زلة كبرى قللت من قيمة عمله و هى اهتمامه بالغض من على بن أبى طالب على منابر الأمصار هو و أمراؤه حتى تأججت النيران فى صدور شيعته و أن عدة عيوب كانت سببا فى القضاء عليهم. الأول: مسألة ولاية العهد، فإن بنى مروان اعتادوا أن يولوا عهدهم اثنين يلى أحدهما الآخر، فانشق بيتهم على نفسه. الثانى: إحياء العصبية الجاهلية التى جاء الإسلام مشددا النعىّ عليها. الثالث: تحكيم بعض الخلفاء من بنى أمية آهواءهم فى أمر قوادهم

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۶

و ذوی الأثر الصالح من شجعان دولتهم، ففسدت قلوب الناس، حتی کانوا ینتظرون من یجمع کلمتهم علی الانتقام من بنی أمیة.

و علل رفیق العظم سقوط الدولة الأمویة بارتکاب الأمویین أغلاطا منها المبالغة باضطهاد العلویین، و تسمیم أبی هاشم بأمر سلیمان بن عبد الملک، و منها أنهم فقدوا أعاظم الرجال الذین کانوا یخدمون بإخلاص، فأخرجوا خالد بن عبد اللّه و قتیبة بن مسلم و یزید بن المهلب و موسی بن نصیر ففقدت الدولة بفقدهم و فقد أمثالهم جانبا لا یقدر من قیمتها و انحطت هیبتها، و منها تباعد أطراف مملکتهم حتی تعذر ضبطها مع صعوبة المواصلات، و أن الأمویین حافظوا علی خشونتهم الی خلافة هشام، و أخذ الخلفاء بعد الولید بن یزید یمیلون الی الترف و الراحة، یضاف الی ذلک انقسام العرب فی خراسان الی مضریة و یمانیة و تنازع رؤسائهم. قال: إن ما یقوله بعض المؤرخین من ظلم الدولة الأمویة و یعزی إلیه دمارها فمبالغ فیه و ما کان منه صحیحا فهو فی نظر المؤرخ ثانوی. و الحقیقة أن الخلفاء الأمویین کانوا أشداء علی خصومهم دون سائر الناس، و کانوا فی منزلة من العنایة بالرعیة و الاهتمام بالعدل بین الناس فوق منزلة کثیر من الحکومات المطلقة.

سئل بعض شیوخ بنی أمیة عقیب زوال الملک عنهم، ما کان سبب زوال ملککم؟ فقال: جار عمالنا علی رعیتنا فتمنوا الراحة منا، و تحومل علی أهل خراجنا فجلوا عنا، و خربت ضیاعنا فخربت بیوت أموالنا، و وثقنا بوزرائنا فآثروا مرافقهم علی منافعنا، و أمضوا أمورا دوننا أخفوا علمها عنا، و تأخر عطاء جندنا فزالت طاعتهم لنا، و استدعاهم عدونا فظاهروه علی حربنا، و طلبنا أعداؤنا فعجزنا عنهم لقلة أنصارنا، و کان استتار الأخبار عنا من أوکد أسباب زوال ملکنا.

قد یغتر بعض من لم یساعدهم الوقت أن یمحصوا الحقائق لیصلوا الی لباب التاریخ الصحیح، فیأخذون روایات بعض المؤرخین الذین کتبوا بعوامل المذاهب السیاسیة أو نقلوا الأخبار علی علاتها کما رأوها فی مصادر ضعیفة و أخذوها قضیة مسلّمة، من ذلک الطعن فی أخلاق یزید بن معاویة، فإن الروایات المنقولة فی هذا الشأن لو نقدت نقدا صحیحا لرأینا أنها مدخولة

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۷

علی الأکثر أملتها أهواء الخصماء، و لطالما رأینا الناس إذا أرادوا النیل من أحد العظماء ینخدعون بأقوال یلفقها علیهم خصومهم، و ربما نسبوا لبعضهم الفسق و الفجور و أکل الأموال بالباطل، و هم من أکمل الناس أخلاقا و فضلا. إذا سلمنا أن معاویة أخطأ بحسب ما یقوله الفریق المعتدل بتوسیده الخلافة الی یزید و فی العرب یومئذ من هم أفضل منه فإنه کان یعتقد أن ابنه یصلح للخلافة و أن قوة الأمة مجتمعة علی آل أبی سفیان. و الدلیل أنه کان إذا عرض لمعاویة مشکلة من المشکلات بعث الی یزید یستعین به علی استیضاح شبهاتها و استسهال معضلاتها، فلم یکن یزید إذا بالصورة التی صورها بها أعداؤه. خطب معاویة فقال: «اللهم إن کنت إنما عهدت لیزید لما رأیت من فضله فبلغه ما أملت و أعنه، و إن کنت إنما حملنی حب الوالد لولده و أنه لیس لما صنعت به أهلا فاقبضه قبل أن یبلغ ذلک».

قال الطبری: إن یزید کان صاحب رسلة أی کسل و تهاون، و إنه کف عن کثیر مما کان یصنع أی لما وسدت إلیه الخلافة. و قال غیره:

إن یزید کان یحب الصید و یربی القرود و الکلاب مما عدوه علیه. و هذا لا یقدح فی العدالة، بل ربما کان مما یعین علی الجهاد لترویضه الجسم و الذهن، أما الفسق و الفجور فلم یثبت من طریق مؤتمن، فإذا فرضنا أن معاویة أخطأ فی إعطائه ولایة العهد لابنه بطرق استعمل فیها بعض الشدة، و أن یزید ارتکب عماله من قتل آل بیت الرسول أمرا نکرا فلا یجوز من ذلک الطعن بشخصیات کبیرة، و العقل یستبعد التصدیق بما قاله خصوم بنی أمیة عنهم، و لو کان یزید شریبا خمیرا کما یزعمون أو یرتکب أمورا لا تسمح بها الشریعة و لا تلیق بشأن الملک، و الدین، و أصحاب أصحاب رسول اللّه أحیاء، و أعداؤهم من العلویین بالمرصاد، لقتلته أسرته نفسها، کما فعلت بالولید بن یزید بعد ستین سنة من مهلک یزید بن معاویة. و الغالب أن یزید أدخل فی العادات کأبیه أشیاء أنکرها بعضهم،

و وجدوا السبيل الى الطعن فيه، و كان تعلمها من عشرته بعض أبناء الروم فى الشام.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۸

سئل عبد اللّه بن عباس عن معاوية فقال: سما بشيء أسرّه و استظهر عليه بشيء أعلنه، فحاول ما أسر بما أعلن فناله، و كان حلمه قاهرا لغضبه، وجوده غالبا على منعه، يصل و لا يقطع، و يجمع و لا يفرق، فاستقام له أمره و جرى الى مدته. قيل: فأخبرنا عن ابنه قال: كان فى خير سبيله، و كان أبوه قد أحكمه و أمره و نهاه فتعلق بذلك و سلك طريقا مذللا له. و سئل على (رض) عن بنى أمية فقال: أشدنا حجزا (صبرا) و أطلبنا للأمر لا ينال فينالونه.

الخلاف بين الأمويين و خصومهم من العلويين ما زال يقوى و يضعف، و ما هو إلا خلاف سياسى نشأ من النزاع على الملك، و ليس من الدين فى شيء. فليس إذا من العقل أن تتسلسل هذه الأحقاد فى الأمة و تتفرق شيعا، و تظهر بمظهر النصب أو التشيع، و يزكى فريق من يحبهم حتى يخرجهم عن طور البشر، و يطعن فى آخرين حتى يسلخ عنهم كل ما يمتازون به من الصفات الكاملة و يخرجوهم عن الملة. أهل الإسلام يحبون الخليفة الرابع، و يعرفون له صفات غرّا يفاخرون بها على غابر الدهر، و لكن من تحبه لا يجوز لك أن تغضى عن هفواته، أو أن تذكر لخصمه مزاياه.

أريد أن أقول: إن مسألة الخلافة بين على و معاوية قد مضى عليها الزمن، و كان لكل منهما اجتهاده، و هى من المسائل المؤلمة فى تاريخنا ينبغى لنا أن ندرسها بإنصاف لا أن نقول مع القائلين «و نسكت عما شجر بينهم»، و لا أن نبالغ فيما وقع و نتعصب لفريق على آخر، فالأمة يجب عليها أن تعرف مواطن الضعف و القوة من جسمها، و تكشف حقائق ماضيها لأنها ابنة حوادث ماضية، و الواجب فى البحث أن لا- يثير فى النفوس أحقادا، و لا ينشيء فى أجزاء الأمة فرقة متلفة، و لا يرتكب معه سوء أدب مع عظماء أسسوا مجد الأمة على أمتن الدعائم، و وضعوا بناءها على القومية العربية، و كانوا مثال التساهل مع أبناء الأديان الأخرى.

أهل الإسلام فى الشرق جديرون بأن يكونوا كأهل النصرانية فى الغرب، تحاربوا حروبا دينية سالت فيها الدماء أنهارا بين البابوى و البرتستانتى، ثم

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۳۹

جاءت القرون الحديثة فقضت على التحزبات، و صاروا فى المسائل الوطنية و القومية متلازمين تلازم اللام للألف، و إذا ذكروا ما ارتكبه أجدادهم فى هذا الشأن خجلوا و وجموا. الأمويون كالعلويين بشر يخطئون و يصيبون، فلا يليق بنا أن نغض من الأمويين لأنهم لم يتنازلوا عن ملكهم للعلويين، و لا ننكر أن إصابتهم كانت كثيرة جدا فى جنب خطيئاتهم، و أهل الشام قبل كل شعب عربى يجب عليهم أن يفاخروا بتاريخ الأمويين و يمعنوا النظر فيه طويلا، و يعرفوا أن لكل دولة كما لكل فرد ما يعدّ لها و عليها.

بنو أمية أسسوا دولة عظيمة و فتحوا الفتوح و نشروا كلمة التوحيد و بثوا اللغة العربية فى الممالك التى دوّخوها فماذا عمل خصومهم لو أنصف المتشيعون لهم؟ لم يوفقوا من قبل و لا من بعد إلا ان يدلوا على الأمة بشرفهم، و أنهم خير من أمية فى الجاهلية و الإسلام، و أن الواجب على المسلمين أن يخضعوا لهم مهما كانت حالهم لشرف هذه النسبة فقط، و لقد قامت لهم عدة دول فى أقطار مختلفة و كان مصيرها كلها الانحلال، و لذلك كان من المعقول أن لا- يغضّ من قدر العاملين خصوصا من كانت حسناتهم تربو على سيئاتهم، إن كان هناك ما يتجوز فى تسميته سيئات.

الملك لا يقوم بالزهد و التقوى و لزوم المساجد و الخطب و الحماسة و الإدلال بصفات طبيعية اتصف بها صاحبها. الملك يحتاج كما كان الأمويون الى بذل و تسامح و تماسك و عمل نافع بعيد عن الدعوى. فى الصفات الأولى تتمثل حالة العلويين، و فى الثانية تتمثل حالة الأمويين.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۰

دور الدولة العباسية الى ظهور الدولة الطولونية من سنة ۱۳۲- ۲۵۴ ه

مبدأ الدعوة العباسية:

كانت دولة الأمويين الشرقية، كدولة الخلفاء الراشدين، عربية إسلامية صرفة، لم تنتشر كلمتها، و لم تتوزع سلطتها، أما الدولة العباسية فكانت دولة عناصر، و الحاكم فيها العنصر العربى أو من دخل فى خدمته و طاعته من الفرس و الترك و الديلم و الموالى، و لقد قال المؤرخون:

فى دولة بنى العباس افترقت كلمة الإسلام، و سقط اسم العرب من الديوان، و استولت الديلم ثم الأتراك، و صارت لهم دولة عظيمة، و انقسمت ممالك الأرض عدة أقسام، و صار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف، و يملكهم بالقهر.

كان أهل البيت بعد وفاة الرسول عليه الصلاة و السلام يعتقدون أنهم أحق بالأمر، و أن الخلافة لرجالهم دون سواهم من قريش، فكانوا يرون فى بنى أمية غاصبين حقهم فى الخلافة، فبدأوا يدعون سرا لذلك منذ وقعت الحرب بين على و معاوية فى صفين و تنازل الحسن بن على لمعاوية بن أبى سفيان على الخلافة. فكان معاوية على ما رزق من صدر رحب «يروض من شماس أهل البيت، و يسامحهم فى دعوى تقدمهم و استحقاقهم، و لا يهيج أحدا منهم بالتثريب عليه فى ذلك». و كان

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۱

خلفاؤه من صلبه أو من بنى مروان يعمدون الى القسوة على القائمين بالدعوة لآل البيت تارة و الى الإغضاء زمن العجز طورا، و كان شيعة علىّ مقهورين، و أقاموا على شأنهم و انتظار أمرهم و الدعاء لهم فى النواحى، يدعون للرضا من آل محمد و لا يصرحون بمن يدعون له حذرا عليه من أهل الدولة.

و كان شيعة محمد بن الحنفية أكثر شيعة أهل البيت يرون أن الأمر بعده لابنه أبى هشام عبد اللّه و كان كثيرا ما يغدو على سليمان بن عبد الملك فى الشام. فمرّ فى بعض أسفاره بمحمد بن على بن عبد اللّه بن عباس بمنزله بالحميمة فنزل عليه و أدركه المرض عنده فمات و أوصى له بالأمر.

و قد كان أعلم شيعته بالعراق و خراسان أن الأمر صائر الى ولد محمد ابن على هذا، فلما مات قصدت الشيعة محمد بن على و بايعوه سرا و بعث الدعاة منهم الى الآفاق فأجابه عامة أهل خراسان، و بعث عليهم النقباء و تداول أمرهم هنالك، و توفى محمد سنة أربع و عشر و مئة و عند لابنه إبراهيم و أوصى الدعاة بذلك، و كانوا يسمونه الإمام و هو الذى دعا إليه أبو مسلم الخراسانى صاحب الدعوة.

عند تمام المئة سنة صحت نية بنى العباس على تأليف جمعية سرية تدعو لهم، و بث فى الآفاق بغض بنى مروان و بلفظ أعم بنى أمية.

و كانت الدعوة مقبولة فى العراق و خراسان عند كل من تعرض عليه.

و رأس الدعوة فى أرض الشام مهد عصبية الأمويين و فروعها فى خراسان.

فانبثت دعوة العباسيين من قطر وسط بين الأقطار العربية و هو الشام لقرب اتصالها مع الأقطار الأخرى و لا سيما بالعراق ثم بخراسان، و لم تقم الدولة من الحجاز لأنه بعيد عن القاصية تحيط به من جهاته الثلاث صحار و بواد محرقة، و الاستناد على أهل الحجاز كالاستناد على أهل العراق لا يخلو من أخطار. فقد أراد أهل المدينة أن لا يبايعوا يزيد بن معاوية بالخلافة، فضربهم ضربة قاضية، و لم يستطع أن ينجدهم أحد من العراق أو اليمن لبعد الشقة. و خذل أهل العراق عليا و ابنه الحسين، فلم يتمكن أهل الحجاز و اليمن أن ينجدوا آل البيت فوقع ما وقع.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۲

كان دعاة آل البيت يغدون من الحميمة و قيل: من كرار من جبال الشراة فى الشام و بنو أمية غافلون عنهم و خليفة المستقبل الذى يدعى له على أيام من دار ملكهم كبعض الرعية، و الناس فى خراسان يصدرون عن أمره و يقدسون خلافته، و كأن الأقدار خصت الشام بقيام دولتين عظيمتين فيه الأموية و العباسية، و كانت عصبية الأمويين أهل الشام و عرب الحجاز و اليمن، و عصبية العباسيين

أهل خراسان و العراق و قيس، و من أهم العوامل فى نجاح بنى هاشم فى دعوتهم الجديدة، اتفاقهم مع الطالبيين على هذا المقصد، و هو نزع الخلافة من بنى مروان، فكان البيتان لأول الأمر كأنهما بيت واحد، و لذلك أثمرت الدعوة سريعا.

بعد نيف و ثلاثين سنة من الدعوة لأبناء العباس و ربما قبل ذلك بقليل انتبه الأمويون فى الشام الى مقاصد أعدائهم، و أنهم فى صدد تأسيس دولة للقضاء على دولة الأمويين، و فى ذلك دليل ظاهر على ضعف أصحاب الأخبار فى أيامهم، و على تساهلهم و عنايتهم بتدويخ الأقاصى و الغفلة عن أحوال الدوانى، أبلغ ذلك مروان بن محمد الجعدى آخر خلفاء بنى أمية عامله على خراسان نصر بن سيار و قد كتب إليه:

أرى تحت الرماد و ميض جمرو يوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالعودين تذكىو إن الشر مبدؤه الكلام

و قلت من التعجب ليت شعرىأ أيقاظ أمية أم نيام

فإن يقظت فذاك بقاء ملكو إن رقدت فإنى لا ألام

فإن يك أصبحوا وثووا نيامافقل قوموا فقد حان القيام

فكتب مروان الى عامله بدمشق الوليد بن معاوية يأمره بتوجيه أحد ثقاته الى الحميمة أو كرار ليأتيه بإبراهيم الإمام، فحمله الى مروان فحبسه فى المحرم من سنة ۱۳۲ و قتل فى محبسه بعد شهرين، و عهد بالأمر بعده الى أخيه أبى العباس عبد اللّه بن محمد و هو ابن الحارثية أول خلفاء بنى العباس نسبة الى جده الأعلى على أبو محمد السجاد بن عبد اللّه بن العباس عم النبى صلى اللّه عليه و سلم.

قتل إبراهيم الإمام فكان قتله داعيا الى التعجل بالمناداة علنا بالخلافة العباسية. و ذلك أن إبراهيم الإمام لما قبض

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۳

عليه مروان نعى نفسه الى أهل بيته، و أمرهم بالسير الى أهل الكوفة مع أخيه السفاح و بالسمع له و الطاعة، و أوصى بالخلافة الى أخيه السفاح و أوصاه بالقيام بالدولة و الجد و الحركة، و أن لا يكون له بعده بالحميمة لبث و لا عرجة حتى يتوجه الى الكوفة، فإن هذا الأمر صائر إليه لا- محالة، و أنه بذلك أتتهم الرواية و أظهره على أمر الدعاة بخراسان و النقباء، رسم له فى ذلك رسما أوصاه أن يعمل عليه و لا- يتعداه. فسار السفاح بأهل بيته منهم أخوه أبو جعفر المنصور و غيره الى الكوفة فأقام فيها شهرا مستخفيا ثم ظهر و سلموا عليه بالخلافة و عزوه فى أخيه إبراهيم الإمام و دخل دار الإمارة. و فى خلال ذلك زاد نفور المتطلعين الى العباسيين من أهل خراسان و العراق، و ذكر الناس شدة بنى مروان فى الضرب على أيدى كل من خالفهم، و كان الناس منذ أمد طويل يتمنون لو يديلهم اللّه بغيرهم و إن كانوا دونهم، فكيف ببنى العباس و منزلتهم من الشرف منزلتهم. و البشر ميال الى التجدد و لكل جديد طلاوة.

و من الغريب على ما قال الطقطقى أنه لما قدر انتقال الملك الى بنى العباس، هيئت لهم جميع الأسباب، فكان إبراهيم الإمام بالحجاز أو بالشام جالسا على مصلاه مشغولا بنفسه و عبادته و مصالح عياله، و ليس عنده من الدنيا طائل، و أهل خراسان يقاتلون عنه، و يبذلون نفوسهم و أموالهم دونه، و أكثرهم لا يعرفه، و لا يفرق بين اسمه و شخصه، لا ينفق عليهم مالا، و لا يعطى أحدهم دابة و لا سلاحا، بل يجبون إليه الأموال، و يحملون إليه الخراج كل سنة، و لما خذل مروان و أشرف ملك بنى أمية على الانقراض، كان مروان خليفة مبايعا و معه الجنود و الأموال و السلاح، و الدنيا بأجمعها عنده، و الناس يتفرقون عنه، و أمره يضعف، و حبله يضطرب، فما زال يضمحل حتى هزم و قتل.

و الثوب إن أنهج فيه البلىأعيى على ذى الحيلة الصانع

فتح العباسيين عاصمة الأمويين:

اضطرب نظام المملكة الأموية على عهد مروان بن محمد، و كانت

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۴

كلما عراها الضعف و الانحلال، يزيد خصوم الأمويين شدة و قوة. و لما بويع بالخلافة لأبى العباس بالكوفة كانت جيوش خراسان تطارد جيوش الأمويين مطاردة، و ينتشر سلك الملك على صورة مستغربة. و لم يكد العراق يدخل فى طاعة العباسيين، حتى ولى أبو العباس عمه عبد اللّه بن على الشام فسار من حران الى منبج و قد سوّد أهلها، و بعث إليه أهل قنسرين ببيعتهم ثم سار حتى نزل حمص ثم سار الى بعلبك ثم جاء عين جر، و كان مروان بن محمد آخر الأمويين لما انهزم على الزاب أتى من حرّان الى حمص بأهله، فجاء عبد اللّه بن على الى حمص فرحل مروان عنها الى دمشق، فتبعه فهرب الى فلسطين فى بقايا جيشه، و هناك جيش جيشا آخر، و كان اجتمع للأمويين فى دمشق جيش قدّر بخمسين ألف مقاتل. و كان جيش عبد اللّه بن على لا يمر ببلد إلا و يخرج أهلها مسوّدين أى حاملين شعار العباسيين و هو السواد يبايعونهم عن رضى، هذا و جيشه أقل من ثلث جيش مروان المنهزم و ربما كان الربع. فلما جاء عبد اللّه بن على دمشق من ناحية المزّة نزل بها يومين، ثم جاءه أخوه صالح بن على فى ثمانية آلاف مددا من السفاح على طريق السماوة، فنزل صالح بمرج عذراء ثم نزل على باب الجابية، و نزل عبد اللّه بن على على الباب الشرقى، و نزل أبو عون على باب كيسان، و بسام على الباب الصغير، و حميد بن قحطبة على باب توماء، و عبد الصمد و يحيى ابن صفوان و العباس بن يزيد على باب الفراديس، فحاصروها أياما ثم افتتحها يوم الأربعاء لعشر خلون من رمضان (۱۳۲)، أى بعد ستة أشهر من مبايعة أبى العباس السفاح بالخلافة فى مدينة الكوفة.

أباح الفاتح دمشق ثلاث ساعات، و قيل: أنهبها ثلاثة أيام، و وضع السيف فى أهلها، و لم يزل جماعته يحزون الرؤوس فى الطرق و المنازل، و يأخذون الأموال، حتى جاء الظهر فأمر برفع السيف، و قتل والى المدينة فيمن قتل من الأمراء و العلماء فى المسجد الجامع. و ممن صلب عبد اللّه بن عبد الجبار. و دخلت أباعر العباسيين الى صحن الجامع الأموى و ظل إصطبلا لدوابهم و جمالهم سبعين يوما، و قتل يومئذ على روايه

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۵

المنبجى من النصارى و اليهود خلق كثير، و نبشت قبور بنى أمية فى دمشق و غيرها و أحرقوهم بالنار، و لم يبقوا على غير قبر عمر بن عبد العزيز فى دير سمعان، اعترافا بفضله و تقواه، و نقضوا سور دمشق حجرا حجرا.

قيل: إن أهل دمشق لما حاصرهم عبد اللّه بن على، اختلفوا فيما بينهم ما بين عباسى و أموى، و قيل: وقعت بينهم العصبية فى فضل اليمن على نزار، و نزار على اليمن، حتى اقتتلوا، فقتل بعضهم بعضا، و ذكروا أنه قتل فيها فى هذه المدة نحو من خمسين ألفا. و لما جاءها عبد اللّه ابن على و حاصرها فضيق حصارها، بلغ بالناس الجهد فاستغاثوا، و وجهوا إليه يحيى بن بحر يطلب لهم الأمان، فخرج إليه فسأله الأمان، فأجابه إليه فدخل فنادى فى الناس بالأمان، ثم قال له يحيى بن بحر: اكتب لنا أيها الأمير كتاب الأمان، فدعا بدواة و قرطاس، ثم ضرب ببصره نحو المدينة، و إذا بالسور قد غشيه المسوّدة عسكر بنى العباس فقال له:

قد دخلتها قسرا. فقال يحيى: لا و اللّه و لكن غدرا. فقال عبد اللّه:

لو لا ما أعرف من مودتك لنا أهل البيت لضربت عنقك، إذ استقبلتنى بهذا، ثم ندم فقال: يا غلام خذ هذا العلم فأركزه فى داره، و ناد من دخل دار يحيى بن بحر فهو آمن، فانحشر الناس إليها، فما قتل فيها، و لا فى الدور التى تليها أحد، و نادى المنادى بعد أن قتل خلق كثير:

الناس آمنون إلا خمسة: الوليد بن معاوية، و يزيد بن معاوية، و أبان ابن عبد العزيز، و صالح بن محمد، و محمد بن زكريا.

و صار عبد اللّه بن على الى المسجد فخطبهم خطبته المشهورة، التى يذكر فيها بنى أمية، و جورهم و عداوتهم، و يصف ما استحلوا من المحارم و المظالم و المآثم، قال ما يقوله العدو فى عدوه. و أى عداوة أعظم من عداوة المتنازعين على الملك و السلطان، و بينهم

الطوائل و الأحقاد القديمة و الجديدة؟ و هذه الخطبة أشبه بكلام العلويين فى الأمويين، و الأمويين فى العلويين، يقصد بها إثارة النفوس، لينزع منها حب الدولة السالفة، و يفسح مجال الأمانى للناس و يرغبوا فى الدولة الخالفة.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۶

فتح فلسطين و إهلاك رجال الأمويين:

أقام عبد اللّه بن على فى دمشق خمسة عشر يوما، رويت خلالها سيوفه من أعداء دولته، ثم سار وراء مروان بن محمد فى خمسين ألف مقاتل، و أخذ الوليد بن معاوية بن عبد الملك و عبد الجبار بن يزيد بن عبد الملك، فحملهما الى أبى العباس السفاح، فقتلهما و صلبهما بالحيرة، و أمر أبو العباس عمه عبد اللّه بن على أن يجدّ السير نحوها، و هنأه بما أصاب من أموال بنى أمية، فسار يريد فلسطين فنزل نهر الكسوة و وجه منها يحيى بن جعفر الهاشمى الى المدينة، ثم ارتحل الى الأردن فأتوه و قد سودوا، ثم نزل بيسان، و منها سار الى مرج الروم فنهر أبى فطرس، و لما قدم فلسطين أظهر للناس أن أمير المؤمنين وصاه ببنى أمية، و أمره بصلتهم و إلحاقهم فى ديوانه و ردّ أموالهم عليهم، فقدم عليه من أكابر بنى أمية و خيارهم ثلاثة و ثمانون رجلا، و فى رواية الطبرى أنهم كانوا اثنين و سبعين رجلا و قد أعد لهم مجلسا على نهر العوجاء فيه أضعافهم من الرجال و معهم السيوف و الأجرزة، فأخرجهم عليهم فقتلهم و سحبوا، و طرحت عليهم البسط و جلس عليها، و دعا بالطعام فأكل و جماعته، و ما زال بعض القتلى يئن، و قال: يوم كيوم الحسين بن على و لا سواء.

و كان فى جملة قتلاه عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك، و كان قد بذّ العابدين فى زمانه، و سبق المجتهدين فى عصره، و اتخذ أموالا معجبة، تطرد فيها المياه و العيون، فقتله، ثم استقصى ماله و مال من قتل من سادات بنى أمية و صناديدهم، و منهم من قتلوا لأنهم أبوا أن يصيروا أموالهم الى السفاح. و قد قتل فى قلنسوة شمالى العوجاء بعض بنى أمية.

و قصارى القول أن فاتح الشام للعباسيين بطش فى الأمويين و من والاهم من أهل هذه الديار بطش الجبارين. و سار من الجور سيرة لم يسرها أحد قبله.

تتبع العباسيون بنى أمية فى الحجاز و العراق فقتلوا منهم أناسا كثيرين و لم يفلت إلا أفراد، منهم عبد الرحمن بن معاوية الذى فر الى الأندلس و هناك أقام الخلافة الأموية الغربية، فدامت مائتين و ثمانى و ستين سنة،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۷

و لم تطل إليه و لا إلى آله أيدى العباسيين حتى انقرضت دولتهم. و منهم من فرّ الى الحبشة، و بقى فيها هو و ذريته الى خلافة المهدى العباسى.

و بعد مقتل بنى أمية و اشتداد خوفهم، و تشتت شملهم، و اختفاء من قدر على الاستتار منهم، أصدر السفاح الى سليمان بن على كتابا عاما الى البلدان يعطى فيه الأمان للأمويين. فكان هذا أول أمان بنى أمية.

و كان سليمان بن على كتب الى السفاح أنه وفد وافد من بنى أمية علينا، و أنا إنما قتلناهم على عقوقهم لا على أرحامهم، فإننا يجمعنا و إياهم عبد مناف و الرحم تبلّ (توصل) و لا تقطع، و ترفع و لا توضع.

انتقاض الجنوب و الشمال و الاعتقاد بالسفيانى:

لما أفنى بنو العباس بنى أمية فى فلسطين ندمت عرب الشام على ما فعلت لما ركبهم من العار، و تسليط العجم من أبناء خراسان عليهم، ينزلون منازلهم، و يأخذون أموالهم، فهاجت لذلك و اضطربت، و امتنعوا من البيعة. و فى السنة التى دخل فيها العباسيون أرض الشام، بيّض حبيب ابن مرة المرىّ، و أهل حوران و البثنيّة، و مدينتها أذرعات، أى لبس شعار الأمويين و هو البياض، و نصب رجلا من

بنی أمیة، فقاتلهم عبد اللّه ابن علی بأرض البلقاء و البثنیة و حوران، و کان بینه و بینهم وقعات.

و حبیب بن مرة من قواد مروان و فرسانه. و کان سبب تبییضه الخوف علی نفسه و قومه، فبایعه قیس و غیرهم ممن یلیهم من أهل تلک الکور، فلما بلغ عبد اللّه بن علی تبییض أهل قنسرین فی الشمال، دعا حبیب بن مرة الی الصلح و أمنه و من معه.

و کان الداعی الی خلع قنّسرین طاعة بنی العباس، قائد من قواد مروان أیضا اسمه أبو الورد الکلابی و کان دخل فی طاعتهم، ثم نزع الطاعة لما قدم أحد قواد عبد اللّه بن علی الی بالس و الناعورة، و أنشأ یعبث بولد مسلمة بن عبد الملک و نسائهم، فشکا بعضهم ذلک الی أبی الورد، و کان قد اجتمع معه جماعة من أهل قنّسرین و کاتبوا من یلیهم من أهل حمص و تدمر، فقدم منهم ألوف علیهم أبو محمد زیاد بن عبد اللّه بن

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۸

خالد بن یزید بن معاویة بن أبی سفیان و دعوا إلیه. و قالوا هذا السفیانی الذی کان یذکر.

و الغالب أن أنصار الأمویین وضعوا بعد سقوط دولتهم ملحمة زعموا فیها أنهم یعرفون ما یحدث فی المستقبل من الزمان و الآتی من الأیام، من ظهور أمرهم و رجوع دولتهم، و ظهور السفیانی فی الوادی الیابس من أرض الشام، فی غسان و قضاعة و لخم و جذام و غاراته و حروبه، و مسیر الأمویین من بلاد الأندلس الی الشام، و أنهم أصحاب الخیل الشهب و الرایات الصفر، و ما یکون لهم من الوقائع و الحروب و الغارات و الزحوف، علی ما نقله المسعودی. و الاعتقاد بظهور السفیانی کما قال صدیقنا أحمد تیمور باشا یشبه الاعتقاد بظهور المهدی و یروون فیه أحادیث و أقاصیص اللّه أعلم بها. و فی البدء و التاریخ أن الروایات بشأن السفیانی فیها حشو کثیر و محالات مردودة. و مسألة السفیانی تدبیر للأمویین حتی لا ینقطع الأمل من رجوع دولتهم و یخیفوا أعداءهم علی الدوام. و ربما کانت دعوی قرب ظهور السفیانی أیضا واسطة لفتک العباسیین بکل من توهموا فیه شیئا من الرائحة السفیانیة و لم تکد تنقطع هذه النغمة فی الشام.

و فی سنة ۲۹۴ زعم رجل أنه السفیانی فحمل هو و جماعة معه من الشام الی باب السلطان فقیل إنه موسوس.

کان أتباع زیاد فی نحو أربعین ألفا فعسکروا بمرج الأخرم بنواحی سلمیة و دنا منهم عبد اللّه بن علی و وجه إلیهم أخاه عبد الصمد بن علی فی عشرة آلاف. و کان أبو الورد هو المدبر لعسکر قنّسرین و صاحب القتال، فناهضهم و کثر القتل فی الفریقین، و انکشف عبد الصمد و من معه و قتل منهم ألوف، و لحق بأخیه عبد اللّه فأقبل عبد اللّه معه و جماعته القواد، فالتقوا ثانیة بمرج الأخرم فاقتتلوا قتالا شدیدا و ثبت عبد اللّه فانهزم أصحاب أبی الورد و ثبت هو فی نحو من خمسمائة من قومه و أصحابه فقتلوا جمیعا، و هرب أبو محمد و من معه حتی لحقوا بتدمر، و أمّن عبد اللّه أهل قنّسرین و سوّدوا و بایعوه و دخلوا فی طاعته، ثم رجع الی دمشق و کان قد خرج من بها عن الطاعة أیضا، و نهبوا أهل عبد اللّه بن علی، فلما

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۴۹

دنا عبد اللّه من دمشق هربوا ثم أمّنهم، قال المؤرخون: إن العباسیین قتلوا من الشامیین ما لا یحصی، ثم أذکوا العیون علی الأمویین یقتلون رجالهم و نساءهم، و ینبشون عن قبورهم فیحرقونهم، فمن ثم سمی عبد اللّه ابن محمد بن علی السفاح و فیه یقول الشاعر:

و کانت أمیة فی ملکهاتجول و تظهر طغیانها

فلما رأی اللّه أن قد طغتو لم تطق الأرض عدوانها

رماها بسفاح آل الرسولفجزّ بکفیه أذقانها

انتقاض العباسیین علی أنفسهم:

هذا ما کان من أمر من خلعوا طاعة بنی العباس من عصبیة بنی أمیة فی الجنوب و الشمال، و لم یکن أثر تلک العصبیة قد زال علی

شدة العباسيين فى قطع شأفة الأمويين. و لما هلك أبو العباس السفاح، قام عمه عبد اللّه ابن على عامل الشام، يدعو الى نفسه بالخلافة، و قد استمال من معه من جنود خراسان فمالوا معه، و كان صالح بن على بمصر على طاعة أبى جعفر، فلما بلغه أن عبد اللّه بن على، قد خلع أبا جعفر و أنه قد عزم على حربه أقبل بمن معه من أهل خراسان، منكرا لفعل عبد اللّه بن على، حتى لقى الحكم بن ضبعان الجذامى، و مع الحكم خلق كثير من أهل الشام فى طاعة عبد اللّه بن على، فهزمهم صالح باللجون و قتل منهم ناسا كثيرا و أفلت الحكم حتى أخذه بعد يزيد بن روح اللخمى بأرض بعلبك، و كان يزيد عاملا لصالح بن على ببعلبك، فضرب عنق الحكم و بعث برأسه الى صالح بن على، و نقل يزيد بن روح عند قتله الحكم بن ضبعان الى ولاية دمشق. هذه رواية ابن عساكر، و قال غيره: إن صالح بن على لما جاء فلسطين من مصر طلب أحياء العرب، و جعل يذبحهم حتى أتى على آخرهم و انتهب أموالهم و مواشيهم.

و علل صاحب البدء و التاريخ خروج عبد اللّه بن على، على أبى جعفر بقوله: إنه لما مات أبو العباس، ادعى الخلافة عبد اللّه بن على و بايعه أهل الشام و الجزيرة، و ذلك أن أبا العباس لما ظهر أمره، وضع سيفا

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۰

و قال: من تقلد هذا السيف و سار الى مروان فقاتله فله الخلافة بعدى، فتحاماه الناس و قام عبد اللّه بن على فتقلده، و سار فقاتل مروان فقتله، فلما مات أبو العباس قام بالخلافة و بايعه الناس على ذلك، و كان أجلدهم و أشجعهم، فهال ذلك أبا جعفر و استشار أبا مسلم فقال:

الرأى أن تعاجله و لا تتأنى به، و كان عبد اللّه بن على فى مائة ألف مقاتل و مائة ألف من الفعلة، و حفر الخندق من جبل نصيبين الى نهرها، و جعل فيه ما يحتاج إليه من العدة و الآلة، و نصب المجانيق و العرّادات و بث الحسك، و سدّ الطريق على من يقصده من العراق، و جعل الخصب و القرى وراءه.

و لما وجه أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراسانى قال له: أيها الرجل إنما هو أنا أو أنت. فإما أن تسير الى الشام، فتصلح أمرها أو أسير أنا. قال أبو مسلم: بل أسير أنا. فاستعد فى اثنى عشر ألفا من أبطال جنود خراسان، حتى إذا وافى الشام انحاز إليه من كان بها من الجنود جميعهم، و بقى عبد اللّه بن على وحده، فعفا أبو مسلم عنه، و لم يؤاخذه بما كان منه و قيل: بل أسره و حمله الى أبى جعفر، فخلّده الحبس الى أن مات، و هذا هو الأصح؛ و أبو مسلم من أقرب الناس الى سفك الدماء، و قد قتل فى دولته ستمائة ألف إنسان، و لكنه تحامى أن يقتل عم الخليفة، و اكتفى من عقوبة الثائر بالاستيلاء على خزائنه، و كانت عظيمة، لأنه استولى كما تقدم على ذخائر خلفاء بنى أمية و نعمتهم، و ذلك بعد حروب كثيرة فى أرجاء نصيبين فى الموضع المعروف بدير الأعور، و صبر الفريقان شهورا على حروبها. و مع هذا تعاقب على حلب كثير من ولد عبد اللّه بن على بن العباس نحو مئة سنة. و كان هوى أهل الشام مع عبد اللّه بن على يوم قام على المنصور، فلما هزم عبد اللّه عفا المنصور عن الشاميين، و كان العباسيون كالأمويين يولون فى مبدإ أمرهم الولايات لآل بيتهم و أولياء عهد الخلافة.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۱

نزع اللبنانيين و الفلسطينيين طاعة العباسيين:

و من كوائن هذا الدور ما وقع فى سنة ۱۳۵ من نهب المقدم الياس فى لبنان البقاع و نهب قراها و أهلها، فأرسل والى الشام من قبل أبى العباس إليه رسلا لعقد الصلح، ثم هاجمه فى قرية المرج و قتله، و بعد رجوع عسكر الشام، رجع أصحابه و دفنوه بقرب الجامع الذى فى القرية.

ثم أقيم مقدما على الجيش سمعان ابن أخت المقتول فسارت إليه عساكر الشام، و كانت الحرب بينهم فى قرية الشوير، فانكسر العسكر الشامى و ارتد راجعا، و دام القتال على ما فى تواريخ الموارنة بين عساكر المسلمين و نصارى تلك الكورة مدة طويلة.

و يقول البلاذرى: إنه خرج قوم بجبل لبنان شكوا عامل خراج بعلبك، فوجه صالح بن على من قتل مقاتلتهم و أقرّ من بقى منهم على دينهم، و ردهم الى قراهم، و أجلى قوما من أهل لبنان. و قد كتب الإمام الأوزاعى الى صالح رسالة طويلة فى تخطئته فى طريقته التى سار عليها فى مقاتلة اللبنانيين، حفظ منها ما يأتى: و قد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان، ممن لم يكن لهم ممالئا لمن خرج على خروجه، ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم الى قراهم، ما قد علمت، فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة، حتى يخرجوا من ديارهم و أموالهم؟ و حكم اللّه تعالى «أَلَّا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى» و هو أحق ما وقف عنده، و اقتدى به و أحق الوصايا أن تحفظ و ترعى وصية رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم فإنه قال: من ظلم معاهدا و كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه. ثم ذكر كلاما.

روى ابن عساكر أن الروم دخلوا طرابلس فى زمان واليها رباح بن عثمان لصالح بن على أمير الشام و مصر، ثم ظهر رجل من أهل المنيطرة، و ذلك فى سنة اثنتين أو سنة ثلاث و أربعين و مائة، و سمى نفسه الملك، و لبس التاج و أظهر الصليب و اجتمع عليه أنباط جبل لبنان و غيرهم، ثم استفحل أمرهم فسبوا بعض قرى البقاع، فقتلوا المسلمين و أخذوا ما وجدوا و كتب بندار

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۲

الملك الى أهل بعلبك يعلمهم بمصيرهم و يأمرهم بقتالهم، فتأهبوا و قاتلوهم فى أسفل جبل لبنان، ثم أظهروا الهزيمة فأمعنوا فى الطلب، فلما بعدوا عن الجبل كرّت عليهم خيل بعلبك، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، و انهزم بقيتهم، ثم هاجموهم فى قلعتهم فظهروا عليهم و امتلكوها منهم، و هرب بندار الى ملك الروم، فكتب حينئذ صالح بن على يأمر بإخراج من بقى فى الجبل، و تفريقهم فى كور الشام. و صالح بن على من أعظم رجال العباسيين هو الذى كسر الروم فى نوبة مرج دابق و كانوا فى مئة ألف أو يزيدون. و بعد صالح بن على وجه أبو جعفر المنصور محمد بن الأشعث الى الشام، و كتب إليه أن يخرج عمال صالح بن على، فجهزه و عقد له و ضم إليه من قواده جماعة، و كتب أمير المؤمنين الى صالح بن على أن يسلم دمشق الى محمد بن الأشعث، فأتاها فأقام بها مدة، ثم أتاه كتاب أمير المؤمنين يأمره أن يسير الى الأردن و يخرج عمال صالح بن على من الأردن و البلقاء و فلسطين فأخرجهم.

قيس و يمن و الفتن الداخلية و الخارجية:

و فى سنة ۱۶۸ نقض الروم الصلح، فوجه على بن سليمان و هو يومئذ على الجزيرة و قنّسرين يزيد بن بدر فى سرية الى الروم، فغنموا و ظفروا.

و لم يغفل العباسيون عن غزو الروم الصوائف و غيرها على مثال بنى أمية.

و فى هذه السنة رد المهدى ديوان أهل بيته من دمشق الى المدينة. و من الفتن فتنة سنة ۱۷۶ هاجت بدمشق بين المضريين و اليمانيين، و كان على دمشق عبد الصمد، فسعى الرؤساء فى الصلح فأجاب بنو القين، و استمهلت اليمانية ثم ساروا الى بنى القين و قتلوا نحو ستمائة، فاستنجدت بنو القين قضاعة و سليحا فأبوا، فاستنجدوا قيسا فساروا معهم الى الصواليك، من أرض البلقاء، فقتلوا من اليمانية ثمانمائة، و كثر القتل منهم، ثم عزل الرشيد عبد الصمد عن دمشق، و ولاها إبراهيم بن صالح، و كان هواه مع اليمانيين، و استخلف إبراهيم على دمشق ابنه إسحاق فحبس جماعة من قيس و ضربهم، ثم و ثبت غسان برجل من ولد قيس العبسى فقتلوه، و استنجد

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۳

أخوه بالزواقيل (اللصوص) من حوران فأنجدوه، و قتلوا من اليمانية نفرا. قال ابن كثير فى حوادث سنة ۱۷۶ إنه وقعت فتنة بين النزارية و اليمانية، و هذا كان بدء العشران بحوران و هم قيس و يمن، أعادوا ما كانوا عليه فى الجاهلية فى هذا الأوان، فقتل منهم بشر كثير، فلما تفاقم الأمر بعث الرشيد من جهته موسى بن يحيى و معه جماعة من القواد و رؤوس الكتاب، فأصلحوا بين الناس و هدأت الفتنة، و استقام أمر الشام، و حملوا جماعات من رؤساء الفتنة الى مدينة السلام، فرد أمرهم الرشيد الى عامله خالد فعفا عنهم و أطلقهم ففى ذلك يقول بعض الشعراء:

قد هاجت الشام هيجايشيب رأس وليده

و صبّ موسى عليهابخيله و جنوده

فدانت الشام لماأتى نسيج وحيده

دامت هذه الفتنة نحو سنتين، و سببها فيما قيل أن رجلا من بنى القين قطع بطيخة من حائط بالبلقاء لرجل من لخم أو جذام. و فى رواية أن الفتنة لما هاجت بالشام بين النزارية و اليمانية، و ولى الرشيد سنة ۱۷۶ موسى بن يحيى الشام جميعه، أقام به سنتين حتى أصلح بينهم. قال ابن الأثير: إن سبب هذه الفتنة بين المضرية و اليمانية، و رأس المضرية أبو الهيذام عامر بن عمارة أحد فرسان العرب المشهورين، أن عاملا للرشيد بسجستان قتل أخا لأبى الهيذام فخرج أبو الهيذام بالشام و جمع جمعا عظيما. و هذا السبب أرجح إذ لا يعقل أن تنشب الفتنة بين قبيلين من أجل بطيخة قطعت من بستان. أما أبو الهيذام فاستولى على دمشق، و قاتل فى قومه فهزم أكثر الجيوش التى قابلته، و كان معه فريق كبير من أعراب الشام.

و فى سنة ۱۸۰ تفاقم أمر هذه الفتن، فعقد الرشيد، أيام عصبية أبى الهيذام، لجعفر بن يحيى البرمكى على الشام، فأتاهم و أصلح بينهم و قتل المتلصصة منهم، و لم يدع بها محاربا و لا فارسا، فعادوا الى الأمن و الطّمأنينة و قال بعض الشعراء فى ذلك:

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۴ لقد أوقدت بالشام نيران فتنةفهذا أوان الشام تخمد نارها

إذا جاش موج البحر من آل جعفرعليها جنت شهبانها و شرارها

رماها أمير المؤمنين بجعفرو فيه تلاقى صدعها و انجبارها

رماها بميمون النقيبة ماجدتراضى به قحطانها و نزارها

و فى سنة ۱۸۷ ثارت العصبية أيضا بالشام بين المضرية و النزارية و جمعوا جموعا كثيرة، و كانت بينهم فى ذلك فتن قتل فيها من المضرية نحو من خمسمائة، و الوالى على دمشق شعيب بن حازم، قال ابن عساكر: و ذكروا منه تعصبا فوجه أمير المؤمنين الرشيد محمد بن منصور بن زياد الى أهل دمشق، و أمره بدعاء الفريقين جميعا الى الرجوع عما هم عليه، على أن يحمل من بيت ماله ما كان بينهم من الدماء و يعفو عنهم و يولى من أحب الفريقان، فأطفئت الفتنة. و فى سنة ۱۸۸ كان غزو إبراهيم بن جبريل الصائفة، أدرب من درّب الصفصاف فيما ذكر أربعون ألفا و سبعمائة.

الحمصيون و فتنة السفيانى:

و فى سنة ۱۹۰ وثب أهل حمص بواليهم فخرج الرشيد نحوهم، فلما صار بمنبج لقيه وفدهم يعطون بأيديهم فعفا عنهم. و فى سنة ۱۹۱ خرج أبو النداء بالشام، فوجه الرشيد فى طلبه يحيى بن معاذ، و عقد له على الشام.

و فيها نقض أهل قبرس العهد فغزاهم معيوف بن يحيى فسبى أهلها.

و فى سنة ۱۹۴ اختلف أهل حمص مع عاملهم إسحاق بن سليمان، فانتقل عنهم الى سلمية فعزله الأمين، و استعمل مكانه عبد اللّه بن سعيد الحرشى، فقاتل أهل حمص حتى سألوا الأمان فأمنهم، ثم هاجوا فضرب أعناق عدة منهم. و فى سنة ۱۹۵ أى فى أيام الخليفة الأمين، ظهر بالشام السفيانى على بن عبد اللّه بن خالد بن يزيد بن معاوية الملقب بأبى العميطر (كسفرجل) لأنه زعم أنها كنية الحرذون فلقبوه به، و كان من بقايا بنى أمية بالشام، و من أهل العلم و الرواية، فدعا الى نفسه و سمى خليفة، و كان أصحابه يوم ادعى الخلافة يدورون فى أسواق دمشق و يقولون للناس:

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۵

«قوموا بايعوا مهدى اللّه». و كان يفتخر بقوله: أنا ابن شيخى صفين يعنى عليّا و معاوية، لأنه كان ينتسب لبنى أمية من جهة أبيه و لآل أبى طالب من جهة أمه، و كان أكثر أصحابه من كلب، و تعصب له اليمانية، و قاومه القيسية فنهب دورهم و أحرقها و قتلهم و فتك

بأهل دمشق، و طرد منها سليمان بن أبى جعفر المنصور عاملها بعد حصره إياه، و كان عامل الأمين عليها، فلم يفلت منها إلا بعد اليأس، و أعانه الخطاب بن وجه الفلس مولى بنى أمية، و كان قد تغلب على صيدا، و قاومه محمد بن صالح بن بيهس الكلابى فخرج الى قرية الحرجلة، فقتل من ظفر به من بنى سليم و نهبها و أحرقها، و جعل يطلب من بدمشق من القيسية.

و كان القرشيون و أصحابه من اليمن يمرون بالدار من دور دمشق فيقولون:

ريح قيسى نشم من هذه الدار، فيضربونها بالنار، فهرب القيسية من دمشق، و كان من لم يبايعه سمّر عليه بابه، و كان إذا خرج من الخضراء و هو راكب يمشى بين يديه خمسمائة رجل على رؤوسهم القلانس الشاميات و فى أيديهم المقارع.

كتب أبو العميطر الى ابن بيهس الكلابى: «بسم اللّه الرحمن الرحيم. أما بعد فالعجب كل العجب لتخلفك عن بيعة أمير المؤمنين، (يعنى نفسه) و جحدانك نعم آبائه عليك، و لست و لا أحد من سلفك إلا فى نعمته، و أنت تعلم مكان حرمتك بقرية تلفياثا، و أن عشيرتك بالغوطة كرش منثورة، و أمير المؤمنين يحلف لك باللّه لئن سمعت و أطعت، ليبلغن بك أقصى غاية الشرف، و ليولينك ما خلف بابه، و لئن تخلفت و تأخرت ليبعثن إليك ما لا قبل لك به من الزحوف، التى تتلوها الحتوف، بشاهد السلاح المعدّ لأهل الخلاف و المعصية. و قد بعث إليك أمير المؤمنين شعرا فتدبره» و كتب فى أسفل كتابه:

لئن كان هذا الجد منك لقد هوىبك الحين فى أهويّة غير طائل

أبعد اجتماع الشام سمعا و طاعةالىّ و إذلالى جميع القبائل

و توجيهى العمال فى كل بلدةو زحفى إليها بالقنا و القنابل

رجوت خلافى أو تمنيت جاهلاإزالة ملك ثابت غير زائل

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۶ فإن تعط سمعا أو تعلق بطاعةتقل من ملمات شداد الزلازل

و إن تعص لا تسلم و فى السيف واعظلذى الجهل ما لم يتعظ بالرسائل

فلم يجبه ابن بيهس على كتابه، و أقبل أبو العميطر على طلب القيسية فكتبوا الى ابن بيهس، فأقبل إليهم فى ثلاثمائة فارس من الضباب و مواليه، و اتصل الخبر بأبى العميطر فوجه إليه يزيد بن هشام فى اثنى عشر ألفا فاقتتلوا، فلم يزل القتل فى أصحاب يزيد بن هشام حتى دخلوا أبواب دمشق، فبلغ القتلى ألفى رجل و أسر ثلاثة آلاف، فدعا بهم ابن بيهس فحلق رؤوسهم و لحاهم، و أحلفهم بأنهم يصيرون الى باب أبى العميطر فيصيحون نحن عتقاء ابن بيهس، فاشتدت شوكته و توهن أمر أبى العميطر السفيانى، فجعل ابن بيهس يغير كل يوم على ناحية فيقتل و يأسر. و لما فرغ ابن بيهس من حرب يزيد بن هشام، نزل قرية سكا، و اجتمع الى أبى العميطر و زراؤه فقالوا له: لا يهولنك محاصرة ابن بيهس إياك فإن الحرب سجال، فكتب أبو العميطر الى السواحل و البقاع و بعلبك و حمص فأتاه خلق عظيم، و اشتبكت الحرب بين شبعا و قرحتا و تقاتلوا قتالا طويلا و اجتمعت نمير على مسلمة بن يعقوب، و بذلوا له البيعة بالخلافة، فقبل منهم و جمع مواليه و دخل على السفيانى أبى العميطر فى الخضراء فقبض عليه و قيده، و قبض على رؤساء بنى أمية فبايعوه و أدنى قيسا و جعلهم خاصته.

و جمع ابن بيهس رؤساء بنى نمير فقال لهم: قد كان من علتى ما ترون فارفقوا ببنى مروان بن الحكم و ألطفوا بهم، و عليكم بمسلمة بن يعقوب فبذل له بنو نمير البيعة. و بعث مسلمة الى رؤساء بنى أمية عن لسان أبى العميطر يأمرهم بالحضور فجعل كل من دخل يقال له:

بايع، و السيف على رأسه فيبايع. و أدنى مسلمة القيسية، و لبس الثياب الحمر، و جعل أعلامه حمراء، و أقطع بنى نمير ضياع المرج، و جعل لكل رجل من وجوه قيس بمدينة دمشق منزلا و ولاهم، ثم أقبل ابن بيهس حتى نزل قرية شبعا و أصبح منها غاديا الى دمشق، و صاح الديدبان بالسلاح، و خرج مسلمة و خرجت معه القيسية، فتقاتلوا ذلك اليوم مع

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۷

مسلمة قتالا- شديدا و كثرت الجراحات فى الفريقين، و انصرف ابن بيهس و خاف القيسية على أنفسهم، و ذهبوا الى ابن بيهس و أحكموا الأمر معه، و صبح دمشق بالخيل و الرجالة و السلالم، و نشب القتال و صعد أصحاب ابن بيهس السور بناحية باب كيسان فلم يشعر بهم أصحاب مسلمة، و استولى ابن بيهس على دمشق لعشر خلون من المحرم سنة ثمان و تسعين و مائة، و لم يزل يحارب أهل المزة و داريا و بيت لهيا إلى أن صالحه أهل بيت لهيا، و أقام على حرب أهل المزة و داريا و هو مقيم بدمشق أميرا متغلبا عليها، الى أن قدم عبد اللّه بن طاهر دمشق سنة ثمان و مائتين و خرج الى مصر و رجع الى دمشق سنة ست عشرة و مائتين، و حمل ابن بيهس معه الى العراق. و ولى الأمين (۱۹۶) عبد الملك بن صالح بن على على الشام، و أمره بالخروج اليها. و فرض له من رجالها جنودا يقاتل بها طاهرا و هرثمة. و عبد الملك هذا هو الذى كان يقول فى أهل الشام: قوم قد ضرستهم الحروب و أدبتهم الشدائد، و إن أهل الشام أجرأ من أهل العراق، و أعظم نكاية فى العدو. و وقعت فتنة فى عسكره بين الخراسانيين و أهل الشام و كثر القتل، و أظهر عبد الملك النصرة للشاميين، و انتصر الحسين بن على للخراسانيين و تنادى الناس بالرجوع، فمضى أهل حمص و قبائل كلب فانهزم أهل الشام و اتصلت الحروب (۱۹۸) بين سكان الشام و جماعة العباسيين، و كان يعقوب بن صالح الهاشمى يحارب الحاضر حاضر حلب، فلم يبق منهم و افترقوا أيدى سبا، فصار أكثرهم الى مدينة قنّسرين، و ضرب يعقوب الحاضر و كان فيه عشرون الف مقاتل.

و ذكر المسعودى أن عبد الملك بن صالح توفى بالرقة سنة ۱۹۷، و كان العامل على الجزيرة و جند قنسرين و العواصم و الثغور، و اضطربت البلدان بعد وفاته، و تغلب كل رئيس قوم عليهم، و صار الناس حزبين، حزب يظاهر بمحمد، و حزب يظاهر بالمأمون، فلم يبق بلد إلا و فيه قوم يتحاربون، لا سلطان يمنعهم و لا شىء يدفعهم. و لما أفضت الخلافة الى المأمون كان بقورس و ما والاها من كور العواصم العباس بن زفر الهلالى، و بالحيار و ما والاها من كور قنسرين عثمان بن عثامة العبسى،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۸

و بالحاضر الذى الى جانب حلب منيع التنوخى. و قد كان يعقوب بن صالح الهاشمى يحارب الحاضر، فهرب أهل قنسرين، و كان بمعرة النعمان و تل منس و ما والاها من إقليم حمص الحوارى بن خيطان التنوخى.

و بحماة و ما والاها حراق البهرائى، و بشيزر و ما والاها بنو بسطام، و بمدينة حمص بنو السمط، و أقام بدمشق و الأردن و فلسطين جماعة من رؤساء القبائل حتى ولى المأمون عبد اللّه بن طاهر.

و لم تكد الشام تستريح من فتنة أبى العميطر حتى قام فى أول عهد المأمون بدمشق رجل من بنى أمية أيضا، أسمه سعيد بن خالد الأموى العثمانى الفدّينى، و ادعى الخلافة، قام بعد أبى العميطر و أغار على ضياع بنى شهيب (شرنبث؟) السعديين، و تطلب القيسية و قتلهم، و تعصب ليمن، فجهز له محمد بن صالح ابن بيهس أخاه يحيى بن صالح، فلما صار بالقرب من حصنه المعروف بالفدّين هرب، فوقف يحيى حتى هدمه و خرب زيزاء، و تحصن سعيد فى قرية ماسوح، ثم إنه جمع عليه جمعا عظيما زهاء عشرين ألفا، فلم يجد محاربه الى أن أجلاه عن مكانه و صار بعد ذلك الى حسبان و فيه حصن حصين، فأقام به و تفرق عنه أصحابه.

فتنة نصر بن شبث:

و هكذا لم يخل عهد السفاح و المنصور و المهدى و الهادى و الرشيد و الأمين و المأمون من خلفاء بنى العباس من فتن فى هذه الديار، و بقيت نار العصبيات تتأجج. و اليمانيون مع الأمويين، و القيسيون مع العباسيين، و الدعوة للسفيانى الذى وعد بإرجاع ملك بنى أمية تهب و تنام، و قد ابتدأت أوائل خلافة المأمون بشىء من هذا القبيل. فقد عصى عليه نصر بن شبث العقيلى، و كان يسكن كيسوم شمالى حلب، و كان فى عنقه بيعة للأمين و له فيه هوى، فلما قتل الأمين أظهر نصر الغضب و تغلب على ما جاوره من الكور، و ملك سميساط و اجتمع عليه خلق كثير من الأعراب و أهل الطمع و قويت نفسه، و عبر الفرات الى الجانب الشرقى،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۵۹

و حدثته نفسه بالتغلب عليه. فلما رأى الناس ذلك منه كثرت جموعه و زادت عما كانت عليه و قوى أمره (۱۹۹) بالجزيرة و أتاه نفر من شيعة الطالبيين فقالوا: قد وترت بنى العباس و قتلت رجالهم، و أعلقت عنهم العرب فلو بايعت لخليفة كان أقوى لأمرك فقال: من أى الناس؟ قالوا:

نبايع لبعض آل على بن أبى طالب فقال: أبايع أولاد السوداوات، فيقول إنه خلقنى و رزقنى. قالوا: فنبايع لبعض بنى أمية فقال: أولئك قد أدبر أمرهم و المدبر لا يقبل أبدا، و لو سلّم علىّ رجل مدبر لأعدانى بإدباره، و إنما هواى فى بنى العباس، و إنما حاربتهم محاماة عن العرب لأنهم يقدّمون عليهم العجم.

قوى أمر نصر فأرسل عليه المأمون أحد عظام قواده طاهر بن الحسين فلقيه نصر و كسره، فسير إليه المأمون عبد اللّه بن طاهر القائد العظيم ابن ذاك القائد العظيم، فحصره فى كيسوم من مدن العواصم و أخذه بعد وقائع كثيرة، و احتوى على الشام جميعه و هدم عدة أسوار من المدن المجاورة لحلب و منها كيسوم. و سار عبد اللّه بن طاهر يستقرى الشام بلدا بلدا، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل و العشائر و الصعاليك اللصوص، و هدم الحصون و حيطان المدن، و بسط الأمان للأسود و الأبيض و الأحمر و ضمهم جميعا، و نظر فى مصالح البلدان، و حط عن بعضها الخراج، فلم يبق مخالف و لا عاص إلا خرج من قلعته و حصنه، و عاد عبد اللّه بن طاهر الى مدينة السلام يحمل معه المتغلبين على الشام، أمثال ابن السرج و ابن أبى الجمل و ابن أبى الصقر، و دام عصيان نصر خمس سنين.

المأمون و حكمه على قيس و يمن:

لم يطفىء الفتنة التى أثارها نصر بن شبث فى الشمال و التى أثارها غيره

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۰

فى الوسط و الجنوب غير أعاظم قواد بنى العباس، أطفأوها بالعقل و التؤدة، و قد رأينا أن عصبية الأمويين لم تنقطع على شدة العباسيين فى استئصالها، و كان كل حين يثور ثائر باسم السفيانى، و يثور معه جماعته و لا سيما من أهل القرى و البوادى. و كانت الأحوال أخذت تهدأ على عهد الرشيد و المأمون، فتفرغا لإجراء الإصلاح. و كان الرشيد تولى شمال الشام أيام كونه وليا للعهد، و المأمون زار الشام ثلاث مرات يقيم فيها نصاب العدل، و يوطد دعائم المدنية، و عدّ عهده و عهد أبيه من أجمل عصور التاريخ الإسلامى. المأمون الخليفة العادل، و ممثل التسامح المحمدى العجيب، و محكّم العقل فى أحكامه و معتقداته، و قلما اجتمعت صفات كصفاته و عقل كعقله و علم كعلمه لخليفة من خلفاء الإسلام.

و كأن ما وقع فى أوائل عهد العباسيين من الغوائل التى غالت أهل البوادى و الحواضر فى هذه الديار كان عقوبة لأهلها عما قدمت أيديهم من خيانة عهد بنى أمية و نفض أيديهم من مروان بن محمد لأول ظهور قوة خصمه و إدبار الأمر عنه، حتى قاتلوه و طاردوه، على مثل ما قاتله جيش خراسان العباسى و زيادة، فتعجلوا انقراض دولة الأمويين معلقين آمالهم على الدولة الفتية. و لذلك زعم بعضهم أن الملك فى الشام لا يثبت، لعدم الثبات المغروس فى فطرة أهله، و لتلون الطبائع فيه تلوّن أقاليمه و سمائه و هوائه. و كان من أثر العادة التى حملها العرب معهم من جزيرتهم، و هى عادة الغزو المتأصلة فى غير سكان المدن، أن نشبت الثورات و كثر قتل الأنفس و غرست هذه الاضطرابات فى أرض الشام فنمت، خصوصا و جبالها أكثر من سهولها على الأكثر، و تصلح للدفاع و الهزيمة و الاستمرار على المشاكسة لصاحب القوة.

بالغ العباسيون فى إهراق الدماء لأول أمرهم، و قضوا على آثار بنى أمية، و هى كثيرة جدا، و مع ذلك كان اسم الأموى و السفيانى يرنّ فى الآذان، و المستعدون للثورة يمتشقون الحسام عند أول داعية يسمعهم صوته، أو ثائر يستتبع الناس و يعدهم الوعود الخلابة. نعم إن التنازع بين القيسيين و اليمانيين كان فى هذا القرن على أشد حالاته، و هذه العداوة

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۱

بین الفریقین العظیمین من العرب أضرت ضررا بالغا. و کان القیسیون حزب العباسیین علی الأغلب و الیمانیون حزب الأمویین و المنافسة بینهما علی الملک و السلطان.

«تعرض رجل للمأمون بالشام مرارا فقال له: یا أمیر المؤمنین انظر لعرب الشام کما نظرت لعجم أهل خراسان فقال: أکثرت علیّ یا أخا أهل الشام، و اللّه ما أنزلت قیسا من ظهور الخیل إلا و أری أنه لم یبق من مالی درهم واحد، و أما الیمن فو اللّه ما أحببتها و لا أحبتنی قط.

و أما قضاعة فسادتها تنتظر السفیانی و خروجه فتکون من أشیاعه، و أما ربیعة فساخطة علی اللّه منذ بعث نبیه من مضر، و لم یخرج اثنان إلا خرج أحدهما ثائرا، اعزب فعل اللّه بک».

سبب تباغض النزاریة و الیمانیة و حکمة حکیم:

تأصلت البغضاء بین النزاریة و الیمانیة منذ کان للعرب فی الشام سلطان.

و کثیرا ما تظهر بوادر هذه العداوة لسبب تافه. فقد ذکروا أن الکمیت الشاعر المعروف، مدح النزاریة فأفحش فی مدحه، ففخروا بذلک علی الیمانیة، و أغدق بنو هاشم المال علی الکمیت مکافأة له، و قام دعبل الخزاعی یمدح الیمانیین و یعیب غیرهم، فکان هذا أول الشنآن بین النزاریة و الیمانیة، و منها تحزب الناس بالمناقب و ثارت بینهم فی البدو و الحضر، الی أن قام محمد الجعدی متعصبا لقومه، فانحرف الناس للدعوة العباسیة و تقلقل الأمر الی انتقال الدولة من بنی أمیة الی بنی هاشم، و لم یبق معهم إلا من فرّ بنفسه مستخفیا.

و کان رجال الإدارة و السیاسة إذا أحبوا نشر العدل بین هذین الحیین العظیمین من أحیاء العرب یتعذر علیهم ذلک إلا بغمط حقوق الفریق الثانی، و لذلک عدّ من حسن سیاسة إبراهیم بن محمد المهدی المنبوز بابن شکلة الهاشمی أخی الخلیفة الرشید لما ولی دمشق، ما اتخذه أو ابتدعه من طریقة

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۲

جدیدة أرضی بها قیسا و یمنا، فإنه لما جاء غوطة دمشق وافاه الحیان من مضر و یمن، فلقی کل من تلقاه بوجه واحد، فلما دخل المدینة أمر حاجبه بإحضار وجوه الحیین و أمره بتسمیة أشرافهم، و أن یقدم من کل حی الأفضل فالأفضل منهم، و أن یأتیه بذلک، فلما أتاه به أمر بتصییر أعلی الناس من الجانب الأیمن مضریّا، و عن شماله یمانیا، و من دون الیمانی مضری، و من دون المضری یمانی، حتی لا یلتصق مضری بمضری، و لا یمانی بیمانی، فلما قدم الطعام قال قبل أن یطعم شیئا: إن اللّه عز و جل جعل قریشا موازین بین العرب فجعل مضر عمومتها، و جعل یمن خؤولتها و افترض علیها حب العمومة و الخؤولة، فلیس یتعصب قرشی إلا للجهل بالمفترض علیه. ثم قال: یا معشر مضر کأنی بکم و قد قلتم إذا خرجتم لإخوانکم من یمن: قد قدّم أمیرنا مضر علی یمن، و کأنی بکم یا یمن قد قلتم و کیف قدمکم علینا، و قد جعل بجانب الیمانی مضریا، و بجانب المضری یمانیا، فقلتم: یا معشر مضر إن الجانب الأیمن أعلی من الجانب الأیسر، و قد جعلت الأیمن لمضر و الأیسر لیمن، و هذا دلیل علی تقدمته إیانا علیکم. ألا إن مجلسک یا رئیس المضریة فی غد من الجانب الأیسر و مجلسک یا رئیس الیمانیة فی غد من الجانب الأیمن. و هذان الجانبان یتناوبان بینکما یکون کل من کان فی جهته متحولا عنه فی غده الی الجانب الآخر. فانصرف القوم و کلهم حامد. و هذا من ألطف أسالیب السیاسة و استمالة القلوب بدون خسارة.

فافتخر إبراهیم بن المهدی بقوله: ما أعلم أحدا ولی جند دمشق فسلم من لقب یلقبه به أهل ذلک الجند غیری، و ذلک أن کل ملقب ممن ولی إمرة الشام، لم یکن إلا ممن ینحرف عنه من الیمانیة أو المضریة، فکان إن مال الی المضریة لقبته الیمانیة، و إن مال الی الیمانیة لقبته المضریة، فعاملهم إبراهیم معاملة واحدة فی الاجتماع و قضاء المصالح. فکانت الحاجة تعرض لبعض الحیین فیسأل قبل

أن يقضيها له، هل لأحد من الحى الآخر حاجة تشبه حاجة السائل، فإذا عرفها قضى الحاجتين فى وقت واحد. قال: فكنت عند الحيين محمودا لا أستحق عند واحد منهم ذمّا

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۳

و لا عيبا و لا نبزا أنبز به. و قال إبراهيم: إنه ولى دمشق سنتين ثم أربع سنين بعدهما لم يقطع على أحد فى عمله طريق. و أخبر أن الآفة كانت فى قطع الطريق فى عمل دمشق من ثلاثة نفر: دعامة و النعمان موليان لبنى أمية، و يحيى بن أرميا من يهود البلقاء، و أنهم لم يضعوا أيديهم فى يد عامل قط، فكاتبهم فارعوى الاثنان و أبى الثالث أداء الجزية فقتل فى معركة، و ساد الأمن فى القطر.

و لكن هذه السياسة لم يجر العمل بها دائما، فقد ذكروا أن إبراهيم ابن صالح والى دمشق فى خلافة الرشيد لما خرج منها فى الوفد الذى قدم به على الرشيد استخلف ابنه إسحاق على دمشق، و ضم إليه رجلا من كندة يقال له الهيثم بن عوف، فغضب الناس و حبس رؤساء من قيس، و أخذ أربعين رجلا من محارب فضربهم و حلق رؤوسهم و لحاهم، و ضرب كل رجل ثلاثمائة، فنفر الناس بدمشق و تداعوا الى العصبية و نشبت الحرب و رجعوا الى ما كانوا عليه من القتل و النهب فلم يزالوا على ذلك أشهرا.

قيس و يمن و فتنة المبرقع:

ولى دمشق بعد إبراهيم بن المهدى سليمان بن المنصور فانتهبه أهل دمشق و سبوا حريمه، و ولى بعده منصور بن المهدى، و كانت على رأسه الفتنة العظمى و لم يؤد القوم طاعة بعد ذلك، الى أن افتتح دمشق عبد اللّه ابن طاهر فى سنة عشر و مائتين. و وقعت بدمشق فتن على عهد الأمين، و سببها على ما ذكروه أنه كان يعجبه البلور فدس عامله فأخذ له قلة دمشق من جامعها فلما شعر الدمشقيون قالوا: «لا صلاة بعد القلة» فصارت مثلا و افتتن الناس و امتدت فتنتهم، و لما ولى المأمون أرجع القلة الى محلها. و لعل مسألة القلة أوجدها أنصار المأمون على الأمين حتى لا تبقى ناحية فى المملكة إلا و تشعر بكراهة الأمين. و كتب المأمون فى سنة ۲۱۸ الى عامله على دمشق فى التقدم الى عماله فى حسن السيرة و تخفيف المؤونة و كف الأذى عن أهل محله. قال: فتقدم الى عمالك فى ذلك أشد التقدمة، و اكتب إلى عمال خراجك بمثل ذلك. و كتب بهذا الى جميع

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۴

عماله فى أجناد الشام جند حمص و الأردن و فلسطين.

و فى أيام المعتصم (۲۲۴) خرجت رجال دمشق على أبى المغيث الرافعى واليها فى طلبهم محمد بن أزهر، و كان قد عاث فى مرج دمشق و نفّر أهلها و أجلاهم عنها، فخرج رجل من بنى حارثة اسمه يزيد فى جماعة و غيرهم من يمن، و اجتمعت قيس بمرج دمشق و أقبل محمد بن أزهر، فلما صار إليهم خرجوا عليه و جرح و قتل من الجند خلق، و وثب ابن لمحمد بن صالح على بعض أمراء السلطان و أخذه فى جماعة من قيس بحوران، و أقبل الى مرج دمشق و صار مع يزيد و حاصر دمشق حصارا شديدا، و غلقت أبواب دمشق و لم يخرج أحد إلا- اختطف. و لما مات المعتصم (۲۲۷) ثارت القيسية بدمشق و على رأسهم ابن بيهس الكلابى فعاثوا و أفسدوا و حصروا أميرهم فبعث الواثق إليهم رجاء بن أيوب، و كانوا معسكرين بمرج راهط، فنزل بدير مران و دعاهم الى الطاعة فلم يرجعوا، فواعدهم الحرب بدومة فوافاهم فقاتلهم فهزمهم و قتل منهم نحوا من ألف و خمسمائة، و قتل من أصحابه نحو من ثلاثمائة و هرب مقدمهم ابن بيهس و صلح أمر دمشق. و قال ابن عساكر: إن الذين ثاروا هم أهل الغوطة و المرج، و من قرى الغوطة الثائرة كفر بطنا و جسرين و سقبا و قرى جرش و من انضوى إليهم، و أصيب من ذلك جماعة كثيرة، و قاتلهم العامل فى مجمع عسكرهم بكفربطنا و هى لقيس، و ثار الناس من النواحى، و قتلوا الأطفال و جرحوا النساء و هزمهم.

و سار رجاء الى فلسطين لقتال تميم اللخمى، و يعرف بأبى حرب و يلقب بالمبرقع الخارج بها فى لخم و جذام و عاملة و بلقين، فقاتله فانهزم المبرقع و أخذ أسيرا سنة ۲۲۷، و كان المبرقع من أهل الغور خلع الطاعة و دعا الى نفسه فتبعه خلق كثير من الحراثين و غيرهم

و قالوا: هذا هو السفيانى المذكور أنه يملك الشام، و استفحل أمره جدا و اتبعه نحو مئة ألف فأنفذ المعتصم إليه جيشا، فلما قدم الأمير رأى أمة كبيرة قد اجتمعت حوله، فخشى أن يناجزه و الحالة هذه فانتظر حتى جاء وقت حرث الأرض، فتصرّم عنه الناس الى أرضهم، و بقى فى شرذمة قليلة من

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۵

أصحابه فناهضه فأسره. و روى الطبرى: أن سبب خروج المبرقع على السلطان أن بعض الجند أراد النزول فى داره و هو غائب عنها و فيها إما زوجته و إما أخته، فمانعته ذلك فضربها بسوط أصاب ذراعها فأثر فيها، فلما رجع أبو حرب الى منزله بكت و شكت إليه ما فعل بها و أرته الأثر الذى بذراعها من ضربه، فأخذ أبو حرب سيفه و مشى الى الجندى و هو غارّ فضربه حتى قتله، ثم هرب و ألبس وجهه برقعا كى لا يعرف، فصار الى جبل من جبال الأردن، و لما كثرت غاشيته من الحراثين استجاب له جماعة من رؤساء اليمانية و أرباب البيوت منهم. و روى أيضا أن خروجه كان فى سنة ۲۲۶ بالرملة و صار فى خمسين ألفا من أهل اليمن و غيرهم، و أن القائد العباسى قاتله بالرملة فقتل من أصحابه فى وقعتين خمسة و عشرون ألفا حتى أسر.

فتن أهلية و عصبيات حمصية و لبنانية و دمشقية و فلسطينية و معرية:

فى سنة ۲۳۱ جرى بين الأمير هانىء و المردة حروب فى جبل لبنان، انتصر عليهم و لقب بالغضنفر أبى الأهوال، و بلغ خبره خاقان التركى خادم الرشيد، فكتب كتابا يشكره على ما فعل و يحثه على الحرب، و يخبره أنه بلغ حسن سلوكه الى مسامع الخليفة. و من أهم الأحداث فى سنة ۲۴۰ و ثوب أهل حمص بعاملهم، فوجه المتوكل محمد بن عبدويه عاملا عليهم، فسكنهم و أقام بديارهم عدة شهور، ثم وثبوا فشغبوا عليه، فسكنهم و مكر بهم و أخذ جماعة منهم، فحملوا الى باب المتوكل ثم ردوا إليه فضربهم بالسياط حتى ماتوا، و صلبهم على أبواب منازلهم، و تتبع رجال الفتنة فأفناهم.

و وثب أهل دمشق بعامل المتوكل سالم بن حامد لظلمه و عسفه فيهم و قتله جماعة من أشرافهم و رؤسائهم، فقتلوه على باب الخضراء. قال ابن عساكر: إن سالما كان سيء السيرة أذلّ قوما من أهل دمشق، كان بينه و بينهم طائلة و دماء فى أول دولة بنى العباس و آخر دولة بنى أمية. و كان لبنى بيهس و لجماعة من قريش دمشق و سائر العرب من

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۶

السكون و السكاسك و غيرهم قوة و نجدة، فقتلوه على باب الخضراء و قتلوا من قدروا عليه من رجاله، و سلطوا الموالى على رجالهم و أموالهم فسلبوها.

و غضب المتوكل لمقتل عامله و قال: من لدمشق و ليكن فى صولة الحجاج؟ فقيل له: أفريدون التركى. فأمره و جهزه إليها فى سبعة آلاف، و أحلّ له القتل و النهب ثلاثة أيام، فنزل بيت لهيا فبات بها، فلما أصبح قال: يا دمشق إيش يحل بك اليوم منى. فقدمت له بغلة و همّ ليركبها، فلما وضع رجله فى الركاب ضربته بالزوج فى صدره، فسقط ميتا. و بعد ثلاث سنين جاء المتوكل ليسكن دمشق هربا مما كان يحاذره من شدته على العراقيين فنقل دواوين الملك إليها ثم رجع بعد أشهر و هناك قتل.

و فى سنة ۲۴۸ شغب أهل حمص على عاملهم أيضا، فوجه الخليفة إليهم عاملا آخر فأخذهم و قتل منهم خلقا كثيرا، و حمل مئة رجل من عيونهم الى سامرّا. و فى هذه السنة غزا الصائفة و صيف، و كان مقيما بالثغر الشامى ثم دخل أرض الروم و فتح بعض الحصون. و فى السنة التالية كان غزو جعفر بن دينار الصائفة، فافتتح حصنا و مطامير، ثم غلب و قتل جماعة كثيرة من جيشه. و فى سنة ۲۵۰ وثب أهل حمص بعاملهم فقتلوه، فوجه إليهم المستعين من حاربهم فهزمهم بين حمص و الرّستن، و افتتح حمص و قتل من أهلها و فيهم خلق من نصارى المدينة و يهودها، فقتل مقتلة عظيمة و أحرقها. و كان المتوكل أمر بإخراج النصارى من حمص، لأنهم كانوا يعينون الثوار. و وثب أيضا أهل حمص بعاملهم مرة أخرى فقتلوه. و خافوا عامل دمشق فزحفوا إليه فوجه إليهم بعسكر من البابكية و غيرهم

فهزموهم و انصرفوا الى حمص. و ثاروا مرة فأرسل عليهم الخليفة عاملا آخر فدخل بلدهم عنوة و أباحها ثلاثة أيام و طرحت النار فى منازلها. و كان الواثب بحمص العطيف بن نعمة الكلبى فى خلق عظيم من عشيرته و غيرهم. و كثر و ثوب أهل حمص، و بعبارة أعم، و ثوب أهل جند حمص بعمالهم، لأنهم يمانية نزاع الى الثورة، و نار الإحن بينهم و بين القيسية لا تزال موقدة، ثم إنه كان لهم من السكان

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۷

الأصليين من غير المسلمين من كانوا يحرضونهم على شق عصا الطاعة، فلذلك كثرت ثوراتهم و ما برحوا يثورون حتى أيام المهدى. فقد ثاروا بمحمد بن إسرائيل، فخرج هاربا و لحقه ابن عكار، فكانت بينهما وقعة قتل فيها ابن عكار، و رجع ابن إسرائيل على البلد.

و فى أيام المستعين وثب بالأردن رجل من لخم، فطلبه صاحب الأردن فهرب، فقام مكانه رجل يعرف بالقطامى و كثف جمعه، فجبى الخراج و كسر جيشا بعد جيش أنفذهم إليه عامل فلسطين. فلم تزل هذه الحالة حتى قدم مزاحم بن خاقان التركى فى جمع من الأتراك و غيرهم، ففرق جمعهم و نفاهم. و وثب بالمعرة المعروف بالقصيص و هو يوسف بن إبراهيم التنوخى فجمع جموعا من تنوخ، و صار الى مدينة قنسرين فتحصن بها، فلم يزل بها حتى قدم محمد المولد مولى أمير المؤمنين فاستماله، و استعمل عطيف بن نعمة و صار إليه، ثم وثب بعطيف بن نعمة فقتله، و هرب القصيص فصار الى الجبل الأسود و اجتمعت قبائل كلب بناحية حمص على الامتناع على المولد، فسار إليهم فواقعهم فكانت عليهم، ثم ثابوا عليه فهزموه و قتلوا خلقا عظيما من أصحابه، و انصرف الى حلب فى فلّه، و رجع القصيص الى قنسرين و التحم مع كلب، و عزل المولد و ولى أبو الساج الأشروسى و كتب الى القصيص يؤمنه و صير إليه الطريق و البذرقة ثم ولاه اللاذقية و نحوها.

و فى سنة ۲۵۲ عقد لعيسى بن الشيخ بن السليل الشيبانى على الرملة فأنفذ خليفته أبا الغراء إليها و استولى على فلسطين جميعها، و تغلب على دمشق و أعمالها و امتنع من حمل المال الى العراق، فحمل ابن مدبّر، صاحب خراج مصر الى العراق سبع مائة ألف و خمسين ألف دينار فنهبها عيسى بن الشيخ فى الطريق. و فى سنة ۲۵۶ عزل عيسى عن الشام، و ولى أماجور الشام فسار و استولى عليه بعد قتال بينه و بين أصحاب عيسى على باب دمشق و انتصر أماجور و استقر، و كان عيسى يومئذ فى زهاء عشرين ألفا، و أماجور فى مائتين الى أربعمائة و قيل ألف، فتغلب قليله على كثير خصمه. و كان أماجور أميرا مهابا، ضابطا لعمله، حشما شجاعا،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۸

لا يتجاسر أحد على أن يقطع الطريق فى جميع أعماله، و له فى باب تأديب العصاة و سلبة الطرق حكايات أثرت عنه.

الحكم على الدور الأول للعباسيين:

مضت اثنتان و عشرون و مائة سنة على الشام بعد انقراض دولة بنى أمية، و هو لا يخلو من فتن و تسمع فيها اسم السفيانى و الأموى العثمانى أو غيرهم من أرباب العصبيات من العرب، قيس و يمن. فتن أهلية يثور بركانها، ثم يهمد الى حين، و نزّاع الى الملك و السلطان، و لم يسد السلام إلا على عهد الرشيد و المأمون و كانت الفتن فى أيامهما لا شأن لها لأنهما كان يوليان على الشام أقدر رجالهما. و الشاميون يرضيهم من الخلفاء حسن سياستهم، و النظر بعطف على مصالحهم.

و لقد كانت الشام أوائل الفتح العباسى تتناوبها يدا عبد اللّه بن على و صالح بن على العباسيين و أولادهما، ثم أخذ عقلاء الخلفاء منهم يولون أولادهم و إخوتهم شؤونها. فقد رأينا المهدى ولى ابنه هرون الرشيد أيام كونه وليا للعهد ولاية قنسرين أو شمالى الشام، و رأينا الرشيد ولى أخاه إبراهيم بن المهدى دمشق، و رأينا الرشيد ندب أحد عظام رجاله يحيى البرمكى الى دمشق، كما رأينا ابنه عهد الى طاهر بن الحسين بولاية مصر و الشام، و سوّغه خراج مصر سنة و هو ثلاثة آلاف ألف دينار ففرقه على الناس و هو على المنبر، و لم ينزل منه إلا و قد اقترض عشرة آلاف دينار ليعطيها لرجل جاء متأخرا و المصلحة تقتضى برّه.

و قد رأينا حسن أثر السياسية التى اتبعها إبراهيم بن المهدى فى وضع التوازن بين القيسيين و اليمانيين فى الشام، فدل على عقل راجح، و إرادة هاشمية قوية، و كان بسياسته حائلا دون المشاغبات الباطلة، و نشر الأمن مدة ست سنين، و كانت الشام من قبل تأجج فيها نيران العصبيات الجاهلية. و لكن المتوكل الخليفة المحمق، أوسع مجال الخلف بينه و بين رعيته، و أكبر أمر فتنة حدثت فى دمشق، فأباحها لعامله التركى، فأطل الشعب فى بغداد دمه لخرقه، و هلك عامله قبل أن يباشر بجبروته فتكه

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۶۹

و سبيه و نهبه، على نحو ما ارتكب العمال قبله فى المتوثبين على العمال من أهل حمص.

و أهم الأغلاط التى ارتكبها المعتصم إدخال الأتراك فى جنده، فكان الاعتماد عليهم فى الجيش العباسى كالاعتماد على أهل خراسان الأعاجم لأول الفتح من أهم الدواعى فى إغضاب العرب، فأدى هذا الإيثار الى نزع الحكم من العباسيين، حتى دخل الوهن بدخول الأتراك على الدولة، فآضت الخلافة العباسية بصنيعهم اسمية دينية فقط لا تتعدى قرى بغداد إلا قليلا، و غدا الحكم الفصل لمن قويت شكيمته من الدخلاء و استجاش الأنصار و الأعوان. و بعد أن كانت بغداد ترسل الى الشام أولاد خلفائها و أعاظم قوادها من الأصول أصبحت ترسل إليها من الفروع أفريدون التركى و خاقان التركى و محمد المولد من الموالى فظهر الفرق فى صورة الحكم، لأن الحكم كان فى الغالب فرديا لا علاقة للجماعة به إلا اذا أحبّ صاحب الأمر استشارة أهل الرأى استشارة خاصة و دية و له الحرية أن يعمل بما ارتأوه، و لا أحد يكرهه على قبول رأيه. فمن ثم اقتضى أن يكون العامل فى الغاية أصالة و نبالة و علما و نزاهة.

أفضى هذا التساهل مع الأعاجم و الاعتماد عليهم، الى جر البلاء على الخلفاء من بنى العباس، و بعد أن كانت وصية إبراهيم الإمام الذى مات فى سجن مروان الجعدى الى أبى مسلم الخراسانى صاحب الدعوة:

«انظر الى هذا الحى من اليمن فالزمهم، و اسكن بين أظهرهم، فإن اللّه لا يتم هذا الأمر إلا بهم، و اتهم ربيعة فى أمرهم، و أما مضر فإنهم العدو القريب الدار، و اقتل من شككت فيه و إن استطعت أن لا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل، و أيما غلام بلغ خمسة أشبار و اتهمته فاقتله» أصبحت تفتح للأتراك أبواب دار الخلافة و لكل دخيل على العرب و لم يعد حكم لقيس و لا- يمن بل للأعاجم من الفرس و الترك و الديلم.

و فى أيام المأمون نشأت الدعوة الشعوبية أى الحط من قدر العرب و تفضيل العجم عليهم، فتبدلت روح الدولة، و أخذ العربى يبغض العجمى و العجمى ينال من العربى، منذ كانت السلطة لأبناء خراسان، أما بدخول

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷۰

الأتراك فالمسألة بلغت أقصى حدودها الخطرة، و كادت مقاليد الخلافة تخرج من أبناء هاشم بعد عصر المعتصم.

كانت مسألة دخول الأتراك فى الدولة بادىء بدء لا شأن لها فى الظاهر و هى أن المعتصم جمع الأتراك و شراهم من أيدى مواليه فاجتمع له منهم أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج، و المناطق و الحلية المذهبة، و أبانهم بالزى عن سائر جنوده و اصطنع قوما من اليمن و قيس و سماهم المغاربة و أعدّ رجال خراسان من الفراعنة و غيرهم و الأشروسية- فلما تم هذا كثرت شكاية الناس أولا من إيذاء الأتراك لعوام بغداد، و كلما زادت الشكاية توغل الأتراك فى جسم المجتمع العباسى. و حاول من جاء بعده مثل المعتز أن يتخلص منهم، و لكنهم كانوا تأصلوا فى جسم الدولة و أفسدوا عليها أمرها، و لكل أجل كتاب.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷۱

ظهور الدولة الطولونية و انقراضها من سنة ۲۵۴ الى ۲۹۲

[بداية الطولونيين:]

ظهرت بوادر الضعف فى العباسيين، و كادت تصبح سلطتهم اسمية، و خلافتهم دينية لا دنيوية، ساعد على ذلك اشتغال الخلفاء بعد المعتز بأنفسهم، و تغلب كثير من الأمراء على الأطراف، و أصبحت البلاد رهن أيدى المتغلبة من العمال، و كان معظم الخلفاء الأول الى ما بعد المعتصم على غاية من العلم و الأخلاق و حسن السياسة، و من النادر أن يتسلسل هذا الرقى فى الأخلاق فى آل بيت واحد على اطراد جميل، كما تسلسل فى بنى هاشم لأول أمرهم، و لكن منهم من ساعدهم الطالع و منهم من خانه، و السعادة أكثر من الشقاء فى الجملة.

و بينما كانت دولة الأمويين فى الأندلس فى إبان عزّها فى القرن الثالث، كانت دولة العباسيين تضطرب و تضيق بقعتها فى هذا الشرق القريب، خصوصا فى النصف الثانى من المئة الثالثة، و عمال فارس و مصر و الشام و غيرها يقطعون الخراج عن دار الملك، و يستبدون بالأمر، و ليس للخليفة العباسى إلا الخطبة و السكة، و قد يقرن المتغلب على قطر اسمه الى اسم الخليفة فى الدعاء، و يضرب السكة باسمه أو باسميهما معا. و كانت الدولة الى هذا العهد لا تقوم لها قائمة إلا إذا جمعت بين السلطتين الدينية و الدنيوية، فإذا ضعفت إحداهما فى القائم بأمر المسلمين، أصاب القوة الثانية ضعف عطلها عن العمل النافع.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷۲

و كلما اعتمد خلفاء بنى العباس على الأعاجم، فى ولاية عمالاتهم و مقاطعاتهم و قيادة جيوشهم، كانت الدولة العباسية تقترب من الانقراض، فسدت عصبية العرب كما قال ابن خلدون فى بنى العباس لعهد دولة المعتصم و ابنه الواثق، لاستظهارهم بالموالى من العجم و الترك و الديلم و السلجوقية أى التركمان و غيرهم، ثم تغلب الأولياء على النواحى، و تقلص ظل الدولة، فلم تكن تعدو أعمال بغداد حتى زحف إليها الديلم و ملكوها و صار الخلائف فى حكمهم. و قال المقريزى: اختص المعتصم الأتراك و وضع من العرب و أخرجهم من الديوان و أسقط أسماءهم و منعهم العطاء، و جعل الأتراك أنصار دولته و أعلام دعوته، و كان من عظمت عنده منزلته قلده الأعمال الجليلة الخارجة عن الحضرة، فيستخلف على ذلك العمل الذى تقلده من يقوم بأمره و يحمل إليه ماله و يدعى له على منابره كما يدعى للخليفة، و قصد المعتصم و من بعده من الخلفاء بذلك العمل مع الأتراك محاكاة ما فعله الرشيد بعبد الملك بن صالح و المأمون بطاهر بن الحسين، ففعل المعتصم مثل ذلك بالأتراك فقلد اشناس، و قلد الواثق إيتاخ، و المتوكل بغا و وصيف، و قلد المهتدى أماجور و غير من ذكرنا من أعمال الأقاليم، فضعفت الدولة العباسية بعد الاستفحال، و تغلب على الخليفة فيها الأولياء و القرابة و المصطنعون، و صار تحت حجرهم من حين قتل المتوكل فتغلب على النواحى كل متملك.

احمد بن طولون و سيما الطويل و أحداث أخرى:

و كان من أهم من فتوا فى عضد الخلاف أحمد بن طولون فى مصر و الشام، و كان فى ظاهره يظاهر الخليفة، فهو أول متغلب ظفر حقيقة بالانفراد بالسلطة، فما وسع العباسيين إلا مصانعته بعد أن حاولوا محاربته فعجزوا، كانت ديار مصر قد أقطعها بايكباك من قواد الأتراك و كان مقيما بالحضرة أى فى عاصمة الملك فاستخلف بها من ينوب عنها، و كان طولون والد أحمد بن طولون أيضا من الأتراك و من أنسبائه، و قد نشأ بعد والده على طريقة مستقيمة، و سيرة حسنة، فالتمس بايكباك من يستخلفه بمصر فأشير

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷۳

عليه بأحمد بن طولون فولاه المعتز باللّه سنة ۲۵۴ مصر. و فى سنة ۲۶۴ توفى أماجور بدمشق و استخلف ابنه على، فحرك ذلك أحمد بن طولون على فتح الشام فكتب الى علىّ يخبره بانه سائر اليه و أمره بإقامة الأنزال و الميرة لعساكره، فرد على بن أماجور أحسن جواب، و خرج ابن طولون فى المطوعة من مصر و فلسطين فبلغ الرملة فتلقاه محمد بن رافع خليفة أماجور عليها و أقام له الدعوة بها فأقره عليها، و مضى الى دمشق فتلقاه على بن أماجور و أقام له بها الدعوة و احتوى على خزائن أماجور و أقام بها أحمد حتى استوثق له أمرها، ثم استخلف عليها احمد بن دوغباش، و مضى الى حمص فلقيه عيسى الكرخى خليفة أماجور عليها فسلمها إليه، ثم بعث الى

سيما الطويل التركى و هو بأنطاكية يأمره بالدعاء له فلم يجبه سيما، فتحصن بأنطاكية فى جيش من الأتراك و غيرهم، و امتنع، فحاصره أحمد و رمى حصنها بالمنجنيق، و طال حصاره لها فاشتد ذلك على أهلها فبعثوا الى أحمد بن طولون فخبروه بالموضع الذى يمكنه أن يدخل إليها منه فقصده، و عاونه أهلها على سيما فدخلها فى المحرم سنة خمس و ستين و مائتين فقتل سيما و استباح أمواله و رجاله. و كان قبل نزول ابن طولون على أنطاكية (۲۶۴) وقع بين سيما و بين أحمد المؤيد حروب كثيرة ببلاد جند قنّسرين و العواصم، و كان سيما قد عم أذاه أهلها فعاث ابن طولون ساعة بأنطاكية ثم ارتحل يؤم الثغر الشامى، و بهذا استولى ابن طولون على الشام أجمع و الثغور و امتد حكمه من مصر الى الفرات، و من مصر الى المغرب، و كان ذلك مدة اشتغال لموفق أبى أحمد طلحة بن المتوكل بحرب الزنج.

كان ابن طولون أول من اقتطع جزءا من المملكة الإسلامية عن الخلافة، و جمع بين ملك مصر و الشام فى الإسلام، فكان لمن بعده من المستبدين بالنواحى قدوة و مثالا. و أخذ يستكثر من مشترى المماليك و الديالمة حتى بلغت عدتهم أربعة و عشرين ألف مملوك و أربعين ألفا من الزنج، و استكثر من العرب حتى بلغت عدتهم سبعة آلاف. و ذكر بعض المؤرخين أن ابن طولون كان أعد بأمر الخليفة جيشا مؤلفا من مئة ألف إنسان لقتال أحد الخوارج على الخلافة فى الشام، و كانت هذه الكتلة من

خطط الشام، ج ۱، ص: ۱۷۴

الجند سببا فى قوته و سلطانه فأخذ ملك الروم يهاديه و يطلب رضاه لاتساع مملكته و مكانتها بين مملكة الشرق و مملكة الغرب الإسلاميتين، و لم يلبث أحمد بن طولون أن أخذ على الجند و الشاكرية و الموالى و سائر الناس البيعة لنفسه، على أن يعادوا من عاداه و يوالوا من والاه و يحاربوا من حاربه من الناس جميعا. و انفرد بخراجها، و أدرك رجال السياسية فى بغداد أن ابن طولون التركى لم يقض على دولة سيما الطويل التركى حبا بسواد عيون الخلفاء، بل ليستأثر بالأمر دونهم عند ما تسنح الفرص.

و كان ابن طولون لعدله و حسن سياسته يفضله الناس على بعض الخلفاء، و فى الحق أنه كان على جانب من العدل، و حسن السيرة، و علو الهمة و بعد النظر، و التفكر فى عمران مملكته حتى زاد خراجها، و كان هديه فى ذلك هدى المعتصم العباسى، و كان هذا يحب العمارة و يقول إن فيها أمورا محمودة أولها عمران الأرض التى يحيى بها العالم، و عليها يزكو الخراج، و تكثر الأموال، و تعيش البهائم، و ترخص الأسعار، و يكثر الكسب، و يتسع المعاش، و كان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك: إذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه. فاستعان ابن طولون بما تدر عليه مصر من الخراج على تقوية سلطانه و كثرت صدقاته، و ما يجريه على القراء و الفقهاء، حتى كان يرسل كل سنة مائة ألف دينار لفقراء بغداد عدا كساوى الصيف و الشتاء و عدا ما يرسل به الى الثغور و الى الحرمين.

و جاء المعتضد الى الخلافة و هو من أعقل خلفاء العباسيين فعرض عليه أبو الجيش خمارويه بن طولون أن يصهر الى ولى عهد الخلافة و يزوجه ابنته قطر الندى، فقال الخليفة: بل أنا أتزوجها و قال: ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار بنى طولون لأنهم يضطرون أن يجهزوها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل، و كان الأمر كما قال، فإنها جهزت بما استفرغ خزائن صاحب مصر و الشام. قيل: إنه كان فى جهازها ألف هاون ذهبا .. و كانت قطر الندى من أجمل بنات عصرها، و أكثرهن أدبا و فضيلة. و قد عقد لها على المعتضد سنة ۲۸۱ و شرط المعتضد على أبيها أن يحمل كل سنة بعد

خطط الشام، ج ۱، ص: ۱۷۵

القيام بجميع وظائف مصر و أرزاق أجنادها مائتى ألف دينار. و فى رواية أن المعتضد جعل لخمارويه الصلاة و الخراج و القضاء و جميع الأعمال على أن يحمل فى كل عام مائتى ألف دينار عما مضى، و ثلاثمائة ألف للمستقبل، و أن وزير المعتضد عبيد اللّه بن سليمان سعى مع أبى الجيش خمارويه، على أن يقتصر على حمص و دمشق و الأردن و فلسطين و مصر و برقة و ما والاها، و ينجلى عما كان فى يده من ديار مضر و قنسرين و العواصم و سقى الفرات و الثغور، فأجاب الى ذلك و كتب سجلا أشهد فيه على المعتضد

و على خمارويه.

دام ملك أحمد بن طولون فى مصر و الشام اثنتى عشرة سنة، و مات لست عشرة سنة من ولايته مصر، و لو لا سفكه الدماء لعدّ بعدله و عقله و سخائه من أفراد العالم. و من الأحداث فى عهده ما وقع من العصبية بفلسطين (۲۵۷) بين لخم و جذام فتحاربوا حربا أخذت من الفريقين.

و ما وقع بين الأمير نعمان الذى حصن سور مدينة بيروت و قلعتها و بين المردة فى لبنان من قتال على نهر بيروت دام أياما حتى انهزموا، و قتل بعضهم و أسر بعضا، فأرسل الرؤوس و الأسرى الى بغداد، فعرض الأمر على الخليفة و أكرموا رسله، و كتب المتوكل إليه كتابا يمدح شجاعته و يحرضه على القتال، و أقره على ولايته هو و ذريته، و أرسل له سيفا و منطقة و شاشا أسود، و كتب إليه الموفق و غيره كتبا يمدحونه بها فاشتد أمره و عظم شأنه، و فى بعض الروايات أن القتال على نهر الكلب دام سبعة أيام، فانكسر عسكر المسلمين و قتل المقدم سمعان و أقيم مكانه خاله المقدم كسرى و هو الذى ذهب الى القسطنطينية ثم عاد الى بلاده، و كانت خربت من تواتر الغارات عليها فعمرها و سميت باسمه كسروان. و منها خروج رجل من ولد عبد الملك بن صالح الهاشمى، يقال له بكار بين سلمية و حلب و حمص فدعا سنة ۲۶۸ لأبى أحمد الموفق، فحاربه ابن عباس الكلابى فانهزم الكلابى، و وجه إليه لؤلؤ صاحب ابن طولون قائدا فى عسكر كثيف، فرجع و ليس معه كثير أحد.

و منها مخالفة لؤلؤ غلام ابن طولون على مولاه سنة ۲۶۹ و كان فى يد لؤلؤ

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷۶

حمص و قنسرين و حلب و ديار مضر من الجزيرة و سار الى بالس و نهبها، و كاتب ابن طولون الخليفة المعتمد فى المصير إليه، فمنعه الموفق و اشتد الخلاف بين الموفق ولى عهد الخلافة و بين ابن طولون، فخلع ابن طولون الموفق من ولاية العهد فى مدينة دمشق و أقبل يلعنه على منابر مصر و الشام و الموفق يلعنه على منابر العراق و ما إليها، و ابن طولون يوهم أنه ينصر الخليفة.

و فى سنة ۲۶۹ غزا الصائفة من ناحية الثغور الشامية خلف الفرغانى عامل ابن طولون، فقتل من الروم بضعة عشر ألفا و غنم الناس. و بلغ ابن طولون قدوم عرب من الحجاز الى حوران، فأرسل الى صحراء أذرعات نحو خمسين ألفا فتلقاهم الأمير عامر الملقب بالأذرعى بخمسة عشر ألفا فكسرهم. و الأمير عامر هو من نسل الحارث بن هشام المخزومى، الذى أرسله الخليفة الثانى الى الشام مع أبى عبيدة بن الجراح أميرا على بنى مخزوم فسكن ولده حوران و تولوا الأعمال للأمويين، ثم للعباسيين و سموا ببنى شهاب نسبة للأمير شهاب المخزومى والى حوران المتوفى سنة ۱۷۳.

عهد أبى الجيش خمارويه و جيشه:

خلف أحمد بن طولون ابنه أبو الجيش خمارويه، و كان على قدم أبيه فى الاستكثار من العدد و العدد و ترتيب الرواتب الدارة و المشاهرات و الجرايات لجيشه و غيره. و قد بلغ جيشه فى الشام و مصر نحو أربعمائة ألف فارس على ما روى بعض أصحاب السير، و هو عدد مبالغ فيه كثيرا و الغالب أن جيشه لم يتجاوز المئة ألف، و لا شك أن مثل هذا الجيش، و ما يلحقه من الرجالة و المتطوعة تفتح به ممالك الخلافة العباسية كلها.

و ربما كان جيشه و جيش أبيه من قبله أول جيش جعل على الدوام تحت السلاح.

و لما بايع الجند أبا الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون بعد وفاة أبيه، أمر بقتل أخيه العباس لامتناعه عن مبايعته، و عقد لأبى عبد اللّه أحمد الواسطى على جيش الشام، و عقد لسعد الأعسر على جيش آخر، و بعث بمراكب

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷۷

فى البحر لتقيم على السواحل الشامية، فنزل الواسطى فلسطين و هو خائف من خمارويه أن يوقع به لأنه كان أشار عليه بقتل أخيه

العباس، فكتب الى أبى أحمد الموفق يصغر أمر خمارويه و يحرضه على المسير إليه، فأقبل من بغداد و انضم إليه إسحاق بن كنداج و محمد بن أبى الساج، و نزل الرقة فتسلم قنسرين و العواصم و سار الى شيزر، فقاتل أصحاب خمارويه و هزمهم و دخل دمشق، فخرج خمارويه فى جيش عظيم، فالتقى و أحمد ابن الموفق بنهر أبى فطرس و اقتتلا، فانهزم أصحاب خمارويه و كان فى سبعين ألفا و ابن الموفق فى نحو أربعة آلاف، و احتوى على عسكر خمارويه بما فيه و مضى خمارويه الى الفسطاط، و أقبل كمين له، عليه سعد الأعسر، و لم يعلم بهزيمة خمارويه فحارب ابن الموفق حتى أزاله عن المعسكر و هزمه اثنى عشر ميلا و مضى الى دمشق فلم يفتح له، و سار سعد الأعسر و الواسطى، فملكا دمشق، و خرج خمارويه من مصر فوصل الى فلسطين، ثم عاد إلى مصر، ثم خرج سنة ۲۷۲ فقتل سعدا الأعسر و دخل دمشق.

قال ابن عساكر: و سعد الأعسر و يقال الأعسر التركى ولى إمرة دمشق من قبل أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون (۲۷۲)، و لما قتل فى قصر نخلة فيما بين الرملة و بيت المقدس اضطرب الناس بدمشق.

و كان سعد الأعسر قد فتح طريق الشام للحاج، لأن الأعراب كانوا قد تغلبوا على الطريق قبل ولايته، و كان قد بطل الحج من طريق الشام قبل ثلاث سنين، فخرج سعد الى الأعراب و واقعهم و قتل منهم خلقا عظيما و فتح الطريق للحاج، و كانت وقائعهم فى المحل المعروف بالقسطل، فأحبه أهل دمشق، و اغتموا لقتله، فصاح الناس بدمشق و ضجوا فى المسجد الأموى و دعوا على من قتله، و افتتن البلد حتى وافاهم أبو الجيش ابن خمارويه فمهد الأمور و بعث الى طريق الحاج من أصلحها، و فرق فى دمشق مالا عظيما على الفقراء و المساكين و المستورين و أهل العلم، و مال إليه أهل دمشق و أحبوه. و لما تغلب الأعراب على بعض النواحى وجه

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷۸

إليهم طباره جى، فقتل منهم مقتلة عظيمة.

ثم سار أبو الجيش خمارويه لقتال ابن كنداج، ثم اصطلحا و تظاهرا و كاتب خمارويه أبا أحمد الموفق فى الصلح فأجابه الى ذلك، و كتب له كتابا بولاية خمارويه و ولده ثلاثين سنة على مصر و الشامات، أى أنه ولاه من الفرات الى برقة، فأمر خمارويه بالدعاء لأبى أحمد الموفق، و ترك الدعاء عليه بعد أن كان خلعه أبوه من ولاية عهد الخلافة. ثم بلغ خمارويه مسير محمد بن أبى الساج الى أعماله الشمالية، فخرج إليه و لقيه فى ثنية العقاب من دمشق فانهزم أصحاب ابن أبى الساج و ثبت هو، فحاربه حتى هزمه أقبح هزيمة، و استبيح عسكره قتلا و أسرا، و اتبعه جيش الى الفرات.

و فى ذلك يقول البحترى:

و قد تولت جيوش النصر منزلةعلى جيوش أبى الجيش بن طولونا

يوم الثنية إذ ثنى بكرتهخمسين ألفا رجالا أو يزيدونا

عهد جيش بن خمارويه و ظهور القرامطة و انقراض الطولونية:

و فى أيام خمارويه بن طولون استقامت شؤون الديار المصرية، و مع أن أيام المعتضد العباسى كانت أيام فتوق فقد حمدت سيرته. ولى و الدنيا خراب، و الثغور مهملة، فقام قياما مرضيا حتى عمرت مملكته، و كثرت الأموال، و ضبطت الثغور، و كان قوى السياسة، شديدا على أهل الفساد، حاسما لمواد أطماع عساكره عن أذى الرعية، محسنا الى بنى عمه من آل أبى طالب. و فى سنة ۲۸۲ ذبح أبو الجيش خمارويه فى دمشق على فراشه، و لما بلغ المعتضد ذلك قتل من خدمه الذين باشروا قتله نيفا و عشرين خادما.

و كان مقتل خمارويه فى قصره بسفح قاسيون، بعد أن فتح الشام كله، و لم يسع الخليفة إلا إقراره على عمله و الاكتفاء بمال يحمل إليه فى بغداد، و خلفه ابنه جيش بن خمارويه فخلعه طغج بن جف أمير دمشق سنة ۲۸۳ و اختلف جيش جيش عليه لتقريبه الأراذل و تهديده قواد أبيه، فثاروا عليه و قتلوه، و نهبوا داره و نهبوا مصر و أحرقوها، و أقعدوا هارون بن خمارويه فى الولاية، و عصى هارون

بن خمارويه على الخليفة، و بعد حروب

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۷۹

كثيرة عقد الصلح بين الخليفة العباسى و بين هارون سنة ۲۸۶، فبقيت حلب للخليفة و ما زالت الدولة بالفعل بالشام و مصر لبنى طولون و بالاسم لبنى العباس حتى سنة ۲۹۲، و قد بعث المكتفى العباسى، مع محمد بن سليمان جيشا فاستولى على دمشق، ثم سار الى مصر و ذبح بنى طولون و هم عشرون إنسانا، ذبحهم بين يديه هم و قوادهم كما تذبح الشياه، و أشخص من أبقى عليه من آلهم و قوادهم الى بغداد، فانقرضت بذلك الدولة الطولونية.

لا- جرم أن روح الطولونيين هى روح العباسيين تطورت بتطور الأقطار التى استولوا عليها. و على كثرة ما بذل الطولونيون من أسباب التقرب من خلفاء بغداد لم يسكت العباسيون عنهم. تقربوا إليهم بالصهر و الأموال و الطاعة فلم يرضوا عنهم. و لما قوى جيش العباسيين قرضوهم و قتلوا قوادهم. و فى استيلاء الطولونيين على الشام شعرت الأمة أنها مستقلة عن العباسيين، و أن فى استطاعتها إذا جهزت لها جيشا عظيما كجيش أحمد ابن طولون و ابنه خمارويه أن تستقل، لأن قوة بنى العباس لم تعد كما كانت، بمعنى أن ابن طولون هتك ستر الخلافة، فطمع فيها عمال الأطراف. و الدولة الطولونية دولة عمران، عمرت الأرجاء فى أيامها، و رأت مصر و الشام أنهما إذا ألفتا حكومة واحدة تصبحان دولة قوية يرهب بأسها. و قد أكثر الشعراء من رثاء الدولة الطولونية و مما قاله بعضهم:

فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهلهلفقدهم فليبك حزنا على مصر

ليبك بنى طولون إذ بان عصرهمفبورك من دهر و بورك من عصر

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۰

دور الدولة العباسية الأوسط «الإخشيدية و الحمدانية و الفاطمية» ۲۹۲- ۳۶۴

القرامطة و البوادى و الخوارج:

اشتدت شوكة القرامطة (۲۸۹) فى الشام جاءوها من المطرق، و هزموا جيش طغج بن جف امير دمشق للأمويين بوادى القردان و الأفاعى ثم حاصروا دمشق فاجتمعت عليهم العساكر و قتلوا مقدمهم يحيى المعروف بالشيخ فقام فى القرامطة أخوه الحسين و تسمى بأحمد و أظهر شامة بوجهه زعم أنها آيته فسمى بصاحب الشامة، و كثر جمعه فصالحه أهل دمشق على مال دفعوه، و تقرمط أكثر من حولها من أهل الغوطة و غيرها و عاضدوه، ثم انصرف عن دمشق الى حمص فغلب عليها و خطبوا له من منابرها و تسمى بالمهدى أمير المؤمنين، ثم سار الى حماة و المعرة و غيرهما و قتل أهلها حتى الأطفال و النساء و أخذ سلمية بالأمان فبدأ بمن فيها من بنى هاشم و كانوا جماعة فقتلهم أجمعين، ثم قتل البهائم و أباد أهل بعلبك، و عندها صحت

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۱

عزيمة الخليفة المكتفى فأرسل من العراق جيشا، والى الطولونيين فأرسلوا من مصر جيشا آخر فواقعوهم فى كناكر و كوكب، فأصبح القرامطة بين جيشين جيش الطولونيين من أمامهم و جيش الخليفة من ورائهم. و كان من أمر جيش العراق أن وصل من طريق الموصل الى وادى بطنان قرب حلب و فى جملة قواده أبو الأغر فنزع فيما ذكر جماعة من أصحابه ثيابهم، و دخلوا الوادى يتبردون بمائه، و كان يوما شديد الحر، فبينما هم كذلك إذ وافى جيش القرمطى فكبسهم على تلك الحالة فقتل منهم خلقا كثيرا، و انتهب العسكر و أفلت أبو الأغر فى جماعة من أصحابه، فدخل حلب و أفلت معه مقدار ألف رجل، و كان فى عشرة آلاف بين فارس و راجل، و كان قد ضمّ إليه جماعة ممن كان على باب السلطان من قواد الفراغنة و رجالهم، فلم يفلت منهم إلا اليسير، ثم صار أصحاب القرمطى الى باب حلب فحاربهم أبو الأغر و من بقى معه من أصحابه و أهل البلد، فانصرفوا عنه بما أخذوا من عسكره من الكراع و

السلاح و الأموال و الأمتعة، و مضى المكتفى بمن معه من الجيش حتى انتهى الى الرقة فنزلها و سرّح الجيوش الى القرمطى جيشا بعد جيش.

و فى سنة ۲۹۰ أيضا تحارب القرمطى صاحب الشامة و بدر مولى ابن طولون، فانهزم القرمطى و قتل من أصحابه خلق كثير و مضى من سلم منهم نحو البادية فوجه المكتفى فى أثرهم الحسين بن حمدان و غيره من القواد.

و كان المكتفى عهد بإمارة الشام الى أحمد بن كيغلغ سنة ۲۹۱ و صار هذا الى مصر لقتال الخليجى الثائر، فواقعه بالقرب من العريش فانهزم أقبح هزيمة فطمعت القرامطة فى دمشق لغيبة ابن كيغلغ عنها، فنهبوا فيها و ساعدهم أن بعض السكان دانوا بمذهبهم، ثم سار القرامطة الى طبرية (۲۹۳) و قتلوا أكثر أهلها رجالا و نساء و أولادا. و قال المسعودى: إن القرمطى الذى خرج يكنى أبا غانم و قد خرج فى جمع من كلب و قوى أمره و كثر أتباعه، فوجه الخليفة ابى القرامطة الحسين بن حمدان بن حمدون فحاربهم الى أن ظفر بهم و أحضر رأس صاحبهم الى بغداد، و كان القرمطى فى طريقه الى طبرية مرّ بمدينتى بصرى و أذرعات

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۲

فحارب أهلهما ثم أمّنهم، فلما استسلموا له قتل مقاتلتهم و سبى ذراريهم و استاق أموالهم، ثم نهض الى دمشق فخرج إليه من كان بقى بها مع صالح بن الفضل خليفة أحمد بن كيغلغ، فقتل صالحا و فض عسكره، و لم يطمع فى دمشق إذ دافعهم أهلها عنها.

و بالحزم الذى أظهره المكتفى فى قتال القرامطة بالشام و بالجيوش التى سرحها من بغداد و سرّحت له من مصر اضمحل أمر الباطنية، و لم يبق لهم أمل فى ملك، و انفض عنهم الأعراب و المتلصصة و من قال بقولهم و شايعهم على قيام أمرهم: و لو لا الحزم لأوشكوا أن ينشئوا لهم ملكا بالشام، كما حاول الزنج فى العراق أن ينشئوا لهم دولة لو لا قيام الموفق ولى عهد الخلافة العباسية ذلك القيام المحمود فى قمع شأفتهم. و كان ادعى القائمون بالقرمطة الشرف و أنهم يمتون بالقرابة الى آل البيت. قال بعض المؤرخين: إن القرمطى فى الشام المكنى أبا القاسم كان ينتمى الى آل أبى طالب.

و فى سنة ۲۹۱ سار نائب طرسوس المعروف بغلام زرافة نحو بلاد الروم ففتح مدينة أنطاكية و قتل خمسة آلاف و أسر مثلهم و استنفد من الأسارى خمسة آلاف و أخذ لهم ستين مركبا فحمل فيها ما غنم من الأموال و المتاع و الرقيق و قدر نصيب كل رجل ألف دينار فاستبشر المسلمون بذلك.

عاث بنو تميم فى أعمال حلب و أفسدوا إفسادا عظيما و حاصروا و اليها زكا ابن الأعور. فكتب المقتدر باللّه الى الحسين بن حمدان فى إنجاد زكا بحلب، فكانت وقعة بين الحسين بن حمدان و أعراب كلب و النمر و أسد و غيرهم (۲۹۴) فاجتمعوا عليه و هزموه حتى بلغوا به باب حلب ثم أسر منهم و قتل. و فى سنة ۲۹۸ كان دخول الروم الى ساحل الشام فافتتح صاحبهم حصن القبة بعد حروب طويلة و عدم مغيث يغيثهم من المسلمين و افتتح مدينة اللاذقية فسبى منها خلقا كثيرا.

و من أهم الأحداث ما وقع من الهيج بدمشق فى زمن وصيف البكتمرى الذى ولى إمارة دمشق فى أيام المقتدر بعد هلال بن بدر (۳۱۶) و فى أيامه خلع المقتدر المرة الثانية ثم رجعت إليه الخلافة فطلب الأولياء من

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۳

البكتمرى البيعة له بدمشق فامتنع عليهم، فركبوا الى داره بالسلاح و النفاطات. و كانت دار الإمارة فى تلك الأيام خارج لؤلؤة الصغيرة على نهر بانياس فأحرقوها و بقيت عرصته. و فى هذا الدور سار (۳۱۹) طريف بن عبد اللّه السبكرى الخادم والى حلب الى بنى القصيص التنوخيين و حاصرهم فى حصونهم باللاذقية و غيرها فحاربوه حربا شديدة ثم نزلوا على الأمان.

و من أهم الكوائن فى خاتمة القرن الثالث ظهور ابن الرضا و هو محسن ابن جعفر بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر بن محمد فى أعمال دمشق، و كانت له مع أبى العباس أحمد بن كيغلغ وقعة فقتل صبرا، و قيل قتل فى المعركة و حمل رأسه الى مدينة السلام فنصب على الجسر الجديد بالجانب الغربى ذكر ذلك المسعودى. و لو تم الأمر لابن الرضا لقامت دولته قبل دولة الفاطميين.

الدولة الإخشيدية:

ظن بنو العباس أنهم نجوا من ثائر يناصب دولتهم العداء فى الشام و مصر يوم قضوا على أبناء طولون و قوادهم و قرضوا الدولة الطولونية آخر الدهر، و قتلوا ابن الرضا القائم بتأسيس دولة علوية جديدة، كما قتلوا القرمطى القائم بدعوة متدرعة بالعلوية، و قضوا على صاحب الزنج فى البصرة، و ما كانوا يظنون أن تظهر لهم فى الحال دولة أخرى قامت على أنقاض الطولونية و إن لم تكن مثلها استعدادا و عدلا فليست دونها من أكثر الوجوه و الاعتبارات. ظهرت لهم الدولة الإخشيدية أو دولة بنى طغج.

و الإخشيد كلمة فارسية معناها ملك الملوك و معنى طغج عبد الرحمن، و رأس هذه الدولة أبو بكر محمد بن طغج بن جفّ بن بلتكين بن فورى ابن خاقان. و كان جفّ جد الإخشيد قد سار من فرغانة الى المعتصم العباسى، فأكرمه و أقام معه الى أن توفى المعتصم، فصحب ابنه الواثق الى أن توفى، ثم صحب أخاه المتوكل الى أن توفى جفّ. و لما توفى ابن طولون صار طغج مع ابنه أبى الجيش فولاه دمشق و طبرية الى أن

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۴

قتل أبو الجيش. و لما بويع هارون بن أبى الجيش، ولى طغج دمشق و طبرية، و تولى طغج قتال صاحب الخال القرمطى سنة تسعين و مائتين الى أن ظفر به. و كان لطغج من الولد سبعة ذكور الإخشيد أحدهم.

و لم يزل طغج على دمشق و طبرية و ابنه محمد المعروف بالإخشيد يخلفه على طبرية. و كان بطبرية أبو الطيب محمد بن أبى حمزة العلوى، و كان وجه طبرية شرفا و ملكا و قوة و عفافا. فكتب الإخشيد الى أبيه طغج يذكر له أنه ليس له أمر و لا نهى مع أبى الطيب العلوى، فكتب إليه أبوه:

أعز نفسك. فأسرى محمد بن طغج على أبى الطيب فى بستان له فقتله.

و لم يزل طغج أيام أبى الجيش على دمشق و طبرية و أيام جيش و أيام هرون ابن أبى الجيش الى أن قتل هرون و انقرضت الدولة الطولونية. فمات طغج فى حبس العباس بن المحسن وزير العباسيين، و نجا من محبسه بعد مدة ابنه الإخشيد، و هرب الى الشام قاصدا أحمد بن بسطام عاملها، و بقى معه يخدمه ثم تقلد ابن بسطام مصر فسار معه الإخشيد، و كان معه الى أن توفى سنة سبع و تسعين و مائتين، فصار مع ابنه أبى القاسم على و حضر الإخشيد مع تكين الخاص وقعة حسن فيها أثره، فولاه تكين عمّان و جبل الشراة. و اتفق له و هو على عمان و الشراة فى سنة ۳۰۶ أن حاج الشام، و فيهم جماعة من أهل العراق قعد له جمع من لخم و جذام فجمع عسكره و لقيهم و معه أخوه على بن طغج فهزمهم فصار له شأن فى العراق و ذاعت كفايته و أمانته.

و تقلد محمد بن طغج الملقب بالإخشيد مصر من جهة الراضى، و كان قبل ذلك تولى مدينة الرملة سنة (۳۱۶) من جهة المقتدر و أقام بها الى سنة ۳۱۸ فوردت إليه كتب المقتدر بولايته دمشق فسار إليها و تولاها، و كان حينئذ المتولى على مصر أحمد بن كيغلغ، فلما تولى الراضى عزل أحمد بن كيغلغ و ولى ابن طغج مصر و ضم إليها البلاد الشامية، فاستقر ابن طغج بها سنة ۳۲۳ و ما نشب- و هو يتولى أعمال المعاون فى الشام علاوة على أعمال المعاون فى مصر، و قلد بدرا الخرشنى دمشق، و أحمد بن سعيد الكلابى شيخ قبيلة بنى كلاب حلب، حتى كثر بذلك الكلابيون

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۵

و زاد نفوذهم- أن خلع طاعة الخليفة العباسى، فندب الخليفة محمد بن رائق الى الشام و أقطعه إياها على أن يستخلصها من الإخشيدية، فاستولى ابن رائق سنة ۳۲۸ عليها و طرد بدرا نائب الإخشيد و ولى إمرة دمشق محمد بن يزداد الشهرزورى، فلم يزل عليها الى أن قتل محمد بن رائق بالموصل (۳۳۰) فقدم الإخشيد محمد بن طغج فاستأمن إليه محمد بن يزداد فأقره على إمرة دمشق خلافة له. و بلغ ابن رائق العريش يريد مصر، فخرج إليه الإخشيد و اقتتلا فانهزم ابن رائق الى دمشق.

ثم جهز الإخشيد الى ابن رائق جيشا مع أخيه و اقتتلوا، فانهزم عسكر الإخشيد و قتل أخوه، فأرسل ابن رائق يعزى الإخشيد فى أخيه و يقول له: إنه لم يقتل بأمرى، و أرسل ولده مزاحم و قال له: إن أحببت فاقتل ولدى به. فخلع الإخشيد على مزاحم و أعاده الى أبيه. فاستقرت مصر للإخشيد الى حد رملة فلسطين، و الشام لابن رائق من طبرية.

و فى السنة التالية بعث الإخشيد من مصر قائده كافورا الى الشام فى جيش عظيم، فهزم عامل ابن رائق و استولى على حلب، و أفسد أصحابه فى جميع النواحى و قطعت الأشجار التى كانت بظاهر حلب و كانت عظيمة جدا، و نزل عسكر الإخشيد على الناس بحلب و بالغوا فى أذاهم.

و بعد سنة عقد الصلح بين الإخشيد و ابن رائق، فاستأثر هذا بولاية حلب، و انفرد الإخشيد بدمشق يصادر أغنياءها و يستصفى أموالها، و كان ظالما مستبدا. و قد وجد بداره قبل مسيره عن مصر الى الشام رقعة مكتوب عليها: «قدرتم فأسأتم، و ملكتم فبخلتم، و وسّع عليكم فضيقتم، و أدرّت عليكم الأرزاق، فقطعتم أرزاق العباد، و اغتررتم بصفو أيامكم، و لم تتفكروا فى عواقبكم، و اشتغلتم بالشهوات و اغتنام اللذات، و تهاونتم بسهام الأسحار و هن صائبات، و لا سيما إن خرجت من قلوب قرحتموها، و أكباد أجعتموها، و أجساد أعريتموها، و لو تأملتم فى هذا حق التأمل لانتبهتم، أو ما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل، و لو دامت لمن مضى ما نالها من بقى، فكفى بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه فرح للعالم، و من المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۶

منهم أحد، و يبقى المنتظر به، افعلوا ما شئتم فإنا صابرون، و جوروا فإنا باللّه مستجيرون، وثقوا بقدرتكم و سلطانكم فإنا باللّه واثقون، و هو حسبنا و نعم الوكيل».

قالوا: و قد بقى الإخشيد بعد سماع هذه الرقعة فى فكر، و سافر الى دمشق فمات فيها سنة ۳۳۴ و لم تطل دولته غير سنتين، فهو فى الحقيقة مؤسسها سنة ۳۲۳ و أيام حكمه من حيث المجموع كانت إحدى عشرة سنة سافر فيها خمس مرات من مصر الى أعداء يقاتلهم. لما زحف عليه سيف الدولة بن حمدان فخف إليه و اقتتلا بقنسرين ثم اصطلحا و تصاهرا و تقاربا.

و فى أواخر أيام الإخشيديين (۳۵۲) خرج فى بريئة الشراة خارجى من بنى سليم يسمى محمد بن أحمد السلمى، و اجتمع إليه خلق كثير من العرب و من غيرهم و من أهل الطمع، و قوى أمره و كثر جمعه، فبلّغ كافور الإخشيد خبره و كان الشام يومئذ بيده، فأنفذ عسكرا خوفا من حادث يحدث، و تقدم الى أصحابه أن لا يبتدئوه بحرب و لا قتال، و طال مقامه و إياهم على تلك الحال، فأسرى إليه فى بعض الليالى رجل من العرب يعرف بثمال الخفاجى من بنى عقيل و أخذه أسيرا و حمله الى مصر فشهر بها راكبا فيلا، و اعتقل مدة ثم عفى عنه و خلى سبيله.

و لما تفرد كافور بالأمر (۳۵۵) جعل الحسن بن عبيد اللّه بن طغج على الشام مستخلفا من قبله، و كان فى بيت المقدس وال يعرف بمحمد ابن إسماعيل الصنهاجى اضطهد بطريق القدس، و كان أبى مقابلته فهجم عليه الوالى فى أشياعه و أحرق أبواب كنيسة القيامة، و سقطت قبتها، و نهبوا كنيسة صهيون و أحرقوها. قال ابن بطريق: و هدم اليهود و خربوا أكثر من المسلمين، ثم قتل البطريق و لما مات كافور (۳۵۶) و نصب مكانه أحمد بن على الإخشيد، و كان عمره إحدى عشرة سنة، على أن يخلفه ابن عم أبيه الحسن بن عبيد اللّه بن طغج و كان بالشام، فوقع الخلاف بين الإخشيدية، و صار كل واحد يتسمى بالأمير و كثر التحاسد، فكتب جماعة منهم الى المعز الفاطمى صاحب المغرب يستدعون منه إنفاذ

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۷

جيشه الى مصر ليتسلمها، و ضمنوا له المعونة، و على هذا انتهت أيام الإخشيديين.

الدولة الحمدانية:

بعث الخليفة العباسى محمد بن رائق لينقذ الشام و مصر من الإخشيد محمد بن طغج، فلم يضرب ابن رائق ابن طغج ضربة قاسية، و اكتفى بأن ترك له مصر الى الرملة، رملة فلسطين (۳۲۹) و قعد فى القسم الأكبر من الشام- مقابل جزية سنوية قدرها مئة و أربعون ألف دينار- أميرا يحاول أن يقيم له فيه دولة، عصى بالشام فقام يناجزه ناصر الدولة ابن حمدان القتال، و كان هذا استأثر بالموصل و الجزيرة، فقتل ابن رائق (۳۳۰) و كتب بالأمر الى الخليفة المتقى باللّه، فحل ذلك من نفسه محلا عظيما، و لقبه ناصر الدولة و لقب شقيقه عليا سيف الدولة و هذا هو صاحب الدولة التى اشتهر أمرها فى حلب و ما إليها. و بنو حمدان بطن من بنى تغلب بن وائل من العدنانية.

سار سيف الدولة (۳۳۳) الى حلب فلقى فيها يأنس المؤنسى، ففارقها يأنس، و استأمن إليه فى قطعة من الجيش، فاستولى عليها سيف الدولة، و سار الى دمشق و أقام الدعوة للمستكفى و لأخيه و لنفسه، فخلع المستكفى على سيف الدولة و على الإخشيد لأن هذا أقام الخطبة له بمصر و ما تحت حكمه من الأصقاع. و لما بويع للمطيع بالخلافة سار مع الإخشيد و ابن حمدان بسيرة المستكفى على قدم التوازن السياسى، فكتب الى الإخشيد بالتقليد، فتكافأ الإخشيد و سيف الدولة، و هدأت الفتن و استقامت الطرق.

و لما بلغ الإخشيد أن سيف الدولة سار الى حمص جرد عسكرا كبيرا و جعل عليه أربعة قواد، فساروا الى دمشق و عبوا عساكرهم، ثم ساروا الى حمص، فالتقوا مع سيف الدولة بالرّستن من أرض حمص فهزمهم سيف الدولة، فعادوا الى دمشق ثم خرجوا عنها يريدون الرملة، ثم قصدوا الى مصر و سار سيف الدولة فى إثرهم يريد دمشق، و كتب الى

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۸

جماعة الأشراف و العلماء و الأعيان و المستورين كتابا قرىء على منبر جامعها و فيه:

و قد علمتم أسعدكم اللّه، تشاغلى بجهاد أعدائى و أعداء اللّه الكفرة، و سبيهم و قتلى فيهم، و أخذى أموالهم، و تخريبى ديارهم، و قد بلغكم خبر القوانين (؟) فى هذه السنة، و ما أولانا اللّه و خولناه، و أظفرنا به، و استعملت فيهم السّنّة فى قتال أهل اللّه فما أتبعت مدبرا، و لا ذففت على جريح، حتى سلم من قد رأيتم، و قد تقدمنا الى و شاح بن تمام بصيانتكم و حفظكم، و حوط أموالكم، و فتح الدكاكين، و إقامة الأسواق، و التصرف فى المعاش، الى حين موافاتنا إن شاء اللّه.

كتب الرجحان لجيش سيف الدولة على جيش الإخشيدية، و سار كافور بعساكر مولاه الى مصر، فأقام سيف الدولة بدمشق وجبى خراجها، و جعل يطالب أهلها بودائع الإخشيد و أسبابه، و كان أحداث دمشق قد نهبوها فى يوم موت الإخشيد، و ظن ابن حمدان أن الأمر تم له فجمع الى ملكه فى الجزيرة ملك الشام، و ربما تطالّ بعد ذلك الى مصر و لم يعرف ما خبأته له الأقدار حتى زحزحته عن ملك دمشق، و اقتصرت دولته على حلب و ما إليها. و ذلك أنه اتفق أن كان يسير هو و الشريف العقيقى بضواحى دمشق، فقال سيف الدولة: ما تصلح هذه الغوطة إلا لرجل واحد. فقال له العقيقى: هى لأقوام كثيرة فقال سيف الدولة: لئن أخذتها القوانين السلطانية ليتبرأوا منها.

فأعلم العقيقى أهل دمشق بذلك، فكاتبوا كافورا يستدعونه من مصر، فجاءهم و معه أنوجور بن الإخشيد فخرج سيف الدولة الى اللّجون، و أقام أياما قريبا من عسكر الإخشيدية بقرية أكسال و كان فى خمسين ألفا، و تفرق عسكر سيف الدولة فى الضياع لطلب العلوفة، فعلم به الإخشيدية فرجعوا، و ركب سيف الدولة فرآهم زاحفين فى تعبية، فعاد الى عسكره فأخرجهم فنشبت الحرب فقتل من أصحابه خلق و أسر كذلك، و انهزم سيف الدولة الى دمشق و سار من حيث لم يعلم أهل دمشق بالوقعة (۳۳۵) و جاء الى حمص و جمع جمعا لم يجتمع له قط مثله من بنى عقيل و بنى نمير و بنى

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۸۹

كلب و بنى كلاب، و خرج من حمص، و شخص عساكر الإخشيدية من دمشق، فالتقوا بمرج عذراء على ساعتين من دمشق، و كانت الوقعة أولا لسيف الدولة ثم آخرها عليه، فانهزم و ملكوا سواده، و تقطع أصحابه فهلكوا و تبعوه الى حلب فعبر الرقة.

لم يستطع سيف الدولة بعد وقعة أكسال و مرج عذراء أن ينال من الإخشيدية، و بقيت لهم دمشق و ما وراءها حتى مصر لأن أهل دمشق خافوا من مصادرات سيف الدولة، يوم طالبهم بودائع الإخشيد و أحب أن يملك غوطتهم، فقلبوا له ظهر المجن، و لم يغنه جيشه العظيم لانصراف القلوب عنه، فاقتضى له أن يقاتل جيشين: جيش الطامعين فى تلك الديار و جيش البلاد نفسها، و ظلت حلب لسيف الدولة لأنه لم يأت فيها بادىء بدء ما أتاه من أفعال الظلم. و حلب أقرب الى مهد عصبيته و هى الثغور الشامية و الجزرية و ديار مضر و ديار بكر. و اصطلح سيف الدولة و الإخشيد و صاهره و تقرر لسيف الدولة حلب و حمص و أنطاكية، و من الأحداث فى هذه الحقبة أن شبيب بن جرير العقيلى تقلد عمان و البلقاء و ما بينهما من البر و الجبال- على عهد كافور فعلت منزلته و اجتمعت إليه العرب و كثرت حوله و سولت له نفسه أخذ دمشق و العصيان بها، فسار إليها فى نحو عشرة آلاف و قاتله أهلها و سلطانها و استأمن إليه جمهور الجند الذين كانوا بها و غلقت أبوابها، فنزل بعض أصحابه على الثلاثة الأبواب التى تلى المصلى يشغلهم بهم، و دار هو حتى من الحميريين على القنوات حتى انتهى الى باب الجابية و حال بين الوالى و بين المدينة ليأخذها فهلك و انهزم أصحابه لما رأوا مصرعه فخالفوا الى الموضع الذى دخلوا منه فأرادوا الخروج منه فقتل أربعمائة فارس و بضعة عشر. و كانت علائق الإخشيديين كصلات الحمدانيين اسمية مع خلفاء بغداد، و اشتهر الإخشيديون و هم عجم بشحهم، و الحمدانيون العرب بكرمهم، و كان الإخشيديون من أهل السنة، و الحمدانيون يرون رأى الشيعة.

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۰

مغازى سيف الدولة:

كان سيف الدولة يحمل بين جنبيه نفسا عظيمة، و لطالما حارب الروم و غزاهم، و من الأحداث فى أيامه إحراق حصن فامية سنة ۳۳۸ نازله الدوقس فى ثلاثين ألفا و حاصره سبعة أشهر و أشرف على أخذه فدفعه عنه صمصامة والى دمشق فقتل الدوقس و قتل من عسكره أربعة عشر ألفا و أسر منهم خلق كثير و كسروا بعد أن ظهروا. و منها أخذ سيف الدولة حصن برزويه من الأكراد بعد أن قاتلهم مدة. و فى السنة التالية خرج بسيل ملك الروم الى الشام و فتح شيزر بالأمان لقلة رجالها. و فى سنة ۳۴۵ سار سيف الدولة الى الروم فغنم و سبى و فتح عدة حصون و رجع الى أذنة فأقام بها ثم ارتحل الى حلب. و من غزواته غزوة سنة ۳۴۹، أوغل فى الروم و فتح حصونا، فلما أراد الخروج من أرضهم أخذوا عليه الدرب الذى أراد الخروج منه، فقطعوا الأشجار و سدوا بها الطرق و دهدهوا الصخور فى المضايق على جيشه، و الروم وراء الناس مع الدمستق يقتلون و يأسرون.

و كان مع سيف الدولة أربعمائة أسير من وجوه الروم فضرب أعناقهم، و عقر جماله و كثيرا من دوابه. و أحرق الثقل و قاتل قتال الموت و نجا فى نفر يسير قيل فى ثلاثمائة من غلمانه، و استباح الدمستق أكثر الجيش و أسر الأمراء و القضاة، و وصل سيف الدولة الى حلب و لم يكد، و كان جيشه ثلاثين ألفا. و أرسل الدمستق الى سيف الدولة يطلب الهدنة فلم يجبه إليها مع ما حلّ به منه، ثم جهز سيف الدولة جيشا فدخلوا بلد الروم من ناحية حران فغنموا و أسروا، و غزا أهل طرسوس أيضا فى البر و البحر، ثم سار سيف الدولة من حلب الى آمد (ديار بكر) فحارب الروم و خرب الضياع. قال مسكويه فى وقعة ۳۴۹: و خرج أهل طرسوس من طريق آخر فسلموا، و السبب فى سلامتهم و مصاب سيف الدولة، أن هذا الرجل كان معجبا، يحبّ أن يستبد برأيه، و ألا تتحدث نفسان أنه عمل برأى غيره، و كان أشار عليه أهل طرسوس بأن يخرج معهم، لأنهم علموا أن الروم قد ملكوا عليه الدرب الذى يريد الخروج منه

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۱

و شحنوه بالرجال، فلم يقبل منهم و لجّ فأصيب المسلمون بأرواحهم، و أصيب هو بماله و سواده و غلمانه.

و أغار الروم مرة على أطراف الشام فسبوا و أسروا، فساق وراءهم سيف الدولة و لحقهم فقتل منهم مقتلة و استرد ما أخذوه. و استولى الروم سنة ۳۵۱ على حلب دون قلعتها و على الحواضر، و حصروا المدينة و ثلموا السور، و قاتل أهلها الروم أشد قتال فتأخر الروم الى

جبل جوشن، ثم وقع بين الحلبيين نهب فلم يبق على السور أحد، فهجم الروم على البلد و فتحوا أبوابه و أطلقوا السيف و سبوا بضعة عشر ألف صبى و صبية و غنموا كثيرا و أحرقوا ما بقى. و كان سيف الدولة غائبا و قاتل الدمستق عند عودته فقتل غالب أصحابه، و ظفر الدمستق بدار سيف الدولة فى الدارين من أرض حلب فأخذ منها ثلاثمائة و خمسين بدرة من الدنانير ما عدا السلاح و الدواب. و كانت عدة عسكر الروم مائتى ألف رجل منهم ثلاثون ألفا بالجواشن ، و ثلاثون ألفا للهدم و إصلاح الطرق من الثلج، و أربعة آلاف بغل يحمل الحسك الحديد. و فى رواية أن جيش الروم كان ثمانين ألف فارس ما عدا السواد و هو كثير جدا، و أن سيف الدولة نادى فى حلب من لحق بالأمير فله دينار، و أنه انهزم الى ناحية بالس بعد أن قتل من جيشه من أهل حلب مدة ستة أيام جملة كثيرة من الناس. قال الذهبى: و قتلوا الأسرى ثم عادوا الى القلعة فإذا طلائع قد أقبلت نحو قنسرين، و كانت نجدة للروم، فتوهم الدمستق أنها نجدة لسيف الدولة فترحل خائفا.

و فى سنة ۳۵۵ سار صاحب الروم الى الشام فعاث و أفسد، و أقام به نحو خمسين يوما فنزل على منبج و أحرق الرّبض و خرج إليه أهلها، فأقرهم و لم يؤذهم، ثم سار الى وادى بطنان و سار سيف الدولة متأخرا الى قنسرين، و قد ضيق رجاله و الأعراب الخناق على الروم، و أخذت

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۲

الروم أربع ضياع بما حوت، فراسل سيف الدولة ملك الروم و بذل له مالا يعطيه إياه فى ثلاثة أقساط فقال: لا أجيبه إلا أن يعطينى نصف الشام، فإن طريقى الى ناحية الموصل على الشام. فقال سيف الدولة:

لا أعطيه حجرا واحدا. ثم جالت الروم بأعمال حلب، و تأخر سيف الدولة الى ناحية شيزر، و أنكب العرب فى الروم غير مرة و كسبوا كثيرا، و نزل عظيم الروم على أنطاكية يحاصرها ثمانية أيام ثم رحل عنها.

قل المنتقضون على سيف الدولة لبطشه، و ممن خالفه بنو كلاب (۳۴۳) فحاربهم و كان اصطنعهم حتى استطالوا على العرب، و أوقع ببنى عقيل و قشير و بنى العجلان و بنى كلاب حين عاثوا فى عمله و خالفوا عليه. و هذه الغزوات تعد فى باب المناوشات لا الحروب مثل غزوة سيف الدولة للمبرقع الذى دعا الناس الى نفسه، و التفت عليه القبائل، و افتتح مدائن من أطرف الشام و أسر أبا وائل تغلب بن داود بن حمدان، و هو خليفة سيف الدولة على حمص، و ألزمه شراء نفسه بعدد من الخيل و جملة من المال، فأسرى سيف الدولة من حلب حتى لحقه فى اليوم الثالث بنواحى دمشق فأوقع به و وضع السيف فى أصحابه فلم ينج إلا من سبق فرسه، و عاد سيف الدولة الى حلب و معه أبو وائل و بين يديه رأس الخارجى على رمح. و ممن خالفه أهل أنطاكية سنة ۳۵۴ و عليهم رشيق النسيمى فسار الى جهة حلب و حاصر قلعتها ثلاثة أشهر و عشرة أيام، و قاتل قرعويه غلام سيف الدولة و عامله قتالا شديدا، و كان هذا بميافارقين، فأرسل عسكرا مع خادمه بشارة فقتل رشيق و هرب أصحابه الى أنطاكية، و لما عاد سيف الدولة اجتمع على حرب ابن الأهوازى و الديلمى اللذين قاما مقام رشيق، فقتل هذا الثائران، و قتل من ولاتهما و قضاتهما و شيوخهما خلق.

و ذهب قرعويه الى أنطاكية فجرت بينه و بين الديلمى وقعة انهزم فيها قرعويه و عاد الى حلب، و سار الديلمى فى أثره الى حلب، فلقيه أصحاب قرعويه و دفعوه الى أنطاكية. قال ابن قاضى شهبة فى حوادث سنة ۳۵۵:

إن أهل أنطاكية خرجوا عن طاعة سيف الدولة لاشتغاله بنفسه، فتفرغ لهم و قاتلهم قتالا شديدا ثم انتصر و أسر خلائق من أهلها، فصادر أعيانهم

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۳

و أخذوا خطوطهم بأموال عظيمة و قتل خلقا منهم، حتى قيل: إنه قتل نحو خمسة آلاف رجل، و كتب الى ولده أبى المعالى كتابا يبشره بذلك و قال فيه: ما شاهدت عسكرا، على كثرة مشاهدى للحرب، استولى على جميع رؤسائه و أتباعه مثل هؤلاء، و لا غنم عسكر مثل ما غنم منهم.

و سار ملك الروم بجيوشه الى الشام (۳۵۵) فعاث و أفسد، و قيل: إن أهل أنطاكية راسلوه و بذلوا له الطاعة و أن يحملوا إليه مالا، و كان الذى حركه و أحنقه إحراق بيعة القدس، و كان البطريق كتب الى كافور صاحب مصر يشكو قصور يده عن استيفاء حقوق البيعة، فجاءه من الناس ما لم يطق دفعه و قتل البطريق، و أحرقت البيعة و أخذوا زينتها، فراسل كافور ملك الروم بأن يرد البيعة الى أفضل ما كانت فقال: بل أنا أعيدها بالسيف. فلما خرج ملك الروم أصعد سيف الدولة أهل المدينة الى قلعة حلب، و أنجفل الناس و عظم الخطب، و أخليت نصيبين، و نزل صاحب الروم على منبج و أحرق الربض، و خرج إليه أهلها فأقرهم و لم يؤذهم، و أنكت العرب فى الروم غير مرة و كسبوا ما لا يوصف، و حاصر الروم أنطاكية ثمانية أيام ليلا و نهارا، و بذل الأمان لأهلها فأبوا فقال: أنتم كاتبتمونى و وعدتمونى، فردوا عليه ردا قبيحا و حاربوه أشد حرب.

محاسن سيف الدولة و مقابحه:

توفى سيف الدولة بن حمدان سنة ۳۵۶ بعد أن غزا الروم أربعين غزوة له و عليه، فحفظ بغزواته بيضة العرب و الإسلام، و لولاه لتقدم الروم فى الشام، و ربما استصفوها كلها بعد ما ثبت من ضعف العباسيين. و كان جمع من نفض الغبار الذى يجتمع عليه فى غزواته شيئا و عمله لبنة بقدر الكف، و أوصى أن يوضع خده عليه فى لحده فنفذت وصيته فى ذلك.

ترجمه الأزدى بقوله: «كان معجبا برأيه، محبا للفخر و البذخ، مفرطا فى السخاء و الكرم، شديد الاحتمال لمناظريه، و العجب بآرائه،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۴

سعيدا مظفرا فى حروبه، جائرا على رعيته، اشتد بكاء الناس عليه و منه».

نعم كان سيف الدولة جائرا على رعيته يخرب قرية ليجيز شاعرا، و لما تربع فى دست الملك بحلب استكثر من القصور له و لآله و قواده، و جعلها كحضرة بنى العباس كعبة العلم و الأدب، فوافاه الشعراء و العلماء من الأقطار، و كان كريما مفضلا خصوصا على مداحه. ينفق نفقات طائلة على علماء بغداد و مهاداة وزرائها و أرباب النفوذ فيها، فكان حماته فى دار الخلافة كثارا استمال بهم الرأى العام البغدادى، فرضى الخلفاء و لم يخالفوه لأنه أبقى لهم الخطبة و إن ضرب السكة باسمه.

و لقد استحل سيف الدولة للقيام بهذه الأبهة الضخمة فى مملكته الصغيرة مصادرة رعيته، فكان قاضيه أبو الحصين يقول: «كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك» و لذلك كثرت مصادرة كل غنى من التجار و غيرهم، فخربت الأصقاع الشمالية فى أيامه. و ذكر المؤرخون أن أبا الحصين الرقى قاضى حلب قتل فى إحدى المعارك، فداسه سيف الدولة بحصانه و قال:

«لا رضى اللّه عنك فإنك كنت تفتح لى أبواب الظلم». على أن هذا لا ينجى سيف الدولة من المؤاخذة لأنه كان يتيسر له صرفه عن القضاء، و ليس أبو الحصين من أرباب العصبيات حتى يخافه. و من كثرة مظالم سيف الدولة أن بنى حبيب و هم أبناء عم بنى حمدان، كانوا ينزلون نصيبين «فأكبّ عليهم بنو حمدان بصنوف الجور، حتى خرجوا بذراريهم فى اثنى عشر ألف فارس الى الروم. و تنصروا بأجمعهم، ثم عادوا الى بلاد الإسلام على بصيرة بمضاره، و علم بأسباب فساده و قلوبهم تضطرم حقدا» على ما قال ابن حوقل، و أخذوا يخربون القرى فى الجزيرة و الشام و أطمعوا صاحب الروم بأنطاكية و حلب.

و كانت لسيف الدولة طرق غريبة فى الرحمة، من ذلك أنه سار مرة بالبطارقة الذين فى أسره الى الفداء، و كان فى أسر الروم ابن عمه أبو فراس و جماعة من أكابر الحلبيين و الحمصيين فأخذ بالفداء، و لما لم يبق معه من أسرى الروم أحد اشترى الباقين كل نفس باثنين و سبعين دينارا حتى نفد ما معه من المال، فاشترى الباقين و رهن عليهم بدنته (درعه) الجوهر المعدومة

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۵

المثل. ثم لما لم يبق أحد من أسرى المسلمين كاتب نقفور ملك الروم على الصلح. قال ابن الوردى: و هذه من محاسن سيف الدولة. و من حسناته أنه أنفق فى سنة ۳۵۵ على فداء الأسرى خمسمائة ألف دينار، و كان ورث هذا المبلغ من أخته.

و ذكر المؤرخون أنه كان يقف على مائدة سيف الدولة أربعة و عشرون طبيبا، لينصحوا له بتناول ما ينفع مزاجه، و أنه كان من أهل الأدب و غيرهم من يتناول رزقين و ثلاثة. و فى باب كرمه و اسرافه غرائب، منها أنه أنفق تسعمائة ألف دينار فى جهاز ابنته و عرسها، و ضرب دنانير فى كل دينار ثلاثون دينارا و عشرون و عشرة. قال الأزدى: و يقال إنه جاد بما لم يجد به أحد. قالوا: إنه كان لا يملك نفسه، و يجود بكل ما لديه إذا قصده من يريد إكرامه، كل هذا على ما فيه من المفاخر يحمل فى مطاويه الظلم و إعنات الرعية. فسيف الدولة ممن خلط عملا صالحا و آخر سيئا و حسناته أكثر.

ابتداء الدولة الفاطمية:

كان كافور آخر ملوك الإخشيديين مملوكا حبشيا ذا عقل و دراية و حسن إدارة، استولى بالفعل على زمام الحكم فى مصر و الشام على عهد أبى القاسم أنوجور محمود و أبى الحسن على، ولدى محمد بن طغج الإخشيدى رأس الدولة الإخشيدية، ثم تولاه مستقلا بنفسه، و قام بالأمر بعده أبو الفوارس أحمد، بمعنى أن الدولة الإخشيدية امتدت أربعا و ثلاثين سنة من سنة ۳۲۳ الى ۳۵۷ و لما آذنت شمسها بالأفول انتشرت الفوضى فى المملكة، فرأى عقلاء مصر أنه لا ينجيها مما صارت إليه إلا إلقاؤها فى أحضان دولة قوية فتية تنقذ الأمة من بلائها، و كان للقائم بالدولة الفاطمية أو العبيدية التى نشأت فى المغرب و امتد سلطانها هوى فى هبوط مصر ففاوضوه فى أمرها، و كان حاول غير مرة أن يستولى عليها فرده عنها جيش بنى العباس.

و بلغ المعز الفاطمى اختلاف الأهواء و تفرق الآراء، فجهز العسكر

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۶

إليها بإشارة المصريين، فهربت العساكر الإخشيدية من القائد جوهر الذى جاء مصر فى مئة ألف محارب و ألف و خمسمائة جمل تحمل الذهب و الفضة، و اتفق أن ورد القرامطة الى دمشق، و أتوا عليها و على سائر أعمالها، و ساروا الى الرملة و لقيهم الحسن بن عبيد اللّه بن طغج، و وقع بينهم حرب عظيمة بظاهر الرملة فى ذى الحجة سنة ۳۵۷، فانهزم ابن عبيد اللّه من الشام و دخل الى مصر، فاستولت القرامطة على الرملة و استباحوها، فقاطعهم أهلها على مائة و خمسة و عشرين ألف دينار، شروا بها أنفسهم منهم و أخذوا من أعمالهم بشرا كثيرا. و إذ رأى الروم أن مصر قد عبثت بها الفوضى، و أن الشام فى ضعف و وهن، أغاروا على الشام (۳۵۸) فقتلوا و سبوا فى حمص و الثغور و قتلوا خلائق و سبوا نحو مائة ألف إنسان، و خاف المسلمون، و لم يشكوا فى أن الروم يملكون الشام و مصر و الجزيرة و دياربكر لخلو الجميع عن المانع. فأقام جوهر الخطبة للمعز الفاطمى. قال المسبّحى: لما استقر المعز بمصر انفرد بها و لم يدخل تحت طاعة الخلفاء العباسية و ادعى الخلافة لنفسه بمصر و قال: نحن أفضل من الخلفاء العباسية لأننا من ولد فاطمة بنت رسول اللّه. و لما استقرت قدم جوهر بمصر، سير جمعا كثيرا مع جعفر بن فلاح الى الشام فبلغ الرملة و بها الحسن بن عبيد اللّه بن طغج، و جرت بينهما حرب أسر عقيبها ابن طغج و استولى جعفر على فلسطين، وجبى أموالها ثم سار الى طبرية، فوجد أهلها قد أقاموا الدعوة للمعز قبل وصوله، فجهز منها من استمال من بنى مرة و فزارة لحرب بنى عقيل بحوران و البثنية و أردفهم بعسكر من أصحابه، فواقعوا بنى عقيل و هزموهم الى أرض حمص، و سار هو من طبرية الى دمشق، فقاتله أهلها فظفر بهم و ملكها بعد فتن و حروب و نهب بعضها و أحرق الآخر. و أقام الخطبة للمعز سنة ۳۵۹ و قطعت الخطبة العباسية، و استقرت دمشق للمعز الفاطمى. و أصبح بنو عبيد الفاطميون خلفاء مصر و الشام و المغرب.

و كان رئيس الثورة بدمشق سيدها و صدرها فى عصره أبو القاسم بن أبى يعلى الهاشمى العباسى. فأخذه جعفر بن فلاح و شدّه على جمل،

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۷

و فوق رأسه قلنسوة، و فى لحيته ريش، و بيده قصبة و بعث به الى مصر.

و ضرب الفاطميون على دمشق دية عم الناس البلاء فى جبايتها، و تطلب حمال السلاح فظفر بقوم منهم، و ضرب أعناقهم و صلب جثثهم، و علق رؤوسهم على الأبواب.

و فى سنة ۳۶۰ أنفذ جعفر غلامه فتوحا على عسكر الى أنطاكية، و كان لها فى أيدى الروم نحو من ثلاث سنين، و سير الى أعمال دمشق و طبرية و فلسطين فجمع منها الرجال، و بعث عسكرا بعد عسكر الى أنطاكية، و كان الوقت شتاء فنازلوها حتى انصرم الشتاء و هم ملحّون فى القتال، فلم يظفر بطائل، و انهزم عسكره آخر الأمر و قتل منهم كثيرون. و بلغ جعفر بن فلاح مسير القرامطة الى الشام و قد أمدّهم صاحب بغداد لقتال جيش الفاطميين فاستهان بهم و واقعهم. فانهزم منهم قرب دمشق و قتل فى المعركة، و ملك القرامطة دمشق و أمنوا أهلها ثم ساروا الى الرملة فملكوها و اجتمع اليهم كثير من الإخشيدية. قتل القرامطة جعفر بن فلاح مخافة أن يفوتهم حمل المال الذى كان تقرر بينهم و بين ابن طغج، و هو ثلاثمائة ألف دينار فى السنة، و ساروا يريدون الرملة، و عليها سعادة بن حيان فالتجأ الى يافا، و نزل عليه القرمطى، و قد اجتمعت إليه عرب الشام فناصبها القتال حتى أكل أهل المدينة الميتة و هلك أكثرهم جوعا، و سير جوهر من مصر نجدة الى أصحابه المحصورين بيافا، و معهم ميرة فى خمسة عشر مركبا، فأرسل القرامطة مراكبهم إليهما فأخذوا مراكب جوهر و لم ينج منها غير مركبين غنمتهما مراكب الروم.

اصطلح قرعويه (۳۶۰) مولى سيف الدولة بن حمدان متولى حلب و أبا المعالى شريف بن سيف الدولة، فخطب له قرعويه بحلب، و خطبا فى معاملتيهما للإمام المعز الفاطمى بحلب و حمص. بمعنى أن بنى حمدان و هم شيعة أسرعوا فى نزع أيديهم من أيدى العباسيين، و وضعوا أيديهم فى أيدى الفاطميين الشيعة، بيد أن الفاطميين لم يجدوا نصيرا قويا فى الشام، لأن السواد الأعظم من أهل السنة و الجماعة كانوا يخالفونهم فى مذهبهم، و قد بلغهم ما صارت إليه مصر من تغيير مذهب أهلها و مصطلحهم فى

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۸

أذانهم و صلواتهم، فشق عليهم ذلك و عزموا أن يقفوا للفاطميين بالمرصاد.

و من ذلك ما وقع سنة ۳۶۱ من التقاء سعد أمير عرب الشام بحسان بن جراح الطائى فى عربه، و اتفقا على أن ينزعا حكم مصر من الشام، و كان جيش المعز حارب عرب الشام فى حوران حربا دامية، فأرسل المعز الى حسان و وعده بمائة ألف دينار إن خذل أمير الشام. و لما دارت الحرب بينهما انهزم حسان بالعرب فضعف جانب سعد و قوى عليه المعز و كسره. و قطعت خطبة المعز من دمشق أيام القرامطة و بقيت الى أن استردها سنة ۳۶۳ و أرسل المعز قائده ظالم بن موهوب واليا على دمشق فعظم أمره و كثرت جموعه ثم وقع بينه و بين أهلها فتن دامت الى سنة ۳۶۴.

و تفصيل ذلك أن المعز سير القائد أبا محمود يتبع القرامطة فنزل بظاهر دمشق، و أمتدت أيدى أصحابه بالعيث و الفساد و قطع الطرق، فاضطرب الناس و خافوا، فوقعت فتنة عظيمة بين عسكره و بين العامة، و جرى بين الطائفتين قتال شديد و ظالم بن موهوب مع العامة، فأحرق جانب من المدينة و هلك جماعة من الناس، و عادت الفتنة بعد أن اصطلح المتقاتلون الى شدتها بينهما (۳۶۴) و اتفقوا على إخراج ظالم من البلد، و وليه جيش بن الصمصامة، و عاد المغاربة أى جيش الفاطميين و عاثوا و أفسدوا فثار العامة و قاتلوهم، ثم زحف جيشه فى العسكر الى البلد و قاتله أهله فظفر بهم و هزمهم، و أحرق من المدينة ما كان سلم، و دام القتال بينهم أياما، فاضطرب الأهلون و خافوا و خربت المنازل و انقطعت المواد، و انقطع الماء و الميرة عن البلد، و هلك الفقراء على الطرقات جوعا و بردا، و وصل الخبر الى المعز فأنكر ذلك و استبشعه، فأرسل الى القائد ريان الخادم والى طرابلس يأمره بالسير الى دمشق لمشاهدة حالها و كشف أمور أهلها.

و اتفق أن أفتكين غلام عضد الدولة انهزم فى خلال هذه الأيام من المدائن فنزل على حمص فى طائفة من الترك و الأعراب، و كان الأحداث قد غلبوا على دمشق و ليس للأعيان معهم حكم، فخرج أشرافها و شيوخها يظهرون السرور بمقدم أفتكين و يبايعونه على الطاعة لينقذهم من المصريين، فنزل على دمشق و أخذها من ريان الخادم، و أقام العدل فى الناس و كفّ

خطط الشام، ج۱، ص: ۱۹۹

أیدی الأعراب الذین کانوا عاثوا فی الأرض فسادا، و أخذوا عامة المرج و الغوطة، و دخل البلد و خطب للطائع العباسی، و أبان فی جمیع مواقفه عن شجاعة و قوة نفس و حسن تدبیر، فأذعنت له العرب، و أقطع الأرضین، و کثر جمعه، و توفرت أمواله و ثبتت قدمه، و کاتب المعز یداریه و یظهر له الانقیاد.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۰

دور الفاطمیین «من سنة ۳۶۴- ۳۹۴»

الدول الثلاث و غزوات الروم:

تقلبت علی الشام ثلاث دول فی مدد متقاربة، و هی الإخشیدیة و الحمدانیة و العبیدیة. انبثقت الدولتان الأولیان من أصل الدولة العباسیة، بمعنی أن الإخشیدیین و الحمدانیین کانوا کالطولونیین من عمال العباسیین، قوی أمرهم فاستبدوا بالشام. و أنشأوا لهم ملکا لم یتعاقب فیهم عدة بطون و أجیال. أما دولة العبیدیین فعلی خلاف هذا، کانت دولة شیعیة قامت سنة ۲۹۶ بالمغرب، و أول من ولی منهم أبو محمد عبید اللّه بن محمد بن عبد اللّه بن میمون بن محمد بن إسماعیل بن جعفر بن محمد بن علی بن الحسین بن علی بن أبی طالب رضی اللّه عنهم، دعا الدعاة أولا بالمغرب الی محمد والد المهدی عبید اللّه و کان أولا بسلمیة من الشام، و لما توفی أوصی الی ابنه عبید اللّه المهدی و أطلعه علی حال الدعاة. و شاع ذلک فی أیام المکتفی فطلب فهرب عبید اللّه و ابنه أبو القاسم محمد الذی ولی بعد المهدی و تلقب بالقائم، و توجها نحو المغرب و نزل تاهرت، و عظم شأنه فی القبائل و استجابت لدعوته، و ملک و من بعده معظم شمالی إفریقیة و جزائر البحر المتوسط مثل صقلیّة و ساردنیة و مالطة و غیرها. و الخلیفة المعز الذی فتح مصر و الشام هو رابع خلفائهم.

نشأت الدولة العبیدیة أو الفاطمیة أو العلویة کالدولتین الأمویة و العباسیة

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۱

بالشام، و قامت بالمغرب، و نمت فی مصر، و ماتت فیها. و لم تکن علی نسبة تینک الدولتین بقوة سلطانها و تأثیراتها، و لذا ظلت دولة أخری فی أقصی الشام تقاسمها السلطة، و هی الدولة الحمدانیة، اتفقت معها سیاسة اتفاقها معها مذهبا.

و فی سنة وفاة کافور (۳۵۷) جرت بین فنک بن عبد اللّه مولی کافور الإخشیدی، و کان جهزه مولاه لأخذ دمشق ثانیة، و بین أهل هذه المدینة مناوشة و قتال و إحراق و نهب، و بلغه خبر الروم و أخذهم حمص فنادی فی دمشق بالنفیر الی ثنیة العقاب بسبب الروم فخرج الناس الی دومة و حرستا و انتهز الفرصة فی خلو دمشق و رحل عنها و توجه بأثقاله نحو عقبة دمر متوجها الی الساحل، فنهب أهل دمشق بعض أثقاله و قتلوا من بقی من رجاله.

لما هلک کافور و هلک سیف الدولة و تولی الفاطمیون أمر مصر و فتحوا الشام بقی سعد الدولة (۳۵۶) ابن سیف الدولة فی مملکة حلب، و لم یکن کأبیه عقلا و تدبیرا فعصی علیه جند حلب سنة ۳۵۷، فنازلها و بقی القتال علیها مدة و استولی الرعیلی علی أنطاکیة، و جاءت الروم فنزلوا علیها و أخذوها و هرب الرعیلی من باب البحر هو و خمسة آلاف إنسان ناجین بأنفسهم من الروم، فأسر هؤلاء أهل أنطاکیة و قتلوا أناسا من أکابرها.

و قال عظیم الروم لما ضیقوا علیه: أرحل و أخرب الشام کله و أعود الیکم من الساحل، و رحل فی الیوم الثالث و نازل معرة مصرین، فأخذها و غدر بهم و أسر منهم أربعة آلاف و مائتی نسمة، ثم سار الی عرقة فافتتحها، ثم سار الی طرابلس فأخذ ربضها، و أقام فی الشام أکثر من شهر و رجع فأرضاه أهل أنطاکیة بمال عظیم. و أحرق حمص و قد أخلاها أهلها و ملک ثمانیة عشر منبرا، و عاد الی

بلاده بالأسرى و الأموال.

و قال الأنطاكى: إن نقفور لما توجه الى الشام، خافه سعد الدولة، فخرج عن حلب الى بالس، و استخلف فيها قرعويه الحاجب، و نزل الملك على أنطاكية و أقام يومين و رحل فى اليوم الثالث، و نزل على معرة مصرين و أمن أهلها من القتل، و كانت عدتهم ألفا و مائتى نفس و سيرهم

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۲

الى بلد الروم، و فتح معرة النعمان و حماة و حمص، و أخذ منها رأس القديس يوحنا المعمدانى، و نزل على طرابلس، و أحرق ربضها و حاصر مدينة عرقة تسعة أيام، و كان لها حصن منيع ففتحه بالسيف و أخذ منها خلقا كانوا التجأوا إليه من الأقاليم المجاورة و أخذ منه مالا كثيرا، و كان فى الحصن أمير طرابلس أحمد بن نحرير الأرغلى، و كان أهل طرابلس قد طردوه لجوره، و كان مأسورا و معه مال جزيل، فأسره و أخذ جميع ماله، و رجع الى بلدان الساحل فأتى عليها، و حصل فى يده من السبى ما لا يحصى عدده، و فتح حصن انطرطوس و مرقبة و حصن جبلة، و صالح أصحاب اللاذقية عليها، و خرب كثيرا من القرى، و عبر بأنطاكية و ميز السبى الذى معه و أعتق عليها من الشيوخ و العجائز زهاء ألف نفس، و بنى حصن بغراس مقابل أنطاكية فى فم الدرب و رتب فيه رئيسا يقال له ميخائيل البرجى، و رسم لسائر أصحاب الأطراف طاعته و رتب معه ألف رجل و رجع الى القسطنطينية.

و فى تاريخ العلويين أن اليهود كانوا يقطنون فى القرن الرابع فى أرجاء صهيون، و ينزل النصارى فى اللاذقية، و النصيريّة فى الجبل، و لما استولت الروم على أرجاء اللاذقية فى سنة ۳۵۷ شعر العلويون- أى النصيرية- بالتنظيمات الإدارية و العسكرية و أعلنوا الثورة على الروم و كان يرأسهم حسين ابن إسحاق الضلعينى العلوى ففاز و استقل باللاذقية سنة ۳۶۸، ثم حكم محمد بن إسحاق التنوخى ثم أخوه إبراهيم.

و فى سنة ۳۵۹ ملك الروم أنطاكية بالسيف، و قتلوا أهلها و سبوا و قصدوا حلب فتحصن قرعويه بالقلعة، و ملكوا المدينة بعد حصارها ۲۷ يوما، ثم اصطلحوا على مال يحمله قرعويه كل سنة و قدره ثلاثة قناطير ذهب عن حق الأرض، و سبعة قناطير ذهب عن خراج حلب و قنسرين و حمص و حماة و جوسية و سلمية و المعرة و كفرطاب و أفامية و شيزر و جبل السماق و معرة مصرين و الأثارب و غيرها، و عن كل حالم دينار فى السنة سوى ذوى العاهات، و أن يكون لملك الروم صاحب يقوم بحلب يستخرج أعشار الأمتعة الواردة إليها، فرحلت الروم و معهم الرهائن على ذلك،

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۳

و قد عقدوا هدنة مؤبدة و صارت الكور سائبة لا مانع للروم عنها، فطمع نقفور ملك الروم فى ملك الشام جميعه، و لم يعترف سعد الدولة بالمعاهدة التى جرت بين قرعويه و بين الروم، و ظل فى معرة النعمان، فأخرب الروم حمص حتى يضطروه الى الإذعان، و لكن جاءته نجدات فعمرها.

و فى سنة ۳۶۳ سار أبو محمود بن جعفر بن فلاح الى الشام، فى عسكر يقال إنه عشرون ألفا و دخل دمشق و تمكن بها، و غادر الروم أرض الشام سنة ۳۶۴ بعد أن فتحوا بعلبك و أخربوها و أخذوا جماعة من أهلها و صالحتهم صيدا و افتتحوا بيروت عنوة و سبوها و نهبوها، و جرى مثل ذلك على جبيل. و قاطعوا أهل دمشق على ستين ألف دينار يحملونها إليهم فى كل عام، و كتبوا عليهم بذلك كتابا و أخذوا فيه خطوط أشرافهم و أخذوا جماعة منهم رهينة و أنفذوا إليهم صليبا بالأمان فتلقوه بالإكرام. ثم انقطع حمل المال المفروض على الشام للروم، فأغضوا عن ذلك لاشتغالهم بالحرب فى آسيا الصغرى.

و فى سنة ۳۶۵ وصل بارقطاش مولى سيف الدولة الى شريف ابنه و هو بحماة من حصن برزويه و خدمه و عمر له حمص بعد خراب الروم، و تقوى بكجور مولى قرعويه و نائبه، و قبض على قرعويه بحلب و حبسه بالقلعة و استولى على حلب، فكاتب أهلها أبا المعالى شريفا فجاءهم، و أنزل بكجور بالأمان و ولاه حمص و استقر أبو المعالى بحلب. و من الأحداث فى هذا الزمن أن وشاح السلمى ولى

إمارة دمشق من قبل الحسن بن أحمد القرمطى المعروف بالأعصم، و كان الوالى إذ ذاك بها صالح بن عمير العقيلى البدوى فخرج صالح عنها، فلما رجعت القرامطة الى الأحساء رجع صالح بن عمير الى دمشق و تعصب له أحداثها فأخرجوا و شاحا عنها قهرا و سلموها الى صالح (۳۶۸). و منها أن بسيل الملك ردّ ولاية اللاذقية الى كرمروك لشنه الغارة على طرابلس و ما يليها و قتله و أسره من أهلها و من المغاربة خلقا كثيرا. و ورد عسكر المغاربة الى عمل أنطاكية مع أمير لهم يعرف بالصنهاجى، فاستظهر عليه كرمروك و قتل جماعة من أهله، فسار نزال و ابن شاكر من طرابلس الى اللاذقية (۳۷۰) و حاصر حصنها

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۴

و سار الدمستق (الدومستيقس) الى حلب (۳۷۱) و وقع الحرب على باب اليهود فى اليوم الثانى من نزوله. و طالب سعد الدولة بمال الهدنة على أن يحمل للروم فى كل سنة أربعمائة ألف درهم فضة نقية صرف كل عشرين درهما بدينار.

و خالف مفرج بن دغفل بن الجراح على العزيز باللّه و جاهر بخلع الطاعة فسير الى الشام رشيقا العزيزى (۳۷۱) فطرده عنها و هزمه. و سار ابن الجراح بعد هزيمته يريد الحجيج ليقطع عليهم الطريق عند رجوعهم، فأنفذ العزيز مفلح الوهبانى فى عسكر ليلقاهم و يدفع عنهم، فأوقع به ابن الجراح بأيلة و قتله و جميع من معه، و عاد الحجيج الى مصر فعاود ابن الجراح الشام فلقيه رشيق الحمدانى دفعة ثانية و هزمه و دخل الى البرية و التجأ الى بكجور فى حمص فأجاره، و قصد أنطاكية ملتمسا من بسيل الملك النجدة فأطلق له صلة و دفعه الى الشام و التمس من العزيز الأمان فأجابه إليه.

و لما تفرغ الروم من مشاكلهم قصدوا الى الشام سنة ۳۷۱ فاضطر سعد الدولة الى تمديد الهدنة معهم معترفا لهم بالسيادة، و متعهدا بأداء الجزية ليتخلص من حكم الفاطميين (۳۷۳). ثم عاد فأبى أداءها، فاستولوا على كليس و أوقعوا بجماعة من الحمدانية و حاصروا أفامية و قاتلوها أشد قتال، و جاءوا الى حلب، و سار قرعويه الى دير سمعان فحاصره ثلاثة أيام و فتحه بالسيف و قتل جماعة من رهبانه، و سبى خلقا التجأوا إليه من أنطاكية و دخلوا بهم الى حلب و أشهروا بها و أنفذ الدومستيقس سرية من عسكره الى كفرطاب فأوقعت بجماعة العرب و الحمدانية، و استولى المغاربة على حصن بانياس و لم يقبل الروم بالصلح مع صاحب حلب سنة ۳۷۶ إلا على شرط أن يدفع ما تأخر عليهم من الجزية لهم، و رحل بسيل ملك الروم الى الشام فحاصر حلب و فتح حمص و شيزر و أقام على طرابلس، و دامت معاهدة صاحب حلب مع الروم الى حين وفاته سنة ۳۹۲. و هكذا أصبحت الدولة الحمدانية بعد عزها على عهد سيف الدولة، ذليلة خاضعة لسلطان غيرها فى عهد خلفه.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۵

تجاذب السلطة بين العباسيين و الفاطميين:

هلك المعز الفاطمى و تولى ابنه العزيز (۳۶۵) فقصد أفتكين المستولى على دمشق سواحل الشام و عمد الى صيدا فحاصرها و بها ابن الشيخ و معه رؤوس المغاربة و معهم ظالم بن موهوب العقيلى فقاتلهم، و كانوا فى كثرة فطمعوا فيه و خرجوا إليه فاستجرهم حتى أبعدوا ثم عاد عليهم فقتل منهم نحو أربعة آلاف، و طمع فى أخذ عكا، فتوجه إليها و قصد طبرية ففعل فيها من القتل و النهب مثل صيدا و عاد الى دمشق.

ثم أرسل العزيز القائد جوهرا فى العساكر الى الشام، فلما سمع أفتكين بمسيره جمع أهل دمشق و عاهدهم فبايعوه على الطاعة و بايعهم على الذبّ عنهم، فوصل جوهر الى دمشق (۳۶۵) و رأى من قتال أفتكين و من معه ما استعظمه، و دامت الحرب شهرين قتل فيها عدد كثير من الطائفتين، فلما رأى أهل دمشق طول مقام المغاربة عليهم أشاروا على أفتكين بمكاتبة الحسن بن أحمد القرمطى ملك القرامطة و استنجاده، فجاءهم القرمطى و اجتمع إليه من رجال الشام و العرب نحو من خمسين ألفا، فرحل جوهر من دمشق خوفا من أن يبقى بين عدوين، و تبعه أفتكين و القرمطى و التقوا بيافا و حصروه فى عسقلان فعاين الهلاك هو و أصحابه من الجوع نحو

سبعة عشر شهرا، فبذل لأفتكين مالا ليمنّ عليه و يطلقه، فرحل أفتكين عنه و سار جوهر الى مصر، و أعلم العزيز بالحال، فسار العزيز بنفسه الى الشام فى سبعين ألف مقاتل، و وصل الرملة، فقاتله أفتكين و القرامطة بظاهرها قتالا شديدا، فنصر العزيز و قتل و أسر كثيرا (المحرم ۳۶۷) و قد قتل من المغاربة جيش الفاطمى نحو من عشرين ألفا.

و جعل العزيز لمن يحضر أفتكين مائة ألف دينار، و طلب أفتكين فى هزيمته بيت صاحبه مفرج بن دغفل الطائى، فأسره مفرج فى بيته و أعلم العزيز به فأعطاه الجعل، و أحضر أفتكين (۳۶۸) فأطلقه العزيز و أصحابه، و بقى عنده معظما حتى مات بها. و بعث العزيز الى الأعصم زعيم القرامطة و هو منهزم فأدركه بطبرية و أعطاه عشرين ألف دينار فسار الى الأحساء.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۶

و دلّ العزيز بكفه عن قتل أفتكين على بعد نظره، و أنه أثر فيه ما أسداه من الجميل لقائده جوهر فى نوبة عسقلان بإطلاقه سراحه و سراح من معه، فقابل العزيز أفتكين على جميله بمثله. خصوصا و أن أفتكين لم يقصر منذ استولى على دمشق بمجاملة خليفة مصر العلوى، و إن كان من جهة ثانية نزع خطبته و أرجع الخطبة العباسية فى كثير من مدن الشام، و أكرم العزيز ملك القرامطة الذى ندبه الدمشقيون على لسان أفتكين أن يعاونهم على الخلاص من الدولة المصرية لظلم عمالها و مخالفتها لهم فى المذهب، و ذلك ليستميل قلبه حتى لا يعود ثانية الى نصرة أحد من أهل بلاده عليه.

سوء حالة دمشق و اضطراب الأحكام المصرية:

لما فارق أفتكين دمشق الى فلسطين قدّم على أهلها رجلا- اسمه قسام الحارثى من الأبطال المعروفين، و قيل: من أرباب الدعارة العيارين، كان أصله من قرية تلفيتا فى سنير، يعتاش بتقل التراب على الحمير، و تنقلت به الأحوال حتى صار له ثروة و أتباع، و غلب على دمشق و ما إليها من الأصقاع، بحيث لم يبق معه لنوابها من الفاطميين أمر و لا نهى، و دام ذلك سنين. و كان القائد أبو محمود بن إبراهيم المغربى قد عاد الى البلد واليا عليه للعزيز فلم يتم له مع قسام أمر، و امتدت أيدى أصحاب أبى محمود بالعيث و الفساد و قطع الطرق فاضطرب الناس و خافوا، و انتزح أهل القرى منها لشدة نهب المغاربة أموالهم و ظلمهم لهم، و وقعت فتنة عظيمة بين عسكر أبى محمود و بين العامة، فألقى عسكره النار من باب الفراديس فأحرقوا تلك الناحية، و كانت فيها أجمل قصور دمشق، و حرق كثير من أحياء البلد، و هلك فيه جماعة و ما لا يعد من الأثاث و الأموال، ثم صالحوا القائد أبا محمود ثم انتقضوا و لم يزالوا كذلك الى سنة ۳۶۴.

و لما خاف الفاطميون عاقبة قسام الحارثى؛ إذا استلذ طعم الانتصار غير مرة، سيروا لحربه الأمير الأفضل فحاصر دمشق و ضاق بأهلها الحال، فخرج قسام متنكرا فأخذته الحرس فقال: أنا رسول. فأحضروه الى

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۷

الأفضل فقال له: أنا رسول قسام اليك لتحلف له و تعوضه عن دمشق بلدا يعيش به و قد بعثنى اليك سرا، فحلف الأفضل، فلما توثق منه قام و قبل يديه و قال: أنا قسام. فأعجب الأفضل ما فعله و زاد فى إكرامه و رده الى البلد و سلمه إليه، و قام الأفضل بكل ما ضمنه و عوضه موضعا عاش به، فلما بلغ ذلك العزيز أحسن صلته. ذكر هذا القفطى و أورد الذهبى رواية أخرى فى أمر قسام قال: إنه تقدم لقتاله سليمان بن جعفر بن فلاح الى دمشق فنزل فى ظاهرها و لم يمكنه دخولها فبعث إليه قسام بخطه أنا مقيم على الطاعة، و بلغ العزيز ذلك فبعث البريد الى سليمان يرده فترحل سليمان من دمشق و ولى العزيز عليها أبا محمود المغربى و لم يكن له أيضا مع قسام أمر و لا حل و لا عقد. قال ابن تغرى بردى:

و لعل الذى ذكره الذهبى كان قبل توجه عسكر أفتكين و الأفضل، فإن الأفضل لما سار بالجيوش أخذ دمشق من قسام و عوضه بلدا آخر و هو المتواتر.

و كـان من سياسة قسـام الحـارثى أن كـان يـدعو للعزيز باللّه العلوى على المنابر. و قبل أن يحاربه المصـريون وصل إليه أبو تغلب بن حمدان صاحب الموصل و حط رحاله فى حوران، فمنعه قسام من دخول دمشق، فاسـتوحش أبو تغلب و جرى بين أصحابه و أصحاب أبى تغلب شـىء من قتـال، فرحـل أبو تغلب الى طبريـة، و ورد من عنـد العزيز القائـد الأفضـل فى جيش فقاتله و جماعته حتى قتل فى الرملة (۳۶۹) و خلت الديار، و أتت بنو طيىء على الناس و شملهم البلاء منهم.

خوارج على دولة الجنوب و دولة الشمال:

كـان مفرج بن الجراح أمير بنى طيىء و سـائر العرب فى فلسـطين قـد كثرت جموعه و قويت شوكته، و عـاث فى فلسـطين و خربها، و هلـك من فيها فكان الرجل يـدخل الى الرملـة يطلب فيها شـيئا يأكله فلا يجـده، و مات الخلق بالجوع و خربت الأعمال، فخاف العزيز عاقبـة أمره بعـد أن رأى ما أتعب دولته من أمر الخوارج أفتكين و الأعصم و قسام و ابن حمدان، فجهز العساكر لحربه مع قائده بلتكين التركى فسار الى الرملة، و اجتمع

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۸

إليه العرب من قيس و غيرهم، و لقى ابن الجراح و قـد كمن لهم بلتكين من ورائهم، فـانهزم و مضـى الى أنطاكيـة فأجـاره صاحبهـا. و صادف خروج ملك الروم من القسطنطينية الى الشام فخاف ابن الجراح و كاتب بكجور عامل حمص لأبى المعالى بن سيف الدولة و لجأ إليه فأجاره. و كان بكجور والى حمص يمـد دمشق أيام هـذه الفتن و الغلاء و يحمل الأقوات من حمص إليها. و كانت دمشق فى هـذا العهـد قـد خربها العرب و أهل العيث و الفساد، و انتقل أهلها الى حمص فعمرت. و ربما كان هـذا القرن أشأم القرون السالفة فى الشام و دمشق خاصـة، و كان كل أذى ينزل بها و بأهلها. قال ابن بطريق: سار بكجور الى أبى المعالى بن سـيف الدولة من حلب و هو يومئـذ بحمص فخلع عليه أبو المعالى و ولاه حلب، و عاد بكجور الى حلب و أقيمت له الدعوة فيها و فى سائر أعمالها، و وافق بكجور سائر غلمان الدولة على القبض على قرعويه، و سار أبو المعالى إلى حلب و أخرجه من حمص و قبض على قرعويه، و سار أبو المعالى من حلب و فتح المعرة و ما يليها فى شوال سـنة ۳۶۶، و نزل الى حلب و معه بنو كلاب، و وقع القتال بينه و بين بكجور، و اسـتظهر أبو المعالى عليه و اسـتقر الأمر بينه و بين بكجور على ولايـة حمص. ثم عصـى بكجور على سـعد الدولة و اسـتدعى جيوش العزيز فسارت معه و نزل على حلب و تحـاربوا يومين، سـار الدمسـتق الى حلب، و ورد خبره على بكجور فرحـل إليه، فوقع القتـال و جرى بينه و بين سعد الدولة مراسلة و استقر الحال بينهم على أن يحمل إليه سعد الدولة مال سنتين أربعين ألف دينار، و سار الدمستق و قصد حمص و سبى أهلها، و أحرق بها جماعة اعتصموا فى المغاور و سار بكجور الى دمشق و تقلدها.

و كـان بكجور يكاتب العزيز الفاطمى بما يقوم به من الخـدم فاسـتنجز وعـد العزيز إياه بولايـة دمشق فولاه إياها سـنة ۷۳ إلا أنه أساء السـيرة فى أهلهـا و قتـل أناسـا و صـادر آخرين و جمع الأموال لنفسه، فجهزت العساكر عليه من مصـر مع منير الخادم و كتب الى نزّال عامل طرابلس بمظاهرته.

و جمع بكجور العرب و خرج للقائه فانهزم، ثم خاف من وصول نزال

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۰۹

فاسـتأمن إليه، و توجه الى الرقة فاسـتولى عليها، و دخل منير دمشق و استقر فى ولايتها و أحسن السيرة فى أهلها، و ارتفعت منزلته عند العزيز و جهزه لحصار سعد الدولة بحلب.

و كان بكجور بعد انصرافه من دمشق سأل سعد الدولة العودة الى ولايته حمص فمنعه لأنه كان نزع يده من الدولة الحمدانية و وضعها فى يـد الدولـة الفاطميـة، فلما أخفق عاد الى دولته الأولى فرفضـته و أجلبت عليه، فاسـتنجد بكجور الملك العزيز لحرب سـعد الـدولة فبعث الى نزّال بمظـاهرته، فسـار إليه بالعساكر، و خرج سـعد الدولـة من حلب للقائه و قـد أضـمر نزال الغـدر ببكجور، و اسـتعد سـعد

الدولـة للقائهم، و قـد اسـتمد عامل أنطاكيـة للروم فأمده بجيش كبير، و داخل العرب الذين مع بكجور فى الانهزام عنه و كانوا و عدوه ذلك من أنفسهم، فلما تراءى الجمعان و شعر بكجور بخديعة العرب استمات و حمل على الصف بقصد سعد الدولة فقتل لؤلؤا الكبير مولاه، ثم حمل عليه سـعد الدولـة فهزمه، فسار الى بعض العرب ثم حمل الى سـعد الدولة فقتله، و سار الى الرقة فملكها و قبض جميع أمواله و كان شيئا كثيرا.

و زاد مسـكويه فى تفاصـيل هذه الحادثة ما يلى: كان لبكجور رفقاء بحلب يوادونه فكاتبوه و أطمعوه فى الأمر، و أعلموه تشاغل سـعد الدولـة باللذات، فاغتر بأقوالهم و كتب الى صاحب مصـر يبذل له فتح حلب، و يطلب منه الإنجاد و المعونة، فأجابه الى كل ملتمس، و كتب الى نزّال الغورى والى طرابلس بالمسير إليه متى استدعاه من غير معاودة. و كان نزّال هذا من قواد المغاربة و صـناديدهم، فتلكأ نزّال، و كاتب سـعد الدولة بسيل ملك الروم يعلمه عصيان بكجور عليه، و سأله إنجاده بالبرجى صاحبه بأنطاكية فسار إليه، و برز سعد الدولـة فى غلمـانه و طوائف عسـكره، و لم يكن معه من العرب إلاـ خمسـمائة فـارس إلاـ أنهم أولو بـأس. و تقارب العسـكران و وقع الطراد، و كان الفارس من أصحاب سعد الدولة إذا عاد

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۰

إليه و قـد طعن أو جرح خلع عليه و أحسن إليه. و كـان بكجور شـحيحا فـإذا عـاد إليه رجل من رجاله على هـذه الحال أمر بأن يكتب اسمه لينظر مستأنفا فى أمره. فقضى شح بكجور عليه حتى أسلمه الى خصمه فقتله.

و قد أعطى سـعد الدولة سـلامة الرشيقى عهدا بالإبقاء على آل بكجور و أموالهم على أن يسلمه حصن الرافعة، و هو بلد متصل بالرقة، فخرجوا منهـا و معهم من الأـموال و الزينـة مـا كـثر فى عين سـعد الدولـة، فـإنه كـان يشاهـدهم من وراء سـرادقه، و بين يـديه ابن أبى الحصين القاضى. و قال له: ما ظننت أن حال بكجور انتهت الى ما أراه من هذه الأثقال و الأموال. فقال ابن أبى الحصين: إن بكجور و أولاـده مماليكـك و كـل مـا ملكه و ملكوه فهو لك، لا حرج عليك فيما تأخـذه منهم، و لا حنث فى الأيمان التى حلفت بها، و مهما كان من وزر و إثم فعلىّ، فلما سمع هذا القول أصغى إليه، و غدر بهم و قبض جميع ما كان معهم.

قال مسـكويه: فما كان أسوأ محضـر هذا القاضـى الذى حسن لسعد الدولة تسويل الشيطان، و أفتاه بنقض الأيمان، ثم لم يقنع بما زين له من غدره، و لبّس عليه من أمره، حتى تكفل له بحمل وزره، و هل أحد حامل وزر غيره، أما سمع قول اللّه تعالى فى أهل الضلالة: «و قال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبلنا و لنحمل خطاياكم و ما هم نحاملين من خطاياهم من شىء إنهم لكاذبون».

حملة الفاطميين على الحمدانيين و استنجاد هؤلاء بالروم:

مات سـعد الدولـة فقام بعـده ابنه أبو الفضائل و وصـيه لؤلؤ فأخذ هذا العهد على الأجناد لأبى الفضائل، و تراجعت العساكر الى حلب، فرأى العزيز أن الوقت قد حان لاستصـفاء الشام بأسرها و إنقاذها من هذا التذبذب بين الدولتين، جنوبها للعزيز و شمالها للحمدانيين، و لاـ يفتأ كل فريق يـدس للآخر، فسير جيشا كثيفا على حلب و عليه منجوتكين أنفق عليه ألف ألف دينار و نيفا، فلما وصل الى دمشـق تلقاه أهلها و قوادها و عساكر الشام كلها، فأقام بها مدة ثم رحل الى حلب. قال ابن ميسر:

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۱

بل كانت بينه و بين أهل دمشق حروب آلت الى ظفره. و قـد اسـتعد و احتشد و نزلها فى ثلاثين ألف رجل، و تحصن بها أبو الفضائل و لؤلؤ.

و وقع القتال بين منجوتكين و الحمدانيـة على أفامية فانهزم الحمدانية (۳۸۲) و قتل و أسـر جماعة منهم، و نزل منجوتكين على حلب و وقع الحرب فى جميع جوانب المدينـة و دخل الى أعمال الروم بسـبب اعتقال البرجى لرسوله، و نزل على حصن عم ضـيعة البرجى فى بلـد أرتاح فقاتله و فتحه و سبى و قتل و سار الى أنطاكية فرشـقه الأنطاكيون بالنشاب و عاد منجوتكين الى منازلة حلب و راجع القتال.

و عصى المسلمون فى اللاذقية فسار البرجى إليهم و سباهم و حملهم الى الروم، و عاد منجوتكين من دمشق و نزل على أفامية فسلمها إليه وفاء خادم سيف الدولة (۳۸۳) و رحل الى شيزر و قاتلها و تسلمها من سوسن غلام سعد الدولة و عاد الى منازلة حلب.

و كان أبو الفضائل كتب الى بسيل ملك الروم يستنجده و هو يقاتل البلغار، فأرسل بسيل الى نائبه بأنطاكية ميخائيل البرجى يأمره بإنجاد أبى الفضائل؛ فسار فى خمسين ألفا حتى نزل على الجسر الحديد بالعاصى، فلما سمع منجوتكين الخبر سار الى الروم ليلقاهم قبل اجتماعهم بأبى الفضائل، و عبر إليهم العاصى و أوقع بالروم فهزمهم و ولوا الأدبار الى أنطاكية و كثر القتل فيهم، و جمع من رؤوس قتلاهم نحو عشرة آلاف رأس و حملت الى مصر. قال الأنطاكى: قتل من الروم فى هذه الوقعة التى دعيت بوقعة المخاضة (۳۸۴) زهاء خمسة آلاف و يمم منجوتكين الى أنطاكية و نهب رساتيقها و أحرقها، و كان وقت إدراك الغلة فأنفذ لؤلؤا و أحرق ما يقارب حلب منها إضرارا بالعسكر المصرى. و عاد منجوتكين الى حلب فحصرها و أقام عليها ثلاثة عشر شهرا. فقلت الأقوات فيها و عاد صاحب حلب الى مراسلة ملك الروم و الاعتضاد به، فلما قلّت الأقوات آلى العزيز على نفسه أن يمدّ عسكره بالميرة من غلات مصر، فحمل مئة ألف تليّس فى

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۲

البحر الى طرابلس و منها على الظهور الى أفامية. فكان يوقع للغلمان بجراياتهم و قضيم دوابهم الى أفامية على خمسة و عشرين فرسخا فيمضون و يقبضونها و يعودون بها. و بنى و أصحابه الحمامات و الخانات و الأسواق.

و عاد منجوتكين الى منازلة حلب و محاصرتها و فتح حصن إعزاز و ملك سائر أعمال حلب و ولى عليها و بنى حصنا مقابل حلب، و أنجد ملك الروم صاحب حلب و كان قد استنجده و أرسل إليه ملكوثا السريانى، فقطع المسافة من بلاد البلغار الى حلب و هى ثلاثمائة فرسخ فى بضعة أيام. و لما أقبل الروم أحرق منجوتكين الخزائن و الأسواق و الأبنية التى كان استحدثها و رحل فى الحال منهزما و وافى بسيل فنزل على باب حلب، و خرج إليه أبو الفضائل و لؤلؤ و لقياه، ثم عاد و رحل فى اليوم الثالث الى دمشق و فتح حمص و نهب، و نزل على طرابلس فمنعت جانبها منه، فأقام نيفا و أربعين يوما فلما أيس منها عاد الى الروم، و عاد منجوتكين غازيا الى أنطاكية، ثم سار الى حلب و رحل عنها الى أنطرطوس، و قاتل الحصن أياما و سار عامل الروم الى أنطرطوس ليدفع عنها، و أرسلت مصر أسطولا مؤلفا من أربعة و عشرين مركبا مشحونا بالرجال فكسر الأسطول بريح عاتية، و خرج رجال المراكب الى البر، فانهزم منجوتكين و جميع عسكره و خرج المقيمون فى أنطرطوس و أخذوا ما سلم من المراكب و أسروا من رجالهم خلقا.

الخوارج على الفاطميين و استنجاد أمراء المسلمين بالروم:

ظن بعد انصراف ملك الروم عن الشام و رجوع الحمدانيين الى حلب أن الدولة الفاطمية يطمئن بالها، و ما كان يحول فى الفكر أن ينقلب عليها أحد قوادها الذى كانت اصطفته ليدفع عن القطر ما يتهدده من الشر و أعنى به منجوتكين. فقد عصى على خليفته و أراد أن يستنجد الروم فلم يلتفتوا إليه، فندب الخليفة العساكر من مصر لقتاله و قدموا أبا تميم بن جعفر عليها، و أمدوه من الأموال ما أسرفوا فيه، و سار أبو تميم من مصر، و رحل منجوتكين من الرملة بعد أن ملكها. و التقى الجيشان بعسقلان و تواقعا فأجلت الوقعة عن هزيمة منجوتكين و أصحابه، فأسر و حمل الى

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۳

مصر، و سار أبو تميم فنزل طبرية و أنفذ أخاه عليا الى دمشق، فامتنع أهلها عليه و منعوه الدخول، و كاتب أخاه بعصيانهم، و استأذنه فى قتالهم، فكتب أبو تميم الى متقدميهم من الأشراف و الشيوخ، و حذرهم عواقب فعل سفهائهم، فخافوا و خرجوا الى علىّ مذعنين بالطاعة و منكرين لما فعله أهل الجهالة، فلم يعبأ بقولهم و زحف الى البلد فملكه، و أحرق و قتل و عاد الى معسكره.

و وافى أبو تميم فى غد فأنكر على أخيه ما فعله، و تلقاه وجوه الناس فشكوا إليه ما أظلهم، فأحسن لقاءهم و أمنهم، فسكنوا و عادوا

الى معايشهم. و ركب أبو تميم الى المسجد الجامع فى يوم الجمعة بزىّ أهل الوقار، و اجتاز فى البلد بسكينة، و بين يديه القراء و قوم يفرقون الدراهم على أهل المسكنة، و صلى الجمعة و عاد الى القصر الذى نزله بظاهر دمشق، و قد استمال قلوب العامة بما فعله، ثم نظر فى الظلامات و أطلق من الحبوس جماعة من أهل الجنايات فازدادوا له حبا، و استقرت قدمه و استقام أمره، و عدل من بعد الى النظر فى أحوال الساحل فهذبها، و ولى أخاه طرابلس و صرف عنها جيش بن الصمصامة.

ذكر كل هذا مسكويه، و زاد أن أبا تميم كان مع سياسته مستهترا باللذات، فلم يشعر إلا بهجوم المشارقة و العامة على قصره فخرج من دمشق هاربا، و نهبوا خزائنه و أوقعوا بمن كان معه من كتامة، و عادت الفتنة و استولى الأحداث على دمشق، و ثار أهلها مع ما كان فيها من الأولياء المشارقة على ابن فلاح فخرج عن البلد هاربا الى مصر، و تغلب الأحداث و رأسهم رجل منهم يعرف بالدهيقين، فسارت جيوش الحاكم الى دمشق مع محمد بن الصمصامة للقاء الدمشقيين و الدهيقين، فسار الدهيقين الى مصر و طلب الأمان. و قال ابن ميسر فى حوادث سنة ۳۸۷: إنه كانت وقعة بين منجوتكين و بين ابن فلاح فى الرملة قتل فيها نحو مئة ألف (كذا) من أصحاب منجوتكين و انهزم ابن الجراح.

و فى سنة (۳۸۸) وقعت النار فى أفامية و احترق ما كان فيها من القوت فسار أبو الفضائل بن سعد الدولة صاحب حلب فى عسكر الحلبيين،

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۴

و قاتلها مدة ثم رجع عنها لما سار إليها دوقس أنطاكية، و حاصرها هذا أشد حصار، فاستنجد الملاطى المقيم بها بجيش بن الصمصامة بدمشق، فسار إليه فى عساكر ضخمة، و انتشبت الحرب بينهم، و استظهر عليه الدوقس، و قتل منهم مقتلة عظيمة و أخذت البادية سواد عسكر المغاربة، و بلغت الهزيمة الى بعلبك، و قتل الدوقس فعادت الهزيمة على الروم فقتل منهم زهاء ستة آلاف و أسر أبناء الدوقس و جماعة من رؤساء عسكره، و حملوا الى مصر و أقاموا بها عشر سنين ثم فودى بهم.

و سار جيش بن الصمصامة الى شيزر فخف ملك الروم بنفسه ففتحها و شحنها بالأرمن، و سار عنها الى حصن أبى قبيس فأخذه بالأمان و سار الى حصن مصيات. فملكه أيضا و أخربه و سار الى رفنية فأحرقها و سبى أهلها و توجه يحرق و يسبى الى أن بلغ حمص فنزلها و تحصن منها نفر فى كنيسة مار قسطنطين تحرما بها، فلما علم الرؤوس من أهل عسكره أحرقوها، و كانت كنيسة معجزة و حمل نحاسها و رصاصها، و سار الملك الى قرب بعلبك و استصرخ جيش من دمشق الى مصر بكتبه و وصف كثرة الجموع التى للروم فجردت إليه العساكر و كوتب كل وال بالشام بالمسير معه، فساروا حتى اجتمع بدمشق من العساكر كما قال الأنطاكى ما لم يجتمع فيها للإسلام مثله، و رجع ملك الروم عن طريق الساحل و أحرق عرقة و هدم حصنها ثم نزل على طرابلس (۳۸۹) و حاربها برا و بحرا، ثم رحل الى أنطاكية، و افتتح حصن أبى قبيس بالأمان.

و امتدت ولاية منجوتكين فى إمرة الجيوش الشامية الى ما بعد سنة ۳۸۶ و كان ظالما جبارا ساءت سيرته فى ولايته دمشق و حمص و كثر ظلمه.

و ولى إمرة دمشق بشارة الإخشيدى من قبل برجوان الخادم الحاكمى (۳۸۸) و كان ولى طبرية قبل أن يلى دمشق مدة سنين. و كان أهل صور قد عصوا (۳۸۷) و أمّروا عليهم رجلا ملاحا يعرف بعلاقة. ضرب السكة باسمه و كتب عليها «عز بعد فاقة الأمير علاقة» فأرسل عليه الفاطميون أسطولا فاستجار علاقة بملك الروم فأنفذ إليه عدة مراكب مشحونة بالرجال و المقاتلة، و التقت هذه المراكب بمراكب المسلمين فاقتتلوا فظفر المسلمون

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۵

و ملكوا مركبا من مراكبهم، و قتلوا من فيه و انهزمت بقية المراكب.

و هكذا استنجد بالروم فى هذه الحقبة أميران على بنى جنسهما و دينهما ليستمتعا بالملك و هما أبو الفضائل فى حلب و علّاقة بصور.

و کان المفرج بن دغفل قد نزل علی الرملة و عاث فسادا فی أرضها، و انضاف الی حادثته و حادثة علّاقة نزول الدوقس صاحب الروم فی عسکر کثیف علی حصن أفامیة، فاصطنع برجوان جیش بن الصمصامة و قدمه، و جهز معه عسکرا و سیره الی دمشق، و بسط یده فی الأموال و نفذ أمره فی الأعمال، و سار جیش بن الصمصامة و نزل علی الرملة و علیها وحید الهلالی والیا فتلقاه طائعا و صادف أبا تمیم بها فقبض علیه قبضا جمیلا، و ندب الحسین بن ناصر الدولة بن حمدان فی عسکر الی صور بعد أن کان أنفذ إلیها مراکب فی البحر مشحونة بالرجال فأحاطت العساکر بها برا و بحرا و ضعف أهل صور عن القتال و أخذ علاقة فحمل الی مصر فسلخ و صلب بها و أقام ابن حمدان والیا علیها.

و سار جیش بن الصمصامة لقصد مفرج بن دغفل فهرب من بین یدیه و عاذ بالصفح فکف جیش عنه، و عاد سائرا الی عساکر الروم النازل علی حصن أفامیة، فلما وصل الی دمشق تلقاه أهلها فی أشرافها و وجوه أحداثها مذعنین له بالانقیاد، راغبین فی استصحابهم للجهاد، فجزاهم خیرا فأقبل جیش علی رؤساء الأحداث و بذل لهم الجمیل، و نادی فی البلد برفع المؤن، و إباحة دم کل مغربی یتعرض لفساد، فاجتمعت الرعیة و شکروه، و سألوه دخول البلد و النزول بینهم فلم یفعل، ثم سار و نزل بحمص و اجتمعت العساکر و توجه الی حصن أفامیة، فوجد أهلها و قد اشتد بهم الحصار، فنزل بإزاء عسکر الروم بینه و بینهم نهر العاصی.

ثم التقی الفریقان من بعد، و کان المسلمون یومئذ فی عشرة آلاف من الطوائف و ألف فارس من بنی کلاب، فحملت الروم علی المسلمین فزحزحوهم عن مصافهم، و انهزمت المیمنة و المیسرة، و استولی الروم علی کراعهم و عطفت بنو کلاب علی أکثر ذلک فنهبوه، و ثبت بشارة الإخشیدی

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۶

فی خمسمائة فارس، و رأی من فی حصن أفامیة من المسلمین ما أصاب إخوانهم فأیسوا من نفوسهم.

قالوا: و کان الدوقس عظیم الروم فی هذه الوقعة بعد أن تراجع المسلمون علی رأسه رایة و بین یدیه ولداه و عشرة خیالة، فقصده أحمد بن الضحاک الکردی علی فرس جواد، فظنه عظیم الروم مستأمنا، فلما قاربه طعنه الکردی فقتله فانهزمت الروم و تراجع المسلمون فرکبوا أقفیتهم قتلا و أسرا و ألجأوهم الی مضیق فی الجبل و أسروا ولد الدوقس، و حمل الی مصر من رؤوسهم عشرون ألف رأس و ألف أسیر.

و عاد جیش الی دمشق فاستقبله أهلها، فخلع علی وجوه الأحداث و حملهم علی الخیل و البغال، و وهب لهم الجواری و الغلمان، و عسکر بظاهر البلد و أخلوا له قریة بیت لهیا لیکون مقامه بها، و توفر علی استعمال العدل و تخفیف الثقل، فاستخص رؤساء الأحداث و استحجب جماعة منهم، ثم أوقع بهم کلهم، و دخل البلد و ثلم السور من کل جانب، و نزلت المغاربة دور دمشق، و رکب جیش فدخل المدینة و طافها، و استغاث الناس به و لاذوا بعفوه، فکفّ عنهم و استدعی الأشراف استدعاء حسن ظنهم فیه، فلما حضروا أخرج رؤساء الأحداث و أمر بضرب رقابهم بین أیدیهم، ثم صلب کل واحد فی محلته. و جرد الی المرج و الغوطة قائدا و أمره بوضع السیف فیمن بها من الأحداث فقال: إنه قتل ألف رجل منهم، حتی إذا فرغ من ذلک کله قبض علی الأشراف و حملهم الی مصر و استأصل أموالهم و نعمهم، و وظف علی البلد خمسمائة ألف دینار. و کان عدد من قتلهم ثلاثة آلاف رجل، و احتال للقضاء علی هؤلاء الأحداث بأن جعل یبسط الطعام کل یوم لهم و لمن یجیء معهم من أصحابهم، فکان یحضر کل إنسان منهم فی جمع من أصحابه و أشیاعه، و أمرهم إذا فرغوا من الطعام أن یحضروا الی حجرة یغسلون أیدیهم فیها، و أمر أصحابه إذا دخل رؤساء الأحداث الحجرة أن یغلقوا بابها علیهم و یضعوا السیف فی أصحابهم، فلما کان الغد حضروا الطعام، و قام الرؤساء الی الحجرة، فأغلقت الأبواب علیهم و قتل من أصحابهم نحو ثلاثة آلاف رجل.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۷

تولی جیش نیابة دمشق غیر مرة، و کان ظالما سفاکا للدماء ظلم الناس کثیرا. قالوا: و عم الناس فی ولایته البلاء من القتل و أخذ المال

حتى لم يبق بيت فى دمشق و لا- بظاهرها إلا- امتلأ- من جوره؛ خلا- من كان ظالما يعينه على ظلمه. و ممن ولى دمشق للمصريين و ساءت سيرته ختكين القائد ثم القائد طرملة بن بكار البربرى، و كان عبدا أسود، فجار على أهلها كما جار ختكين و ظلمهم و أخذ أموالهم، و فر الى مصر و حمل بعض ما كان معه الى الحاكم، فتمكنت حاله عنده و ولاه دمشق فأقام واليا عليها الى سنة ۳۹۴، ثم صرف عنها بخادم من خدم الحضرة.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۸

تتمة دور الفاطميين «من سنة ۳۹۴- ۴۶۳»

خوارج و مذاهب جديدة و فتن:

ظهر فى أعمال حلب سنة ۳۹۵ رجل اسمه احمد بن الحسين و يعرف بالأصفر تزيّا بزى الفقراء و تبعه خلق من العرب و سكان القرى، و صحبه رجل من وجوه العرب يعرف بالجملى، و نازل شيزر و أسرى فى جماعة من العرب و غيرهم ممن اجتمع إليه و لقى عسكر الروم و كبس والى أرتاح و سار نحو جسر الحديد يريد أنطاكية، فلقيه فى مهروية على فرسخين من أنطاكية بطريق يقال له بيغاس فى عسكر كان معه، فقتل الجملى و انهزم الأصفر الى سروج، و نزل قرية كفر عزون و كانت حصينة، ففتحها العامل الرومى و أسر منها اثنى عشر ألف أسير و أخذ غنائم كثيرة، و كان قد اجتمع عرب بنى نمير و بنى كلاب مع وثاب بن جعفر صاحب سروج فى زهاء ستة آلاف فارس على الرومى فلقيهم و هزمهم، و توسط لؤلؤ صاحب حلب أن يعتقل الأصفر بقلعة حلب فأخذ و اعتقل، و بقى فيها معتقلا الى أن دخلت حلب فى حكم الفاطميين (۴۰۶).

و أمر الحاكم (۴۰۴) باروح التركى الملقب علم الدولة على جيوشه و لقبه أمير الأمراء و ولاه الشام و سيره إليها و حمل باروح معه زوجته و هى ابنة الوزير يعقوب بن يوسف بن كلس و حملا- معهما أموالهما فى قافلة مع التجار، فاعترضهم ظاهر غزة المفرج بن دغفل بن الجراح و أولاده فأوقع بهم و حاز جميع ما كان معهم و أخذ باروح أسيرا و قتله. و سار ابن الجراح خطط الشام ؛ ج۱ ؛ ص۲۱۹

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۱۹

الى الرملة و دخلها، و أباح للعرب نهبها و صادر الأموال و أقام الدعوة لأبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى أمير مكة يومئذ و أسماه أمير المؤمنين و لقبه الراشد لدين اللّه، و ضرب له السكة و استحوذت العرب على جنوب الشام و ملكوه من الفرما الى طبرية و حاصروا حصون السواحل مدة طويلة و لم يمكنهم أخذ شىء منها.

و استدعى ابن الجراح أبا الفتوح الحسنى من مكة فسار الى الشام و وصل الى الرملة و دخلها راكبا فرسا و نزل فى دار الإمارة بها، و أنشأ كتابا قرىء على الناس بأن لا يقبل له أحد الأرض، و أن هذا شىء ينفرد به اللّه عز و جل، و جلب معه أموالا كثيرة من الحجاز فأكلها العرب و حجزوا عليه و أشرف على ضعف أمره. و قد كان الحاكم بذل فيه أموالا جسيمة لحسان بن المفرج فأشار على أبى الفتوح بالرجوع الى طاعة الخليفة العلوى و أوصلوه الى مأمنه، فلما عاد الى مكة أقام الدعوة للحاكم على الرسم السالف بعد أن كان أقامها لنفسه، و كتب الى الحاكم يعتذر فقبل عذره و وصله و أحسن إليه.

و حصل الشام فى أيدى بنى الجراح و أقاموا متغلبين عليه الى المحرم سنة أربع و أربعمائة و عظمت مصادرتهم للناس مرة بعد أخرى و عسفهم إياهم، فهرب من النصارى خلق كثير توجهوا الى الروم و قصد أكثرهم اللاذقية و أنطاكية و قطنوهما. استقل ابن الجراح سنتين و خمسة أشهر فى الشام و لم يرسل الحاكم عليه عسكرا، ثم سير القائد على بن فلاح فى جيش كبير جمع فيه معظم رجال مملكته، و كوتبت الجيوش فى دمشق و السواحل بلقائه، و سارت العساكر من الجهتين نحوه فاتفق فى الحال أن مات المفرج بن

دغفل بن الجراح و اتصل بأولاده، قصد العساكر إليهم فذهبوا مع العرب الى البرية و تخلوا عن الرملة و غيرها من الأقاليم التى غلبوا عليها.

ولى الحاكم عهده لأبى القاسم عبد الرحمن بن الياس و جعله الخليفة بعده (۴۰۴) و دعى له على المنابر و نقش اسمه على السكة، و حصل بدمشق و فسح لأهلها فى شرب القهوة و سماع الأغانى فأحبوه و مقته الجند

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۰

لشحه، و أذاع بعض الدرزية دعوته فى قوم من المسلمين فى وادى التيم، فتجاهر الذين استجابوا لدعوته بمذهبهم، فغزاهم أمير الأكراد ابن تالشليل فقتل منهم و سبى و أحرق و أهلك خلقا. و استشعر ولى العهد بعد ما جرى فى أمرهم إنكار الحاكم ما فعل بهم، و حذر أن يحنق عليه بسببهم، فأنفذ صاحبا له يعرف بابن الخرقانى الى حسان بن المفرج بن الجراح ليقرر له معه أن يكون من جهته، فشغب عليه الجند و قتلوا الخرقانى بدمشق و نهبوا دار ولى العهد، فاستغاث بالدمشقيين و الغوطيين، فأحاطوا بالقصر الذى ينزله بظاهر دمشق فانتشبت الحرب بينهم و بين الجند و اندفع الدمشقيون عنه و نهب الجند القصر، و كان عند تواصل الأخبار الى الحاكم بعصيان ولى العهد ندب صاعد بن عيسى بن نسطورس للخروج الى الشام، و أعطاه من العدد السلطانية و الآلات الجليلة ما لم يعط لغيره، و تقدمت مكاتبة الحاكم الى ولى العهد يأمره بالحضور الى مصر فبادر بالرحيل و سار العسكر معه الى الرملة و لما أيقن الحاكم امتثاله أمره زالت الشبهة عنه من نفسه، و كتب يرسم له بالرجوع الى دمشق و قلد تقليدا ثانيا.

و ثار بدمشق بعد مسير ولى العهد عنها رجل من أهلها يعرف بمحمد بن أبى طالب الجزار، و اجتمع إليه جمع كثير من أحداثها و من رعاع أهل حوران امتعاضا لولى العهد، و حاربوا الجند، و طرح العسكر النار فى المدينة فأحرقت منها قطعة كبيرة، و لما عرف محمد بن أبى طالب الجزار عودة ولى العهد سار للقائه و اجتمعوا فى لدّ و سار محمد بن أبى طالب الى دمشق، و قد اجتمع إليه خلق كثير و دخل دمشق بغتة، و راجع الحرب و استظهر على الجند و أخرجهم من المدينة، و أرسل إليه ولى العهد فى تسكين الفتنة فلم يطعه و قتل قاضى دمشق و تسلط هو و الأحداث عليها، و قتل أيضا جماعة من الناس و نهبهم، و توقاه أهل السلامة و خافوا منه، و غلت الأسعار بقيام الفتنة فاجتمع على الناس الجوع و الحريق و النهب و القتل. و كان محمد بن أبى طالب قد سدّ الباب الشرقى، فوجد الدمشقيون فرصة و فتحوه، و قبضوا عليه و قتلوه و صلبوه على باب الجابية، و قتلوا جمعا ممن كان على رأيه، و استقام أمر دمشق و صلح حال ولى

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۱

العهد و أطلق يده فى مصادرة جماعة من الدمشقيين و المتهمين بقيام الفتنة فتنكروا عليه و أبغضوه و اجتمع أهل البلد و الجند على كراهيته.

تقسيم الأقاليم بين القبائل و دولة بنى مرداس:

كان لؤلؤ غلام ابن حمدان و ولده منصور بن لؤلؤ قد استوليا على حلب بعد موت أبى الفضائل بن سعد الدولة، و ضيق منصور بن لؤلؤ على ابنى أبى الفضائل فقصدا الحاكم فى مصر، و هرب أبو الهيجاء بن سعد الدولة من حلب أيضا فى زى النساء و التجأ الى بسيل ملك الروم و مات لؤلؤ فى المحرم سنة ۳۹۹ و آلت الإمارة لولده الصغير منصور بن لؤلؤ، و كرهه كثير من الحلبيين و رغبوا فى أبى الهيجاء، و كذلك أمراء بنى كلاب المدبرون بلد حلب، و سار أبو الهيجاء الى ميافارقين فأنفذ معه حموه ابن مروان صاحبا له فى دون المائتى فارس و سار الى الجزيرة، و لقيه جماعة أمراء بنى كلاب و ضمنوا له أن يعاضدوه، و خافه منصور بن لؤلؤ فاستصلح بنى كلاب و شرط لهم أن يعطيهم الإقطاعات الكثيرة و يجعلهم مساهمين له فى الضياع و الأعمال ظاهر حلب، و استنجد بالمغاربة جيش الفاطميين، فأسرع إليه على بن عبد الواحد بن حيدرة قاضى طرابلس فى عسكر منيع، فاتفقت موافاته حلب مع نزول أبى الهيجاء،

فانهزم هذا و ذهب الى القسطنطينية، و مات فيها عند صاحب الروم، و عاد ابن حيدرة الى طرابلس، و أقام منصور بن لؤلؤ يخطب لصاحب مصر و لقبه الحاكم مرتضى الدولة، ثم فسد ما بينه و بين الحاكم و عاد الكلابيون يلتمسون من منصور بن لؤلؤ ما شرط. لهم، فحضر منهم زهاء سبعمائة رجل فيهم جميع أمراء بنى كلاب و ذوى الرئاسة و الشجاعة جميعا و أمر ببذل السيف فيهم، و حبس منهم جماعة، و كان فى جملة المحبوسين صالح بن مرداس فتوصل فى الحبس الى أن صعد من السور و ألقى نفسه من أعلى القلعة الى تلها، فسار الى أهله و جمع ألفى فارس و أسر ابن لؤلؤ و قيده بقيده الذى كان فى رجله و لبته الحديد.

و كان لابن لؤلؤ أخ فنجا و حفظ المدينة، و بذل ابن لؤلؤ لصالح

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۲

ابن مرداس مائتى ألف دينار فأطلقه على شرط أن يطلق كل أسير عند ابن لؤلؤ من بنى كلاب. و بنو كلاب بطن من عامر بن صعصعة ملكوا حلب و نواحيها، و أول من ملك منهم صالح بن مرداس هذا، و كان لهم فى أيام سيف الدولة بن حمدان شأن، و غزاهم غير مرة بعد أن اصطنعهم و اصطفاهم من بين قبائل العرب.

انقرضت دولة بنى حمدان سنة ۴۰۶ و آخرهم فى حلب المنصور، و قد دامت حكومتهم فى حلب و حماة و حمص و المعرة و أنطاكية زهاء سبعين سنة عزيزة مستقلة فى أولها، ذليلة خاضعة لسلطان غيرها فى آخرها.

و فى شوال (۴۱۱) سلم محمد بن خليد النهرانى الى الروم حصن الخوابى فى جبل نهران و مدينة مرقبة على ساحل البحر و كانت خرابا فأحسن إليه بسيل الملك. و تسلم نواب الفاطميين الشام حتى موت الحاكم بأمر اللّه (۴۱۱ ه ۱۰۲۱ م) و عندها اجتمع حسان أمير بنى طيىء، و صالح بن مرداس أمير بنى كلاب، و سنان بن عليان أمير بنى كلب، فتحالفوا و اتفقوا على أن يكون من حلب الى عانة لصالح بن مرداس، و من الرملة الى مصر لحسان، و دمشق لسنان، فقصد صالح حلب و بها رجل يقال له ابن ثعبان يتولى أمرها للمصريين، فسلم أهل البلد لصالح لإحسانه إليهم و لسوء سيرة المصريين معهم، و سلمت القلعة إليه سنة ۴۱۴ و ملك من بعلبك الى عانة و أقام بحلب ست سنين.

افتتح حسان بن المفرج بن الجراح أمير الطائيين مدينة الرملة (۴۱۵) و أتى عليها حريقا و نهبا و أسرا. و حاصر سنان بن عليان مدينة دمشق (۴۱۶) و جرت بينه و بين أهلها حرب شديدة و خرب داريا و أعمالها.

و بقيت حال الشام على هذا الى سنة ۴۱۹ و قد مات سنان بن عليان أمير الكلبيين، و دخل ابن أخيه رافع بن أبى الليل بن عليان الى الظاهر الفاطمى فاصطنعه و عقد له الإمارة على الكلبيين و سير معه عسكرا، و انضافت إليه العساكر المقيمة فى الشام، و اجتذب إليه جماعة من العرب، و قصدوا بأجمعهم حرب حسان بن المفرج بن الجراح و ورد إليه صالح بن مرداس و بنو كلاب لمعاونته، و اتفقا على لقائهم و تصافوا للحرب فى طبرية فى

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۳

موضع يعرف بالأقحوانة (۴۲۰) و قتل صالح و مع علم حسان و العرب بقتله انهزموا بأسرهم الى الجبال و قتل منهم جماعة، و لما عرف أصحاب صالح المقيمون فى بعلبك و حمص و صيدا و رفنية و حصن ابن عكار قتله تخلوا عن جميعها و استعادها أصحاب السلطان. و استولى نصر و ثمال ابنا صالح على حلب و أعمالها و على الرحبة و بالس و منبج.

و كان بأنطاكية عامل للروم فجمع جيشا و سار قاصدا حلب بغير أمر ملكه، فتلطف معه ابنا صالح بعد أن كبست العرب معسكره و قتلت منه جماعة، ثم سار ملك الروم بنفسه (۴۲۱) الى غزو حلب و اتصل بحسان ابن الجراح ما عزم عليه ملك الروم من غزو الشام، فأنفذ إليه جماعة من أهله برسالة يقوى بها عزمه على ما همّ به و يبذل له الخدمة فى غزاته و المسير بين يدى جيوشه بعشيرته و أصحابه، و أنفذ أيضا نصر و ثمال ابنا صالح بن مرداس مع آل جراح ابن عمهما مقلد بن كامل بن مرداس يبذلان مثل ذلك عن نفوسهما و عشيرتهما و أصحابهما، و أن يعطى جميعهم رهائنهم على مناصحتهم إياه، و صحة وفائهم بما بذلوه، و وفد جميعهم الى

الملـك فنزل هـذا بجيشه على تـل من بلـد أعزاز فطاردهم العرب و انهزم أكثر المقاتلـة و ثبت بعضـهم و قتل من الفريقين جماعـة، و أسـرت العرب من الروم المنهزمين عددا كبيرا و عاد الباقون الى معسـكرهم، ثم اضطر الملك الى العودة الى دياره، و كان معه جماعة كثيرة من الأرمن فوضعوا أيديهم فى النهب و زادت الفتنة، ثم كتب نصر بن صالح الى ملك الروم يستعطفه و يعتذر إليه و يلتمس منه أن يحريه على ما كان أبوه عليه و غيره، ممن ملك حلب مع من تقدمه من أسلافه الملكين الماضيين بسيل و قسطنطين.

قال ابن الأثير: لما خرج ملك الروم بنفسه من القسـطنطينية الى الشام هذه المرة كان فى ثلاثمائة ألف مقاتل، فلما بلغ قريب حلب نزل على يوم منهـا، و لحقه عطش شديـد فهلك كثير من جيشه عطشا، فعاد و جماعته أدراجهم. و قيل فى عوده: إن جمعا من العرب ليس بالكثير عبر على عسكره و ظن الروم أنها كبسة فانهزموا لا يلوون على شىء. و ذكر ابن

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۴

المهـذب المعرى أن خروج أرمانوس ملك الروم الى حلب فى سـنة إحـدى و عشـرين و أربعمائـة، و كانوا سـتمائة ألف، و معه ملك البلغار و ملك الروس و الألمان و الخزر و الأرمن و البلجيك و الفرنج و غنم المسـلمون منهم ما لا يحصـى و أسرت جماعة من أولاد ملوكهم. و فى قول ابن المهـذب نظر. لأـنّ هـذا الجيش العظيم و هـذه الأمم التى عـدها يسـتحيل أن تسـير مع ملك الروم إلا إذا كان دعاهم باسم حماية النصرانية فى الأرض المقدسة، و يستحيل أن تقترب منها أو أن تفتحها و فى الشام أمامها دول و إمارات.

و ملـك الروم (۴۲۲) قلعـة أفاميـة، و سـبب ملكها أن الظاهر الفاطمى سير الى الشام الـدزبرى وزيره فملكه، و قصد حسان بن المفرج الطائى، فألـح فى طلبه فهرب منه و دخل بلـد الروم، و لبس خلعـة ملكهم و خرج من عنده و على رأسه علم فيه صـليب، و معه عسـكر كثير، فسار الى أفامية فكبسها و غنم ما فيها و سبى أهلها و أسرهم.

و فى سنة ۴۲۳ اجتمع فى جبل السماق جماعة من الدرزية و جاهروا بمذهبهم و أخربوا المساجد، و تحصن دعاتهم و كثير من عوامهم فى مغاور شاهقة منيعة، و قصدهم و انضوى إليهم خلق كثير من أهل نحلتهم، و توفر عددهم و استضاموا المسلمين المجاورين لهم من أهـل بلـدان حلب، و وعـدوا أنفسـهم و أطمعوا عوامهم بقوة أيـديهم و كـثرة استيلائـهم على الأعمـال القريبـة و البعيـدة. فرأى قطبـان أنطاكيـة مبـادرتهم قبـل تفـاقم أمرهم و تخطيهم الى الفساد و العيث، و رسم لمن يجاورهم من طراخنته قصـدهم برجاله و أصـحابهم، فتلطفوا فى أن قبضوا على دعاتهم و أماثلهم و قتلوهم، و حاصروا باقيهم فى تلك المغاور، فنصبوا عليها القتال اثنين و عشرين يوما الى أن التمسوا الأمان و خرجوا منها هاربين، و تتبع الروم المسـلمين فى أعمالهم و أخذوهم و اضـمحلوا و دثروا. و هذه ثانى وقعة للدروز فى الشام و الوقعة الأولى فى وادى التيم بعد قيام دعوتهم على عهد الحاكم بأمر اللّه الفاطمى.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۵

و كـان الحـاكم هـذا فى جملـة تحكماته الباردة على سـكان مملكته أن أمر بهـدم الكنائس، فهـدم كنيسـة فى دمشق و كنيسـة القيامة بالقدس و غيرها من الكنائس العظمى، و نقض بعض الكنائس بيده، و أمر بأن تعمر مساجد للمسـلمين، و أمر بالنداء: من أراد الإسلام فليسـلم. و من أراد الانتقـال الى الروم كـان آمنـا الى أن يخرج، و من أراد المقـام على أن يلتزم ما شـرط عليه فليقم. و بعـد أن مضـى الحـاكم لسبيله اشترط ملـك الروم على الظـاهر (۴۲۴) فى الهدنـة الـتى عقـدها معه أن يعمر الملـك كنيسـة القيامـة ببيت المقـدس و يجددها من ماله و يصير بطريركا على بيت المقدس، و أن تعمر النصارى جميع الكنائس الخراب التى فى مملكة الظاهر.

بقى شـبل الدولة مالكا لحلب الى سنة ۴۲۹، فأرسل إليه أنوشـتكين الدزبرى العساكر المصـرية، فلقيهم عند حماة فقتل فى المعركة، و ملك الدزبرى حلب، و صـفت له الشام بأجمعها، و أباد المفسدين و مهد الأمور، حتى أمنت السـبل، و عظم أمره و كثر ماله، و أرسـل يسـتدعى الجند الأتراك، فبلغ المصـريين أنه عازم على العصيان فتقدموا الى أهل الشام بالخروج عن طاعته ففعلوا، فقصد حماة فعصى عليه أهلهـا، فكـاتب محمـد ابن منقـذ الكفرطابى فحضـر إليه فى نحو ألفى رجل فاحتمى به و سار الى حلب (۴۳۳) و توفى بعد شـهر واحد. و كان أنوشتكين نائب الشام للمستنصر، شجاعا مقداما، عظيم الهيبة، حسن السياسة، طرد الأعراب من الشام، و أباد المفسدين و

مهد أحوال القطر و فسد بموته الشام و زال النظام، و خرجت العرب فی الأقالیم، فخرج أبو علوان ثمال بن صالح بن مرداس الملقب بمعز الدولة بالرحبة و جاء حلب فملکها تسلیما من أهلها، و سار (۴۴۰) ناصر الدولة بن حمدان أمیر دمشق و شجاع الدولة جعفر بن کلشید والی حمص بجماعة من الجند و قبائل العربان من الکلابیین و غیرهم الی حلب، لقتال متولیها ثمال بن صالح بن مرداس، فخرج أهل حلب فهزمهم و اختنق بالنهر منهم جماعة فرجع بغیر طائل، ثم قلد قطز الصقلبی دمشق و قبض علی ابن حمدان و صادره و اعتقله بصور ثم بالرملة، و قبض علی

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۶

راشد بن سنان أمیر بنی کلاب و حمله الی صور فاعتقله بها، و خرج أمیر الأمراء رفق الخادم علی عسکر تبلغ عدته نحو ثلاثین ألفا بلغت النفقة علیه أربعمائة ألف دینار یرید الشام و محاربة بنی مرداس، فحاربه الحلبیون فانهزم المصریون و أسر رفق و مات فی حلب.

قال ابن میسر: و تقدم المستنصر الی جمیع ولاة الشام بالانقیاد لرفق، فوافی بالرملة رسول ملک القسطنطینیة واصلا بالصلح بین المستنصر و بنی مرداس فقتل رفق، و جرت بالرملة و دمشق أمور آلت الی حرب بین العسکر مدة أیام بباب توماء من دمشق.

و جهز ثمال الی معرة النعمان والیا أساء التدبیر فانحرف عنه القوم و آل أمره الی الهرب، فبادر جعفر أمیر حمص و تجهز الی المعرة بنفسه و لقیه مقلد بن کامل بن مرداس فأوقع به و قتله و شهر رأسه بحلب. و حصر ثمال امرأة الدزبری و أصحابه بالقلعة أحد عشر شهرا و ملکها سنة ۴۳۴.

و کان ثمال جمع للمصریین خمسة آلاف فارس و راجل فقاتلهم ثلاثة أیام، فلما رأی المصریون صبر ثمال و کانوا ظنوا أن أحدا لا یقوم بین أیدیهم، رحلوا عن المدینة. و السبب فی قتال ثمال أنه کان قرر علی نفسه أن یحمل کل سنة عشرین ألف دینار عما فی یده و ید عشیرته الی صاحب مصر، فتأخر الحمل سنتین. ثم أرسل الهدایا الی المصریین و أصلح أمره معهم، و نزل لهم عن حلب فانفذوا إلیها الحسن بن علی ابن ملهم فتسلمها من ثمال سنة ۴۴۹ بعد حروب طویلة.

و فی سنة ۴۴۶ نقض الروم الهدنة مع الخلیفة الفاطمی و کانوا تعهدوا بأن یطلقوا له أربعمائة ألف أردب من الغلال بسبب الغلاء فی مصر، و لم یوفوا بالعهد، فجهز المستنصر عسکرا قدّم علیه ابن ملهم لقصد اللاذقیة، فخرج فی عساکر جمة و حاصرها و أتبعهم بعسکر ثان و عسکر ثالث، و نودی فی الشام بالغزو الی الروم، و حاصر ابن ملهم قسطون بالقرب من أفامیة، و ضیق علی أهله، و جال فی أعمال أنطاکیة و نهبها و سبی منها.

و فی سنة ۴۴۷ سیر المستنصر فقبض علی جمیع ما فی کنیسة القیامة بالقدس، لأن صاحب الروم أذن لرسول طغرلبک السلجوقی أن یصلی فی

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۷

جامع القسطنطینیة، فخطب للقائم العباسی، فغضب الخلیفة الفاطمی.

قال ابن میسر: و کان هذا من الأسباب الموجبة لفساد ما بین المصریین و الروم. و فی هذه السنة تجمع کثیر من الترکمان بحلب و غیرها، فأفسدوا فی أعمال الشام.

حدثت فتنة بین بعض السودان و أحداث حلب، فسمع ابن ملهم أن بعض الأحداث من سکانها قد کاتب محمود بن شبل الدولة لیسلموا إلیه البلد، فقبض علی جماعة منهم فاجتمع أهلها، و راسلوا محمودا و هو منهم علی مسیرة یوم یستدعونه، و حصروا ابن ملهم، فسیرت مصر ناصر الدولة بن حمدان أمیر دمشق لقتال من بها لأجل قطع خطبة المستنصر، فلما قارب البلدة خرج محمود عن حلب الی البریة، و اختفی الأحداث جمیعهم، و لم یمکن ناصر الدولة أصحابه من دخول حلب و نهبها، و سار فی طلب محمود فالتقیا بالفنیدق، فانهزم أصحاب ابن حمدان و ثبت هو فخرج و حمل الی محمود أسیرا، فأخذه و سار الی حلب فملکها و ملک القلعة فی سنة ۴۵۲ فجهز المصریون ثمال بن صالح الی ابن أخیه، فحصره فی حلب، فاستنجد محمود خاله منیع بن شبیب النمیری صاحب حران، فجاء

إليه، فلما بلغ ثمالا مجيؤه سار عن حلب الى البريـة (۴۵۳) و عـاد منيع الى حران، فعـاد ثمـال الى حلب و خرج إليه محمود ابن أخيه، فاقتتلوا و قاتل محمود قتالا شديدا، ثم انهزم محمود، فمضـى الى أخواله بنى نمير بحران. و تسلم ثمال حلب و خرج الى الروم فغزاهم.

و ذكر ابن ميسر:

أن البازورى وزير مصر سير أموال الدولة جميعها لفتح بغداد، و كان ذلك سببا لخروج الغز الى الشام و ملكهم إياه. و قال فى حوادث سنة ۴۵۱ إن حادثـة قتل البساسـيرى و قطع خطبة المستنصـر من بغداد و إعادتها للقائم، كانت آخر سـعادة الدولة المصـرية، فإن الشام خرجت من أيديهم بعدها بقليل و لم يبق لهم سوى ملك مصر.

و لما توفى ثمال (۴۵۴) أوصـى بحلب لابن أخيه عطية بن صالح فملكها، و نزل به قوم من التركمان فقوى بهم، فأشار أصـحابه بقتلهم فأمر أهل البلد بذلك، فقتلوا منهم جماعة و نجا الباقون، فقصدوا محمودا بحرّان،

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۸

و اجتمعـوا معه على حصـار حلب فحصـرها و ملكهـا. و فى سـنة ۴۵۵ نـدب بـدر الجمالى لولايـة دمشق على حربها و نـدب معه على الخراج أبو الحسين الزيدى، و لم يلبث بدر أن انصرف عن ولاية دمشق هربا من أهلها، فولى المستنصر عليها حصن الدولة حيدرة، ثم ولاه الشام بأسره (۴۵۸).

و فى سنة ۴۵۹ بعث المستنصـر الى محمود بن الروقليـة المتغلب على حلب يطـالبه بحمل المال و غزو الروم و صـرف ابن خاقان و من معه من الغز فلم يجبه و قال: إنه لا مال له و أنه هادن الروم و أعطى ولـده رهينـة على مال اقترضه منهم فندب المستنصـر بدرا الجمالى الى محـاربته فـدخل ابن عمـار صاحب طرابلس بينهما و أصـلح الحال. و فى سـنة ۴۶۰ كـانت حرب بـدمشق بين أمير الجيـوش و بين عسكريته.

و فى سنة ۴۶۱ وقع الخلف بدمشق بين العسكرية و بين أهلها و طرحت النار فى جانب منها فاحترقت، و اتصل الحريق بالمسجد الجامع من غربيه و لم يبق منه إلا حيطانه الأربعة. و استولى فى هذه السنة على دمشق معلى ابن حيدرة الكتامى من غير أن يؤمر له بذلك عند خلو دمشق من متول بعـد ما هرب أمير الجيوش بـدر الأرمنى، فأساء السـيرة فى أهلها و صادرهم و بسط العقوبـة عليهم، الى أن خربت أعمال البلد و جلا كثير من أهلها، و وقعت بينه و بين حامية البلد وحشة خاف منهم على نفسه فهرب الى بانياس فصور فطرابلس فأخذ و اعتقل و مات من الضرب.

و فى سنة ۴۶۳ اسـتولى القفى على دمشـق و طرد نواب أمير الجيوش و اسـتولى على صور ابن أبى عقيـل، و على طرابلس قاضـيها ابن عمار، و على الرملـة و الساحل ابن حمدان، و لم يبق غير عكا و صور، و نزل هذه السـنة أمير الجيوش فى العسـكر المصـرى على صور محاصـرا لابن أبى عقيل القاضـى الغالب عليه، فاسـتنجد هـذا الأمير ترلو مقدم الأتراك بالشام، فأنجده بسـتة آلاف فارس، فرحل عنها أمير الجيوش ثم عاودها و حاصرها من البر و البحر سنة بدون طائل. و فتح الروم منبج و أحرقوها و بقيت معهم سبع سنين.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۲۹

آخرة الفاطميين:

كان على حلب عنـد هلاك الحاكم عزيز الدولـة فاتك الوحيـدى، و قد اسـتفحل أمره و عظم شأنه و حدث نفسه بالعصـيان، فلاطفته ست الملـك عمـة الظـاهر لإعزاز دين اللّه و كفيلته، و هى التى قـامت بتـدبير مملكـة الفـاطميين بعـد مهلك الحاكم، و ساست الناس أحسن سـياسة أربع سنين، أعادت الملك فيها الى غضارته و عمرت الخزائن بالأموال و اصطنعت الرجال- فلاطفته و بعثت إليه بالخلع و الخيل بمراكب الـذهب و غيرها، و لم تزل تعمل عليه حتى أفسـدت غلاما له يقال له بـدر فقتله و حفظ الخزائن و وهبت له جميع ما خلفه و قلـدته حلب. و لو لم يقيض اللّه لملك الفاطميين مثل هـذه السـيدة بعـد الأحوال التى تمت على عهـد الحاكم لكان الانقراض

الی دولتهم قریبا جدا. ثم جاء ابنه الظاهر لإعزاز دین اللّه و کان حسن السیرة فرفع أیدی المتغلبین علی الملک، المتوثبین علی سلطان الفواطم، و استقام له الأمر مدة. أما أیام الخلیفة المستنصر باللّه خامس خلفائهم الذی بقی فی الخلافة ستین سنة و أربعة أشهر فقد کانت علی هذا المنوال من التسرع فی نصب العمال و صرفهم و الشام تشکو و تئن، و البؤس أکثر من السعادة، و المتغلبة منذ الثلث الأول من القرن الرابع کل یوم فی شأن، تارة یقوم فیها مثل سیف الدولة الذی کان یلبس علی علاته، و تارة یقوم ابنه و مملوکه یستنجدان بالروم علی المسلمین. و یرضیان بإعطاء الجزیة لهم، و یدلانهم علی عورات الجیران، بعد أن کان مؤسس دولتهم سیف الدولة یقاتلهم، و یظهر لهم من الشمم حتی یوم هزیمته ما یبیض وجه العرب و المسلمین.

کان الفاطمیون زمن المعز و العزیز علی جانب من القوة، فتح المعز مصر فدخلها من الغرب فی مئة و قیل فی مئة و أربعین ألف مقاتل، و استکثر من العساکر من کتامة و روم و صقالبة و بربر و مغاربة، حتی قیل لم یطأ الأرض بعد جیوش الإسکندر بن فیلبس الرومی الکبیر أکثر من جیوش المعز الفاطمی، و ربما فاقت بعددها الجیوش التی جمعها أبو الجیش

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۰

خمارویه بن أحمد بن طولون صاحب مصر و الشام فی القرن الثالث.

فبمثل هذه الجیوش استقام أمر الفاطمیین لأول عهدهم فی مصر و الشام، فحکموا الی الفرات و مکة و المدینة و القدس و الخلیل و صارت مصر و المغرب مملکة واحدة، و الخلفاء من بنی العباس یحکمون من الفرات الی بغداد و أعمالها الی سائر المشرق، و یخطب لکل خلیفة منهما فی الجهات التی تحت حکمه باسمه فقط، و لما ضعف أمرهم أصبح یحکم دمشق حمال التراب، و یحکم صورا الملاح، و ثلاثة من البدو یتقاسمون ملک الشام، و العباسیون فی الشرق و الفاطمیون فی الجنوب لا یبدون و لا یعیدون، و عندهم القواد و الأجناد، و للأحداث أی فتیان العامة فی حلب و دمشق القول الفصل، یرفعون و یضعون، و یتحکمون و یعبثون بالناس و أموالهم، و یا بؤس بلاد یکون القول الفصل فیها لفوضی العامة.

کان حکام الشام یأتونها من الحجاز و العراق، فأصبحوا یکتسحونها فی هذه الأعصار من مصر و الشمال، و کان العمال و القواد عربا من بنی أمیة و بنی هاشم و من والاهم، فصاروا مزیجا من العجم و الترکمان، و کلهم سواء فی ارتکاب المظالم و المغارم، متی قوی سلطان الجار یهاجم جاره، فتطل دماء الأبریاء علی غیر طائل. و لم تستقر المملکة علی حالة معینة بضع سنین فکانت العوامل الجنسیة و المذهبیة تتنازعها و أهلها، و بعد أن کانت الشام فی القرن الأول و ثلث القرن الثانی مصدر الحیاة العربیة، و منبعث القوة الحربیة، أمست فی القرون التالیة ألعوبة أهواء الدخلاء، و طعمة الطامعین من أهل البوادی و من جرت علیهم أحکام الرقیق من العبید و البرابرة، و بعد أن کان للعصبیات فیها شأن فی القرنین الأولین أصبحت فی القرون الثلاثة التالیة ضعیفة ضئیلة، لا یتعدی تأثیرها المصالح الخاصة، و لا یفکر القائمون بها فی غیر السلب و الاعتداء.

إن تسامح العباسیین بإدخال أهل غیر عصبیتهم فیهم أدی الی انتشار کلمتهم و تمزیق جامعتهم، و ما کل القواد و العمال کإبراهیم بن المهدی و جعفر بن یحیی و طاهر بن الحسین و عبد اللّه بن طاهر. و لا کل المتوثبین علی الملک فی عقلهم و سیاستهم کأحمد بن طولون و سیف الدولة بن حمدان.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۱

دثرت تلک الطبقة الممتازة المختارة، و خلف من بعدها خلف من القواد و الرجال لیسوا فی الأکثر علی شیء من حسن السیاسة و الإدارة. إذا کان لهم جیش عظیم رهبهم الناس، و إلا- فالحکم للصعالیک و السلبة، و هم أول الطامعین فی السلطان، العاملین علی نقض بنیان الأوطان، و الناس بین مظلوم و ظالم، و متخوف و مخیف. و المنافسة بین الأمراء علی أشد حالاتها، و الشام مقسم الأجزاء بین کثیرین فی سیاسته الداخلیة و الخارجیة، مصر من الجنوب تشده، و بغداد من الشرق تزید أن تسترده، و الطامعون فیه من الترک و الترکمان و الروم و القرامطة و العبید و الخدم و المماریک یسطون علیه فیدمرون عمرانه، و یهلکون أهله و سکانه، و الناس فی الواقع

لا يعرفون لهم سيدا معينا لتفرق قلوبهم، و تباين منازعهم.

و صاحب حمص غير صاحب حلب، و صاحب دمشق غير صاحب صور أو الرملة، مملكة هذا حالها تموت بحكم الطبيعة، و لا تستريح من الغوائل نحال. و الجسم يعيش بروح واحد و تعدد الأرواح يستلزم تعدد الأجسام.

بعد أن قتل القرامطة الباطنية أهل مدن برمتها من هذا القطر استنجد أهل أعظم مدينة فيه بهم، فوافوا يجوسون خلال ديارهم لينقذوها من دولة الفاطميين المسلمين، و بعد أن ثبت أن الروم هم أعداء الشام بلا مراء، أصبح أمراؤه يستغيثون بهم على أبناء ملتهم ليصفو لهم ملكهم الذى يريدون أن يعيشوا فيه قيد الأسر لعدوهم الخارجى، و يستكثروا من القصور و الجوارى و المماليك و الحاشية و الغاشية ليكون كل صاحب مقاطعة فى أبهته كخليفة الوقت و زيادة. يسلبون نعمة الرعية لينعموا بما سلبوا، كمن يحاول نقض أساس بيته، يجمّل خارجه بإطار جميل، أو يذهّب شرفته و جدرانه. و بينما كان العزيز الفاطمى يبثّ دعاته لنشر التشيع فى الأقطار التى انضوت الى علمه، و يقتل هو و آله علماء المالكية لتشددهم فى التسنن، كان جمهور المسلمين غاضبين فى مصر و الشام لأنه و سد الأمر بمصر لرجل من الأقباط اسمه نسطورس، و قلد أموال الشام لإسرائيلى اسمه منشا يجمعان الأموال، يوليان أبناء نحلتهما الأعمال، و يعدلان عن الكتاب و المتصرفين من المسلمين، فعمد بعضهم فى القاهرة الى مبخرة

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۲

من حديد و ألبسها ثياب النساء و زينها بإزار و شعرية، و جعل فى يدها قصة على جريدة، و كتب فيها رقعة ليراها العزيز عند مروره و هى:

«بالذى أعز جميع النصارى بنسطورس و أعز جميع اليهود بمنشا و أذل جميع المسلمين بك إلا ما رحمتهم و أزحت عنهم هذه المظالم» فتوسطت ست الملك ابنة العزيز لنسطورس بالعفو. فحمل الى الخزانة ثلاثمائة ألف دينار، و أعاده الى ما كان ناظرا فيه و شرط عليه استخدام المسلمين فى دواوينه و أعماله. أما منشا فقتل اذ لم يستشفع فيه أحد. تناقض فى التسامح غريب فى بابه، و أصول فى الإدارة لم يلاحظ فيها نزع العلة التى يشتكى منها، بل كان ينظر فيها لمنفعة الخزانة، أما الرعايا فأمرهم للّه، و حسابهم على سواه.

و لقد جاء فى الفاطميين وزراء عقلاء مثل الوزير ابن كلس المتوفى سنة ۳۸۰ الذى نصح للعزيز فى مرض موته بقوله: «سالم يا أمير المؤمنين الروم ما سالموك، و اقنع من الحمدانية بالدعوة و السكة، و لا تبق على المفرج بن دغفل بن الجراح متى عرضت لك فيه فرصة» و كان ذلك غاية الغاية فى سياسة الملك لأن الروم أمة قوية عزيزة لا تخنع لجيرانها خلفاء مصر و لا لخلفاء بغداد، و هى تراهم مختلفة كلمتهم جد الاختلاف متعبين فى داخليتهم، مشتغلين بالمنتقضين على سلطانهم، فقد أجاب العزيز الروم سنة ۳۷۷ الى الصلح و اشترط شروطا شديدة التزموا فيها كلها. منها أنهم يحلفون أنه لا يبقى فى مملكتهم أسير إلا أطلقوه، و أن يخطب للعزيز فى جامع قسطنطينية كل جمعة، و هادنهم سبع سنين. أما الدولة الحمدانية فإنه على ما يظهر لم يعجل انقراضها إلا اعتصامها فى آخر أمرها بالروم، و نفضها يديها من طاعة العباسيين و طاعة الفاطميين معا، فاستهان بها عدوها و صديقها، و دب الفساد و دخلت الدسائس و كان فى ذلك زوالها، و أما المفرج بن دغفل أمير بنى طيىء و سائر العرب بأرض فلسطين، فإنه كان عدوا لدودا للفاطميين، قريبا من دار ملكهم يهددهم كل يوم، و ربما استطاع أن يستنجد بملوك الشرق على نقض عرى الملك الفاطمى. فهو بدوى و الأعراب أى البادية ما دخلوا بلدا إلا أسرع إليه

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۳

الخراب، و قيام الملك يحتاج الى حسن تدبير و تقدير أكثر من البطش و الجبرية، و لذلك لم تتم لأمراء بنى طيىء فى الجنوب، و لا لبنى مرداس الكلابيين فى الشمال دولة تعاقبت عليها بطون كثيرة فى الشام و كيف كان حال هذه الدول فإن قاعدة الحكيم ابن خلدون فى أن للدول أعمارا طبيعية كالأشخاص لا تنتقض فى الدول التى يحكمها الأفراد حكما استبداديا، و سعادة الدولة لا تدوم كالأفراد أكثر من أربعة بطون: الأول يفتح و يجمع، و الثانى ينظم و يرتب، و الثالث ينعم و يتمتع، و الرابع يفرق و يخرب، تعالى اللّه.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۴

دور السلجوقيين «من سنة ۴۶۳- ۴۹۰»

أصل السلجوقيين و التركمان و الفتح السلجوقى:

كانت الشام فى معظم دور الفاطميين ككرة الصوالجة تتقاذفها القوات المختلفة. و قد قام الفاطميون بعقب انقراض الدولة الإخشيدية فى مصر، و ورثوا تراثهم فى قسم من هذه الديار، ثم انقرضت دولة الحمدانيين فى الشمال، و كانت فى آخر أمرها تفزع الى دولة الروم البيزنطية لتحميها بأس خلفاء المصريين من بنى عبيد. و قامت دولة بنى مرداس و دولة بنى الجراح و دولة بنى سنان أى دول بنى كلاب و الطائيين و بنى كلب الى غيرهم من الدول الجديرات بأن يطلق على القائمين بها خوارج على الفاطميين، و كلهم أمراء عرب البادية أخضعوا المدن لسلطانهم مدة، و كان قيامهم دليلا على ضعف الدولة و سوء سياسة عمالها.

انقضى عهد الفاطميين أو كاد و كانت معظم أيامهم فتوحا و فتوقا، و لم يخفق علمهم على الشام كله مدة طويلة، بل كان إذا خضع الساحل خاصم الداخل، و إذا أطاع الجنوب نشز الشمال. و هكذا كان الشقاء فى أيامهم أكثر من السعادة، و الأهواء مشتتة، و الآراء ممزقة، و لئن كان أول خلفائهم ممن ملك الشام المعز ثم العزيز يحبان العدل و الإنصاف، و لهما من الحزم قسط وافر، إلا أن الولاة الذين تولوا الشام على عهدهما أيضا كانوا فى الأكثر ظلمة يسفكون الدماء و يستحلون أموال الرعية. فخرب القطر

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۵

فى أيامهما و ضعف أهله و غلت الأسعار و لا- سيما على عهد العزيز، و كانا يبادران حالا الى إبدال العمال مخافة أن ينزعوا الى العصيان. أما عهد الحاكم فكان الخلل المطلق، لخلل فى عقله و خرق فى سياسته، و كانت الشام بعده تختلف باختلاف العامل الذى ترسله مصر.

و بينا القطر متقلقل فى سياسته أقبلت من الشرق قوة عظيمة لا قبل له بدفعها. قوة الدولة السلجوقية التركمانية الجديدة جاءت لتقضى على الدولة الفاطمية العربية التى نزل بها الهرم أو كاد. و السلجوقيون نسبة لسلجوق من صغار أمراء الترك فى أرجاء بخارى، يقسمون الى ثلاثة فروع، فرع العجم و هذا الذى استولى على العراق و الجزيرة، ثم على الشام و الحجاز و اليمن، و فرع الروم أى آسيا الصغرى، و فرع كرمان. و التركمان قبائل كانت لأول أمرها تنزل بين بحيرة آرال و بحر الخزر، و هم من أول الأتراك الذين دانوا بالإسلام و خدموا بنى العباس، هاجروا الى فارس و العراق و آسيا الصغرى. و هم أصل الترك العثمانيين سكان الأناضول، و أعظم الشعوب التركية. و الفرق طفيف بين لسانهم و لسان اويغور أى الجغتاى. و تنقسم الألسنة التركية الى خمسة أقسام و هى الجغتاى أو اويغور و النوغاى أى التترى و القرغيز و الياقوت و اللسان العثمانى. فإذا أطلق اسم الترك فالمقصود منه الجنس الجامع لهذه الشعوب الخمسة، و إذا قيل التركمان أريد به أعظم شعب فى الترك، و كلا- الإطلاقين جائز. و التركمان على جانب عظيم من الشجاعة و الفروسية، أظهروا من الجلادة منذ وطئوا هذا القطر ما خلدوا به أعظم المفاخر، و أسسوا فى الشام حكومات منها المحمود، و منها دون ذلك.

لما سار السلطان آلب أرسلان ثانى ملوك السلجوقيين بجيوشه الى الشام، كانت مملكته تمتد الى الصين شرقا، و من أقصى ديار الإسلام شمالا، الى أقصى اليمن جنوبا، و جاء الى حلب و أقام الحصار عليها و عظم القتال بين عساكره و حامية حلب لصاحبها محمود بن نصر بن صالح بن مرداس، ثم استسلم هذا و خلع عليه السلطان آلب أرسلان، و أعاده الى بلده فبعث إليه مالا جزيلا. و فى تلك السنة (۴۶۳) قطع خطبة المستنصر العلوى

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۶

و خطب للقائم العباسى، و بدأ ظل الدولة الفاطمية يتقلص، و كان الحامل لآلب أرسلان على فتح الشام أن ناصر الدولة بن حمدان

الحاكم المتحكم فى الدولة المصرية أرسل يسأله أن يسير له عسكرا من قبله ليقيم الدعوة العباسية و تكون مصر له، فتجهز آلب أرسلان من خراسان فى عساكر جمة، و كان جيشه فيما قيل لا يقل عن أربعمائة ألف.

و خلف آلب أرسلان فى الشام طائفة من عسكره فجمع أتسز بن اوق من أمراء السلجوقيين الأتراك الغز، و سار الى فلسطين ففتح الرملة، و سار منها الى بيت المقدس و حصره، و فيه عسكر المصريين ففتحه، و ملك ما يجاوره ما عدا عسقلان، و قصد دمشق فحصرها و تابع نهب أعمالها حتى خربها و قطع الميرة عنها، فضاق الأمر بسكانها فصبروا و لم يمكنوه من ملك البلد فعاد عنه، و أدام قصد أعماله و تخريبها كل سنة حتى قلّت الأقوات عندهم، فكان يأخذ الغلات عند إدراكها فيقوى بها هو و عسكره و يضعف أهل دمشق و جندها.

و لما ملك السلطان ملكشاه بن آلب أرسلان (۴۶۵) سير أخاه تاج الدولة تتش الى الشام، و قرر معه فتح ديار مصر و المغرب و استخلاصهما من العلويين، و أمر مملوكيه بزان صاحب الرّهما و آق سنقر صاحب حلب أن يطيعاه على هذا الغرض. و كان ملكشاه الملقب بالسلطان العادل و أبوه آلب أرسلان من قبل المثل السائر فى آل سلجوق بعدلهما، و لم يكن للخليفة العباسى معهما سلطان فى الحقيقة، على نحو ما كان العباسيون فى الدهر السالف مع سلاطين بنى بويه الأعاجم. عرفت الشام ذلك و كان مما يفتح القلوب لحكم السلجوقيين أنهم من أهل السنة يخطبون باسم بنى العباس.

و جميع هذه المزايا كانت مفقودة فى الدولة العلوية المصرية.

فتح دمشق:

و فى سنة ۴۶۷ حاصر السلاجقة ثغر عكا و قتلوا واليها و ساروا عنها الى طبرية، و سار أتسز الى دمشق فحصرها و أميرها المعلى بن حيدرة من قبل الخليفة المستنصر و لم يقدر عليها فانصرف عنها، و كان المعلى أساء

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۷

السيرة مع الجند و الرعية و ظلمهم، فكثر الدعاء عليه و ثار به العسكر، و أعانهم العامة فهرب منها، فخربت دمشق و أعمالها و جلا عنها أهلها، و هان عليهم مفارقة أملاكهم و سلوهم عن أوطانهم، بما عانوه من ظلمه، و خلت الأماكن من قاطنيها، و الغوطة من فلاحيها. و لما رحل المعلى عن دمشق اجتمعت المصامدة الفاطميون و ولوا عليهم انتصار بن يحيى المصمودى و غلت بها الأسعار حتى أكل الناس بعضهم بعضا، و وقع الخلاف بين المصامدة و أحداث البلد، و عرف أتسز ذلك فعاد الى دمشق فحصرها، فعدمت الأقوات و بيعت غرارة القمح إذا وجدت بأكثر من عشرين دينارا، فسلموها إليه بالأمان و خطب بها للخليفة العباسى، و كان آخر ما خطب فيها للعلويين المصريين. و تغلب على أكثر الشام و منع الأذان بحى على خير العمل، ففرح أهلها فرحا عظيما، و ظلم أهلها و أساء السيرة فيهم.

قال ابن عساكر: إن أتسز التركمانى لما دخل دمشق و كان حاصرها دفعات، أنزل جنوده دور الدمشقيين، و اعتقل من وجوههم جماعة، و شمسهم بمرج راهط حتى افتدوا نفوسهم بمال أدوه له، و رحل جماعة منهم عن البلد الى طرابلس الى أن أريحوا منه بعد. و قال ابن الأكفانى:

نزل أتسز محاصرا لدمشق ثم انصرف عنها، ثم عاد الى منازلتها، ثم رحل عنها، ثم رجع إليها فحاصرها، ثم إنه فتح البلد صلحا، و دخلها هو و عسكره سنة ۴۶۸ و سكن دار الإمارة و خطب بها للمقتدى العباسى، و كتب إليه يذكر له تسليمها إليه، و غلو الأسعار بها، و موت أهلها، و أن غرارة القمح بيعت بمائتى دينار مما لم يعهد مثله. و أن أتسز نظر فى أمور دمشق بما يعود بصلاح أعمالها، و أطلق لفلاحى المرج و الغوطة الغلات للزراعات فصلحت الأحوال و رخصت الأسعار.

و لما فتح أتسز دمشق و أقام الخطبة العباسية طمعت نفسه فى ملك مصر، فسار (۴۶۹) من دمشق فيمن استطاع من الأحداث و الجند و

رجع خائبا بعد أن قتل من جنده جملة كثيرة جدا، ثم أقام بدمشق و جاءه التركمان من الروم و لم يستخدم غيرهم، و عصى عليه الشام و أعيدت خطبة صاحب

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۸

مصر فی جمیع الشام، قام بذلک المصامدة و السودان. و کان أتسز و أصحابه ترکوا أموالهم بالقدس، فوثب القاضی و الشهود و من بالقدس علی أموالهم و نسائهم فنهبوها و استعبدوا الأحرار، فخرج من دمشق فیمن انضوی إلیه، و دخل القدس فقتل ثلاثة آلاف إنسان، و احتمی قوم بالصخرة و الجامع فقرر علیهم الأموال لأنه لم یقتلهم و أخذ مالا کثیرا، و سار الی الرملة فلم یر فیها من أهلها أحدا، فجاء الی غزة و قتل کل من فیها فلم یدع بها عینا تطرف، و جاء الی العریش فأقام فیه و بعث سریة فنهبت الریف و عادت، ثم مضی الی یافا فحصرها و هدم سورها، ثم عاد الی دمشق و لم یبق من أهلها عشر العشر من الجوع و الفاقة، بل لم یبق من أهلها سوی ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الوباء و الغلاء و الجلاء. و کان بها مائتان و أربعون خبازا فصار بها خبازان و الأسواق خالیة، و الدار التی کانت تساوی ثلاثة آلاف دینار ینادی علیها بعشرة دنانیر فلا یشتریها أحد، و الدّکان الذی کان یساوی ألف دینار ما یشتری بدینار، و أکلت الکلاب و السنانیر و الفیران، و کان الناس یقفون فی الأزقة الضیقة فیأخذون المجتازین فیذبحونهم و یشوونهم.

و عاد الفاطمیون یحاولون فتح دمشق و علیهم ناصر الدولة الجیوشی فحاصروها مدة (۴۷۱) و ترحلوا، ثم حاصروها مرة ثانیة و استولوا علی أعمالها و أعمال فلسطین، فاضطر صاحبها أتسز الی الاستنصار بتاج الدولة، فلما عرف ناصر الدولة الخبر رحل عن دمشق و قصد الساحل. و کان ثغرا صور و طرابلس فی أیدی قاضییهما قد تغلبا علیهما، و لا طاعة عندهما لأمیر الجیوش الفاطمی، و یصانعان الأتراک بالهدایا و الألطاف. و وصل تاج الدولة الی عذراء فی عسکره لإنجاد دمشق فخرج أتسز إلیه و خدمه ثم قبض علیه و قتله و ملک تاج الدولة دمشق، و استقام له الأمر و أحسن السیرة فی أهلها بالضد من فعل أتسز و ملک أعمال فلسطین، ثم قصد حلب و ملک حصن بزاعة (۴۷۰) و قتل جمیع من فیه، و ملک البیرة و أحرق ربض عزاز و غیرها من الحصون مع ما غلب علیه من القلاع المجاورة.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۳۹

أول جمهورية عربية و مقتل آخر أمير عربي:

و فی سنة ۴۷۲ انقضت دولة بنی مرداس بحلب، و کان قصدها تتش ابن آلب أرسلان فحاصرها أربعة أشهر و نصفا، ثم رحل عنها فنازلها مسلم ابن قریش صاحب الموصل، و تعهد لملکشاه السلجوقی أن یحمل إلیه کل سنة ثلاثمائة ألف دینار فکتب له تقلیدا، و عادت ریاستها شوری فی مشیختها و طاعتهم لمسلم بن قریش. و معنی أن حلب أصبحت ریاستها شوری فی مشیختها أن الحلبیین لما نفضوا أیدیهم من حام یحمی بلدهم ألفوا جمهوریة من شیوخهم أدارت شؤونهم زمنا، و جعلوا ملکهم صاحب الموصل.

و ذکر المؤرخون أن الحلبیین أحسنوا فی هذه الحکومة و لم یختلفوا و نفذت قواعد العدل و ستقر الأمر فی نصابه. و سبب میل الحلبیین الی مسلم بن قریش أن تتش بن آلب أرسلان حصر مدینتهم المرة بعد المرة و اشتد علیها الحصار، فکان ابن قریش یواصلهم بالغلات و غیرها، و لما دخلها حصر القلعة و استنزل منها سابقا و وثابا ابنی محمود بن مرداس، و أنفذ الی السلطان یخبره بملک البلد، و أنفذ مع الرسول شهادة فیها خطوط المعدلین بحلب بضمانها، و سأل أن یقرر علیه الضمان، فأجابه السلطان الی ما طلب. و فی سنة ۴۷۳ ملک جلال الملک ابن عمار قاضی طرابلس و صاحبها حصن جبلة. و کان ابن عمار غلب علی تلک الأصقاع سنین و عجز والی الفاطمیین بدر الجمالی عن مقاومته.

و فی سنة ۴۷۵ جمع تاج الدولة تتش جمعا کثیرا و سار عن بغداد و قصد بلاد الروم أنطاکیة و ما جاورها، فلما سمع شرف الدولة

صاحب حلب الخبر خافه فجمع أيضا العرب من عقيل و الأكراد و غيرهم، فاجتمع معه خلق كثير، فراسل الخليفة بمصر يطلب منه إرسال نجدة إليه ليحصر دمشق فوعده بذلك. فلما سمع تاج الدولة الخبر عاد الى دمشق و حصرها و قاتله أهلها، و فى بعض الأيام خرج إليه عسكر دمشق و قاتلوه، و حملوا على عسكره حملة صادقة فانكشفوا و تضعضعوا، و انهزمت العرب و ثبت شرف الدولة و أشرف على الأسر و تراجع إليه أصحابه. فلما رأى ذلك

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴۰

و رأى أن مصر لم يصل إليه منها عسكر و أتاه من بلاده الخبر أن أهل حران عصوا عليه، رحل عن دمشق الى بلاده و أظهر أنه يريد بلاد فلسطين. رحل أولا الى مرج الصفر فارتاع أهل دمشق و تاج الدولة و اضطربوا، ثم سار من مرج الصفر مشرّقا فى البرية، وجد فى مسيره فهلك من المواشى الكثير مع عسكره و انقطع خلق.

و كان مسلم بن قريش الذى أحبه أهل حلب و أطاعوه من جملة عمال آلب أرسلان، و كان سليمان بن قتلمش السلجوقى صاحب قونية و أقصرا و ملاطية و من عمال السلجوقيين و أنسبائهم أشار إليه ملك السلجوقيين الأكبر السلطان ملكشاه أن يستولى على أنطاكية (۴۷۷) ففعل، و لما استقر فيها بعث إليه مسلم بن قريش يطلب منه المال الذى كان يحمله صاحب أنطاكية الرومى إليه فأبى و قال: أنا لا أدفع الجزية لأنى مسلم، فنهب مسلم بن قريش أنطاكية، و نهب سليمان بن قتلمش حلب، ثم جمع مسلم ابن قريش الجموع من العرب و التركمان و معه أمير التركمان جبق فى أصحابه و سار الى أنطاكية ليحصرها، فسار إليه سليمان بن قتلمش فالتقيا على نهر سبعين فى موضع يقال له قرزاحل و اقتتلا، فمال تركمان جبق الى سليمان فانهزمت العرب و تبعهم مسلم بن قريش منهزما، فقتل بعد أن صبر و قتل بين يديه أربعمائة غلام من أحداث حلب، و سار سليمان الى حلب فحصرها (۴۷۸) و لم يبلغ منها غرضا.

و فى هذه الوقعة التى قتل فيها سليمان بن قتلمش التركى مسلم بن قريش العربى انتقل ملك الشام من أيدى العرب الى الترك و لم يحكم فى الشام بعده إلا أمراء و ملوك من التركمان و الأتراك و الشراكسة و الأكراد.

و كان الأتراك يأتون الشام منذ أوائل القرن الثالث عمالا للعباسيين، فلم تكن مقاتلهم بادية للعيان لأنهم كانوا يحكمون باسم الدولة التى يعملون لها، و كان أكثرهم على جانب من حسن الأدب و الإدارة نشأوا نشأة عربية، و ها قد جاء دور يعمل الأتراك فيه أحرارا لحساب أنفسهم، بعد أن ختم الحكم العربى بمقتل مسلم بن قريش العقيلى ..

و عاد سليمان بن قتلمش فى السنة التالية و قصد حلب فبلغه أن تاج الدولة

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴۱

تتش قد تأهب لقصده فرحل عنها، و التقى عسكره و عسكر تاج الدولة فى موضع يعرف بعين سيلم على ثلاثة أميال من حلب، فكسر جيش تاج الدولة عسكر سليمان و قتل هذا فى الهزيمة و ملك تاج الدولة عسكره و سواده و نزل على حلب فتسلمها. ثم وصل ملكشاه و انهزم أخوه تاج الدولة من حلب و ملكها ملكشاه مع أنطاكية. أى إن سليمان بن قتلمش أحد عمال السلطان ملكشاه السلجوقى، قتل بأمر مولاه مسلم بن قريش ليأخذ بلاده، فقام تتش أخو ملكشاه فقتل سليمان، ثم قام تتش يريد الاستئثار بالملك دون أخيه، و قد فاته أن ملكشاه تهتز الدنيا من جيوشه، و أخوه فى الشام لا يخرج عن كونه واليا من ولاته، و الغالب أن تاج الدولة عرف هذا من نفسه فلم يسعه إلا أن يخدم أخاه.

و لما نزل ملكشاه بحلب دخل ابن منقذ صاحب شيزر فى طاعته، و سلم إليه اللاذقية و كفر طاب و أفامية، فأقره السلطان على شيزر و سلم حلب الى قسيم الدولة آق سنقر جد البيت الأتابكى أصحاب الموصل و الشام، و والد عماد الدين زنكى، وجد نور الدين محمود بن زنكى. و لما استقر آق سنقر فى حلب و أعمالها بسط العدل فى أهلها، و حمى السابلة و تتبع المفسدين و أبادهم. و كان ملكشاه فى سنة ۴۷۹ ملك حران و قلعة جعبر على الفرات، ثم ملك منبج و حلب، أما دمشق فكانت بيد تاج الدولة تتش منذ سنة ۴۷۱ أقطعه إياها أخوه السلطان ملكشاه مع ما يفتحه من بلاد الخليفة العلوى. و كانت جيوش الفاطميين تغزو بعض المدن الساحلية و تستردها من

التركمان أحيانا، و سلطة الفاطميين تتقلص اللهم إلا من فلسطين، فإنهم بعد أتسز الخوارزمى أخذوا يستردونها و خرج (۴۷۸) أمير الجيوش بدر الجمالى بجيوش مصر فحصر دمشق و بها تاج الدولة تتش و ضيق عليه فلم يظفر بشيء فارتحل عائدا الى مصر.

تنازع السلجوقيين و الفاطميين و انقسام السلجوقيين:

لم ينقطع أمل الفاطميين من ملك الشام بعد أن قطعت خطبتهم من أهم

خطط الشام، ج ۱، ص: ۲۴۲

مدنها مرات ثم عادت إليها، و بعثوا سنة ۴۸۲ جيشا قصد الساحل و فتح ثغر صور، و كان تغلب عليها ابن أبى عقيل و امتنع عليهم و مات فوليها أولاده و دخلوا تحت راية تاج الدولة تتش، فلما حصرهم عسكر المصريين سلموها إليهم، ثم فتح الجيش الفاطمى صيدا و عكا و جبيل.

و نزل تاج الدولة (۴۸۳) على حمص و معه آق سنقر و بزان و فيها خلف بن ملاعب الكنانى، فضايقوها الى أن ملكوها بالأمان. و خرج ابن ملاعب و سافر الى مصر، ثم عاد و أعمل الحيلة حتى ملك حصن أفامية، و استخلصه منه قسيم الدولة آق سنقر فى السنة التالية. و قيل: إن القتال كان على بعلبك و إن من حاربوا خلف ابن ملاعب قالوا له: أنت خطبت للمستنصر العلوى، فلما أخافوه طلب الأمان.

و فى سنة ۴۸۴ فتح تاج الدولة عرقة و قلعة أفامية، ثم سار الى طرابلس فحصرها و بها صاحبها ابن عمار ابن أخى القاضى أبى طالب بن عمار قاضى طرابلس و المتغلب عليها، و كان معه آق سنقر و بزان و نصب عليها المجانيق. فاحتج عليهم ابن عمار بأن معه منشور السلطان ملكشاه بإقراره على طرابلس فلم يقبل منه تتش ذلك و توقف آق سنقر عن قتاله فقال له تتش: أنت تبع لى فكيف تخالفنى؟ فقال: أنا تبع لك إلا فى عصيان السلطان. فغضب تتش و رجع الى دمشق. و ذكر ابن الأثير: أن ابن عمار لما رأى جيشا لا يدفع إلا بحيلة أرسل الى الأمراء الذين مع تاج الدولة و أطمعهم ليصلحوا حاله، فلم ير فيهم مطمعا، و كان مع آق سنقر وزير له اسمه زر بن كمر فراسله ابن عمار فرأى عنده لينا، فأتحفه و أعطاه فسعى مع صاحبه آق سنقر فى إصلاح حاله ليدفع عنه، و حمل له ثلاثين ألف دينار و تحفا بمثلها، و عرض عليه المناشير التى بيده من السلطان.

و فى سنة ۴۸۶ خرج من مصر عسكر كثير الى صور لما عصى واليها منير الدولة، و كان أهل صور أنكروا عصيانه فحين اشتد القتال نادوا بشعار المستنصر باللّه العلوى، فهجم العسكر المصرى على البلد و أخذها، و فرض على أهلها ستين ألف دينار، و فى هذه السنة تحرك تتش من دمشق لطلب السلطنة بعد موت أخيه ملكشاه الذى توفى فى السنة الماضية، و اتفق

خطط الشام، ج ۱، ص: ۲۴۳

معه آق سنقر صاحب حلب، و باغى سيان صاحب أنطاكية، و بزان صاحب الرّها، و سار معه آق سنقر فافتتح نصيبين و الموصل و ديار بكر، و سار الى أذربيجان، و كان بركيارق بن ملكشاه قد استولى على جانب كثير منها، فلما رأى آق سنقر ذلك تخلف عن معاونة تتش و قال: نحن إنما أطعنا تتش لعدم قيام أحد من أولاد السلطان ملكشاه، أما إذا كان بركيارق بن السلطان قد تملك فلا نكون مع غيره. و خلى آق سنقر تتش و لحق ببركيارق فضعف تتش لذلك، و عاد من أذربيجان الى الشام و أخذ فى جمع العساكر و كثرت جموعه (۴۸۷) و جمع آق سنقر العسكر بحلب، و أمده الأمير بركيارق بالأمير كربغا صاحب الموصل، فاجتمع كربغا مع آق سنقر، و التقوا مع تتش عند نهر سبعين على ستة فراسخ من حلب و اقتتلوا، فخامر بعض عسكر آق سنقر مع تتش و انهزم الباقون، و ثبت آق سنقر فأخذ أسيرا و أحضر الى تتش فقال تتش لآق سنقر: لو ظفرت بى ما كنت صنعت، قال: كنت أقتلك، قال تتش: فأنا أحكم عليك بما تحكم علىّ به.

فقتل آق سنقر و سائر أصحابه صبرا، و سار تتش الى حلب فملكها.

و رحل تاج الدولة عن حلب بعد أن ملكها و حصونها الى الفرات، و استولى على حران و سروج و الرّها و كاتب ولده فخر الملوك رضوان بدمشق يأمره بالمسير إليه فى من بقى من الأجناد فى الشام، فسار الى حلب و منها الى العراق فالرى، و استصحب معه جماعة من أمراء العرب و أتراك حلب القسيمية، نسبة لقسيم الدولة آق سنقر، فجرت وقعة بين السلطان بركيارق بن ملكشاه و بين عمه تاج الدولة تتش على عانة من عمل الجزيرة، فانفلّ عسكر هذا و تفرق و نهب سواده، و أسر أكثر جنده و قتل منه خلق كثير. و اغتال بعض أصحاب آق سنقر تاج الدولة تتش فقضى عليه.

و لما بلغ الخبر فخر الملوك رضوان فى دمشق ما تم على أبيه تاج الدولة أغذّ السير الى حلب ففتحت له أبوابها، و وصل إليه أخوه شمس الملوك دقاق من ديار بكر، و راسله الأمير ساوتكين الخادم المستناب فى قلعة حلب و البلد، و قرر له ملك دمشق سرا، فخرج فى الحال من حلب، و جلس على سرير أبيه فى دمشق، و استقام له الأمر و استمرت على السداد

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴۴

الأحوال. و فى سنة ۴۹۰ قدم على الأفضل بمصر رسل فخر الملوك رضوان بن تتش صاحب أنطاكية، يبذل له الطاعة فى إقامة خطبة المستعلى بالشام، فأجيب بالشكر و الثناء و خطب للمستعلى.

تطال تتش الى ملك أخيه ملكشاه فصده عنه ابنه بركيارق و قتله.

و قتل تتش آق سنقر لأنه لم يوافقه على رغائبه من نزع الملك السلجوقى من ابن ملكشاه، و حنق تتش على آق سنقر منذ قال له يوم طرابلس و هو يريده على قتال صاحبها: نحن نطيعك إلا فى عصيان السلطان.

فقتل آق سنقر و جوزى تتش بأن قام من صنائع قتيله من يأخذ بثأره فقتله أيضا. و استراح آل ملكشاه من تصدى تتش للملك و هو الذى لم يقنع بملك الشام، و كان فيه الملك الأعظم بعد مقتل آق سنقر. و تصرفت الأقدار بأن تتسلم زمام الأمر فى هذا القطر ذرية تاج الدولة تتش، ريثما ينتقل منها الحكم الى مملوك آخر اسمه طغتكين، و هو يسلمه الى حفيد آق سنقر نور الدين محمود بن زنكى.

الدولة الأتابكية و طغتكين و بنو أرتق:

كان آق سنقر و بزان صاحبا حلب و أنطاكية من مماليك السلطان ملكشاه، و كان من أمرهما فى الغناء و الوفاء ما كان فى الشام حتى مضيا لسبيلهما. ثم قام مملوك آخر طالت مدته أكثر منهما و كان له فى الدولة بالشام اليد الطولى و الكعب المعلى، و نعنى به أبا منصور ظهير الدين أتابك طغتكين، من مماليك تاج الدولة تتش بن آلب أرسلان ملك الشام، و معنى أتابك مربى أولاد الملك أو قائد الجيوش. قال ابن القلانسى:

حظى هذا الأمير و هو فى حداثة سنه عند السلطان تاج الدولة فقدمه على أبناء جنسه من خواصه و بطانته، و سكن الى شهامته و صرامته، و سداد طريقته، فجعله مقدم عسكره، و استنابه فى تدبير أمر دمشق، و حفظها أيام غيبته، فأحسن السير فيها، و أنصف الرعية من أهلها، و بسط المعدلة فى كافة من بها، فكثر الدعاء له و الثناء عليه، فعلت منزلته و امتثلت أوامره، و لم يلبث أن شاع ذكره بنجابته، و أشفقت

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴۵

النفوس من هيبته، فولاه ميافارقين و ديار بكر و هى أول ولايته؛ و سلم إليه ولده شمس الملوك دقاق و اعتمد عليه فى تربيته و كفالته، فساس أمرها بالهيبة و التدبير، و أصلح فاسدها و قوّم منآدها.

قال: و تنقلت به الأحوال الى أن توجه مع تاج الدولة الى الرى و شهد الوقعة التى استشهد فيها تاج الدولة، و حصل فى قبضة الاعتقال مع من أسر من المقدمين، و أقام مدة الى أن أفرج عنه (۴۸۸) فتلقاه شمس الدولة دقاق (بدمشق) و عسكره و أرباب دولته، و بولغ فى

إكرامه و احترامه، ورد إليه النظر فى قيادة الجند، و اعتمد عليه فى تدبير المملكة، و سياسة البيضة، و اقتضت الحال فيما بينه و بين الملك و أمراء الدولة العمل على الأمير ساوتكين و الإيقاع به، و تمم عليه الأمر و قتل، و عقدت الوصلة بينه و بين ظهير الدين أتابك و بين الخاتون صفوة الملك والدة شمس الملوك دقاق و دخل بها، و استقامت له الحال بدمشق و أحسن السيرة فيها، و أجمل فى تدبير أهليها، و سكنت نفس شمس الملوك إليه اه.

فانظر الى غرائب التوفيق فى الأرض كيف ينشأ مملوك، ربما كانت يد النخاس مرت على رأسه، يكفل ابن السلطان و يربيه و يتزوج بأمه و يتصرف فى ملكه و يدبر أمره، ثم يصبح بتجاربه و عقله ملكا ترغب الملوك فى التقرب منه، و يخاف العدى بأسه و سطوته، و يظهر فى مظهر من طيب الأخلاق لا يضاهيه من تسلسل فيهم الحكم و الملك، و تنقلوا فى السلطان كابرا عن كابر، لكن هى التربية إذا حسنت أتى صاحبها بالعجائب، و النفوس إذا صفت جبل الخلق على حبها، و الإرادات متى سلمت استمات الناس دونها، و بهذا كان الناس و لا يزالون يحكم كبارهم صغارهم، و يصبح المملوك ملكا مطاعا و المسود الخامل سيدا نابها، و كم من عصامى أفلح، و من عظامى أخفق.

قد يدرك الشرف الفتى و رداؤه خلق و جيب قميصه مرقوع

و من المماليك الذين حكموا فى الشام فأصبحوا ملوكا فى هذا الدور أيضا بنو أرتق، نسبة لجدهم أرتق بن أكسك و قيل أكسب التركمانى و من مماليك ملكشاه بن آلب أرسلان. تغلب أرتق على حلوان و الجبل

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴۶

و كان منصورا لم يشهد حربا إلا و كان الظفر له، ثم أمره مولاه ملكشاه سنة ۴۷۷ أن يذهب مع فخر الدولة بن جهير لضبط الموصل، و بينما كان مسلم بن قريش محصورا فى آمد، راسله أرتق و أخذ منه مالا وافرا و فتح له طريقا سار منه، فأنهى ابن جهير ذلك الى ملكشاه فخاف أرتق و ذهب الى دمشق و التحق بصاحبها تاج الدولة تتش، و عاونه على الاستيلاء على حلب، و ساعده فى كثير من المواقف، فأقطعه فلسطين، أخذها من أصحاب أتسز أرتق الخوارزمى (۵۸۴). فلما توفى صارت القدس و عملها لولديه ايلغازى و سقمان ابنى أرتق، حتى خرج عسكر خليفة مصر فاستولوا على القدس بالأمان فى سنة ۴۸۹ بعد أن بقيت فى حكم الأرتقية ثلاث عشرة سنة و أياما. و سار سقمان و أخوه إيلغازى من القدس فاجتاز سقمان بدمشق و كان صاحبها متغيبا عنها فقاتله أهلها و من فيها من الأجناد.

و فى سنة ۴۹۰ برز الملك رضوان صاحب حلب و ياغى سيان صاحب أنطاكية الى ناحية شيزر و عزما على معاودة دمشق لفتحها، فوقع الخلف بين مقدمى العسكر فرجع ملك حلب، و ورد عليه كتاب المستعلى باللّه الفاطمى يريده على الدخول فى طاعته، و إقامة الدعوة لدولته، و كذلك كتاب الأفضل يتضمن مثل ذلك، فأجابهما الى ما التمساه و أمر أن يدعى للمستعلى على المنبر و للأفضل بعده، ثم يدعى له بعدهما، و دامت الخطبة على ذلك أربع جمع. و كان الملك رضوان قد بنى الأمر فى ذلك على الاجتماع مع العسكر المصرى و النزول على دمشق لأخذها من أخيه الملك دقاق. فأنكر سقمان بن أرتق و ياغى سيان على الملك الدخول فى الأمر، و استبدعاه من فعله، و أشارا عليه بإبطاله و اطراح العمل به، فقبل ما أشير عليه و أعاد الخطب الى ما كانت عليه أى للعباسيين. و جرى الاتفاق على أن يخطب فى دمشق لرضوان قبل أخيه دقاق، و ذلك بعد أن يخطب للخليفة ثمّ للسلطان، و فى هذه السنة خرج العسكر من مصر و نزل على صور بعصيان و اليه المعروف بالكتيلة، و لم يزل منازلها الى أن فتحها بالسيف قهرا و قتل فيها خلق كثير، و نهب منها المال الجزيل، و أخذ الوالى فقتل.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴۷

الحروب الصليبية «من سنة ۴۹۰- ۵۰۰»

الحملة الصليبية الأولى:

لم يخل الجو لملوك التركمان السلاجقة و أتباعهم فى الشام زمنا طويلا بعد مقتل مسلم بن قريش العربى، فكانت المدة بين مقتله و ورود الأخبار بخروج عسكر الصليبيين الى الأرض المقدسة ثلاث عشرة سنة كما مضى مثل هذا العدد من السنين بين استيلاء أول تركى و استيلاء أول أفرنجى.

و كان القطر خلال ذلك فى هرج و مرج، يتطاحن أمراؤه يمزق بعضهم بعضا. تتعاوره أيدى ملكشاه و أخيه تتش بن آلب أرسلان ثم أولاده رضوان و دقاق و المماليك آق سنقر و بزان و طغتكين و أولاد أرتق ايلغازى و سقمان، و السلاجقة هنا يميلون الى الخلافة العباسية، و إذا رأى بعضهم القوة لأصحاب الخلافة المصرية يغمضون الطرف عنهم، و الفاطميون لا يملكون غير بعض الساحل، و أصبح القطر للتركمان، و يصعب على عرب الجزيرة إنجاده لبعد المسافات، و بغداد مهد العرب مشتغلة بنفسها.

ربما كان فى استيلاء التركمان على الشام خير لم تعرف حكمته إلا بعد حين، و هو قيام دولة فتية لها جيش جرار اشتهر بالشجاعة حتى قيل:

إن آلب أرسلان لما جاء المرة الأولى الى شمالى الشام كان فى أربعمائة ألف مقاتل، و مثل هذا الجيش لا تستطيع العراق و الشام و الجزيرة أن تجنده لدفع جيوش الفرنج الجرارة، هذا على فرض أن قواها موحدة، و روحها

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴۸

فى الدفاع واحد، فالشام إذا اعتز بالتركمان. ثم إن السلجوقيين كانت بأيديهم الدروب أو المنافذ الى آسيا الصغرى أو طريق الإفرنج من أوروبا الى الشام على طريق البر، فتولى دولة التركمان القيادة العامة جمع بالطبيعة حولهم العرب من سكان هذه الديار و ما إليها.

إن حكم التركمان الشديد عجل على ما يظهر فى خروج الصليبيين الى الشام. و إليك البيان:

أثخن بنو سلجوق أصحاب آسيا الصغرى فى جيش صاحب قسطنطينية بإيعاز السلطان ملكشاه، و ضايق الأمير برسق الروم، حتى قرر على القسطنطينية فى كل سنة حمل ثلاثمائة ألف دينار للسلطان، و ثلاثين ألف دينار له، جزية يؤديها، فخاف ملك القسطنطينية كثيرا على مملكته من هجوم المسلمين، فكتب يستنهض ملوك أوروبا أن يأتوا لمساعدته، و رضى بطريرك القسطنطينية بأن يقدم خضوعه لبابا رومية، إذا كانت ممالك أوروبا تجهز جيشا لتخليص المملكة اليونانية مما يتهددها من هجوم التركمان و المسلمين، فكاتب ملوك أوروبا بذلك.

قال صالح بن يحيى فى سبب استيلاء الصليبيين على ديار المسلمين:

إنه لما قويت دولة بنى سلجوق ضعفت حال الخلافة ببغداد، فلما مات ملكشاه السلجوقى سنة خمس و ثمانين و أربعمائة وقع الخلف بين ولديه محمد و بركيارق، و دام الحرب بينهما نحو اثنتى عشرة سنة فاضطربت ممالك الشرق لذلك، و وافق هذا خلافة الآمر بأحكام اللّه بمصر و كان صغيرا، و لما كبر كان مستهترا بالمملكة فخلا للصليبيين الجو.

و فى التاريخ العام أن حجاج النصارى كانوا يرمون الى أخذ القبر المقدس من أيدى المسلمين، و إن كان هؤلاء يتركونهم و شأنهم يقومون بعبادتهم بسلام، و لكن كان يتراءى للنصارى أن سيدهم المسيح يرضى عن عملهم إذا أنقذوا قبره من غير المؤمنين بدينه. و روى بعض المؤرخين أن الفاطميين هم الذين فاوضوا الصليبيين و أرادوهم على غزو الشام لينجوا من السلجوقيين الذين كانت قويت دولتهم. و هذا مما يستبعد، و إن كان العقل لا يستبعد شيئا فى السياسة، و لكن ظهر أن الفاطميين حاولوا غير مرة رد الصليبيين عن الساحل و عن فلسطين.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۴۹

و اتفق أن بعض زوار الأوروبيين فى الأرض المقدسة شاهدوا شيئا من العنف فى بيت المقدس لم يكن لهم عهد به فى أدوار الحكومات العربية القوية، و انقلبت سماحة العرب بجفاء من خلفوهم من التركمان، فعاد الزوار الى ممالكهم يقصون ما لقوا من الشدة

فی الشام و یعظمون الأمر، و کان التعصب الدینی یومئذ علی أشد حالاته فی الغرب، و معظم حکوماته تدین بدین البابا و تخضع لسلطانه القاهر، و لم یکن ظهر إذ ذاک المذهب الإنجیلی، و کان مذهب الروم الأرثوذکس آخذا بالضعف لیس له روابط الکنیسة البابویة و لا سلطتها علی الأرواح و الأشباح، فأوعز البابا الی أمم النصرانیة فی الغرب لیهبوا کلهم الی إنقاذ القبر المقدس من أیدی المسلمین.

و قد ذکر أهل الأخبار من الأوروبیین فی تعلیل الحروب الصلیبیة، أن المسیحیین و المسلمین کانوا حتی القرن الحادی عشر للمیلاد علی صلات سلمیة إلا قلیلا، یحمل العرب الی مصر و القسطنطینیة حاصلات مختلفة من بلاد الهند و الشرق الأقصی، فتستبضعها من المدن الإیطالیة باری و بیزة و جنوة و أمالفی و البندقیة فیبیعونها فی أوروبا. و کان العرب یسمحون للزوار أن یأتوا زرافات الی فلسطین، فیشخص إلیها جماهیر عظیمة من عامة نصاری الغرب یسجدون أمام القبر المقدس. و تضاعفت الحماسة الدینیة فی ذاک الزمن و تداعی الحکم العربی القائم علی التسامح فی قارة آسیا، و قام مقامه المحاربون من الترک المعروفین بتعصبهم و بسالتهم.

فاستولی السلجوقیون علی أرمینیة و الشام و نیقیة و دانت لهم فی سنة (۴۶۹ ه ۱۰۷۶ م) القدس فاختلت العلائق الاقتصادیة بین آسیا و أوروبا، و خافت المدن التجاریة فی البحر المتوسط أن یغلق الأتراک أمامها أسواق الشرق.

نعم نشأت الحملة الصلیبیة الأولی من الحماسة الدینیة بصنع البابویة التی کانت إذ ذاک الحاکمة المتحکمة فی کل شیء. و لقد تأثر البابا أوربانوس الثانی بشکاوی الزوار القادمین من فلسطین. و قلق للارتقاء المخوف الذی بلغه المسلمون فی الأندلس، و لا سیما عقبی وقعة الزلاقة سنة (۴۸۰ ه ۱۰۸۷ م) و قد أثبت العرب فیها کفاءتهم الحربیة، کما أثبتوا من قبل و من بعد کفاءتهم المدنیة، و اغتنم فرصة اجتماع المجمع الدینی العظیم الذی التأم فی مدینة

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۰

کلرمون و حضره ألوف من الفرسان، لیحرض المؤمنین من النصاری علی حمل الصلیب لفتح القبر المقدس. فوعد جمهور کبیر من جمیع طبقات الشعوب أن یرحلوا الی فلسطین. و اتخذوا شعار الحملة الصلیبیة صلیبا من القماش الأحمر یجعل علی الکتف الأیمن. و کثر المشترکون بهذه الحملة فی ایطالیا و انکلترا و لا سیما فی فرنسا. و منحهم البابا غفرانا عن جمیع خطایاهم، و شجب کل من یمس أموالهم مدة سفرهم. و لم ینتظر العامة ریثما تجمع الجیوش المتحدة التی أبطأ تنظیمها، بل سافروا بدون سلاح، غیر آخذین بالحزم فی التأهب للرحلة. و کان هذا شأن عصابات البائسین الذین جمعهم بطرس الراهب و غوتیه المعدم (سانزافور) و من لم یهلک من هذه العصابات فی الطریق أهلکه الترک.

و فی أواخر سنة (۴۹۰ ه ۱۰۹۶ م) اجتمع فی القسطنطینیة أربعة جیوش متحالفة من اللورین و الألمان بقیادة بودوین دی هینو، و فرنسیین من الشمال بقیادة القومس فرماندوا و دوق نورمندیا، و برفنسیون بقیادة قومس طولوز، و نورمیون من إیطالیا بزعامة بوهیموند دی ترانت و تنکری و لم یکن مع هذه الأمم ملک من ملوکهم، و لم یتفق رأی الغزاة علی نصب ملک یرتضونه و یرجعون إلیه. و کان الأمیر الکسیس کومنین (ملک الروم) یرجو استخدام الجیوش الصلیبیة لفتح آسیا الصغری، و استرجاعها من أیدی المسلمین، فصانعوه و لکن ما لبث البیزنطیون و اللاتین أن تباغضوا و احتقر بعضهم بعضا. و بعد سنتین و نصف مضت فی المصائب الهائلة و الجدال العنیف، استولی الصلیبیون فی طریقهم علی نیقیة لحساب الإمبراطور، و کسروا جیش سلیمان فی دوریلیوم (أسکیشهر) و استولوا علی الرّها (۱۰۹۷) و علی أنطاکیة (۱۰۹۸) و بلغوا القدس و استولوا علیها (۴۹۲ ه ۱۰۹۹ م). و ربما هلک فی هذه الحملة نصف ملیون من

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۱

الرجال حتی تهیأ للصلیبیین أن ینشئوا أربع إمارات: إمارة القدس و إمارة أنطاکیة و إمارة الرها و إمارة طرابلس، قسمت أقطاعا علی الفرسان الغربیین. أما المدن الکبری فی الساحل الشامی فقسمت مستعمرات أوروبیة أنشأت فیها مارسیلیا و المدن الإیطالیة أحیاء

برمتها.

و بـذا رأينا أنه دعا الى الحملات الصـليبية تعصب أوروبا الـدينى، و حب الغارة و التجارة، و الأسـباب التى دعت إليها واهيـة لا محالة. قال أحـد كتاب روسـيا: كان فى الإمكان اجتناب وقوع الحروب الصـليبية، و ساعد على حدوثها الجهل و الأوهام الدينية و السياسـية و مصـلحة البابوية. و كم من أحزان و آلام و جرائم جديدة كان يمكن أن تتوفر على الإنسانية لو لم يوقف شارل مارتل العرب سنة ۱۱۰ للهجرة فـإن المدنيـة الزاهرة الـتى كـان يحملهـا أولئـك الـذين دعـاهم الصـليبيون فى حـال سـخطهم و بغضـهم بأبنـاء إسماعيل(Sarrasins) عبـدة الأصـنام و الكفـار و الوثنيين، كـانت هـذه المدنيـة تؤثر فى أوروبـا الغربيـة و تعمل عملها فى المـدنية الفرنجية و الرومانية.

الصليبيون فى شمالى الشام:

هذا ما كان من جهة الغرب و سر الحملة الصـليبية الأولى على هذا الجزء الصـغير من الشرق، و لو كانت كلمة القابضين إذ ذاك على زمام الأمر فى آسيا الصغرى و أرض الشام متحدة، و حكوماتهم قوية منظمة، لتعذر كل التعذر على الصليبيين أن يزحفوا على أنطاكية، ثم يسير جيشهم حتى يأخذ الساحل و يبلغ البيت المقدس على كثرة عدده، فقد قيل: إن الحملة الأولى كانت مليون محارب و محاربة، لأن بعض الصـليبيين كانوا يصـحبون معهم أزواجهم و أولادهم. و فى روايـة ميشو أن الحملـة الأولى كانت سـتمائة ألف محارب على حين كان جيش الإسـكندر الذى فتح به آسـيا ثلاثين ألفا فقط. و مع هذا فإن الشام كان فى ذاك العهد بحالة من تجزؤ الحكم بحيث لا تسـتطيع أن تجهز نصف جيش الفرنج، و هى تحتاج الى حاميات عظيمة فى الثغور و الحصون و المدن الكثيرة. و كان المسلمون إذ ذاك كنصارى الأوروبيين مشتتة أهواؤهم غير منظمة قواهم. و مع

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۲

هذا فقد روى مؤرخونا أن الأخبار لما وصلت سنة ۴۹۰ ه الى الشام بظهور عسكر الفرنج من بحر القسطنطينية فى عالم لا يحصى عدده كثرة، شـرع الملـك داود بن سـليمان بن قتلمش، و كـان أقرب إليهم دارا فى الجمع و الاحتشـاد، و اسـتدعى التركمان فوافاه منهم مع عسـكر أخيه العـدد الكثير و عادوا إليه، و اسـتظهروا عليه، و كسـروا عسـكره فقتلوا منهم و أسـروا، و نهبوا و سـبوا، و انهزم التركمان و اشترى ملك الروم من السبى خلقا كثيرا و حملهم الى القسطنطينية.

و لمـا اتصـلت هـذه الأنبـاء بـأمراء الشـام، قرّ رأى أصـحاب أنطاكيـة و حلـب و دمشـق و غيرهم من صـغار الأمراء على الاستصـراخ و الاسـتنجاد، و تحصـين أنطاكيـة و إخراج النصـارى منهـا، و لـم تلبث عسـاكر الفرنـج ان نزلت على حصن بغراس و أعـادوا الكرة على أعمـال أنطاكيـة فعصـى من كـان فى الحصون و المعاقل المجاورة لها، و قتلوا من كان فيها و هرب من هرب منها، و فعل أهل حصـن ارتاح مثل ذلك و استدعوا المدد من الفرنج.

و كـان نهض من عسـكر الفرنـج فريق يناهز الثلاـثين ألفـا فعاثوا فى الأطراف و وصـلوا الى حصن البارة و فتكوا بأهله، و كان عسـكر دمشق وصل الى ناحية شـيزر لإنجاد ياغى سـيان، فقتل الفرنج منهم جماعة، و عاد الفرنج الى الروج بين حلب و المعرة، و توجهوا الى أنطاكية و جعلوا بينهم و بينها خندقا لكثرة الغارات عليهم من عسكرها.

و كان الفرنج عند ظهورهم عاهدوا ملك الروم و وعدوه بأن يسـلموا اليه أول بلد يفتحونه، ففتحوا نيقية فلم يسلموها اليه على الشروط المقررة، و افتتحوا فى طريقهم بعض الثغور و الـدروب و فتحوا الرّها و ما إليها و جاءوا أنطاكية فحاصـروها تسـعة أشـهر حتى و اطأهم قوم من الزرادين و منهم أرمن على تسـليم أنطاكيـة اليهم، و ذلـك لإسـاءة صـدرت من صاحبهـا يـاغى سـيان الى الأرمن فصادرهم و أرهقهم، و وجدوا الفرصة فى برج من أبراج البلد مما يلى الجبل فباعوه من الفرنج و أطلعوهم الى البلد منه. فانهزم ياغى سيان بعد أن ظهر من شـجاعته وجودة رأيه و حزمه و احتيـاطه ما لم يشاهـد من غيره، و خرج فى خلق عظيم فلم يسـلم منهم شـخص، و لما حصـل

بالقرب

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۳

من أرمناز قرب معرة مصرين سقط عن فرسه فمات. و قد قتل فى أنطاكية و أسر و سبى من الرجال و النسوان و الأطفال خلق كثير.

و لما سقطت أنطاكية عادت عساكر الشام فتجمعت، و حاصر المسلمون أنطاكية حتى عدم القوت منها، و أكل الفرنج الميتة، فزحفوا و هم على غاية من الضعف الى عساكر الإسلام، و هم فى الغاية من القوة و الكثرة، فكسروا المسلمين و فرقوا جموعهم. و السبب فى هذه الهزيمة أن كربوغا صاحب الموصل كان فى عسكره على حصار أنطاكية مع أمراء دمشق و حلب و حمص و غيرهم، فأساء السيرة فيمن اجتمع معه من الملوك و الأمراء و تكبر عليهم، فخبثت نياتهم على كربوغا فهزمهم عدوهم و هو فى ضعف و هم فى قوة. قال صاحب التاريخ العام: و كان الجيش الإسلامى الذى دافع عن أنطاكية و أنجد صاحبها مؤلفا من مائتى ألف محارب، و لو استطاع هذا الجيش أن يصل كله الى أنطاكية لقضى على الصليبيين جملة، و لم تلبث الحرب أن نشبت بين الصليبيين فاختلف البرفنسيون و النورميون، حتى إن الفرسان هددوا المتحاربين من الفرنج أن يخربوا المدينة التى كانوا يتنازعون ملكها. و ظلت الحرب على أنطاكية أربعة أشهر ففتحت بعد مذبحة هائلة قتل فيها من الفريقين ألوف.

و لما انهزم المسلمون أمام الفرنج على أنطاكية، سار هؤلاء بجملتهم الى المعرة و ضموا إليهم الأرمن الذين كانوا فى طاعتهم و بعض النصارى الشاميين، فاستولوا عليها و وضعوا السيف فى أهلها، و قتلوا منها ما يزيد على مائة ألف إنسان فى أكثر الروايات، و سبوا مثلهم و أقاموا بالمعرة أربعين يوما، ثم زحفوا عنها بعد أن قتلوا أهلها و قطعوا أشجارها. قال ميشو:

إن الفرنج قتلوا جميع من كان فى المعرة من المسلمين الذين اعتصموا بالجوامع و اختبأوا فى السراديب، فأصبحت خاوية على عروشها، و فقد الفاتحون كل زاد و ساءت حالهم، ثم وقع الخلاف بينهم و صاروا فى رواية يأكلون جثث الموتى، و هدموا أسوارها و أبراجها، و أحرقوا المساجد و كسروا المنابر و هدموا الدور، ثم ساروا الى عرقة و حصروها أربعة أشهر و نقبوا سورها عدة نقوب، فلم يقدروا عليها، ثم ساروا الى حمص فصالحهم

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۴

أهلها و راسلهم صاحب شيزر على الصلح و عصت طرابلس عليهم لما بدا من شمم صاحبها ابن عمار و استنجاده بالملوك، فصالحه صاحب أنطاكية و هاداه على أن يكون للفرنج ظاهر طرابلس و لا يقطع الميرة و المسافرين عنها، و بهذا تيسر للفرنج أن يحفظوا خط رجعتهم فى طريقهم برا الى القدس. و خرجوا على طريق النواقير الى عكا فلم يقدروا عليها.

فتح الصليبيين القدس و الساحل:

و بعد فتح الفرنج العرة و غدرهم بأهلها و من احتمى فيها، و قطعهم على أهل البلد القطائع التى لم يفوا بشىء مما قرروه فيها، و مطالبتهم للناس بما لا طاقة لهم به، رحلوا الى بيت المقدس على طريق الساحل فأجفل الناس، و كانت حلب على قيد غلوة من خطر استيلاء الفرنج، و لكنهم أعلنوا يوم وصولهم أنهم لا يقصدون إلا الاستيلاء على ما كان للروم من المدن، ليصرفوا فكر حكام الشام عن نجدة أهل أنطاكية، و لكن أمراء الأقاليم لم يصغوا لهذه الدعوة، و نزل الفرنج بعد أن اجتازوا معظم الثغور على الرملة فملكوها، و انتقلوا الى بيت المقدس فضيقوا عليه، فجاءهم الأفضل فى العسكر الدثر من مصر للإيقاع بهم و إنجاد البلد، فشدوا فى قتاله و لازموا حربه، فانهزم الناس و ملك الفرنج البلد «و لبث الفرنج يقتلون فى المسلمين بالقدس أسبوعا، و قتل من المسلمين فى المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألف نفس، منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين و علمائهم و عبادهم و زهادهم ممن جاور فى ذلك الموضع الشريف، و غنموا ما لا يقع عليه الإحصاء». و جمع الفرنج اليهود فى الكنيسة و أحرقوها عليهم، و هدموا المساجد و قبر الخليل، و أحرقوا المصاحف.

قال میشو: «و قد ارتکب الصلیبیون فی فتح القدس أنواع التعصب الأعمی الذی لم یسبق له نظیر، حتی شکا من ذلک المنصفون من مؤرخیهم، فکانوا یکرهون العرب علی إلقاء أنفسهم من أعالی البروج و البیوت و یجعلونهم طعاما للنار، و یخرجونهم من الأقبیة و أعماق الأرض و یجرونهم فی الساحات، و یقتلونهم فوق جثث الآدمیین. و دام الذبح فی المسلمین أسبوعا حتی قتلوا منهم کما اتفق علی ذلک مؤرخو الشرق و الغرب سبعین

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۵

الف نسمة، و الیهود کالعرب لم ینجوا من الذبح أیضا، فوضع الصلیبیون النار فی المذبح الذی لجأ إلیه أبناء إسرائیل و أهلکوهم کلهم بالنار».

ذکر ابن خلکان أن الأفضل کان تسلم القدس من سقمان بن أرتق و ولی فیه من قبله فلم یکن لمن فیه طاقة بالفرنج فتسلموه منه، و لو کان فی ید الأرتقیة لکان أصلح للمسلمین. و کان الأفضل راسل الأمیر سقمان و إیلغازی ابنی أرتق لیسلماه بیت المقدس بدون حرب فلم یجیباه، فقاتل البلد و نصب علیها المجانیق و هدم منها جانبا فلم یجدا بدا من الإذعان له فسلماه إلیه، و کان الأمیر أتسز بن أوق الخوارزمی انتزع القدس من ید المصریین سنة نیف و ستین و أربعمائة قبل ملکه دمشق، ثم لما کسر بمصر سنة ۴۶۹ قام علی أصحابه فئة فأخرجوهم ثم أعاد الدعوة العباسیة، و لم یزل القدس بیده الی أن قتله تاج الدولة تتش بن أرسلان سنة ۴۷۲ ثم انتزعه تاج الدولة سنة ۴۷۴ ثم سلمه الی الأمیر ظهیر الدین أرتق أواخر سنة ۴۷۸ فعمره و أسکن به ولده، و لم یزالوا به الی سنة ۴۹۱ حتی تسلمه المصریون. و جاء الأفضل و قد فات الأمر فانضاف إلیه عساکر الساحل، و نزل بظاهر عسقلان منتظرا وصول الأسطول فی البحر، فنهض عسکر الفرنج إلیه و هجموا علیه فی خلق عظیم، فانهزم العسکر المصری الی ناحیة عسقلان و دخل الفرنج إلیها، و تمکنت سیوفهم من المسلمین، فأتی القتل علی الرجالة و المطوعة و أهل البلد، و کانوا زهاء عشرة آلاف نفس و نهب العسکر الإسلامی، و توجه الأفضل فی خواصه الی مصر، و ضایقوا عسقلان فقتل من أهلها و غیرهم سوی أجنادها ألفان و خمسمائة نفس.

و لما توغل الصلیبیون فی الشام، و کانوا فی کل بلد یدخلونه یقتلون أهله، و یخربون عمرانه، و یحرقون کتبه و متاعه و آثاره، هام الناس علی وجوههم فی البراری و منهم من قصد الی داخلیة الشام، و منهم من فرّ الی مصر علی حالة رثة. و فی سنة ۴۸۵ ملک الفرنج ما حول بیت المقدس مثل صور و عکا و الرملة و یافا، أما بقیة الساحل کطرابلس و بیروت و اللاذقیة فبقیت تقاوم الی حدود سنة ۵۰۰ معتصمة وراء أسوارها محصورة فی بقعة ضیقه من أریاضها، معتمدة علی معاونة الفاطمیین لها من البحر.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۶

و کان الفرنج أول ما ملکوا من هذه الأرجاء الرّها و ما حولها من الحصون الفراتیة قبل ملکهم أنطاکیة و المعرة. و ظلت بیروت فی أیدی المسلمین الی سنة ۵۰۳ حتی فتحها بغدوین بعد أن حاصرها حصارا شدیدا و قتل من أهلها عالما کثیرا. و دام ملوک الفاطمیین ینجدون الساحل و الداخل بجنودهم، و لولاهم لتیسر للفرنج اکتساح هذه الأرجاء بمجرد سیر جیوشهم الجرارة، و حالت أسوار المدن بینهم و بین ما کانوا یؤملون، و صحت نیات القائمین بالأمر فیها، و لا سیما فی المدن الداخلیة، علی الدفاع، فکانت هجمات العدو یبددها فی الغالب دفاع السکان علی ضعف قواهم و تشتت أهوائهم، و موقف المدافع أسهل من موقف المهاجم.

و من أهم الأحداث بعد دخول الفرنج أنطاکیة خروج صاحبها بیمند سنة ۴۹۳ الی حصن أفامیة، فوصل الخبر الی الدانشمند الترکمانی صاحب ملاطیة و سیواس و عسکر قلج أرسلان بن سلیمان بن قتلمش صاحب قونیة و أقصرا، فقتل من عسکر الفرنج عددا عظیما، و حصل بیمند فی قبضة الأسر مع نفر من أصحابه، و نفذت الرسل الی نوابه فی أنطاکیة یلتمسون تسلیمها. قال صاحب الکامل: لم یفلت أحد من الفرنج فی هذه الوقعة و کانوا ثلاثمائة ألف غیر ثلاثة آلاف هربوا لیلا و أفلتوا مجروحین.

و وصل کدفری صاحب بیت المقدس الی عکا، و أغار علیها فأصابه سهم فقتله، و کان قد عمر یافا و سلمها الی طنکری، فلما قتل کدفری سار أخوه بغدوین القمص صاحب الرّها الی بیت المقدس فی خمسمائة فارس و راجل، فجمع صاحبا دمشق و حمص الجموع

و لقیاه بالقرب من بیروت، فسارع نحوه صاحب حمص فی عسکره فظفر به و قتل بعض أصحابه. و فیها افتتح الفرنج حیفا علی ساحل البحر و أرسوف بالأمان و أخرجوا أهلها منها، و فتحوا قیساریة و قتلوا أهلها و نهبوا ما فیها و أعانهم الجنویون علیها.

و کان الجنویون و البیزیون یبعثون کل سنة بمراکب الی ثغور الشام.

و أرسل عبد اللّه بن صلیحة المتغلب علی ثغر جبلة الی صاحب دمشق، یلتمس منه إنفاذ من یراه من ثقاته لیسلم إلیه جبلة، فانتدب ولده تاج الملوک فتسلمها، و أساء هو و أصحابه الی أهلها و ظلموهم، فشکوا حالهم

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۷

الی ابن عمار صاحب طرابلس فأنهض إلیهم عدة وافرة من عسکره، فدخلت الثغر و اجتمعت مع أهله علی الترکمان فقهروهم و أخرجوهم منه و ملکوه، و حملوا تاج الملوک الی طرابلس فدمشق معززا. و فی روایة أن الفرنج استولوا علی جبلة هذه السنة. و فیها خرج من مصر عسکر کثیف مع سعد الدولة المعروف بالقوامسی و وصل الی عسقلان لجهاد الفرنج و رحل عنها، فنهض من الفرنج ألف فارس و عشرة آلاف راجل و التقی الفریقان فکسرت میمنة المسلمین و استشهد سعد الدولة و عاد المسلمون علی الفرنج و تذامروا علیهم و تحاضوا علی قتالهم، و بذلوا النفوس فی الکرة علیهم فهزموهم الی یافا و قتلوا منهم و أسروا. و فیها نزل صنجیل علی طرابلس، و کان جاءه أربعون مرکبا مشحونة بالرجال و المال، فعطب بالریاح أکثرها، فکتب صاحبها الی دمشق یستصرخ، فسار عسکرها مع صاحب حمص الی أنطرطوس و التقوا بالفرنج، فانهزم صاحب حمص و عاد الفرنج الی قتال طرابلس و عاد ابن عمار الی الاستصراخ بصاحبی حمص و دمشق، فدفعوا الفرنج عنه بعد أن قتل من أهل طرابلس سبعة آلاف رجل، و نازل صنجیل طرابلس و حصرها و أتاه أهل الجبل فأعانوه علی حصارها، و کذلک أهل السواد و أکثرهم نصاری، ثم هادنهم علی مال حمله أهل طرابلس الی صنجیل، فسار الی أنطرطوس ففتحها و قتل من بها من المسلمین، ثم رحل الی حصن الطوبان و هو یقارب رفنیة، و مقدمه یقال له ابن العریض فقاتلهم فنصر علیه أهل الحصن و أسر ابن العریض منه فارسا من أکابر فرسانه، فبذل صنجیل فی فدائه عشرة آلاف دینار و ألف أسیر فلم یجبه ابن العریض الی ذلک. ثم سار صنجیل و حاصر حصن الأکراد فجمع تاج الدولة صاحب حمص العسکر لیسیر إلیه فوثب به باطنی و اغتاله، و لما بلغ صنجیل ذلک رحل عن حصن الأکراد الی حمص و نازلها و ملک أعمالها. و فی هذه السنة أطلق الدانشمند صاحب سیواس بیمند الفرنجی صاحب أنطاکیة من الأسر و أخذ منه مائة ألف دینار، و لما خلص من الأسر عاد الی أنطاکیة فقویت نفوس أهلها به،

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۸

و لم یستقر حتی أرسل الی أهل العواصم و قنسرین و ما جاورها یطالبهم بالأتاوة، فورد علی المسلمین من ذلک ما طمس المعالم التی بناها الدانشمند.

تخاذل أمراء المسلمین و بلاء طغتکین و ابن عمار:

جهز ملک مصر فی سنة ۴۹۶ عسکرا بقیادة ابنه شرف المعالی، و سیر الأسطول فی البحر فاجتمع بالعسکر الذی خرج سنة ۴۹۵ و علیه سعد الدولة القوامسی بیازور علی ساحل الرملة، و التقیا مع عسکر الفرنج فهزموهم، و حاصر شرف المعالی قصرا کان الأفشین قد بناه قریبا من الرملة و ملکه قهرا، و قتل من کان به من الفرنج فحضر فی البحر عدة مراکب نجدة لهم و حاصروا عسقلان، فرحل شرف المعالی من الرملة الی عسقلان، فارتحل الفرنج عنها، و کتب الأفضل الی شمس الملوک دقاق صاحب دمشق یستنجده علی الفرنج فاعتذر عن ذلک.

و فی سنة ۴۹۷ وصلت مراکب الفرنج فی البحر الی ظاهر اللاذقیة مشحونة بالتجار و الأجناد و الحجاج و غیر ذلک، فاستنجد بهم صنجیل المنازل لطرابلس فی مضایقتها و المعونة علی ملکها، فاجتمعوا معه علی منازلتها، فقاتلوها أیاما و رحلوا عنها، و نزلوا علی ثغر

جبیل، فقاتلوه و ضایقوه و ملکوه بالأمان ثم غدروا بأهله و صادروهم، و استنفدوا أموالهم بالعقوبات و أنواع العذاب. و فیها التقی عسکر الأمیرین سقمان بن أرتق صاحب آمد و جکرمش صاحب الموصل بعسکر بیمند و طنکری فی عسکریهما من ناحیة أنطاکیة فانتصر المسلمون.

و نزل بغدوین صاحب بیت المقدس علی ثغر عکا- و والیها من قبل المصریین زهر الدولة الجیوشی- و معه الجنویون و المراکب فی البحر و البر، و هم الذین کانوا ملکوا ثغر جبیل فی نیف و تسعین مرکبا فحصروه من جهاته، و لازموه بالقتال الی أن عجز والیه و رجاله عن جربهم، و ضعف أهله عن المقاتله و ملکوه بالسیف قهرا. و نزل الفرنج علی حصن بسرفوت و رموه بالمناجیق ففتحوه بالأمان و أطلقوا من کان فیه، و کان من أمنع حصون جبل بنی علیم من حیز حلب. و ظهر ابن عمار صاحب طرابلس

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۵۹

فی عسکره و أهل البلد و قصد الحصن الذی بناه صنجیل علیهم، و هجم علی غرة ممن فیه، فقتل من به و نهب ما فیه و أحرق و أخرب، و أخذ منه السلاح و المال و الدیباج و الفضة، هذا و ملوک الإسلام إذ ذاک مشتغلون بقتال بعضهم بعضا و قد تفرقت الآراء و تمزقت الأموال. و قصد الفرنج حران فاتفق صاحب الموصل و صاحب حصن کیفا و ماردین و معهم العرب و الترکمان و اجتمعوا بالفرنج علی الخابور علی نهر البلیخ فهزم الفرنج و أسر ملکهم القومص.

و فی سنة ۴۹۸ خرج صاحب حلب عازما علی قصد طرابلس لمعاونة صاحبها ابن عمار علی الفرنج النازلین علیه، و کان الأرمن فی حصن أرتاح قد سلموا إلیه الحصن لما شملهم من جور الفرنج و نزل علیها فوقع المصافّ بین المسلمین و الفرنج عند شیزر، فثبت راجل المسلمین و انهزمت الخیل، و وقع القتل فی الرجالة و لم یسلم منهم إلا القلیل و وصل الفلّ الی حلب، و حین عرف ذلک من کان فی أرتاح من المسلمین هربوا بأسرهم منها فملکها الفرنج، ثم قصدوا حلب فأجفل أهلها منهم و اضطربت أحوال من بالشام.

و فی هذه السنة خرج من مصر عسکر کثیف یزید علی عشرة آلاف فارس و راجل مع شرف المعالی ولد الأفضل، و کوتب صاحب دمشق بالاستدعاء للمعونة فنزل هذا علی بصری ثم قصد ظاهر عسقلان، فتجمع الفرنج و قصدوا عسقلان فالتقی الفریقان بین یافا و عسقلان، و استظهر الفرنج علی المسلمین و قتلوا والی عسقلان، و انهزم عسکر مصر الی عسقلان، و عسکر دمشق الی بصری، و کان صاحبها أیتکین الحلبی راسل بغدوین ملک الفرنج للاستنجاد به، و توجه أیتکین و أرتاش بن تاج الدولة نحو بغدوین، و أقاما عنده مدة یحرضانه و قومه علی المسیر الی دمشق، و یبعثانه علی الإفساد فی أعمالها فلم یجبهما، فلما یئسا توجها الی ناحیة الرحبة.

و توجه صاحب دمشق الی بعلبک، و قرر أمورها و کف الأذی عن والیها کمشتکین الخادم التاجی، و توجه إلی حمص و قصد رفنیة و نزل علیها، و وفد علیه خلق کثیر من جبل بهراء فی عمل حمص، فهاجموا رفنیة علی حین غفلة من أهلها، و غرة من مستحفظیها، و قتلوا من بها

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۰

و بأعمالها و أحرق ما أمکن إحراقه من الحصن المحدث علیها من الفرنج و غیره، و ملکت أبراج رفنیة و هدم الحصن و قدم من کان فیه.

و فی سنة ۴۹۹ سار الفرنج الی أفامیة و حاصروها و ملکوا البلد و القلعة و قتلوا القاضی المتغلب علیها، و کان هذا کتب الی صاحب حلب لإنقاذ البلاد من المستبد بها خلف بن ملاعب الکلابی الذی کان دأبه إخافة السبل، فقتله و التجأ ابنه مصبح الی طنکری صاحب أنطاکیة و حرضه علی العود الی أفامیة و أطمعه فی أخذها لقلة القوت بها، فنهض إلیها و نزل علیها و ضایقها الی أن تسلمها بالأمان. و الغالب أن الإسماعیلیة هم الذین ملکوا حصن أفامیة باسم الملک رضوان صاحب حلب، و کان بنی لهم بحلب دار دعوة و هو أول من عملها. و کان بأفامیة رجل من دعاتهم، یقال له أبو الفتح السرمینی فقرر ذلک لمنع أهلها، فنقبوا السور و هجموا علی ابن ملاعب و قتلوه و نادوا بشعار الملک رضوان. و بقی الحصن فی أیدیهم حتی أخذه الفرنج منهم فی سنة ۵۰۰.

و فی سنة ۴۹۹ ملک صنجیل مدینة جبلة، ثم سار و أقام علی طرابلس فحصرها و بنی بالقرب منها حصنا، و بنی تحته ربضا و هو المعروف بحصن صنجیل، فخرج صاحب طرابلس فأحرق الربض و هلک صنجیل علی أثر حرق بجسمه «و دام الحرب بین أهل طرابلس و الفرنج خمس سنین و ظهر من صاحبها ابن عمار صبر عظیم، و قلّت الأقوات بها و جلا الفقراء و افتقرت الأغنیاء». قال ابن الأثیر: و کانت طرابلس من أعظم بلاد الإسلام تجملا و ثروة، فباع أهلها من الحلی و الأوانی الغریبة ما لا حد علیه حتی بیع کل مائة درهم نقرة بدینار.

حرب طغتکین للصلیبیین:

خرج الفرنج الی سواد طبریة (۴۹۹) و شرعوا فی عمارة حصن علعال بین السواد و البثنیة، أو بین الغور و جبل الشراة، و کان من الحصون الموصوفة بالمنعة، فلما عرف صاحب دمشق هذا العزم منهم نهض، فملک الحصن و قتلهم و أسرهم. قال ابن الأثیر: و قد قال طغتکین للمقاتلة یومئذ:

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۱

من أحسن قتال الفرنج و طلب منی أمرا فعلته معه، و من أتانی بحجر من حجارة الحصن أعطیته خمسة دنانیر، فبذل الرجالة نفوسهم و صعدوا الی الحصن و خربوه و حملوا حجارته الی طغتکین فوفی لهم بما وعدهم، و أمر بإلقاء الحجارة فی الوادی و أسروا من بالحصن فأمر بهم فقتلوا کلهم و استبقی الفرسان، ثم سار الی حصن رفنیة فحصره و ملکه، و قتل به خمسمائة رجل من الفرنج.

و فی السنة التالیة (۵۰۰) زاد عیث الفرنج فی أعمال السواد و حوران و جبل عوف (عجلون)، فنهض صاحب دمشق بالعسکر وخیم فی السواد.

و هجم عز الملک والی صور علی ربض حصن تبنین فی جبل عامل من عمل الفرنج و قتل من کان فیه، فنهض بغدوین من طبریة، و سار صاحب دمشق الی حصن بالقرب من طبریة فیه جماعة من فرسان الفرنج فقاتله و ملکه و قتل من کان فیه. و أقطع صاحب دمشق الأمیر الأصفهبد الترکمانی وادی موسی و مآب و الشّراة و الجبال و البلقاء، و کان الفرنج قد نهضوا الی هذه الأعمال و قتلوا من فیها و سبوا و نهبوا، فلما وصل إلیها وجد أهلها علی غایة الخوف من الفرنج، و نهض هؤلاء لما عرفوا خبره من ناحیة البریة و کبسوه علی غرة، فانهزم و استولی الفرنج علی سواده.

و تتابعت المکاتبات من صاحبی دمشق و طرابلس الی محمد بن ملکشاه السلجوقی بعظیم ما ارتکبه الفرنج، و تملک الحصون و المعاقل، و الفتک بالمسلمین و مضایقة ثغر طرابلس، و الحض علی تدارک الناس بالمعونة، فوقع خلاف بین الأمراء الذین انتدبهم صاحب حلب و دمشق و غیرهما فی جهات الرحبة، و التقوا مع عسکر قلج أرسلان فی أراضی الموصل، و نسوا الغرض الذی ندبوا إلیه. و قلج أرسلان الترکمانی هو الذی أعان ملک الروم فی القسطنطینیة علی بیمند ملک الفرنج، فاستظهر الروم و الترکمان علی الفرنج و کسروهم کسرة شنیعة أتت علی أکثرهم بالقتل و الأسر و تفرق الباقی منهم عائدین الی دیارهم.

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۲

حروب الصلیبیین و دولة طغتکین و بقایا السلجوقیین «من سنة ۵۰۰ الی ۵۲۲»

هدنة طغتکین للصلیبیین و شدته علیهم:

انسلخ القرن الخامس، و أهم ما دهم القطر فأوقع الاضطراب فیه، انهیال جیوش الصلیبیین علیه، و تبلج القرن السادس و الصلیبیون فی الشام، منذ عشر سنین، استصفوا الساحل و بعض الداخل، و الحرب بین أمراء الشام و بین الفرنج علی أشد حالاتها، و شعر أمراء

المسلمين بالخطر المداهم لكن القوى لم توحّد، و كيف يخضع صاحب آمد لصاحب دمشق أو صاحب حلب لصاحب الموصل؛ و كل منهم يدعى التفوق و يود لو ينال من جاره ليكون له الأمر كله، و كان طغتكين صاحب دمشق يحمل العبء الثقيل لأن مملكته تتاخم أرض فلسطين، و ملوك الأطراف أبعد ديارا، و كان همه قتال الأعداء من الجنوب و الغرب، و حفظ الموازنة مع صاحب حلب حتى لا يستخذى فتسقط دمشق بل الشام بأسره.

و أهم الأحداث فى العقد الأول من هذا القرن إقامة صاحب القدس على تل المعشوقة فى صور (۵۰۱) بناء، و مصانعة واليها على سبعة آلاف دينار، و اشتداد الأمر بابن عمار فى طرابلس لحصار الفرنج و مضيه الى بغداد مستنجدا، و قد استناب ابن عمه أبا المناقب، فنادى بشعار الأفضل صاحب مصر، فقبض عليه و حمل الى حصن الخوابى. و طال مقام ابن عمار فى مدينة السلام على غير طائل، و أنفذ الأفضل من مصر الى طرابلس

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۳

فى البحر الغلة و الميرة و واليا من قبله فتسلم البلد. و أسرى صاحب دمشق الى طبرية و فرق عسكره فرقتين، نفذت إحداهما الى فلسطين، و أغار بالثانية على طبرية، و أحاطت الخيل بصاحب طبرية و بأصحابه فقتل أكثرهم. و نهض صاحب القدس الى صيدا برّا و بحرا و نصب برج الخشب عليه، و وصل الأسطول المصرى فظهر على مراكب الفرنج و عسكر البر و اتصل بهم نهوض العسكر الدمشقى لحماية صيدا فرحلوا عنها.

و تسلم الفرنج عرقة بالأمان (۵۰۲)، و كان أنجدها صاحب دمشق فعاقته الثلوج و الأمطار عن الوصول إليها، فرجع الى حصن الأكمة مقاتلا، ثم رحل عنه شبه المنهزم الى حمص. و نزل الفرنج على طرابلس و شرعوا فى قتالها و مضايقة أهلها زهاء أربعة أشهر، فشمل اليأس أهلها لتأخر وصول الأسطول المصرى فى البحر، فملكها الفرنج بالسيف «و نهبوا ما فيها و أسروا رجالها و سبوا نساءها و أطفالها و حصل فى أيديهم من أمتعتها و ذخائرها و دفاتر دار علمها، و ما كان منها فى خزائن أربابها، ما لا يحد عدده و لا يحصر، و نزل بأهلها أشد البلاء، و تقرر بين الفرنج و الجنويين على أن يكون للجنويين الثلث من البلد و ما نهب منه، و الثلثان لريمند بن صنجيل و أفردوا للملك بغدوين من الوسط ما رضى به». و ذكر النويرى أن السبب الذى دعا أهل طرابلس الى التسليم، أنهم بينا كانوا ينتظرون وصول النجدة بحرا من مصر، جاءهم رسول منها على مركب يطلب منهم لاسم الخليفة الفاطمى جارية جميلة كانت فى طرابلس و خشب مشمش يصلح لعمل عود و غيره من آلات الطرب.

و بعد فتح طرابلس سار الفرنج الى جبلة، و سار جاولى الى بالس، فهرب من بها من أصحاب الملك رضوان صاحب حلب، فحصرها خمسة أيام و ملكها بعد أن نقب برجا من أبراجها. و افتتح السردانى المتغلب على عرقة حصن بانياس، و نزل على ثغر جبيل و فيه ابن عمار فخرج منه بالأمان، و وصل الأسطول المصرى بعد أخذ طرابلس فأقام بالساحل مدة و فرقت الغلة فى جهاتها، و تمسك به أهل صور و صيدا و بيروت، و شكوا ضعفهم عن مقاومة الفرنج. و فيها كان المصاف بين جاولى و بين

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۴

طنكرى صاحب أنطاكية، و سبب ذلك على ما رواه ابن الأثير أن الملك رضوان كتب الى طنكرى يعرفه ما عليه جاولى من الغدر و المكر و الخداع و يحذره منه و يعلمه أنه على قصد حلب، و أنه إن ملكها لا يبقى للفرنج معه بالشام مقام، و طلب منه النصرة و الاتفاق على منعه، فأجابه طنكرى الى منعه، و برز من أنطاكية، فأرسل إليه رضوان ستمائة فارس. و لما وقعت الحرب لم يبق غير هزيمة صاحب أنطاكية، ثم انهزم جاولى و بقية عسكره، و قتل من المسلمين خلق كثير، و نهب صاحب أنطاكية أموالهم و أثقالهم و عظم البلاء عليهم من الفرنج، و هرب القمص و جوسلين الى تل باشر، و التجأ إليهما خلق كثير من المسلمين ففعلا معهم الجميل و داويا الجرحى و كسوا العراة و سيراهم الى بلادهم.

و فيها كانت حرب شديدة بين طغتكين و الفرنج على طبرية، و اشتد القتال فانهزم المسلمون، ثم نادى طغتكين بالمحاربين و شجعهم،

فعاودوا ألحرب و كسروا الفرنج و أسروا ابن أخت ملك القدس، و حمل الى طغتكين فعرض طغتكين عليه الإسلام فامتنع، و بذل فى فداء نفسه ثلاثين الف دينار و إطلاق خمسمائة أسير، فلم يقنع طغتكين منه بغير الإسلام و قتله بيده. ثم اتفق طغتكين و بغدوين ملك الفرنج على وضع الحرب أربع سنين. و لما انهزم طغتكين على طرابلس و وصل الى حمص بعسكره على أقبح حال أرسل إليه ملك القدس يقول له: لا- تظنن أننى أنقض الهدنة للذى تم عليك من الهزيمة. فالملوك ينالهم أكثر مما نالك ثم تعود أمورهم الى الانتظام و الاستقامة، و كان طغتكين خائفا أن يقصده بعد هذه الكسرة فينال من بلده كل ما أراد.

و هادن صاحب دمشق ملك بيت المقدس على أن يكون السواد و جبل عوف أثلاثا، للتركمان الثلث و للفرنج و الفلاحين الثلثان. و جاء ابن عمار الى دمشق فأقطعه صاحبها الزبدانى و أعمالها (۵۰۳) و كان لابن عمار البلاء الحسن بل الأحسن فى دفع عادية الصليبيين عن بلده، لم يترك بابا من أبواب الخلاص ليصدهم عن طرابلس إلا طرقه، حتى دفعهم بعقله و حسن إدارته عن تملكها عشر سنين. و كان فى طريق رجعتهم كالحسكة

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۵

فى الحلق، و فى معاملة ملوك الأطراف نموذج الدهاء السياسى، و هو على صغر جرم مملكته يطاول و يحاول و ينازل و يصاول و يلين و يقسو.

و نهض الفرنج (۵۰۳) الى رفنية و ترددت بينهم و بين أمراء الشام مراسلات أفضت الى تقرير الموادعة على أن يكون للفرنج ثلث مغل البقاع، و يسلم إليهم حصن المنيطرة و حصن عكار، و أن لا- يتعرض لحصن مصياف و الخوابى و حصن الأكراد و حصن الطوبان، و أن يحمل إليهم مال عنها و عن حصن الطوبان، و أقاموا على ذلك مدة ثم عادوا الى الفساد، و خرج صاحب أنطاكية و استولى على طرطوس و قرر على شيزر عشرة آلاف دينار و تسلم حصن الأكراد و عاد الى أنطاكية، و نزل بغدوين صاحب القدس و ابن صنجيل صاحب طرابلس الى بيروت، و سار إليهم جوسلين صاحب تل باشر لمعاونتهم و استنجادهم على الأمير مودود ابن التونتكين صاحب الموصل. و جاء الأسطول المصرى مؤلفا من ۱۹ مركبا و فيه الرجال و الميرة فدخلوا ثغر بيروت فقويت نفوس أهلها، فبعث بغدوين الى الجنوية فى ثغر السويدية فجاءوا فى أربعين مركبا، و زحفوا برا و بحرا و فعلوا ما فعلوه فى طرابلس من القتل و الحرق و النهب و ملكوا بيروت، ثم نزل بغدوين على صيدا فسلمها أهلها و استمهلوه مدة عينوها فأجابهم و أخذ منهم إتاوة. و راسل والى بعلبك كمشتكين الفرنج بالتماس المصافاة، و بعثهم على شن الغارات على الأطراف، فزحف صاحب دمشق عليه فجنح المقاتلة الى الدخول فى الطاعة، و استولى على البلد و عوض واليها عن بعلبك بحصن صرخد.

اجتماع كلمة أمراء المسلمين و إنجاد بغداد للشام:

اجتمع صاحب إرمينية و ميافارقين و صاحب الموصل و غيرهم على جهاد الفرنج، و قصدوا الرها و ضايقوها فأشرف من بها على الهلاك لقلة القوت، فشرع أصحاب أنطاكية و طرابلس و القدس بالذود عنها، و نهض صاحب دمشق فى عسكره وخيم على سلمية، و ظهر الفرنج فى رفنية فقاتلهم واليها شمس الخوّاص، و رحل الفرنج الى قصد الرّها فخف صاحب

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۶

دمشق الى الرقة و قلعة جعبر و قطع الفرات، و تلوّم هناك الى أن عرف خبر الفرنج و أنهم قد أحجموا عن العبور لتفرق سرايا العساكر الإسلامية و طلائعهم فى عامة المسالك الى الفرات. و لما أدرك المسلمون قرب الفرنج منهم اتفقت الآراء على الإفراج لهم ليتمكنوا من لقائهم فى الفضاء من شرقى الفرات، و رحلوا عن الرّها و نزلوا أرض حران مكرا و خديعة، ففطن الفرنج لهذا التدبير فأجفلوا ناكصين على الأعقاب الى شاطىء الفرات، فنهض المسلمون فى أثرهم و غنموا سواد الفرنج و أثقالهم، و أتوا على العدد الدثر من أتباعهم قتلا و تغريقا فى الفرات. و فى هذه الأيام تأكدت أسباب الألفة بين صاحب دمشق و ملوك الشمال.

لما تفرقت العساكر الإسلامية أغار بغدوين على الرها، و كانوا رتبوا فيها جماعة من الأرمن لحفظها، و بلغ ذلك صاحب حلب و ما أصاب الفرنج من الهزيمة فاستعاد ما كان غلب الفرنج عليه و آغار على أنطاكية.

ثم جاء الفرنج عقيب ذلك فأفسدوا فى أعمال حلب و قتلوا و اسروا خلقا كثيرا. و عاد طنكرى على الأثارب و ملكها بعد طول حصارها كما ملك زردنا، و استقرت الموادعة بعد ذلك بين صاحب حلب و طنكرى على أن يحمل إليه الأول من مال حلب كل سنة عشرين ألف دينار و أن يفك الأسرى.

و وصل بعض ملوك الفرنج فى البحر فى نيف و ستين مركبا مشحونة بالرجال لقصد الحج و الغزو فى ديار الإسلام، فاجتمع مع صاحب بيت المقدس و نزلا على صيدا و ضايقاها برا و بحرا، فلما عاين من بصيدا ذلك ضعفت نفوسهم و أشفقوا أن يصيبهم ما أصاب بيروت، و قد قتل الفرنج يوم أخذوها واليها و أعيانها، فخرج إليهم قاضيها و جماعة من شيوخها و طلبوا الأمان، فأمنهم فاستحلفوه على ذلك، و خرجت الحامية و خلق من أهلها الى دمشق، و قرر بغدوين على من أقام بها نيفا و عشرين ألف دينار فأفقرهم و استغرق أموالهم.

و أغار بغدوين على عسقلان (۵۰۴)، و كان صاحبها شمس الخلافة يراسله، فاستقرت الحال بينهما على مال يحمله إليه و يرحل عنه، و انتهى

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۷

الخبر الى الأفضل بمصر فأنكر ذلك، و جهز عسكرا كثيفا الى عسقلان، فلما قرب منها أظهر شمس الخلافة الخلاف على الأفضل فغالطه الأفضل، و خاف شمس الخلافة من أهل البلد فاستدعى جماعة من الأرمن فأثبتهم فى عسقلان، ثم وثب به قوم من كتامة و قتلوه. و سار الى بغداد رجل من أشراف الهاشميين فى حلب و جماعة من الصوفية و التجار و الفقهاء، و انزلوا الخطيب فى جامع السلطان عن المنبر و كسروه، و صاحوا و بكوا لما لحق الإسلام من الفرنج، و منعوا الناس من الصلاة، و عملوا فى الجمعة التالية مثل ذلك فى جامع الخليفة، فأوعز السلطان الى الأمراء المقدمين بالتأهب للمسير الى الجهاد.

و وصل رسول ملك الروم بمراسلات للبعث على قصد الفرنج و الاجتماع على طردهم قبل إعضال خطبهم، و يقول إنه منعهم من العبور الى أرض المسلمين و حاربهم، و إذا ضعفت عزائم قومه عن المقاومة، اضطر الى مداراتهم و إطلاق عبورهم الديار الإسلامية، و بالغ فى الحث على حربهم، و نقض بغدوين الهدنة المستقرة بينه و بين صاحب دمشق، فخرج هذا الى اللجاة و نهض الفرنج فى أثره الى الصنمين، ففرق صاحب دمشق العسكر من عدة جهات، و بث فى المعابر و المسالك خيلا يمنعهم من حمل الميرة إليهم حتى ألجأهم الى المسالمة، على أن يكون لبغدوين النصف من ارتفاع جبل عوف و السواد و الحيّانية مضافا الى ما فى يده من هذه الأعمال التى تليها فى أيدى العرب من آل جراح.

لما قرر ملك بغداد إنهاض العسكر عقيب استغاثة الشاميين بالخليفة و السلطان تقدم من الأمراء لإنجادهم على قتال الصليبيين صاحب الموصل، فافتتح تل مراد و عدة حصون هناك بالسيف و الأمان. و وصل إليه الأمير أحمديل الكردى فى عسكر كثيف، و الأمير قطب الدين سقمان من بلاد إرمينية و ديار بكر و صاحب همذان فنزلوا على تل باشر و نقبوه فأنفذ جوسلين صاحب تل باشر الى الأمير أحمديل يلاطفه و يهاديه و يبذل له الكون معه و الميل إليه، و كان أكثر العسكر مع أحمديل و سأله الرحيل عن الحصن فأجابه الى ذلك على كراهية من باقى الأمراء، و عادوا عن

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۸

تل باشر الى حلب و عاثوا فى أعمالها و فعلوا أقبح من فعل الفرنج، و وصل إليهم فى حلب صاحب دمشق و معه رجال حمص و حماة و رفنية و سائر المعاقل الشامية، فلم ير منهم عزيمة صادقة فى جهاد و لا حماية بلاد، و استجرهم الى المعرة فظهر له من سوء نية المتقدمين فيه ما أوحشه منهم، و جعل يحرضهم على قصد طرابلس فلم يفعلوا و تفرقوا أيدى سبا، فلما علم الفرنج برحيل العساكر

نزلوا أفامیة و فی رأسهم أصحاب القدس و طرابلس و أنطاکیة، و قد صاروا بعد التباین و المنافرة و الخلف یدا واحدة علی المسلمین، و کانت خیل هؤلاء مثل الفرنج إلا أن راجلهم أکثر، و ناوشوا الفرنج علی غیر طائل.

غارات المسلمین و غارات الصلیبیین:

و ملک فرنج أنطاکیة حصن الأثارب و قتلوا منه ألفی رجل و أسروا الباقین، ثم ملکوا زردنا ففعلوا کذلک و قصدوا منبج و بالس فوجدوهما خالیتین فعادوا أدراجهم. و وقع الخوف فی قلوب أهل الشام من الفرنج، فبذل لهم المسلمون أموالا و صالحوهم، صالحهم صاحب حلب علی اثنین و ثلاثین ألف دینار، و أهل صور علی سبعة آلاف دینار، و صاحب شیزر علی أربعة آلاف دینار، و صاحب حماة علی ألفی دینار. و ذلک لأن الفرنج امتنعوا من مهادنة ملوک الشام إلا علی قطیعة یأخذونها الی مدة یسیرة. و لو کان ملوک الشام إذ ذاک علی شیء من الوحدة فی الرأی، لما أقطعوا الفرنج القطائع، و لما هادنوهم، خصوصا و قد خرق الفرنج مرات قانون المهادنات و الموادعات، و بعض المنکرین یعذرونهم علی عملهم الفظیع فی تلک العصور لأنهم کانوا دون المسلمین فی کل أمر من أمورهم العلمیة و الحربیة و الاجتماعیة.

و فی هذا العقد (۵۰۵) جهز السلطان محمد عسکرا، فیه صاحب الموصل و غیره من أصحاب الأطراف الی قتال الفرنج بالشام، فساروا و نزلوا علی الرها فلم یملکوها، و وصلوا الی حلب فخافهم صاحبها و لم یفتح لهم أبوابها، ثم ساروا الی المعرة و تفرقوا. و فیها أنجد صاحب

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۶۹

دمشق أهل صور، و کان أغار علیهم بغدوین، و سار وخیم ببانیاس و بث سرایاه و رجاله فی أعمال الفرنج، و نهض الی حصن الحبیس فی السواد، فملکه بالسیف و أغار علی صیدا و أحرق عشرین مرکبا من مراکب الفرنج، و بعد أن عمل الفرنج کباشا کبیرة لتعلق علی السور رماها أهل صور بالنفط و الزیت مرات، و أقاموا علی محاصرة صور أربعة أشهر و نصف، ثم قصدوا عکا و تفرقوا فی أعمالهم.

نزل أهل صور (۵۰۶) عن بلدهم لصاحب دمشق لما أعیتهم الحیل فی الدفاع فتسلمها، و أقام الدعوة و السکة علی ما کانت علیه لصاحب مصر و لم یغیر لهم رسما، مع أن سائر الشام کانت طاعتها للعباسیین و دعوتها لهم، و ذلک حبا بدوام الصلات مع صاحب مصر حتی لا ینقطع مدده عن الساحل. و ضبط صاحب القدس القافلة الدمشقیة بینا کانت سائرة الی مصر، بدلالة أناس من العرب البدو، و اشتمل الفرنج علی ما فیها من الأمتعة و البضائع، و حصل لبغدوین منها خمسون ألف دینار و ثلاثمائة أسیر، و لم یبق بلد فی الشام إلا أصیب بعض تجاره و أهله بأموالهم.

و تواترت غارات بغدوین علی عمل البثنیة، و جمع صاحب الموصل عسکره من الأتراک و الأکراد و قطع الفرات الی الشام، و کذلک صاحب سنجار و صاحب دیار بکر، و کان الصلیبیون یکاتبون صاحب دمشق علی أن یترکوا له حصن تبنین و جبل عامل و یعوضوا عن ذلک بحصن الحبیس حبیس جلدک الذی فی السواد و نصف السواد من البلقاء و یترکوا التعرض لشیء من أعمال دمشق، و لا یعرض هو لشیء من أعمال الفرنج، فلم یجب الی ذلک، و نهض فی جیشه للقاء صاحب الموصل و الاجتماع به علی الجهاد، فاجتمعا بمرج سلمیة و اتفق رأیهما علی قصد بغدوین، و سارا و قد استصحب صاحب دمشق جمیع العسکر و من کان بحمص و حماة و رفنیة، و نزلا- بقدس فعین الجر بالبقاع فوادی التیم ثم نزلا- علی بانیاس، و نهضت فرقة من العسکر فقصدت ناحیة تبنین، فلم یظفروا منها بمراد، و وصل إلیها بغدوین، و قد کان لما یئس من إجابة صاحب دمشق الی

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۰

الموادعة واصل الغارات و الفساد، ثم نهض صاحب دمشق و نزل علی الأقحوانة علی بحیرة طبریة، فنشب الحرب بین المسلمین و

الفرنج غربى جسر الصّنبرة مقابل عقبة أفيق، فانتصر المسلمون بعد ثلاث كرات و غرق من الفرنج خلق كثير فى البحيرة، و قتل نحو ألفى رجل من أعيانهم و أبطالهم، و أقام المسلمون على الجبل و طلع الفرنج إليه و تحصنوا به و هو من غربى طبرية، و استنفر أمير دمشق العرب الطائيين و الكلابيين و الخفاجيين فوصلوا بخلق كثير بالمزادات و الروايا و الإبل لحمل الماء، و صعدت الطلائع الى الجبل من شماله، و علم المسلمون أن الظفر قد لاحت دلائله، و العدو قد ذلّ، و أغارت بعض سرايا المسلمين على أرجاء القدس و يافا و نهبت بيسان و لم يبق بين عكا و القدس ضيعة عامرة. ثم تفرق المسلمون و عادوا الى كورهم.

و أرسل ملك القدس الى والى صور (۵۰۷) يريده على المهادنة و الموادعة لتحسم أسباب الأذية عن الجانبين فأجابه الى ذلك، و أمنت السابلة و التجار و السفار، و استقرت الحال بينهما على المهادنة فأمنت المسالك و صلحت الأحوال، بعد أن ذاق الفرنج بأس ملوك الشام و الجزيرة على الأقحوانة.

و كان صاحب القدس من أعظم ملوك الفرنج بالشام جيشا و مكانة. و كان من جملة من حضر فى هذه الوقعة عند طبرية الأمير مودود بن التون تكش صاحب الموصل. و فى سنة ۵۰۸ قتل آلب أرسلان بن رضوان صاحب قلعة حلب، قتله غلمانه بقلعتها و أقاموا بعده أخاه سلطانشاه بن رضوان، و كان لما ملك حلب جرى على قاعدة أبيه فى أمر الإسماعيلية، و كان بنى لهم بحلب دار دعوة، فطلبوا منه أن يعطيهم القلعة فأجابهم الى ذلك، فقبح عليه القاضى ابن الخشاب فعله، فأخرجهم بعد أن قتل منهم ثلاثمائة نفس و أسر مائتين و طيف برؤوسهم فى البلد.

و أمر السلطان محمد بن ملكشاه (۵۰۸) الأمراء و أصحاب الأطراف بالمسير صحبة آق سنقر البرسقى لقتال الفرنج بالشام، و جرى بين البرسقى و إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين قتال انتصر فيه إيلغازى و هرب البرسقى. ثم خاف إيلغازى من السلطان، فسار الى صاحب دمشق فاتفق

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۱

معه و كاتبا الفرنج و اعتضدا بهم. قال ابن الأثير: و كان طغتكين قد استوحش من السلطان لأنه نسب إليه قتل مودود، فاتفقا على الامتناع و الالتجاء الى الفرنج و الاحتماء بهم فراسلا صاحب أنطاكية و حالفاه، فحضر عندهما على بحيرة قدس فى حمص و جددوا العهود، و عاد الى أنطاكية و عاد طغتكين الى دمشق.

و أرسل السلطان محمد ملكشاه (۵۰۹) عسكرا ضخما لقتال صاحب دمشق و صاحب ماردين فعبروا الفرات من الرقة و قصدوا حلب، فعصت عليهم، ثم فتحوا حماة عنوة و نهبوها ثلاثة أيام ثم سلموها الى قيرخان ابن قراجة صاحب حمص، و اجتمع بأفامية طغتكين و إيلغازى و ملوك الفرنج صاحب أنطاكية و صاحب طرابلس و غيرهم، و أقاموا بأفامية ينتظرون تفرق المسلمين، ثم تفرق الفرنج و سار طغتكين الى دمشق و إيلغازى الى ماردين.

و فتح المسلمون كفرطاب و قتلوا من بها من الفرنج و ساروا الى المعرة ثم الى حلب فكبسهم صاحب أنطاكية فى الطريق فانهزموا، و وضع الفرنج السيف فى المسلمين فهرب من سلم منهم. و استولى الفرنج على رفنية فاسترجعها منهم صاحب دمشق و قتل من بها منهم، و هادن الأفضل مدبر مملكة الآمر الفاطمى بغدوين صاحب القدس، و كان قد أخذ قافلة عظيمة من المسلمين بالسبخة فرأى الأفضل مهادنته لعجزه عنه. و جمع صاحب طرابلس (۵۱۰) جموعه و نهض الى البقاع لإخرابه، فخف إليه صاحب الموصل و صاحب دمشق فى بعض عسكرهما، و سارا الى البقاع، و الفرنج غارّون فى مخيمهم، فأطلق السيف فيهم قتلا و أسرا ففقد منهم ما يزيد على ثلاثة آلاف و عاد صاحب الموصل الى بلده بعد استحكام المودة بينه و بين صاحب دمشق، و الموافقة على الاعتضاد فى الجهاد، متى حدث أمر أو حزب خطب.

بقية الغارات:

و فی العقد الثانی من القرن السادس هادن (۵۱۱) المتولی أعمال حلب

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۲

الفرنج و وادعهم و سلم إلیهم حصن القبهٔ، و هجم الفرنج علی ربض حماهٔ و قتلوا من أهلها، و خاف أهل حلب من الفرنج فسلموا البلد الی نجم الدین إیلغازی، فلما تسلمه لم یجد فیه مالا و لا ذخیرهٔ لأن الخادم لولؤا الذی کان مستولیا علی صاحبها سلطانشاه بن رضوان کان فرق کل ما فیها.

و سار طغتکین (۵۱۲) عن دمشق لقتال الفرنج، فنزل بین دیر أیوب و کفر بصل فخفیت عنه وفاهٔ بغدوین ملک القدس، حتی سمع الخبر بعد ثمانیهٔ عشر یوما و بینهم نحو یومین، فأتته رسل ملک الفرنج بطلب المهادنهٔ فاقترح علیه طغتکین ترک المناصفهٔ التی بینهم من جبل عوف و الحیانیهٔ و الصلت و الغور فلم یجب الی ذلک و أظهر القوهٔ، فسار طغتکین الی طبریهٔ فنهبها و ما حولها، و سار منها نحو عسقلان و سلم بنو أخی القاضی شرف الملک بن الصلیعهٔ حصن بلاطنس لروجار صاحب أنطاکیهٔ فأقطعهم فی أعمال اللاذقیهٔ عوضا منه و سکنوا تحت یده.

و برز (۵۱۳) صاحب أنطاکیهٔ فیمن حشده من طوائف الفرنج و رجالهٔ الأرمن فی ثلاثهٔ آلاف فارس و تسعهٔ آلاف راجل سوی الأتباع الی سرمد و قیل دانیث البقل بین أنطاکیهٔ و حلب و قیل تل عفرین، فطار إلیهم المسلمون بقیادهٔ صاحبی حلب و الموصل فی عساکر الترکمان و الأـکراد و العرب فی عشرین ألفا، فقتلوا الفرنج بحیث لم یفلت منهم غیر من یخبر خبرهم، و قتل ملکهم روجر و بقیت أنطاکیهٔ شاغرهٔ من حماتها، ثم فتح المسلمون الأثارب و زردنا.

و عاد إیلغازی الی حلب و قرر أمرها و أصلح حالها بعد أن أخربها الفرنج و نازلوها، و کان فی جملهٔ الأسری نیف و سبعون فارسا من مقدمیهم حملوا الی حلب فبذلوا فی نفوسهم ثلاثمائهٔ ألف دینار فلم یقبل منهم. قال ابن الأثیر فی وقعهٔ الفرنج فی تل عفرین و کانوا یظنون أن أحدا لا یسلک إلیهم لضیق الطریق فأخلدوا الی المطاولهٔ، و کانت عادهٔ لهم إذا رأوا قوهٔ من المسلمین.

و سار جوسلین صاحب تل باشر لیکبس بنی ربیعهٔ، فوقع بینهم قتال انتصر فیه أمیر بنی ربیعهٔ، و أسر من الفرنج عدهٔ کثیرهٔ. و جمع صاحب

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۳

ماردین الترکمان و غیرهم و التقی مع الفرنج عند دانیث البقل و جری بینهم قتال شدید انتصر فیه صاحب ماردین و انهزم الفرنج. و وصل کندهری ملک الفرنج فی المراکب، و ملک أکثر المعاقل، و وقعت الهدنهٔ بین صاحب حلب و بین الفرنج و تقررت المسالمهٔ، و قیل: إن جوسلین أغار علی العرب و الترکمان النازلین بصفین قرب قریهٔ جعبر علی الفرات و غنم منهم و فی عوده خرب حصن بزاعهٔ.

و أغار کندهری علی أذرعات و أطراف دمشق و کان صاحبها بالبثنیهٔ فبعث بولده بوری مع الجیش و أقام هو موضعه ردءا له فالتقوا فظهر الفرنج علی بوری، فعاد الی أبیه و دخلا دمشق، و مضی طغتکین الی حلب مستصرخا بنجم الدین إیلغازی و کان أول ما ملکها فأقام عنده و شرع بجمع العساکر، و اغتنمت الفرنج غیبته فقصدوا دمشق، و وصلوا الی حوران فالتجأ أهله الی اللجاهٔ، فتأثرهم الفرنج الی و عرهٔ اللجاهٔ فقتلوا و أسروا، و لما بلغ أهل أنطاکیهٔ هذا جمعوا و حشدوا و قصدوا حلب فی خمسهٔ آلاف فارس و ثمانیهٔ آلاف راجل فخرج إیلغازی و عمل کمینا، فلما التقی الفریقان ظهر الکمین و ضربوا البوقات و الطبول فظنوه صاحب دمشق قادما من ورائهم، و کان نجم الدین إیلغازی أشاع أن طغتکین واصل من دمشق و ما کان إلا جریدهٔ عنده فانهزم الفرنج و عمل فیهم السیف قتلا و أسرا.

و فی سنهٔ ۵۱۴ نهض الأمیر معن من البقاع بعشیرته و رهطه و نزل فی جبل الشوف، و کان قفرا خالیا من السکان، و جعل له مودهٔ مع آل تنوخ أمراء عرب جبل لبنان، و کان أمیرهم إذ ذاک الأـمیر بحتر التنوخی فبنی له و لخاصته دورا لیستعیض بها الأـمیر معن عن المضارب، و أخذ یقصد دیاره أهل کل دیار استولت علیها الفرنج و بقی أمیرا فیه نحو ثلاثین سنهٔ و هو أصل الأمراء آل معن و إلیه

ينتسبون. و صار الجبل ينسب إليهم فيقال جبل بيت معن كما يقال جبل بنى عوف و جبل بنى هلال.

و كان بين نور الدين بلك بن أرتق (۵۱۵) و بين جوسلين على

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۴

الرّها حرب انتصر فيها بلك و قتل من الفرنج، و أسر جوسلين و أسر معه ابن خالته و أسر جماعة من فرسانه المشهورين عند سروج و بذل جوسلين فى نفسه أموالا كثيرة فلم يقبلها بلك و سجنه و أصحابه فى قلعة خرتبرت، و فى سنة ۵۱۵ عصى سليمان بن إيلغازى بن أرتق على أبيه بحلب، حسن له ذلك إنسان من حماة من بنى قرناص، و كان قدمه إيلغازى على أهل حلب، و بلغ إيلغازى ذلك فسار مجدا من ماردين و هجم حلب و قطع يدى ابن قرناص و رجليه و سمل عينيه، و هرب ابنه الى طغتكين بدمشق و استناب ابن أخيه عبد الجبار، و خرج صاحب حلب (۵۱۶) فى عسكره و قطع الفرات و صادف الفرنج فأتلف ما ظفر به فى أعمالهم. و توفى إيلغازى بن أرتق و كان بحلب ابن أخيه سليمان بن عبد الجبار فبقى فيها الى أن أخذها ابن عمه، فسلم سليمان قلعة الأثارب الى الفرنج، فعظم ذلك على بلك بن بهرام و علم عجزه عن حفظ بلاده فقوى طمعه فى ملكها، فسار إليها و نازلها و ضايقها و منع الميرة عنها و أحرق زروعها، فسلم إليه ابن عمه البلد و القلعة بالأمان سنة ۵۱۷.

و وصل الأسطول المصرى الى صور، و جمل والى صور سيف الدين مسعود الى مصر، و كانت عاقبة خروجه منها خروجها بالأمان من أيدى المسلمين الى الفرنج بعد سنتين. و نهض بغدوين (۵۱۷) فى عسكره الى ناحية حلب، و صاحبها منازل حصن كركر، فالتقيا بالقرب من منظرة فكسره و أسره مع جماعة من وجوه عسكره و اعتقله فى جب قلعة خرتبرت مع جوسلين و مقدمى الفرنج الذين كان أسرهم قبل عامين، و استنجد صاحبا دمشق و حلب بالخليفة الآمر فى مصر فجهز أسطولا مؤلفا من أربعين شينيا فيها عشرون أميرا و هدايا فسار العسكر الى يافا و أقام عليها ستة أيام و رحل عنها، و قد تخاذل عنه ملوك الشرق و رجع الى مصر، فوافاه الفرنج على يبنى، فانكسر العسكر المصرى من غير مصاف.

و ملك الأمير بلك حصن البارة و أسر أسقفها. و هرب بغدوين و جوسلين و غيرهما من مقدمى الفرنج من أسر الأمير بلك فى خرتبرت و ملكوا القلعة فاستعادها الأمير من الفرنج الواثبين عليها. و هزم جيش الفرنج جيش

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۵

المسلمين، و فيهم جيش دمشق على قلعة عزاز، و تفرق المسلمون بعد قتل من قتل و أسر من أسر.

قلنا: إن الفرنج ملكوا مدينة صور (۵۱۸) بالأمان بعد حصار طويل، و كانت للخلفاء العلويين أصحاب مصر، و قد ثبت أهل صور نحو خمس و عشرين سنة على قتال الفرنج مع قلة المنجد لهم من مصر، يقول ابن تغرى بردى: إن سبب سقوط صور خروج سيف الدين مسعود منها، و كان قد حمل الى مصر و أقام الوالى الذى بها فى البلد، و هذه زيادة فى النكاية للمسلمين من صاحب مصر فإن سيف الدين المذكور كان قائما بمصالح المسلمين، و فعل ما فعل مع الفرنج من قتالهم و حفظ سور المدينة هذه المدة الطويلة، فأخذوه منها غصبا و دخلوا البلد مع من لا قبل له بمحاربة الفرنج، فكان حال المصريين فى أول الأمر أنهم تقاعدوا عن نصرة المسلمين و الآن بأخذهم سيف الدين من صور صاروا نجدة للفرنج.

و كانت صور آخر ما ملكه الفرنج من الساحل.

و فى سنة ۵۱۸ ملك آق سنقر البرسقى حلب و قلعتها و سبب ذلك أن الفرنج لما ملكوا مدينة صور، طمعوا و قويت نفوسهم، و تيقنوا الاستيلاء على الشام كله، ثم وصل إليهم دبيس بن صدقة صاحب الحلة فأطمعهم طمعا ثانيا لا سيما فى حلب و قال لهم: إن أهلها شيعة و هم يميلون إلىّ لأجل المذهب، فمتى رأونى سلموا البلد إلىّ، و بذل لهم على مساعدته بذولا كثيرة، و قال: إننى أكون ههنا نائبا عنكم و مطيعا لكم، فساروا معه إليها و حصروها و قاتلوا قتالا شديدا، و وطنوا نفوسهم على المقام الطويل.

و أخذ الفرنج فى بناء بيوت لهم ظاهر حلب فعظم الأمر على أهلها، و لم ينجدهم صاحبها تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق لإيثاره الدعة

و الرفاهة، فكاتب أهل حلب آق سنقر البرسقى صاحب الموصل فسار إليها، فأجفل الفرنج منهزمين، ثم صلحت أحوال حلب و عمرت أعمالها بعد أن حاصرت مدة و لقى أهلها شدة حتى أكلوا الميتة، و لم يكن عندهم أمير، و إنما تولوا حفظ الأمن بأنفسهم و أبلوا بلاء حسنا حسنت به العاقبة. و أخذ البرسقى

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۶

(۵۱۹) كفرطاب من الفرنج و سار الى عزاز، فاجتمعت الفرنج لقتاله فاقتتلوا، فانهزم البرسقى و قتل من المسلمين خلق كثير و انهزموا راجعين أدراجهم. و قصد صاحب بيت المقدس حوران للعيث فيها فخرج إليه صاحب دمشق فى التركمان و أحداث دمشق و الغوطة و المرج و أحداث الباطنية فانهزم المسلمون و تتبع الفرنج المنهزمين حتى وصلوا الى عقبة سحورا و قربوا من شرحوب مع بعد المدى. و قصدت الفرنج رفنية و استعادوها من المسلمين. و اجتمع المسلمون و الفرنج فى مرج الصفر عند قرية شقحب من عمل دمشق و اشتد القتال فانهزم صاحب دمشق و الخيالة و تبعهم الفرنج، و نهب بعض الجند مخيم الفرنج و أثقالهم، و رجع الفرنج فى أثر المنهزمين و رأوا رجالتهم قتلى و أموالهم منهوبة و ظلوا منهزمين لا يلوى الأخ على أخيه، و كان هذا من الغريب أن طائفتين تنهزمان كل واحدة منهما من صاحبتها.

مزايا حكم طغتكين:

كان الفرنج منذ وطئوا تراب الشام أوائل العقد الأخير من القرن الخامس الى أواخر العقد الثانى من القرن السادس يتساندون و قل أن يقع شغب بينهم، و ربما تقاتلوا ثم اجتمعوا على سلام، و تواكلوا و تآنسوا لأن موقفهم يدعوهم الى جمع الكلمة، و لئن ألفوا أربع إمارات متحدة فهى إمارة واحدة فى الواقع، و النجدات تأتيهم بحرا على مراكب أهل بيزة و جنوة مرة و مرتين فى السنة، لتعذر قطع البحار إلا فى فصل الصيف.

فرجال الحملة الصليبية الأولى هى التى كانت افتتحت ما افتتحت من الأصقاع و مادتها القليلة من الزوار و التجار من البحر. و ملوك الشام يأتيهم المدد من مصر و العراق و الجزيرة و ديار بكر و ديار مضر. و لو كتب للشمال أن يكون فى عاصمته حلب رجل عاقل كما كتب لدمشق أن يكون فيها مثل طغتكين، لتيسر إنقاذ البلاد و الإجهاز على أعدائها، و لما استطاع الفرنج أن يجبوا إتاوة من حلب و حماة و حمص و لنجت كما نجت دمشق من إرضاء الفرنج بالمال على عهد طغتكين.

حكم طغتكين دمشق منذ سنة ۴۹۷، و حكمه كان فى الحقيقة قبل عشر

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۷

سنين من تاريخ حكومته، حكمها بصورة شرعية بعد وفاة الملك دقاق ابن تتش بن آلب أرسلان و كان خطب أولا لابن دقاق، و كان دقاق خلف طفلا له سنة واحدة، فقطع طغتكين خطبته و خطب لبكتاش بن تتش عم هذا الطفل، ثم قطع خطبة بكتاش و أعاد خطبة الطفل، و هو آخر من خطب له بدمشق من بنى سلجوق، و استوحش بكتاش من طغتكين خوّفته والدته منه و قالت: إنه زوج والدة دقاق و هى لا تتركه حتى يقتلك و يستقيم الملك لولدها، فخاف و حسن له من كان يحسد طغتكين مفارقة دمشق و قصد بعلبك و جمع الرجال و الاستنجاد بالفرنج، و كان بكتاش فى الثانية عشرة من عمره و معه ايتكين الحلبى صاحب بصرى.

استمر طغتكين فى ملك دمشق خمسا و عشرين سنة حتى مضى لسبيله سنة ۵۲۲ و كان على غاية العدل و البعد عن الظلم، أعاد الى الرعية كثيرا من أملاكهم التى اغتصبها منهم ولاة الجور، و جرت عليها أحكام المقاسمة، و أرجعها الى خراجها القديم، و أحيا الأراضى المعطله، و باع ما كان منها شاغرا للناس ليعمروه، و صرف ما حصل من ثمنها فى الأجناد المرتبين للجهاد، فعمرت عدة ضياع و أجريت عيون، و حسنت بإيالة طغتكين دمشق و أعمالها، و عمرت الأقاليم بجميل سياسته و حسن تدبيره، و كثرة إحسانه، و انبسطت الرعية فى عمارة الأملاك فى باطن دمشق و ظاهرها، و لذلك اشتد حزن الدمشقيين عليه، و لم تبق محلة و لا سوق إلا و المآتم قائمة

فيه عليه. قال ابن عساكر: كان طغتكين شهما مهيبا مؤثرا لعمارة ولايته، شديدا على أهل العيث و الفساد. و قال آخر فى وصفه: إنه لا يشبه غيره من ملوك الطوائف، و كان على شىء من التدين حتى إنه لما عاون أهل صور على دفع الصليبيين سنة ۵۰۵ و لم يفوا له بما كانوا بذلوه له من تسليم البلد قال: إنما فعلت ما فعلت للّه تعالى و للمسلمين لا لرغبة فى مال و لا مملكة.

و كأن طغتكين كان مبشرا بظهور آل زنكى و آل أيوب فى هذه الديار يردون حملة الغرب عن الشرق، و يكفونها معرّة التفرق، و يجمعون كلمتها على الحق و المطالبة به فتصبح مملكة برأسها، تأتمر الأقطار المجاورة

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۸

بأمرها، و تسير معها الى الغاية التى هى تنشدها من رد عادية الصليبيين.

و كان فى حذقه بسياسته كما قيل يستخدم الفضائل و الرذائل فى الناس كما تستخدم الطبيعة فضول الأغذية فتجعلها فى أشياء تنتفع بها. و لقد أوقف طغتكين سير الصليبيين عن التوغل فى أحشاء المملكة، و قصر حكمهم على الساحل و على أنطاكية و القدس و طبرية، و لو لا قيامه ذاك القيام المحمود لفتح الصليبيون دمشق و حلب، و كثيرا ما كانوا يغزون ربضهما و ضاحيتهما، و اكتفى المسلمون و الفرنج بإضعاف قوى بعضهم بعضا تارة، و عقد المهادنات طورا، و لم تسفّ دمشق الى دفع الغرامات للصليبيين على عهد طغتكين معتبرة نفسها الأم و العاصمة أكثر من غيرها من حواضر الشام، و لو أخذت دمشق لاستصفى الشام كله و لا نقطع ما بين مصر و هذا القطر من الاتصال، و صعب بعد ذلك إخراج الفرنج منه، فبقاء الرابطة مع مصر من البر و من البحر الى أن سقطت صور، حصر الفرنج فى بقعة معينة لا تتعدى الطريق الى بيت المقدس عن طريق الساحل.

و لو كان جميع أمراء الشام على مثل سيرة طغتكين، لخفت وطأة الفرنج كثيرا فى هذه الثلاثين سنة، و ماذا يرجى من خير الأمراء إذا كان صاحب بعلبك يطلعهم على عورات المسلمين، و صاحب أفامية يقطع السابلة و ابنه يحث الفرنج على قصد بلد أبيه، و صاحب حمص يشارك قطاع الطريق و كذلك ابنه خير خان، و بأمثال هذه الطبقة لا تخلص الرعية و يتعذر سوق القوم الى طريق الخير، و هم لا يزالون مختلفين لأنهم يرون من عملهم أن يستعبدوا من صاروا إليهم و ينعموا و لو بإهلاكهم، لا أن يحافظوا على ملك و يدافعوا عن ذمار. و لذلك كان ظهير الدين بسياسته الحسنة مع ملوك الأطراف المرجع فى الشام، أطلق الخليفة العباسى يده فيه منذ سنة ۵۰۹ حربا و خراجا، و جعل ارتفاعه على إيثاره و اختياره، لما بان من حسن بلائه و جميل سيرته فى رعيته. على حين بدلت حلب عدة ملوك خلال دوره، و كان بعضهم يتنازعون و يتفاشلون و يتقاتلون.

كانت أخبار المسلمين تصل الى الفرنج بسرعة، و الغالب أن هؤلاء برعوا فى التقاط الأخبار أكثر من الذين نزلوا عليهم، فكان الفرنج عند ما

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۷۹

يبلغهم حادث فى المسلمين يغيرون خططهم الحربية، و بالطبع كانوا يستخدمون لذلك أناسا من أبناء نحلتهم من الأرمن و غيرهم، و ربما كان للمسلمين أيضا شأن فى ذلك طمعا فى مال أو انتقاما من سلطان، و لعل الصليبيين وفقوا الى إمساك بعض ما كان ملوك الطوائف، يطيرونه من حمام الزاجل، و يحلون البطائق الصادرة عن بعض الأمراء و القواد، فتنكشف لهم أسرار خصومهم. فقد ذكر المؤرخون أن صاحب أنطاكية الصليبى أرسل الى عز الدين مسعود صاحب حلب يخبره بقتل والده قسيم الدولة آق سنقر البرسقى صاحب الموصل بيد الباطنية قبل أن يصل إليه الخبر، و كان قد سمعه الفرنج قبل لشدة عنايتهم بمعرفة الأحوال الإسلامية.

مؤاخذة الفاطميين و توقيف سير الفرنج:

و لقد آخذ المؤرخون الدولة الفاطمية على تهاونها فى الغزو و الجهاد حتى روى ابن تغرى بردى، أن الآمر كان يتناهى فى العظمة و يتقاعد عن الجهاد، حتى استولت الفرنج على غالب السواحل و حصونها فى أيامه، و لئن كان وقع لأبيه المستعلى أيضا فأخذ القدس

فى أيامه، فإنه اهتم لقتال الفرنج و أرسل بدرا الجمالى بالعساكر فوصلوا بعد فوات الوقت أما الآمر فإنه لم ينهض لقتال الفرنج البتة، و إن كان أرسل مع الأسطول عسكرا فهو كلا شىء. قال: و لم ينهض أحد من المصريين لقتال الفرنج لما دخلوا الشام، فعلمت الفرنج ضعف من بمصر، و ظهر عدم اكتراث أهل مصر بالفرنج من كل وجه. الأول من تقاعدهم عن المسير فى هذه المدة الطويلة، و الثانى لضعف العسكر الذى أرسلوه مع أسطول مصر، و لو كان لعسكر الأسطول قوة لدفع الفرنج عن البحر، و الثالث عدم خروج الوزير الأفضل بالعساكر المصرية كما كان فعل والده بدر الجمالى فى أوائل الأمر، هذا مع قوتهم من العساكر و الأموال و الأسلحة.

و يغلب على الظن أن الفاطميين دهشوا لغزو الفرنج الشام و لم يريدوا أن يثيروا حفائظهم لئلا يحصروا و كدهم بفتح دار ملكهم، و فتح مصر أسهل من الشام، لأنها سهول ليس فيها حصون طبيعية، و أفضل للبيت

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۰

العلوى أن تبقى له الديار المصرية و لو ذهب الشام بما فيه، و لذلك كان الفاطميون ينجدون الشام فى الأحايين لأول عهد دخول الفرنج إليه إنجادا ضعيفا، و أكثر نجداتهم و حملاتهم لم تثمر الثمرة المطلوبة بل خففت جزءا صغيرا من الشر مدة، و قوّى ذلك قلوب بعض أهل الأرجاء المحصورة، و نفّس خناقهم، و أوهمهم أن وراءهم قوة الفاطميين عند مسيس الحاجة يستصرخون بها فتنجدهم. و الحقيقة أن الفاطميين على قوتهم من العدد و العدد لم يستطيعوا أن يذبوا حقيقة عن عسقلان، و لا عن صور و صيدا و بيروت و طرابلس دع الأصقاع الأخرى، و إذا عرفنا أن الدولة الفاطمية كانت فى أواخر أيام ضعفها هان علينا أن لا نطلب منها أن تعمل عمل الشباب.

و قد أنجدت الدول المجاورة الشام نجدات مهمة على بعد المدى و قلة المواصلات. و أبلى جند التركمان و الأكراد مع عرب الشام و الموصل البلاء الحسن فى هذه السبيل، و لكن كانت القوى الصليبية عظيمة جدا لا قبل لهم بدفعها، فكان موقف المسلمين على الأغلب موقف المدافع لا المهاجم، و كان لأمراء التركمان فى هذا الدور غيرة شديدة فى الجهاد، و لم يكن داخلهم الفساد الذى يدخل على البيوت و الدول، و لو كانت الآراء متجهة الى مقصد واحد لاستطاع المسلمون أن يدفعوا الفرنج عن هذا القطر على كثرة جيوشهم الجرارة قبل أن يتأصلوا فيه، و يطلعوا على مبلغ قوات أمرائه، و يتعلموا بحكم المجاورة ما كان ينقصهم من أصول الحرب، و بعض الصناعات و أعمال المدنية التى وجدوها فى الشام يومئذ على حصة موفورة، فاقتبسوها و نقلوها بعد الى أممهم غنيمة نافعة من الشرق.

و قد حرص الفرنج أن يستولوا على قرى حلب و البقاع و حوران و السواد و البلقاء فى الأكثر ليتقووا بغلاتها لأن معظم القرى فى فلسطين كانت ساحات حرب لا تقوم بإطعام جيوشهم. و كان الفرسان فى حصون الفرنج يملكون القرى و يجبون الأموال من أهلها الأصليين، و يسلبون قوافل المسلمين. و فى التاريخ العام: «كانت الحرب فى الشرق كما هى فى الغرب تجارة رابحة، يقوم فرسان الفرنج و يغزون أرض المسلمين، و ينهبون

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۱

القرى و يخطفون السكان و يأخذونهم أسرى و يضطرونهم الى أن يفتدوا أنفسهم».

و على الجملة فإن أمراء المسلمين فى هذا الدور لم يتلكأوا فى الحقيقة عن تخفيف بلاء المهاجمين عن الشام، و قاتلوا فانهزموا و هزموا، و طاولوا و راوغوا، و هادنوا و عاهدوا، و قاربوا و ساددوا. و لكن الشام و الجزيرة، و معهما العراق و مصر على قلة، لا تستطيعان دفع جيش مؤلف من أكثر أمم أوروبا، و متى كانت قوة قطر صغير، توازى قوى برّ كبير، و من أين لأمراء صغار لا تربطهم رابطة محكمة، أن يقفوا فى وجوه ملوك من ورائهم قوة الباباوية، و ناهيك بها من قوة فى ذاك العصر.

انتهى الجزء الاول من خطط الشام

و يليه الجزء الثانى و أوله الدولة النورية

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۲

فهرست الجزء الأول من خطط الشام

صفحة

صدر الخطط ۱- ۶

تقويم الشام ۷- ۱۶

تعريف الشام للأقدمين ۷

معنى الشام و جمعه ۸

حدّ الشام قديما حقيقة حد الشام ۹

حدوده مع مصر ۱۰

مساحة الشام و صورته ۱۱

مدخل الفاتحين الى الشام ۱۲

مدن الشام و قراه ۱۳

طبيعة الشام ۱۴

خيرات الشام ۱۴

هواء الشام و ماؤه ۱۵

خصائص الشام ۱۶

سكان الشام ۱۷- ۳۵

الأمو و اللودانو ۱۷

الآراميون و العناصر الأخرى ۱۹

العناصر القديمة و العرب ۲۰

دول العرب الأقدمين ۲۱

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۳

صفحة

سليح و غسان و الضجاعم ۲۱

التنوخيون ۲۲

المهاجرات و الإيطوريون ۲۳

سليح و عاملة و قضاعة ۲۴

لخم، جذام، عاملة، ذبيان، كلب ۲۵

جهينة، القين، بهراء، تنوخ ۲۶

إياد وطيىء و كندة و حمير و عذرة و زبيد و همدان و يحصب و قيس ۲۶

الفرس و الزط ۲۷

الأخلاط و السامرة و جذام و عذرة و نهد و جرم و الأزد ۲۸

قیس و یمن و إحصاء السکان ۲۹

المردة و الجراجمة و الأرمن و الروم و الموارنة ۲۹

الترکمان و الأتراک و الأکراد و الشرکس و غیرهم ۳۱

المهاجرون المحدثون: الیهود و الأرمن ۳۲

عوامل النمو ۳۳

العرب فی الشام و الاختلاط ۳۳

لغات الشام ۳۶- ۴۹

اللغة الآرامیة و السریانیة و العبرانیة و الفینیقیة و العربیة ۳۶

البابلیة و الکنعانیة و الکلدانیة ۳۷

الحثیة و الآریة و الیونانیة و اللاتینیة ۳۷

تنازع السریانیة مع العربیة ۳۸

رأی رنان ۳۹

آراء أخری ۴۰

انتشار العربیة ۴۱

العربیة لغة کاملة و فصاحة الشام ۴۲

کیف انتشرت العربیة ۴۳

اللغة الصفویة ۴۳

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۴

الصلیبیون و لغاتهم، و العربیة و لبنان ۴۴

اللغة الترکیة ۴۵

السواد الأعظم و العربیة ۴۶

رسوخ اللغة ۴۷

الشامیون أمة واحدة لسانهم العربیة فقط ۴۸

تاریخ الشام قبل الإسلام ۵۰- ۶۸

أول شعب غزا الشام و الحثیون و الکنعانیون ۵۰

تعدد الحکام و الحکومات ۵۱

الفراعنة و الأشوریون ۵۲

الفینیقیون و استقلالهم التجاری ۵۴

حروب الفرس و الإسکندر ۵۵

دولة السلاقسة و ملک الأرمن ۵۶

دولة الرومان ۵۷

مملکة یهودا و انقراض الیهود ۵۸

الإیطوریون و النبطیون ۵۹

دولة تدمر ۶۱

زينب أو زنوبيا أو الزبّاء ۶۲

آخر عهد الرومانيين و سياستهم ۶۴

بنو غسان و العرب فی الشام ۶۶

الشام فی الإسلام من سنة ۵ الی سنة ۱۸ للهجرة ۶۹- ۹۹

حالة الشام قبيل الفتح ۶۹

صلح دومة الجندل و غزوة ذات السلاسل و مؤتة و الجرباء و أذرح و مقنا و جيش أسامة ۷۱

جيوش العرب و جيوش الروم، نصيحة أبی بكر لقواده ۷۷

مبدأ الحرب بين العرب و الروم ۷۹

وقعة اليرموك ۸۰

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۵

صفحة

فتح فحل و أجنادين و بيسان ۸۲

الأردن و فلسطين و جبل اللكام ۸۳

فتح دمشق و الأحكام العسكرية ۸۵

فتح حمص و شيزر و المعرة و بعلبك و صيدا و بيروت و جبيل و عرقة ۸۷

قنسرين و حلب و أنطاكية و كور الشمال ۸۸

وقعة مرج الروم و قيسارية ۸۹

سر نجاح المسلمين و قتال نسائهم يوم اليرموك ۹۰

وداع صاحب الروم و آخر سهم فی كنانتهم ۹۵

منزلة أبی عبيدة و بعد نظر عمر ۹۶

الدولة الأموية من سنة ۱۸ إلی ۱۳۲ ۱۰۰- ۱۳۹

إمارة معاوية بن أبی سفيان ۱۰۰

مقتل عثمان بن عفان ۱۰۳

آمال علی بن أبی طالب فی الخلافة ۱۰۴

اتفاق معاوية و عمرو بن العاص علی المطالبة بدم عثمان ۱۰۵

حرب صفّين ۱۰۶

صلح الحسن مع معاوية ۱۰۸

خلافة يزيد و رأی ابن خلدون ۱۰۹

غزوات معاوية و أعماله و وصيته ۱۱۰

خلافة يزيد و مقتل الحسين و وقعة الحرّة ۱۱۲

عهد معاوية الصغير ۱۱۳

قيام ابن الزبير و خلافة مروان بن الحكم و وقعة مرج راهط ۱۱۴

خلافة عبد الملک بن مروان ۱۱۷

الجراجمة و المردة فی جبل لبنان ۱۱۸

عهد الولید ۱۲۱

سلیمان بن عبد الملک ۱۲۳

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۶

صفحة

عهد عمر بن عبد العزیز و سیرته ۱۲۳

یزید بن عبد الملک و هشام و الولید بن یزید ۱۲۵

یزید بن الولید ۱۲۷

مروان بن محمد ۱۲۸

إدبار الأمویین ۱۳۰

دولة بنی مروان و حسناتها ۱۳۱

قواد الأمویین و أسباب انقراضهم ۱۳۳

دور الدولة العباسیة إلی ظهور الدولة الطولونیة من سنة ۱۳۲ ۲۵۴ ه ۱۴۰- ۱۷۰

مبدأ الدعوة العباسیة ۱۴۰

فتح العباسیین عاصمة الأمویین ۱۴۳

فتح فلسطین و إهلاک رجال الأمویین ۱۴۶

انتقاض الجنوب و الشمال و الاعتقاد بالسفیانی ۱۴۷

انتقاض العباسیین علی أنفسهم ۱۴۹

نزع اللبنانیین و الفلسطینیین طاعة العباسیین ۱۵۱

قیس و یمن و الفتن الداخلیة و الخارجیة ۱۵۲

الحمصیون و فتنة السفیانی ۱۵۴

فتنة نصر بن شبث ۱۵۸

المأمون و حکمه علی قیس و یمن ۱۵۹

سبب تباغض النزاریة و الیمانیة و حکمة حکیم ۱۶۱

قیس و یمن و فتنة المبرقع ۱۶۳

فتن أهلیة و عضبیات حمصیة و لبنانیة و دمشقیة و فلسطینیة و معریة ۱۶۵

الحکم علی الدور الأول للعباسیین ۱۶۸

ظهور الدولة الطولونیة و انقراضها من سنة ۲۵۴- ۲۹۲ ۱۷۱- ۱۷۹

بدایة الطولونیین ۱۷۱

أحمد بن طولون و سیما الطویل و أحداث أخری ۱۷۲

عهد أبی الجیش خمارویه و جیشه ۱۷۶

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۷

صفحة

عهد جيش بن خمارويه و ظهور القرامطة و انقراض الطولونية ۱۷۸

دور الدولة العباسية الأوسط «الإخشيدية و الحمدانية و الفاطمية» من سنة ۲۹۲- ۳۶۴ ۱۸۰- ۱۹۹

القرامطة و البوادى و الخوارج ۱۸۰

الدولة الإخشيدية ۱۸۳

الدولة الحمدانية ۱۸۷

مغازى سيف الدولة ۱۹۰

محاسن سيف الدولة و مقابحه ۱۹۳

ابتداء الدولة الفاطمية ۱۹۵

دور الفاطميين من سنة ۳۶۴- ۳۹۴ ۲۰۰- ۲۱۷

الدول الثلاث و غزوات الروم ۲۰۰

تجاذب السلطة بين العباسيين و الفاطميين ۲۰۵

سوء حالة دمشق و اضطراب الأحكام المصرية ۲۰۶

خوارج على دولة الجنوب و دولة الشمال ۲۰۷

حملة الفاطميين على الحمدانيين و استنجاد هؤلاء بالروم ۲۱۰

الخوارج على الفاطميين و استنجاد أمراء المسلمين بالروم ۲۱۲

تتمة دور الفاطميين من سنة ۳۹۴- ۴۶۳ ۲۱۸- ۲۳۳

خوارج و مذاهب جديدة و فتن ۲۱۸

تقسيم الأقاليم بين القبائل و دولة بنى مرداس ۲۲۱

آخرة الفاطميين ۲۲۹

دور السلجوقيين من سنة ۴۶۳- ۴۹۰ ۲۳۴- ۲۴۶

أصل السلجوقيين و التركمان و الفتح السلجوقى ۲۳۴

فتح دمشق ۲۳۶

أول جمهورية عربية و مقتل آخر أمير عربى ۲۳۹

تنازع السلجوقيين و الفاطميين و انقسام السلجوقيين ۲۴۱

الدولة الأتابكية و طغتكين و بنو أرتق ۲۴۴

خطط الشام، ج۱، ص: ۲۸۸

صفحة

الحروب الصليبية من سنة ۴۹۰- ۵۰۰ ۲۴۷- ۲۶۱

الحملة الصليبية الأولى ۲۴۷

الصليبيون فى شمالى الشام ۲۵۱

فتح الصليبيين القدس و الساحل ۲۵۴

تخاذل أمراء المسلمين و بلاء طغتكين و ابن عمار ۲۵۸

حرب طغتكين للصليبيين ۲۶۰
حروب الصليبيين و دولة طغتكين و بقايا السلجوقيين من سنة ۵۰۰- ۵۲۲ ۲۶۲- ۲۸۱
هدنة طغتكين للصليبيين و شدته عليهم ۲۶۲
اجتماع كلمة أمراء المسلمين و إنجاد بغداد للشام ۲۶۵
غارات المسلمين و غارات الصليبيين ۲۶۸
بقية الغارات ۲۷۱
مزايا حكم طغتكين ۲۷۶
مؤاخذة الفاطميين و توقيف سير الفرنج ۲۷۹
فهرست الجزء الاول من خطط الشام ۲۸۲- ۲۸۸

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).
قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج ۱/ ص۳۰۷).
مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – "رَحِمَهُ اللهُ" – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.
مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...
الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...
– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَی.
– من الأنشطة الواسعة للمركز:
الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة
ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول
ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِع اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)

رقم التسجیل: ۲۳۷۳

الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسِعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجَّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمَّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفِّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹